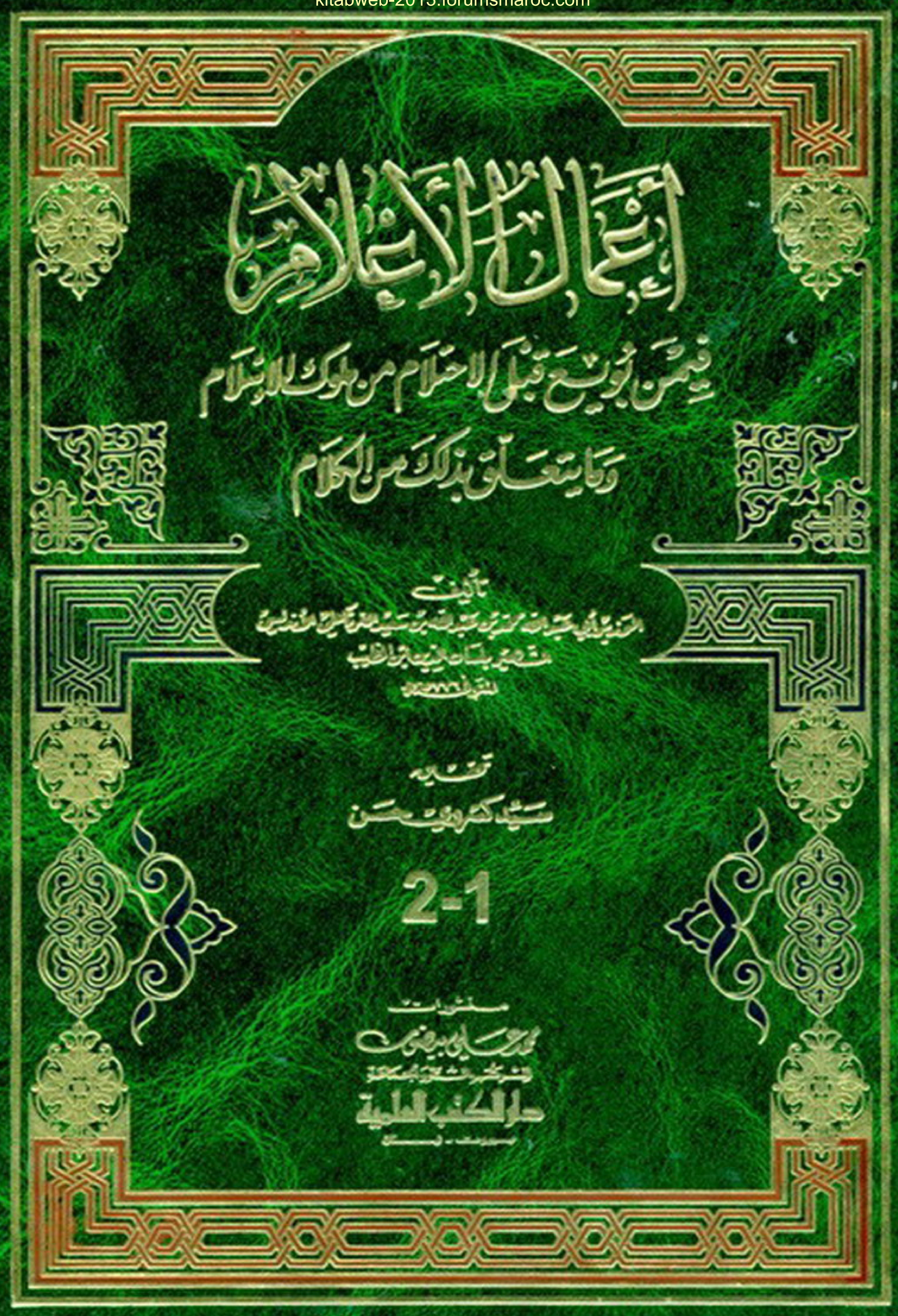
kitabweb-2013.forumsmaroc.com



أعمال الأعلام

فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام
وما يتعلق بذلك من الكلام

تأليف

الوزير أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد الغرناطي الأندلسي

الشهير بلسان الدين ابن الخطيب

المتوفى ٧٧٦هـ

تحقيق

سيد كسروي حسن

١ - ٢

منشورات

محمد علي بيضون

لنشر كتب السنة والجماعة

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

منشورات محمد علي بيضون



دار الكتب العلمية
جميع الحقوق محفوظة
Copyright
All rights reserved
Tous droits réservés ©

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة لدار الكتب العلمية بيروت - لبنان.
ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب كاملاً أو مجزأ أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر أو برمجته على اسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطياً

Exclusive rights by ©
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Beirut - Lebanon

No part of this publication may be translated, reproduced, distributed in any form or by any means, or stored in a data base or retrieval system, without the prior written permission of the publisher.

Tous droits exclusivement réservés à ©
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Beyrouth - Liban

Toute représentation, édition, traduction ou reproduction même partielle, par tous procédés, en tous pays, faite sans autorisation préalable signé par l'éditeur est illicite et exposerait le contrevenant à des poursuites judiciaires.

الطبعة الأولى
٢٠٠٣ م - ١٤٢٤ هـ

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت
الإدارة العامة: عرمون، القبة، مبنى دار الكتب العلمية
هاتف وفاكس: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢/١٣ (٥ ٩٦١+)
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت لبنان

Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah
Beirut - Lebanon
Raml Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg 1st Floor
Head office
Aramoun - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.O.Box: 11-9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Raml Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart 1er Étage
Administration général
Aramoun - Imm. Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
B.P. 11-9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-3500-7



http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى: الناظرين عبر نافذة التاريخ للاعتبار بالغابرين.

إلى: المتطلعين إلى المستقبل متسلحين بخبرة السابقين.

إلى: الحاكمين في الأمور بعد تحقق على بصيرة ويقين.

إلى: من يَزِنُونَ الناس بحقائقهم لا بأقوال القائلين.

إلى: من عَفَّت ألسنتهم عن أعراض الحاضرين والماضين.

أقدم هذا الكتاب

سيد كسروي



مقدمة

الحمد لله... ثم الحمد لله... ثم الحمد لله يكور الدهور على الدهور، ويدور العصور، ويجعل المقهور منصوراً، والمنصور مأسوراً، وينقل الملوك من حبور وسعة القصور إلى كدر وظلمة القبور، ويجعل المُذِلّ منهم هو المسؤول المذلول، ويحيق به الويل ويجعله يدعو على نفسه بالثبور ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: الآية ٥].

وأشهد أن لا إله إلا الله المبدىء المعيد ذو العرش المجيد مسلطن العبيد على العبيد، ومحذرهم من الشطط في القول أو العمل، وآمرهم بالأمر السديد، ومعلمهم بالقرآن أخبار الزمن البعيد، وما فعل بالملوك والعبيد للاتعاظ والحذر من يوم الوعيد.

وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أعدل من حكم، وأحكم من فصل بين من إليه احتكم ولأظْهُر أهل الكفر بالإنصاف قَصَم، وجعل راية الإسلام بالحق والعدل فوق هام الزمان أعلى علم، وما قال عنه أهل الكفر يوماً: ظَلَم، فصلى الله عليه وسلم من نبي أخرج البشرية من دياجير الظُّلَم إلى بحبوحة الإيمان والإسلام دينِ السَّلَم.

أما بعد:

فإن كتاب «**أعمال الأعلام**» لابن الخطيب لسان الدين الذي نحن بصدده اليوم ما هو إلا أحد كتب التاريخ، وتلك الكتب لها طبيعة خاصة والتي تعود على قارئها بفائدة عظيمة خصوصاً إذا كان من رجالات الحكم والسياسة أو من أهل الدعوة أو الصحافة أو ممن يدرسون الجغرافيا أو المهتمين بعلوم النسب والأجناس، وكذا المشتغلون بالثروات البشرية والمعدنية وتأثيرها في الأماكن وما يجاورها إلى آخره من اهتمامات العلماء المتنوعة.

غير أن هذا النوع من فنون العلم يختلف عن غيره منها إذ أنه أكثرها جدلاً وضداً وتضارباً وشكاً، ومع هذا فإني دائماً أقول عنه أنه شاق وشيق، فهو شيق جداً في قراءته، وشاق جداً في التأثر والتأثير، وذلك أن مدوني التاريخ لهم نزعات سلبية أو إيجابية، متحررة من اللهو أو الخوف أو العقيدة، أو مقيدة بها.

فعلى قارىء تلك الكتب أن يكون على دراية بذلك تماماً، فلا يتأثر بكل ما يقرأ ولا يصدق منها كل ما يكتب، غير أن عليه أن يأخذ منها خطوطها العامة، فمثلاً كون أن هناك خلاف وحرب كانت بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما وانتهت بتولي معاوية رضي الله عنه الإمارة، فالأمر على الإجمال كان إما على التفصيل المحكي في تلك الكتب بقولهم قال فلان كذا، فقال فلان كذا، فأجابه بقوله كذا، فقام له فلان، ففعل كذا؛ فأما بهذا التفصيل فلا. وأن حرباً كانت بين المسلمين وأهل الأندلس فتح على أثرها طارق بلادهم فنعم أما على التفصيل المروي بدقته فلا.

وأن حرباً كانت بين صلاح الدين الأيوبي والصليبيين أخرجهم على أثرها من بيت المقدس فنعم، أما على التفصيل المروي فلا.

وأن حرباً كانت في أيامنا نحن بين مصر وإسرائيل استعادت مصر على أثرها قناة السويس وكل أرضها فنعم، وعلى التفصيل فلا، فبالرغم من قرب هذه الحرب وعلى الرغم من أن أهلها ما زالوا على قيد الحياة من الطرفين إلا أن هناك من يعكس تلك الحقيقة ويقول إن قائد الحرب المصري كان متواطئاً مع الإسرائيليين وأنها كانت تمثيلية، فكيف إذا مضى التاريخ وذهب رجالات تلك الحرب من الطرفين كيف يكون قول المؤرخين عنها؟! هذا جانب.

وجانب آخر: هو أن أشخاص وأبطال ورجال وملوك تلك المعارك قد ذهب، وسلطانهم قد وَلّى فلا يهابون ولا يخاف لهم بطش ولا سطوة، فصار يتناولهم من يتناولهم وكأنهم من رعاع الناس ومن لا وزن لهم غير مراعين لهم حرمة من دين، وحق في صون عرض، وحفظ لغيبة، ناسين أنهم وإن كانوا ملوكاً إلا أنهم بشر مثلنا، لهم ما لنا وعليهم ما علينا، وأنَّا نُسأل عنهم ولا يُسألون عنا لأنهم قد مضوا وقد يكون قولنا فيهم غيبة لهم هم أو باطل هم منه براء، أما هم فلا يُسألون عنا لأنهم لم يعرفونا ولم يعاصرونا ولم يظلمونا في الغالب، فإن غيبتهم يجب أن تراعى غير أن أحد منا لا يكاد يفكر في ذلك.

وهذه الكتب على الرغم من ذلك مفيدة جداً في الاعتبار والاتعاظ بمن مضى، ومفيدة أيضاً في معرفة الخطط والتدابير العسكرية، والمكر، والحيل، والخداع، والإمداد، والتمويل، والتمويه، وما إلى ذلك على الرغم من التقدم والتطور

العسكري الذي وصلت إليه الجيوش اليوم، إلا أن الخطوط الرئيسية ما زالت هي هي ميمنة، وميسرة، وقلب، ومقدمة، ومؤخرة، واستطلاع، وتخابر، وخداع، وإشاعات، إلى آخره.

وعلى الرغم من ذلك الجو الذي تدور فيه تلك الكتب من صلصلة السيوف وقعقعة السلاح وصهيل الخيل وحمرة الدماء ورعدة الخوف وإذلال الأسْرِ، وحسرة الهزيمة، فإنها أيضاً لا تخلوا أبداً من دعابة بعض الجنود والقادة، ومن فكاهة بعض الملوك، وأخبار العشاق والمحبين، وخشوع العباد والزاهدين، ونوادر الحمقى والمغفلين.

فمن تناول تلك الكتب للوعظ اتعظ، ومن تناولها من باب التسلية وجد فيها السلوى، ومن تناولها من باب العلم تعلم فنون الحرب وخططها وكيفية تفكير الخصم للخصم، وما يترتب على الأحداث من الأحداث، وأضاف معارف إلى معارفه، ولله در من قال:

من وعى التاريخ في صدره أضاف أعماراً إلى عمره

وكثير منها يصلح أن يبسط ويكون قصصاً للأطفال يسلون به، ويتعلمون أخبار الماضين ليتسلحوا لسلوك طريقهم الصحيح في المستقبل بوعي.

فكل ما أرجوه من قارىء التاريخ هو شيء واحد، وهو أن يعلم أن هؤلاء الذين يقرأ عنهم هم أناس لهم حرمة، فلا يصدق كل ما يقال عنهم أو فيهم من طعن، ولا يظن بهم العصمة والنزاهة الكاملة وأنهم صُنّاع التاريخ، وأنهم عظماء الناس وساداتهم، ولكن ليتعظ ويتعلم، واضعاً نصب عينيه قول الله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ١٣٤].

وتحضرني حكمة طيبة تصلح أن تكون قاعدة ينطلق منها أو يقف عليها من يهتم بتلك الكتب، وهي قول أحد العلماء:

«تلك دماء طهر الله منها سيوفنا فلما نَدُسّ فيها ألستنا؟!».

والله لي ولكم أسأل العصمة وحسن الختام بالموت على دين الإسلام، اللهم آمين.

أبو إسلام سيد كسروي

القاهرة في ٢٨ من شوال ١٤٢٣هـ ١/١/٢٠٠٣م

بين يدي كتاب

أعمال الأعلام

أول ما أود أن أنوه إليه في هذا الكتاب هو عنوانه حيث إنه بهذا الاسم لا ينطبق وموضوع الكتاب، إذ يظن الناظر إلى العنوان «أعمال الأعلام» أنه يتناول ما قام به هؤلاء الأعلام أو الملوك من أعمال كإنشاء القناطر، والقلاع، والقصور، والمدارس، والبيمارستانات، والخانقاهات، وشق الترع، وحفر الآبار، وتخطيط المدن، وتشييد المساجد. . . الخ، وفي الحقيقة أن الكتاب خلو من هذا تماماً، وأن موضوعه غير ذلك تماماً حيث يتناول أهم الأعلام في المشرق والأندلس والمغرب، وهو الوحيد الذي تناول بعض ملوك النصارى المجاورين لحكام المسلمين في الأندلس.

فإني أرى أن الأصوب له هو: «أعلام الأعلام» وقد وقفت في بعض المراجع على تلك التسمية، ووقفت له أيضاً على اسم «إعلام الأعلام» بكسر الهمزة، وهو أقرب إلى الصواب، كذلك من الاسم المدون به الكتاب وإن كنت آثرت أن أكتب ما دون المؤلف لاشتهاره بين السابقين بهذا الاسم، فهم يقولون: قال لسان الدين في «أعمال الأعلام» كذا.

ثم في قوله: «**فيمن بويع قبل الاحتلام**» فهذه العبارة أيضاً من العنوان لم يقف أو لم يقتصر عندها أو عليها المؤلف حيث ذكر من بويع قبل وبعد الاحتلام.

وقوله ضمن العنوان كذلك: «**من ملوك الإسلام**» فإن لي فيها قول يأتي بعد قليل.

ثم إن المؤلف لما وجد نفسه قد أخل بما وضع من عنوان أراد أن يستدرك ذلك على نفسه فقال ضمن العنوان: «**وما يتعلق بذلك من الكلام**» وفي القسم الثالث قال «وما يجر إلى ذلك من شجون الكلام»، وذلك جبراً لما وقع فيه من ذكره لغيرهم.

فالكتاب كان من الممكن أن يكون أصغر من ذلك بكثير لو اقتصر مؤلفه على ما عنون به كتابه فذكر من بويع قبل الاحتلام فقط.

وكان من الممكن أيضاً أن يأخذ اتجاهاً آخر لو سار على العنوان المدون

والمشهور به الكتاب وهو «**أعمال الأعلام**» حيث كان تناول العمران الذي أحدثوه في فترات توليهم لمن تم له الوصول إلى حد الاحتلام وسدة الحكم وامتلاك زمام الأمور في يده.

وأظن أن الكاتب ألف الكتاب مجاملة للسلطان أبي زيان محمد بن عبد العزيز حيث تولى طفلاً، وتقرباً للقائم بأمره العزيز أبا يحيى بن أبي مجاهد الذي كان يحميه بالمغرب من ملك غرناطة حيث كان يطلب رأسه، ثم نالها على الرغم من هذا الحذر الشديد.

وعلى العموم، فالكتاب أسهب في مناطق أو عند بعض الملوك واختصر عند بعضهم خصوصاً في القسم الثالث المخصص للمغرب الإسلامي، فلم يسير المؤلف على وتيرة أو منهج واحد.

أسهب المؤلف، إن لم يكن أسرف، في سرد الأشعار والمقطوعات الأدبية الوعظية على الرغم من أن المقام ليس مناسباً لذلك، والسبب هو أن المؤلف مطبوع على الأدب وله فيه باع كبير وله في ذلك عدة مؤلفات، كما أن له ديوان شعر جيد، والوعظ الذي سرده كثيراً في الكتاب والذي دائماً ما يعقب به على نهايات الملوك يفيد أنه كان على قدر كبير من الورع والتخشع والتبتل على الرغم من سعة ماله وما كان تحت يديه من الضياع والعقارات.

وقد سبب لي إسرافه في الأدب والشعر متاعب كثيرة أثناء نسخ المخطوط يأتي الكلام عنها في وصف المخطوط إن شاء الله تعالى.

قسم المؤلف المخطوط، أو الكتاب، إلى ثلاثة أقسام، هي:

القسم الأول: جعله خاص بتاريخ المشرق من أول عصر النبوة إلى عصر الأمراء العلويين بالحرمين.

القسم الثاني: خصصه لتاريخ الأندلس منذ الفتح الإسلامي حتى عصر المؤلف، وقد ذكر في هذا القسم من جاورهم من ملوك النصارى، وكان بينهم من علاقات مع ملوك الإسلام في كل عصر ويعتبر هذا الكتاب هو أول كتاب إسلامي تناول ملوكهم بالتاريخ المسلسل في جوار الأندلس.

القسم الثالث: وضعه لملوك المغرب من مدينة برقة شرقاً إلى حدود المحيط الأطلسي غرباً، وانتهى هذا القسم عند دولة الموحدين، وكان قد عزم على إتمامه إلى عصره حسب ما ذكر في المقدمة، فربما يكون قد قتل قبل إتمام هذا القسم، فالله تعالى أعلم، ولنا وله نسأل حسن الختام والمغفرة ودخول الجنة بسلام آمين.

والتعليق الذي كنت قد أجلته في التعليق على فقرة: «ملوك الإسلام» من

العنوان، هو أنني أردت أن أقول:

إن الإسلام ابتلى على مر العصور بكثير ممن استغله لغرضه الشخصي سواء كان حاكماً أو محكوماً، عالماً أو جاهلاً، إلا أن هناك بعض الأمور التي لا تنطلي على الناس ومن هذه الأمور أن الإسلام لا يعرف في نظامه الملك، ولا يقر بالملوك إلا أن يكونوا حكاماً عادلين. ومن أهم أسس العدل أن لا يولوا على الناس من لا يرغبون ولا يحبون ولا يشاوروهم في شأنهم ويجبروهم على بيعتهم، فهذا النوع من الحكام لا يعرفهم الإسلام ولا يعترف بهم، بل ويقاومهم مقاومة شديدة حتى ينزعهم ويولي على الناس من يقيم بينهم العدل ويحكم بينهم بالسوية.

من أهم ما يعرفه الناس أيضاً ولا يجهله جاهل هو أن يكون الحاكم: مسلم، بالغ، عاقل، إلى غير ذلك من الصفات التي تمكن الحاكم من ممارسة عمله على وجهه الأكمل الذي يقيم حياة الناس ويحفظ عليهم دينهم وعرضهم ويصون أرضهم ويجعله في عيون من جاوره من الحكام مهاباً كبيراً جليلاً.

إلا أن الكتاب هنا يقرر حقيقة واقعة لا يفتي صاحبه بذلك ولا بنفيه.

فلينتبه القارىء إلى ذلك، والله سبحانه وتعالى يهدينا سواء السبيل والعمل بالتنزيل وأن يحسن ختامنا يوم الرحيل اللهم آمين.

ترجمة المؤلف[1]

هو: محمد بن عبد الله بن سعيد بن عبد الله بن أحمد بن علي.

كنيته: أبو عبد الله.

نسبه: السلماني، اللوشي، الغرناطي، الأندلسي.

شهرته: لسان الدين، وابن الخطيب، ذو الوزارتين، ذو العمرين، ذو الميتتين، ذو القبرين.

ميلاده: ولد في الخامس والعشرين من رجب سنة ثلاث عشرة وسبعمائة.

وهو من العلماء الوزراء، وقد ولد بلوشة وتلقى بها علومه، وتتلمذ عليه عدة من العلماء، وكان أديباً، شاعراً، مؤرخاً، مشاركاً في فنون عدة منها علم الطب. ونشأ بغرناطة واستوزره بها السلطان أبو الحجاج يوسف بن إسماعيل، ثم ابنه الغني بالله محمد من بعده.

وكان فقيهاً واعظاً، وعظمت مكانته، وكما هي الحال كان له حساد يوشون به فكاتب السلطان عبد العزيز بن علي المريني برغبته في الرحلة إليه وترك الأندلس خلسة إلى جبل طارق، ومنه إلى سبتة فتلمسان، وكان السلطان عبد العزيز بها فبالغ في إكرامه واستقر بفاس القديمة.

ثم تولى المغرب السلطان المستنصر أحمد بن إبراهيم، وقد ساعده الغني بالله صاحب غرناطة مشترطاً عليه شروطاً منها تسليمه ابن الخطيب، فقبض عليه المستنصر، ووجهت إليه تهمة الزندقة من قِبل حساده للخلاص منه، واتهموه أيضاً بسلوك مذهب الفلاسفة، وسجن وقتل في سجنه خنقاً أوائل عام (٧٧٦هـ). هذا ملخص سيرته.

أما ابن العماد فيقول في ترجمته في شذرات الذهب في أحداث سنة ست

---

(١) مصادر الترجمة: ديوان الإسلام (١٧٨٠)، هدية العارفين (٢/ ١٦٧)، الأعلام (٦/ ٢٣٥)، معجم المؤلفين (١٠/ ٢١٦)، كشف الظنون (١٥/ ١ وغير ذلك كثير)، إيضاح المكنون (١/ ٧٣ وغير ذلك كثير)، شذرات الذهب (٦/ ٢٤٤)، الدرر الكامنة (٣/ ٤٦٩)، نفح الطيب (٤/ ٢٤٠)، نيل الابتهاج (٢٦٤)، البدر الطالع (٢/ ١٩١).

وسبعين وسبعمائة ما نصه:

كان والده بارعاً فاضلاً، قال العلامة المقرىء في كتابه تعريف ابن الخطيب:

هو الوزير الشهير الكبير الطائر الصيت في المشرق والمغرب، عرف الثناء عليه بالعنبر والعبير المثالي الطروب في الكتابة والشعر، والطب، ومعرفة العلوم على اختلاف أنواعها، ومصنفاته تخبر عن ذلك ولا ينبئك مثل خبير.

علم الرؤساء الأعلام الذي خدمته السيوف والأقلام، وغني بمشهور ذكره عن مستور التعريف والإعلام، واعترف له بالفضل أصحاب العقول الراجحة والأحلام، عرّف هو بنفسه آخر كتابه «الإحاطة» فقال: يقول مؤلف هذا الديوان تعمد الله خطله في ساعات أضاعها، وشهوة من شهوات اللسان أطاعها، وأوقات للاشتغال بما لا يعنيه استبدل بها اللهو لما باعها، أما بعد حمد الله الذي يغفر الخطية، ويحث من النفس اللجوج المطية، فتحرك ركابها البطية، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد ميسر سبل الخير الوطية، والرضى عن آله وصحبه منتهى الفضل ومناخ الطية.

فإنني لما فرغت من تأليف هذا الكتاب الذي حمل فضل النشاط مع الالتزام بمراعاة السياسة السلطانية والارتباط، والتفت إليه، فراقني منه صوان درر، ومطلع غرر، قد تخلدت مآثرهم بعد ذهاب أعيانهم، وانتشرت مفاخرهم بعد انطواء زمانهم، نافستهم في اقتحام تلك الأبواب، ولباس تلك الأثواب، وقنعت باجتماع الشمل بهم ولو في الكتاب، وحرصت على أن أنال منهم قرباً، وأخذت أعقابهم أدباً وحباً، وكما قيل: «ساقي القوم آخرهم شرباً»، فأجريت نفسي مجراهم في التعريف، وحذوت بها حذوهم في بابَيّ: النسب والتصريف، بقصد التشريف، والله لا يعدمني وإياهم، واقفاً يترحم وركاب الاستغفار بمنكبه يترحم عندما ارتفعت وظائف الأعمال، وانقطعت من التكسبات حبال الآمال، ولم يبق إلا رحمة الله التي تنتاش النفوس، وتخلصها وتعينها بميسم السعادة، وتخصصها، جعلنا الله ممن حَسُنَ ذكره، ووقف على التماس ما لديه ذكره بمنه.

ثم ساق نسبه، وأوليته بما يطول ذكره إلى أن قال:

ومع ذلك فلم أعدم الاستهداف للشرور والاستعراض للمحذور، والنظر الشزر، المنبعث من خزر العيون، شيمة من ابتلاه الله بسياسة الدهماء، ودعاية سخطه أرزاق السماء، وقتلة الأنبياء، وعبدة الأهواء، ممن لا يجعل الله إرادة نافذة، ولا مشيئة سابقة، ولا يقبل معذرة، ولا يجمل في الطلب، ولا يتجمل مع الله بأدب، ربنا لا تسلط علينا بذنوبنا من لا يرحمنا.

والحال إلى هذا العهد وهو منتصف عام خمسة وستين وسبعمائة.

ثم قال المقرىء:

وكان رحمه الله مبتلى بداء الأرق لا ينام من الليل إلا اليسير جداً، وقد قال في كتابه «الوصول لحفظ الصحة في الفصول»:

العجب مني مع تأليفي لهذا الكتاب الذي لم يؤلف مثله في الطب، ومع ذلك لا أقدر على داء الأرق الذي بي.

ولذا يقال له: ذو العمرين، لأن الناس ينامون وهو ساهر.

ومؤلفاته ما كان يصنف غالبها إلا بالليل، وقد سمعت بعض الرؤساء بالمغرب يقول: لسان الدين ذو الوزارتين، وذو العمرين، وذو الميتتين، وذو القبرين.

ثم قال المقرىء:

واعلم أن لسان الدين لما كانت الأيام له مسالمة لم يقدر أحد أن يواجهه بما يدنس معاليه أو يطمس معالمه، فلما قلبت الأيام له ظهر مجنها، وعاملته بمنعها بعد منحها، ومنها أكثر أعداؤه في شأنه الكلام، ونسبوه إلى الزندقة والانحلال من ربقة الإسلام بتنقص النبي عليه أفضل الصلاة والسلام، والقول بالحلول والاتحاد، والانفراط في سلك أهل الإلحاد، وسلوك مذاهب الفلاسفة في الاعتقاد، وغير ذلك مما أثاره الحقد والعداوة والانتقاد من مقالات نسبوها إليه خارجة عن السنن السوي، وكلمات كدروا بها منهل علمه الروي لا يدين بها ويفوه إلا الضال والغوي.

والظن أن مقامه، رحمه الله، من لبسها بري، وجنابه، سامحه الله، عن لبسها عري.

وكان الذي تولى كبر محنته وقتله تلميذه أبو عبد الله بن زمرك الذي لم يزل مغمر الختلة مع أنه حلاه في الإحاطة أحسن الحلى وصدقه فيما انتحله من أوصاف العلى، ومن أعدائه الذين باينوه بعد أن كانوا يسعون في مرضاته سعي العبيد: القاضي أبو الحسن بن الحسن النباهي، فكم قبّل يده ثم جاهره عند انتقال الحال، وجد في أمره مع ابن زمرك، حتى قتل وانقضت دولته.

فسبحان من لا يتحول ملكه ولا يبيد، وذلك أن ابن زمرك قدم على السلطان أبي العباس، وأحضر ابن الخطيب من السجن، وعرض عليه بعض مقالات وكلمات وقعت له في كتاب المحبة، فعظم النكير فيها، فوبخ، وامتحن بالعذاب بمشهد من ذلك الملأ، ثم تلا إلى مجلسه واشتوروا في قتله بمقتضى تلك المقالات المسجلة عليه، وإفتاء بعض الفقهاء فيه، فطوقوا عليه السجن ليلاً، وقتلوه خنقاً، وأخرجوا شلوه من الغد فدفن بمقبرة باب المحروق، ثم أصبح من الغد على شفير قبره طريحاً وقد جمعت له أعواد، وأضرمت عليه نار، فاحترق شعره، واسود بشره، فأعيد إلى حفرته.

وكان في ذلك انتهاء محنته، أي ولذلك سمي: ذا القبرين، وذو الميتتين.

وكان رحمه الله تعالى أيام امتحانه بالسجن يتوقع مصيبة الموت فتهجس هواتفه بالشعر يبكي نفسه، ومما قال في ذلك:

بعدنا وإن جاورتنا البيوت ... وجئنا بوعظ ونحن صموت
وأنفسنا سكتت دفعة ... كجهر الصلاة تلاها القنوت
وكنا عظاماً فصرنا عظاماً ... وكنا نقوت فها نحن قوت
وكنا شموس سماء العلى ... غربن فناحت علينا السموت
فكم جدلت ذا الحسام الظبا ... وذو البخت كم جدلته البخوت
وكم سيق للقبر في خرقة ... فتى ملئت من كساه التخوت
فقل للعدا ذهب ابن الخطيب ... وفات ومن ذا الذي لا يفوت
ومن كان يفرح منهم به ... فقل يفرح اليوم من لا يموت

هذا الصحيح كما ذكره ابن خلدون، فلا يلتفت إلى غيره، وقد رؤي بعد الموت فقيل له: ما فعل الله بك؟

فقال: غفر لي ببيتين قلتهما وهما:

يا مصطفى من قبل نشأة آدم ... والكون لم تفتح له أغلاق
أيروم مخلوق ثناءك بعدما ... أثنى على أخلاقك الخلاق

وقال ابن حجر: ومن مصنفاته: الإحاطة بتاريخ غرناطة، وروطة التعريف بالحب الشريف، والغيرة على أهل الحيرة، وحمل الجمهور على السنن المشهور، والتاج على طريقة يتيمة الدهر، والإكليل الزاهر فيما ندر عن التاج من الجواهر كالذيل عليه، وغائلة النضلة في التاريخ، وغير ذلك. انتهى.

قلت: وأنا أذكر أسماء مصنفاته على الإجمال قدر ما وقع لي في جمعي لها في كتاب ديوان الإسلام، فهي:

١ ـ أبيات الأبيات فيما اختار من مطالع ما له من الشعر.

٢ ـ الإحاطة في ما تيسر من تاريخ غرناطة.

٣ ـ استنزال اللطف الموجود في سر الوجود.

٤ ـ الإشارة إلى آداب الوزارة.

٥ ـ إعلام الأعلام فيمن بويع من ملوك الإسلام قبل الاحتلام (وهو كتابنا هذا على قول بعض من سماه بهذا الاسم).

٦ ـ الإكليل الزاهر فيما فضل عند نظم التاج من الجواهر.

٧ ـ ألفية من ألف بيت في أصول الفقه.

٨ ـ بستان الدول (موضوع غريب لم يؤلف مثله).

٩ ـ البيزرة.

١٠ ـ البيطرة.

١١ ـ تاج المحلى في مساجلة قدح المعلى.

١٢ ـ تافه من جم ونقطة من يم.

١٣ ـ تحلية الأعلام من حملة السيوف والأقلام.

١٤ ـ تخليص الذهب في اختيار عيون الكتب.

١٥ ـ تقرير الشبه وتحرير المشتبه.

١٦ ـ جيش التواشيح.

١٧ ـ الحلل المرقومة في اللمع المنظومة.

١٨ ـ حمل الجمهور على السنن المشهور.

١٩ ـ خطر الطيف ورحلة الشتاء والصيف.

٢٠ ـ خلع الرسن للتعريف بأحوال القاضي ابن الحسن.

٢١ ـ الدرة الفاخرة واللجج الزاخرة.

٢٢ ـ الرد على أهل الإباحة.

٢٣ ـ رقم الحلل في نظم الدول.

٢٤ ـ روضة التعريف بالحب الشريف.

٢٥ ـ ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب.

٢٦ ـ الزبدة الممخوضة في الأدب.

٢٧ ـ سد الذريعة في تفضيل الشريعة.

٢٨ ـ سياسة المدينة.

٢٩ ـ الصبيب والجهام والماضي والكهام (ديوان شعره).

٣٠ ـ طرفة العصر في دولة بني نصر.

٣١ ـ عائد الصلة.

٣٢ ـ عمل من طب لمن حب (في الصناعة الطبية).

٣٣ ـ الغيرة على أهل الحيرة.

٣٤ ـ فتات الخوان ولقطة الصوان.

٣٥ ـ قطع السلوك.

٣٦ ـ كتاب السحر والشعر.

٣٧ ـ كتاب الوزارة ومقاصد السياسة.

٣٨ ـ الكتيبة الكامنة في شعراء المائة الثامنة.

٣٩ ـ كناسة الدكان بعد انتقال السكان.

٤٠ ـ اللمحة البدرية في الدولة النصرية.

٤١ ـ المباخرة الطيبية في المفاخر الخطيبية.

٤٢ ـ مثلى الطريقة في ذم الوثيقة.

٤٣ ـ المسائل الطبية.

٤٤ ـ المعتمد في الأغذية المفردة.

٤٥ ـ المعلومة (رجز في العلاج من الرأس إلى القدم).

٤٦ ـ معيار الأخبار ومفاضلة مالقة وسلار.

٤٧ ـ مقامات العشاق.

٤٨ ـ المنح الغريب في الفتح القريب (قصيدة).

٤٩ ـ نفاضة الجراب في علامة الإعراب.

٥٠ ـ النقاية بعد الكفاية.

٥١ ـ الوصول لحفظ الصحة في الفصول.

٥٢ ـ اليوسفي في صناعة الطب.

ومن هذه الكتب ما هو مطبوع ومنها ما هو مخطوط لم ير النور بعد.

وقد تقلب ابن الخطيب بين النعيم والهم كما هي حال من خلط العلم بالسياسة أو الدين بالوزارة أو السلطان، فهما في غالب الأحيان ضدان أو ضرتان لا يهدأ لهما حال ولا يستقر لهما قرار إلا أن يكون كل واحد منهما في جانب، ما لم يكن السلطان قائم على العدل والقسط فلا يصلح ساعتها إلا بالاصطلاح مع العلم والدين.

ومما هز ابن الخطيب أيضاً في حياته هو موت زوجته والتي كان من الواضح من المراجع أنها كانت على قدر كبير من التآلف معه، وكانت تربطهما مع الزواج

آصرة الحب الشديد والمودة حتى أنه آثر أن يدفنها في محل إقامته، ورثاها بشعر حزين ينضح بمدى إجلاله لها، إذ يقول فيه:

روع بالي وهاج بلبالي ... وسامني الثكل بعد إقبال
ذخيرتي حين خانني زمني ... وعدتي في اشتداد أهوالي
حفرت في داري الضريح لها ... تعللاً بالمحال في الحال
وغبطة توهم المقام معي ... وكيف لي بعدها بإمهال
سقى الحيا قبرك الغريب ولا ... زال مناخاً لكل هطال
قد كنت مالي لما اقتضى زمني ... ذهاب مالي وكنت آمالي
أما وقد غاب في تراب سلا ... وجهك عني فلست بالسالي
واللّه حزني لا كان بعد على ... ذاك الشباب الجديد البالي
فانتظريني فالشوق يقلقني ... ويقتضي سرعتي وإعجالي
ومهدي لي لديك مضطجعاً ... فعن قريب يكون ترحالي
واسمك مقلوبة يبين لي ... مآل أمري في معرض الفال

كذا رثى ابن الخطيب زوجته ومحبوبته كما سبق أن ذكرنا، رثاءه لنفسه عند توقعه للقتل، غير أن هذا الحزن الذي انتابه لفراقه ما أوقفه عن التدفق والعطاء العلمي في مجالاته الرحيبة، فألف وصنف حتى أتاه اليقين ولقي ربه مظلوماً، فرحم الله ابن الخطيب ورحمنا آمين، في سنة ست وسبعين وسبعمائة، فرحم الله ابن الخطيب ورحمنا آمين.

فهي الدنيا صديقي لا تصفوا لك يوماً حتى تعطيك من غدٍ كدرها، ولا نعيم فيها يدوم حتى تتفرد الجنة بالنعيم الذي لا يفنى والنار بالعذاب الذي لا يبلى، فالعاقل من أخذ من دنياه الراحل عنها إلى أخراه المقيم فيها قبل أن يأتيه اليقين، ولله در من قال:

زمان وفِيٌّ بميعاده ... فظلماً يقال ليالٍ غُدُر
كما يُقْرَعُ الجَرْسُ للناشئين ... تأتي إلى الناس منه النُّذُر
ولكن يريد الفتى أن يدوم ... ولو دام ساد عليه الضجر
ويأبى التنازع طول البقاء ... وتأباه بُقْيا نفوس أُخَر
وقد يهلك الناس فردٌ يعيش حيناً ... فكيف إذا ما استمر
فللّه من شارع لم يعقْهُ ... حُكم الضرورة أو ما نَدَر

سواءٌ صليبُ الصفا والزجاج   كسراً بكف القضا والقدَر[١]
وبالدهر في الناس مثل الجنون   فليس يبالي بمن ذا عثر
وحتم على الخَفَرِ الآنسات والـ   ـوحش حشرجة المحتضر[٢]
تجيء إلى الصدر تحت الحرير   كجيئتها الصدر تحت الوبر[٣]
وكل الفوارق بين اللغات   وبين الطباع وبين الأُسر
سيُوقفها للردى زائرٌ   ثقيل الورود بغيض الصَّدَر
فيا صفرة الموت إن الوجوه   تساوى بها صَفَقٌ أو خَفَر

فاللّه أسأل أن يرزقني حسن الختام بالموت على دين الإسلام، وأن يرحم أمي، ويهدي أبي، ويصلح زوجي، ويبصر أولادي بالهدى، ويفك أسر إخواني، وأصلي وأسلم على سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وصحبه أجمعين، آمين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

أبو إسلام، سيد كسروي

القاهرة في يوم الجمعة

الموافق ٧ ذي القعدة ١٤٢٤هـ/ ١٠/١/٢٠٠٣م

---

(١) صليب الصفا: أي الصخر الشديد الصلابة والمتانة الصعب، والزجاج الهش السهل الكسر.

(٢) الخفر الآنسات: البنات الرقيقات الكثيرات الخجل والحياء.

(٣) أي تأتي المنية ولا تبالي ما يلبس صاحبها حريراً كان أو صوف أو حديد فهي لا تفرق بين غني وفقير ولا ضعيف وقوي.

وصف المخطوط وبياناته

اسم المخطوط: أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يتعلق بذلك من الكلام.

اسم المؤلف: لسان الدين محمد بن عبد الله بن الخطيب (ت٧٧٦هـ).

مكان المخطوط الأصلي: الخزانة العامة بالرباط في المغرب.

مكان مصورة المخطوط: معهد المخطوطات العربية بالقاهرة.

رقم المخطوط الأصلي بالرباط: D١٥٥٢.

نوع الفن: تاريخ.

رقم المخطوط المصور: ١٣٨١.

عدد الأوراق: ٢٨٠ ورقة.

مقاس الصفحة: ٩× ١٧،٥ سم.

عدد الأسطر: ٢٣ سطراً.

عدد الكلمات في السطر: ١٠=١٢ كلمة.

نوع الخط: مغربي مشكول.

سنة النسخ: ٢٧ ربيع الأول الأبرك ١٢٥٨هـ.

اسم الناسخ: لم يذكر الناسخ اسمه.

ملاحظات أخرى

المخطوط مقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: يخص المشرق الإسلامي.

القسم الثاني: يخص بلاد الأندلس.

القسم الثالث: يخص بلاد المغرب العربي.

والمخطوط لاقيت فيه من التعب ما لا يعلمه إلا الله تعالى لأسباب، منها:

أنه لا يوجد تحت يدي من المخطوط إلا صورة واحدة، وكأنها مصغرة عن

الصورة الأصلية، مما جعل قراءتها تكاد تكون مستحيلة.

إسهاب المؤلف في الأدب والشعر أثناء سرد الأحداث زاد من غموض القراءة إذ الذهن منصرف إلى التاريخ وحوادثه والمؤلف يتكلم بكلام أدبي بعيد تماماً عن ما المحقق يتأمله من الناحية التاريخية فلا يدرك ذلك إلا بعد أن يكون قد بذل جهداً في استنطاق الكلمة، ثم استعمال المؤلف لبعض الألفاظ العربية المتقعرة والقليلة الاستخدام زاد أيضاً من غموض الكلام والحروف.

المخطوط أصاب حوالي ثلثه الرطوبة خصوصاً في الصفحات الأولى منه مما جعل صورته جاءت شبه مطموسة مما صعب أيضاً مسألة استنطاقه.

نوع الخط الذي كتب به المخطوط كان أيضاً سبباً آخر من أسباب صعوبة القراءة حيث أخذت الحروف أشكالاً غير مألوفة، ثم أن الناسخ له بصمة خاصة في بعض الحروف غير مألوفة أيضاً في الخط المغربي، فكان ذلك عاملاً آخر في تصعيب القراءة.

المهم أن الله تعالى أعان ووفق في إخراجه، فمن وقف على موطن خلل فيه فليلتمس العذر لي ويدعو الله أن يتغمدني برحمته، فقد أكون ساعتها تحت طبقات الثرى فلا تحرمني منك هذه الدعوة عساها تجد من ربها ساعة رضا، فتكون سبباً في رحمتي وسعادتي.

منهج التحقيق

أعانني الله تعالى على نسخ المخطوط والذي يعتبر من أصعب المخطوطات التي وقفت عليها وأنا أعمل في هذا المجال من حوالي عشرين عاماً، فما قابلني مخطوط في صعوبته إلا مخطوط «تهذيب مستمر الأوهام لابن ماكولا».

اكتفيت في بعض الأحيان بذكر مصادر العلم الذي يذكره المؤلف في صدر الدولة المراد الكلام عنها، وأحياناً أعقبه بترجمة موجزة، وربما ذكرت بعض الأحداث التاريخية التي لم يذكرها المؤلف، غير أني في القسم الثالث لم أسر على هذا المنهج، فقد اكتفيت بالنسخ في معظم الأحيان.

عرفت ببعض البلدان الواردة بالكتاب وبعض الحصون وبعض المواضع ولم أتقصى ذلك.

قدمت له بمقدمة ذكرت فيها مضمون الكتاب ورأيي فيه.

ترجمت للمؤلف ترجمة موجزة عرفت فيها بتاريخ ميلاده ووفاته وأهم مصنفاته وبعضاً مما أصابه في حياته العامة.

وصفت المخطوط وصفاً تفصيلياً بحيث يسهل على طالبه الوقوف عليه بسرعة أو بسهولة والتأكد من أنه هو المراد أو المقصود الذي عنه نسخت الكتاب.

أرفقت بالمقدمة صور لأقسام المخطوط الثلاثة.

والله من وراء القصد وهو حسبي ونعم الوكيل.

صور المخطوط

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

(صورة الصفحة الأولى من القسم الأول)

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما

(صورة الصفحة الأولى من القسم الثاني)

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه

القسم الثالث من الكتاب المسمى بأعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يجر ذلك من شجون الكلام

فيما يختص بالمغرب من دول أمراء إفريقية إلى الشيعة الأدارسة وسائر الملوك الحاكمة العبيدية
وبالله الاستعانة نقول وأول ما يلقى خبره المرابطين لتمالك القبيلة التي اجتمعوا
الملثمة فإنا استكنا بها وأسسنا لسلطانها البلاد الإفريقية وأول ملوكها الأغالبة
فإنهم أقاموا بها ملكا كبيرا [illegible] من الاستبداد والمشاركة وكانت لهم آثار
واضحة [illegible] [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
ملخص وفيه نقول

[illegible]
[illegible]
[illegible]

(صورة الصفحة الأولى من القسم الثالث)

(صورة الصفحة الأخيرة من المخطوط، وهي من آخر القسم الثالث
ويظهر بها تاريخ النسخ)

[١/٢]

بســـم الله الرحمن الرحيم /

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

[الحمد لله][١] الذي بدأ الخلق ثم يعيده، ووعد الوعد فلا يخلف وعده ووعيده، وفرغت مشيئته من الحظوظ المقسومة، والآجال المعلومة فتعين قريب ذلك وبعيده، وشقيه وسعيده.

الذي علَّم الإنسان بالقلم ليتوصل به إلى علم ما يريده، فيفيده بأخبار الأمم السالفة ويزيده، ويجمع له الجموع الوافرة فيزيده ويهز جذعه الزاوي فيسقط الرطب الجني جريده.

فلولاه ما استفاد علم ما غاب عنه مستفيده ولا عرف حال الأب نجله ولا الجد حفيده.

ففي كل شيء له آية يَثْبُتُ بشهادتها توحيده، فلا ينفع الجاحد جحوده، ولا الحائد محيده. . . [٢].

. . . [٢] وهو الواجب تحميده، ونقر له بالبقاء الذي تقرن به البرية تأبيده. . . [٢] على إنعامه وإلهامه، شكراً يترتب عليه مزيده.

ونعترف بالتقصير عن منتهى حمده فلن تُجتاب بنجائب المحدثات بِيْدُه، ولن يحيط بكنه المعبود عبيده.

[وصلى الله][٣] على سيدنا ومولانا [محمد][١] رسوله الذي تقرر في الذكر

---

(١) ما بين المعقوفين جاء موضعه بياض بالمخطوط فأثبت ما هو مناسب للمقام والمقال، والمعتاد في سائر الكتب الإسلامية وافتتاح الخطب وما شابه ذلك.

(٢) موضع النقط بياض بالأصل، وأرى أن السياق مستمر غير أنني تركت البياض على ما هو بالمخطوط، ووضعت موضعه تلك النقط.

(٣) ما بين المعقوفين جاء موضعه بياض في المخطوط وهو أمر غريب حيث ذكر في أول الكتاب ما هو واجب الذكر، وترك هنا أيضاً ما هو كذلك.

الحكيم تمجيده فمن ذا الذي يوفي الثناء عليه ويجيده. وقد وجبت له النبوءة وآدم بين الطين والماء فخراً أشرف جيده، ومَبْنى اصطفائه ثم تمجيده، فنادى الخلق إلى نهج الحق وقد جُهِلَ سديده، ورافع علم الإيمان بادياً للعيان بعدما هُدَّ مشيده.

[٢/ب] والشفيع المشفع يوم الفزع الأكبر، وقد شاب من الهول وليده، وتساوى ذكيه/ في الذعر وبليده، وخذل الغني طريقه وتليده (. . .)(١) باب الجنة، وكيف لا، وقد جُعِلَ. . .(١)

[ورضي الله](٢) عن آله وصحبه الذين أوضحوا دينه فلا يَخْلُق جديده، . . .(١) وخلّدوا معالم أمره تخليداً، . . .(٣) وورثوه في أمته بالهدى الذي قرب القواعد تمهيده، والعدل الذي بناه ظله وامتد مديده، والعطف الذي لا يعرف البَدْه توكيده، ما أعاد ذكرهم مُعيده، فعاد المشوق إليهم عيده، وما غرّد الطير فساق تغريده. . .(١) وما هيَّج نبيل المراد مريده.

[أما بعد](٤): فإني أملي بمشيئة الله الذي يُنهض القوى كلما أخلدت ويزكي الأذهان بعدما تبلدت ويجلي القرائح كلما تراكب فوقها الصدأ، ويعمر المعاهد بعدما تجاوب بها الصداء طرفاً تجاهل عن الوقت الذي شره إليه الجدال حين عدم الاعتدال، ونذكر بفوائد الدهر التي نسيها اليوم بنوه، فطووا حديثها ودفنوه، وغمصوا حق زمنهم وغبنوه، ونجلب تذكيره فنوقظ العيون ونقضي من شكر الله الديون وينصب الميزان الذي لا يبخس مثقال حبة إلاّ وفّاها، والمنازعة كَفَاهَا بشرط الإنصاف، وجميل الأوصاف، فإن النفس تميل لأغراضها وتجنح لافتراضها وتربوا في قِراضها راضية بانحرافها عن حميد العدل وإعراضها مبادرة لأدلة الحق باعتراضها، مطاوعة لعلل القلوب وأمراضها، ولا سيما في شأن الدول التي لا يزالون يسخطون فيها الحظوظ وهي سنِيَّة، ويتشوفون لتحول الأحوال وهي هنية، ويحسدون النعم التي أوصلها الحق لأربابها، والأقسام التي فرغ اللوح المحفوظ من كتابتها، فمن أعطى منهم تشوق إلى التطفيف كيله، ومن وعدم عظم من المواعد نيله، ومن حرم دجا ليله وسأل بالشيء سيله. وأما الحسد فلا تزال مغيرة على ساحل البحر خيله ما لزم الفلك ميله، وطلعت ثرياه وسُهيله.

---

(١) موضع النقط كلمات مطموسة بالمخطوط لم أتبين قراءتها. وليس للمخطوط نسخة أخرى تساعد على إيضاح ذلك.

(٢) كذا موضع ما بين المعقوفين بياض وقد ترك ما يجب ذكره أيضاً في هذا الموضع ولا أعرف السر في ذلك.

(٣) موضع النقط كلمات مطموسة.

(٤) موضع ما بين المعقوفين بياض أيضاً في الموضع الذي يجب فيه ذكر ما ذكرته، وربما كان موضعه مكتوباً بمداد غير قابل للبقاء فانمحى بعامل الزمن وتأثير البيئة أو العوامل الجوية.

وكثيراً ما تركب الدول هواها عندما ترجوا مثواها، مع اعتقاد برها وتقواها، كما قال الشاعر:

/ إذا لم يكن للمرء في... ....[١] زوالها

وما ذاك من بغض لها غير أنه يريد سواها فهو يهوي انتقالها [٣/أ]

وقد قال: من...[١] لا يترك، رضا الناس غاية لا تدرك، ...[١] أوتيت هُداها وقبيح في خطة الرشد مداها، لا تقصر في...[١] بالحق أباطيلها.

وعَلِمَتْ فضل هذا الزمان على كثير من الأزمان واعتبرت بألطاف الرحمٰن ورأت أنها ثاوية في إيالة اليُمن والأمان، مظللة بأروقة مشاهير الإيمان.

∝ أما سماؤها فدارة بالعنان، وأما أشجارها فسخية الأجنان، وأما أقواتها فحقيرة الأثمان، وأما أحكامها فقويمة الميزان، وهلا اعتبرت بِمَثُلاتِ العباد، المُفَتِّتَةُ للأكباد، وزلزال البلاد، الذي ذهب بالأموال والأقلاد، وألوى بالطارفين التلاد، فاغتبط بالنعم الراضية الحاضرة، وصرفت لحاظ الأعين الناظرة إلى وجوه المنن الناضرة، وسكنت إلى حنين كفالة ربها الوافرة، وتمكينها إياها من ضرورة الدنيا والآخرة، فالأسواق تموج بها الأرزاق كالأبْحُرِ الزاخرة، والمآذن تُسمع بالدعاء آذان العظام الناخرة، والأحكام تنفذها السيوف الباترة عن الغرماء غير الفاترة، ومن يرجع الملك إلى نيابته باخع بإقامته مبادر للدعاء بإجابته، لم يستأثر به الحجاب، ولا شمخ بأنفه الإعجاب، ولا استهوته الشهوات، ولا فاته في أوقاتها الصلوات، ولا فارقه العفاف، ولا تعين له الكفاف، قد فوَّت نومه لينام سواه، وأحيا جدّه وأمات هواه، وحق الدعاء على ولاة أمورها ورعاة جمهورها، ليس إلاّ جهادٌ عن ساحتها ودفاع لعدو دينها كلما هَمَّ باستباحتها، وتأمين سبلها الخائفة، وإصلاح سكتها الزائفة، ومتى أراها العيون هذه الألقاب أقوم سمتاً، وأبعد عوجاً وأمتاً، سيما في هذا الزمان الذي إن قيس بغيره رجح أو جادل عنه لسان بأي حجج، وبان فضله واتضح، وخاب معانده وافتضح، فتقر عين المؤمن بألطاف ربه، وتنشق أرج العناية من مهبّه، ويسلك الأدب مع الله بالتسليم لأمره، ويشتغل بخويصة نفسه عن زَيْدِهِ/ وعَمْره...[٢] [٣/ب] ورجوت السلامة واستدفعت بترخيص الله الملامة، ودعيت في الأوقات، واجتنبت الموبقات، وأخلصت إلى الله الضراعة في التماس الوقاية، ورميت بضاعة الشيطان من النفاق بالإخفاق.

---

(١) موضع النقط كلمات مطموسة في المخطوط.

(٢) موضع النقط تسع أسطر مطموسة في المخطوط فيها كلمات تدل على استلهام الله العون على إتمام هذا العمل.

وإذا وعـدت بـهـدنـة فـي آجـل وصـلاح حـال فـي الـزمـان الآتِ

فـصـلاح حـال الـوقـت راعِ فـربـمـا نـدم الـمـضـيـع الـشـيء بـعـد فـواتِ

وما كنت بالأحق لا ملائها، ولا لمد اليد لمنشر ملائها، لحلّ الكبوة التي عجزت معها الجوارح وبعدت عن تجمعتها المسارح، وذهبت بالأمل الذي وهدَ في التنفيق التذلق، ورغب عن التكملة، لولا أمر مطاع وجب امتثاله، ورسم اعتمد مثاله، ونداء لزم جوابه، وقصد رجى من الله ثوابه، لما يُلهم من شكر الذي تأكد إيجابه، وأوكاه العقل وقد كُشِفَ حجابه، ومجلس بهر في جماله وراقني اكتماله، ومحسن رأيت إكمال محاسنه الفائقة، وإغفال مزاينه الرائقة، غمط للحقوق المتعينة وطمساً لرسوم الفضائل البينة فأمليته عفواً من غير روية تحكم الاختيار، وتستدعي للحفظ والاعتبار، فطغت به العزيمة عن الاشتغال بالكتاب الكبير المسمى بـ «رئاسة الفلك في سياسة الملك» إلى أن نكرّ إن شاء الله عليه، ونعود بحول الله وقوته إليه،
[٤/ب] وهو الذي/ لا يبخل بالإجابة... (١) تجلي الولاية في ريعان الشباب إمام الحرب والضراب وسيف الله الواضح الضراب، وفخر الملوك إلى منقطع التراب، مولانا السلطان الكبير الهمّة الراعي للذمة فاتح الأمصار والأقطار، وممد الأوطان ومدرك الأوطار، ومقيل العثار والآخذ للملوك المرضية بالثار، أمير المسلمين، ورحمة الله التي سَمَت إلينا... (٢)، وظل ربهم المقدس المجيد المطَهر المنعم أبي فارس عبد العزيز ابن مولانا الكبير الشهير المخصوص من الله بالتقديس والتطهير، واقد الملوك، وناهج العدل المسلوك، الذي لا تسبح الألسن في بحار مدحه إلاّ ظله، ولا تُقاس الملوك إلا مبحرة بعزّه... (٣) ولا تجبهه الشياطين بذكر إلاّ ولت، قدوة الأئمة، وسلطان الأمة، والمثل البعيد في رفع القدر وعَلِيّ الهمة حامي المسلمين، وقسطاس الله في العالمين، ومرقد الحرم الأمين، ... (١) من كتاب الله الذي خطته بنانه بالذخر الثمين، قدوة الصابرين المعروف بالحق في الأولين والآخرين أبي الحسين ابن موالينا أمراء المسلمين وملوكهم الصالحين المجاهدين، قدّس الله روحه وطيّب ضريحه، فاستقرّ لي الثواب، ورتّب الألقاب، وأعاد العوائد، وفرّج الشدائد، وجدد الأيام، وأعزّ الإسلام، وسلك مسلك المولى المقدّس أبيه في عمران الأوقات بالوظائف المهمة وتقييم الركبان على مصالح الأمة، ومباشرة التدبير، والمحافظة
[٤/أ] على حقوق الملك الكبيرة / واكتتاب القرآن العزيز والذكر الحكيم، ومشاورة

(١) طمس في المخطوط وكلمات غير مقروءة بسبب اختلاط المداد مقداره ثمانية أسطر.

(٢) كلمة مختلطة المداد.

(٣) موضع النقط كلمة مطموسة في المخطوط.

المشير، والقعود للقبيل، والرفق بالضعيف، وجبر الكسير، ونصر المظلوم على الظالم المستطيل.

وعرض الجيش العديد، ورفع رمز أولي الصداقة، وندب العباد والبلاد إلى الدخول في دعوته، وكان من أعلى مفاخره وأعظم محامده، ما ذهب إليه اختياره وآراءه الكريمة وأنظاره، وأعملت فيه بعد استخارة الله خواطره المقدسة وأفكاره، من الاستعانة بولي نعمته ومكنون حرمته وسيف نصره المدخور في غيب الله لخدمته والوفاء بذمته، والمقتدى به رضي الله عنه في طهارة أفكاره وكلامه، الشيخ الوزير العماد الأعلى علم الأعلام، وفخر الليالي والأيام الطاهر الذات والصفات، البعيد عن الشبهات المرشح في خزائن الغيب لدفع الملمات المدخور عمره للمحيا والممات أبي بكر ابن وزير المقدمين المولى أبيه ذي القدر الشاعر المجد النبيه كبير الوزراء، وصدر الصدور الظهرانة، الذي بذل في نصيحة أمره غاية اجتهاد، ثم باع نفسه من الله. . .(١) فوقف وقفة للشهادة تشهد بالامتنان بثنائه، فولده السعيد الشهيد أبي مجلز غازي بن يحيى بن الكامل باركه الله للإسلام وأمد له في عمره وجعل الدهر منفذ نهيه وأمره، وشكر عن الدين حميد سعيه، وعن الملك عظيم رَغْيه، وجعل النصر لضرابيه، والتوفيق نصيب رأيه، وقد كان المولى المقدس يُعِدَّهُ لتربية ولده في مضامين الأمراء لحسن مقاصده، فاختصه ابنه بعده واستكفاله وكمل بره، ووقائه وبدا به الأمر والمهمة على سلطانه، وجعل بيده مفاتح جهاده وباب أوطانه، وقلده الأمانة العظمى. . .(٢) خطر السياسة، وقفل العهد. . .(١) مدينة سبتة منطلقة بالعزّ يَدَهُ، بعيداً في الحظوة البالغة أمره، ففتح له الجزيرة الخضراء تدبيره، وأخلد له الفخر الذي لا يجحد شهيره، وأثبته في صحائف الدهور، وأعمل إلى مجالس الخدمة الرواح والبكور، وتلي لسان الحال والمقال/ من بعد الاعتقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فَاطِر: الآية ٣٤] ونصر هذا الوزير الصالح والتلميذ الناصح في سياسة الملك. . .(٣) ضجيعاً للسباع، مُعَوّلاً على كرم الطباع، مستظهراً بالعفاف وحفظ العوائد، واستدرار الفوائد، وحذف الخرائد، وأفاض بحر العطاء وقاد الجرد للامتطاء، ونفض الخزائن على الأعناق. . .(٤) الطباق والاستحقاق وجرّد الصكوك بالبلاد المقطعة والفوائد المنوّعة والدولة المحترمة، والجوان المكرمة، والولايات المقررة، والمغارم المحررة، والجرايات المقدرة. [١/٥]

(١) كلمة مطموسة.

(٢) موضع النقط كلمات مطموسة في المخطوط.

(٣) موضع النقط طمس في المخطوط.

(٤) طمس في المخطوط.

ثم تفقّد المظالم الخافية فأزالها، ثم صرف العناية لبيوت الله فكساها ونوّرها، . . .[١]، ورمّ بيوت العبادة وبناها، وضاعف المثاوب وأسناها.

وقد ذكر بين يديه يوماً: أن الإمام بجامع الأندلسيين طرق صلاته خلل فأعاد الصلاة من أجله، فبحث عن الأمر الذي شغل باله وأوجب خباله.

فأخبره أنه عن دين ضاق عن أدائه واضطر إلى إنصاف غريمه قبل استعدائه وإعلان ندائه.

فأمر للحين تحملته عيوناً وأذنه، وكافة جملته، فوالله ما أعمله فيها مهلة[١].

وتفقد خزائن الملك، وجدّد الأقفال وأوضح منها الأغفال، ثم طلب الأموال وأغرم العمال، وأراهم الأموال، وباشر الحسابات بنفسه، يسابق في ذلك المهرة وينقد الجملة المختبرة، ويخرج الخبايا الكامنة، ويقيم البراهين الساطعة، والحجج القاطعة، ففشى في الخونة العقاب، واستوفيت الألقاب.

واختصر بيت الأموال وشهد بما به لنجم الأحوال، وصرف الوجه إلى تأمين الطرقات، وحسم الموبقات وكفّ كفُ المعتدين، وقطع دابر المفسدين، فأمنت صولات الرجفان، وترددت الناس إلى الآفاق، فحيث جنك الليل أظلك وسالمك الزمان ووقاك من المحذور الرحمٰن.

ثم نظر في السكة المتعارفة وقد فشى فيها الزيف، وتطرق إليها الحيف، وذهبت بالغش أعيانها، ونحتت بالمقراض أوزارها، فأبلى فيها البلاء الحسن حتى خلصها من الفساد، وحفظ بصونها بضائع العباد، وكرّ عنها أيدي المغيرين لصرفها
[٥/ب] فهي اليوم متصفة بالجمال منيعة على / العباد بمزايدة الكمال.

وأنصف الجيوش إنصافاً لا تهلّ أهلة الشهور ولا يتأخر عند شروعها في الظهور، و. . .[٢] أحضر مجالسه. . .[٢] من فصل الحكم وسماع حجج الصُك البُكم، واستجلب فصول العقود وتزييل الشهود، وإجبار الخلل في. . .[٢] والقصر منها إلى أماكن الفساد، وسداد الانتقاد. . .[٢] الكثير من القضاة سلكوا مسلكه. . .[٢] أعانه على ما ملكه وصحبه التأييد في سائر مُلكه ويأتي الكاتب وقد تعددت البطايق وحمد بقية الفايق. . .[٢] المضايق وحُققت منها الحقائق وبدا إمضاء أحكامها على خلده، وأرسل فيها صحيح اختباره، ووزن ألفاظها بميزان اعتباره،

---

(١) كذا تكون رعاية الأمير لرعيته وعمّاله يزيل ما يشغل بالهم من كدر الحياة ليقبلوا على أعمالهم فيعطوها كل طاقتهم وجهدهم، ويخلصون لها من كل قلوبهم.

(٢) طمس في المخطوط.

سُحِرت في صحة نقده، وتمت في إصلاحه وتنقيبه وتمزيقه لما يصد عن تلفيقه.
وأقول: سبحان المان على العبد بتوفيقه، ولقد أنشدته ابتهاجاً بشأنه وسروراً لما جاء به، ومكانه من نصيحة سلطانه:

يا نخبة الوزراء الثوابت ... والملهم المهدي لكل صواب
وابن المجادة والسيادة والتقى ... والفضل والأنساب والأحساب
ومن الذي أيامه مذكورة ... وسعوده موصولة الأسباب
منصور دولة آل عبد الحق ذا ... الأثر الغريب لباب كل لباب
شبه السعيد وكامل الأمر الذي ... قد فات عن مولاه خير مناب
قد كنت تذخر للأمور وترتجي ... للمعضلات وأنت في الكتاب
ويقال هذا كمال لخلافة ... تختال للبركات في جلباب
بشرى أتت مثل الصباح لناظر ... لم تعز...[1] إلى كذاب
ورعى حمى من بعد ذا مستمنح ... إنجازها من منعم منساب
اللَّه حبك يا أبا يحيى فقد ... أحييت رسم المجد بعد ذهاب
إنصاف جيش المسلمين فما القنا ... صغت المميز وما الحسام بناب
وأعدت سكتهم كأن وجوهها ... زهر الرياض ربت لصوب رباب
/ وجبيت مال اللَّه فاستخلصته ... من دين كفر...[2] سباع وناب [١/٦]
وخلفت مولى الخلق خير خلافة ... ترضيه في الأعداء والأحباب
ورعيته بعد الممات كأنه ... رهن الحياة يراك خلف حجاب
هذا الوفاء يقلّ ما حدثته ... من فقه...[1] والإيجاب
بالعدل يحكم فالورى قد طمأنته ... والأمن ظل وافر والإطناب
والدهر بعد مشيبه...[1] لابس ... ما شئته من عنفوان شباب
جعل الإله على كمالك عوده ... من ذكرك في جيئة وذهاب
يهنيك ما أولاك من ألطافه ... في خلقه تجري بخير مثاب
غلبت ظنون الروع أول وهلة ... فقضى...[3] غالب الغلاب

---

(١) كلمة غير مقروءة في المخطوط.
(٢) طمس في المخطوط.
(٣) طمس في المخطوط.

وأهل محتبس الغمام يحمله ... الرحمٰن بفضل مُتمم الأسباب
لطف يدل على العناية والرضى ... فكأنه العنوان فوق كتاب
ومقاصد شكر الإلٰه ضميرها ... ودعاء مسموع الدعاء مجاب
ووسائل خلصت لمن رحماته ... للقاصدين رحيبة الأبواب
أتت الوزير ابن الوزير حقيقة ... إرث أصيل الحق في الأحقاب
وأبوك موقفه إذا شاهدته ... فسل المحق فليس كالمرتاب
صدق الإلٰه وباع منه نفسه ... فجزاه بالزلفى وحسن مآب
من للطعام وللطعان وللتقى ... إلّاك أو للحرب والمحراب
تهدي الأسنة للكتائب هادياً ... بسنا الهدى من سنّة وكتاب
لم يعط ما أعطيت معط قبلها ... من صامت برّ ومن أثواب
تستعبد الأحرار بين تحية ... مبرورة وتواضع وثواب
وتمهد الملك الذي يك جاوزت ... أسياف عزمته تخوم الزاب
دامت سعودك ما تألق بارق ... وبدا بأفق الشرق ضوء شهاب
وحللت من كنف الإلٰه وستره ... أبد الليالي في أعزّ أحباب
[٦/ب] / حسن يكون اسم السعيد مضمناً ... في كل حين خطبه وخطاب
وتقرّ عين علاك بوارث ... بهرت حُلاه نهى أُولي الألباب
من بحره تُروى العلى عن مالك ... أو فطنة تروى عن ابن شهاب
من كنت أنت حسامه فالنصر سار ... وأمَامَه حزباً من الأحزاب
إن لم يدع لي جودك حاجة ... أسمو لها بشفاعة الآداب
لكنني أثني إليك بواجب ... شكر الرياض الدائم التسكاب
وأخلد الذكر الجميل وأنشر الـ ... فجر الأصيل مصاحب الأحقاب
وفضائل الفضلاء يذهب رسمها ... ما لم تُشد بصحائف الكُتّاب
فهي التي تروى على بُعد المدى ... وتشد فوق رواحل الأقتاب
واللّه غاية كل طالب غاية ... وسواه في التحقيق لمع سراب
فعليه عَوّل في أمورك واعتمد ... تنل المُنى وتفز بكل طِلاب

فلما تقررت الأمور واغتبط الخاصة والجمهور، وحسن الذكر، واستقر الأمر واعتدل الدهر واستوسق البر والبحر، ووفدت أعلام الأقطار، وأشراف جهات البلاد

الكبار، وقواعد الأمصار، مهنية، وعد الله بمنظومها ومنثورها مُثنية عارضة ما عقدته من البيعات، وأخذته على الجماهير من الطاعات ومن الله على العباد والبلاد برخص الأسعار ومساعدة الأقطار وتيسير الأوطار. وشرع في تكميل ما تخص المولى السعيد أسعد الله من ضرورة ومقاصد مبرورة فاختار معلّم الكتاب واتخذ له الآلات المناسبة لسلطانه الرفيع الجناب، وحرص له على اقتناء الأدب في زمن الشباب وارتباط النقاوة من الخيل العراب، وزينة الملك التي تمتد له بالانتساب.

ثم أولم لختانه، وأشرك أولاد الملوك الكبار في شأنه وجعلهم في تلك السنة أسوة سلطانه، وعم وفودهم بإحسانه، وبلغ في ذلك الغاية التي شهدت بفضل زمانه، وشرف مكانه، فقلد الأعناق أطواق المنن.

وأقام السُّنن الواضحة السَّنن، فكان صنيعاً قدم العهد بمثله/ ، وطرازاً على حلل فضله. [٧/أ]

وصدرت عني أبيات أسعد بها الخاطر أنشدتها على قبر المولى المقدس جاده الغمام الطاهر وحيّاه من روح الله وريحانه الشذا العاطر، وهي:

سلام اللَّه بورك من سلام ... على قبر الإمام ابن الإمام
سقينا ثم سقينا ثم سقينا ... بصوب... [(١)] جفن الغمام
إلى أن تهفو القيعان ريّاً ... وتورث عنه أوتاد الخيام
تبشّر بالرضى مغدى وممسى ... فتبسم عنه أزهار الكمام
ولولا أنها بشرى ورحمى ... لما جرىء الكمام على ابتسام
أمولاي أهن نومك في قرار ... يعود عليك بالنعم الجسام
تمت على جوانبه النعامى ... فتهديك السلام من السلام
إلى أن تستقرّ بدار عدن ... فتظهر بالنعيم المستدام
هناك الملك لا ما بِنْتَ عنه ... فما الدنيا سوى حلم المستنام
يقر علاك ما قدمت فيه ... من القربات في جنح الظلام
ووضاك بالصلاة دجى الليالي ... وقطعك للهواجر بالصيام
وسمحك للجهاد بكل سام ... من السام النضار وكل جام
وتصدق وعدك الصدقات تُعلى ... مقامك في المقامات الكرام
أيا عبد العزيز يعزّ صبري ... عليك فإنه صعب المرام

---

(١) طمس في المخطوط.

ولكنـي يُخفِّض بعض بثي ... وحزني ما لعزّك من دوام
سعودك بعد موتك في حياة ... وإن جرعت أكواس الحِمام
وبيتك فوقه لله ستر ... صفاك الستر بالبيت الحرام
ووارثك العزيز عليك مَلْك ... عزيز الأمر مرهوب الحسام
سعيد فابتهج لفظاً ومعنى ... يطاوعه الزمان بلا زمام
ودارك للسعود بها مداد ... تملك في اتساق وانتظام
[٧/ب] / لئن خلفت منه هلال مُلك ... ورحنا بعد شمسك في ظلام
فها هو كل يوم في ازدياد ... يشابه هيئته البدر التمام
فخضت به الوصالة إلى رجال ... كرام شأنهم رعي الذمام
أبو يحيى وحسبك من حيي ... وفّى بالعهود على التمام
يدافع عتيد الأرض المواخي ... ويحمي السَّرج بالجيش الهمام
ومهما سار في الأمر مبهم ... وجدّ السير بورك من همّام
لعلال بدارك أي ذُخر ... يقوم بحفظها خير القيام
فشكر أمته المولى السعي ... بسري في الوفاء من الملام
ويا ذا أكف تشكر من وفاء ... ودعني لو قدرت على الكلام
وظائف بعد بُعدك في ازدياد ... وحفظ من طعان أو طعام
وإعداد له بركات نُعمى ... سحائبها تجود على الأنام
أعدته الملوك إلى بنيها ... وشامخ وصلة ذات التحام
وأبدت فيه رغبة ذي امتساك ... بحبل للمودة واعتصام
وأهْدَتْهُم إليه بحُسن عقبى ... وجمع بعد شتت والتئام
ومن غرس المودة قرّ عيناً ... وأعمل في الجَنا كف احتكام
فطب نفساً ونم في ظل رُحمى ... تلذ ببردها بين النيام
أتيتك بالهناءِ هناء عبدٍ ... أخي همّ بأمرك واهتمام
تطوق مِنّا إنعاماً كريماً ... لزيماً مثل تطويق الحمام
تعلل بالسلام عليك حتى ... يراك وأنت في دار السلام

وجرى في بعض ما يجري الحديث بمجالسه التي لا يدخلها اللهو والهجر، ولا يعرف فيها إلاّ الجد والأجر، ولا يفاوض لديها إلاّ في نصيحة وخدمة صريحة

اتخذت في سلطانه المولى السعيد أقرّ الله عين وزارته فيما يوفيه من اضطلاعه وانشغاله واجتناؤه ثمرة وفائه بجلاله وبجاه[١] محمد ﷺ / وعلى آله وما يظهر من مخيلة نبله، ويبهر العيون من حُسن شكله، وشبه الفرع الزكي بأصله، وإشراق نور السعد على محله، وأنه هلال له يترقى إلى الأنوار سريعاً، وغصن مجد حل من العزّ والصوب محلاً رفيعاً، فعن قريب يملأ الجوانب تقريظه ويرق زهراً بديعاً، وجنى رفيعاً، ووقع من الثناء على وقاية، وما خصّه الله به بين نظرائه وأكفائه، ما صحب الصدق جميع أنحائه وإن قصر الجند عن استيفائه. [٨/أ]

وأنه أبقاه الله امتاز بحلية الصدق بين الوزراء، واختص بعلمه الخفّاق بين أهل هذه الآفاق، وربما جلب درهماً تنبعث به من تحسد الشمس سناها، ويتعلل به من يجهل لفظ الأمور ومعناها، ومن يغفل في نومه عن أمسه، ويُبصر ولا يَبصر الجذع في عين نفسه، ولا يعلم أن هذه الأمور التي تخللت المعمورة سبق فيها الجدال الجلاد، ونابت عن الحجج القاطعة والبراهين الساطعة السيوف الحداد.

قلت: ويغفر الله لأبي الحكم منذر بن يحيى أمير ثغر الأندلس.

لمّا تناظر مع الفقيه أبي عبد الله بن الفخار القرطبي.

وكان منذر يدعو إلى سليمان بن الحكم. . .[٢]، والفقيه يدعو إلى هشام بن الحكم خليفتهم بقرطبة. الرجل الصالح. إذ قال له ابن الفخار: أنشدك الله يا أبا الحكم لو أنك في جماعة حضرتهم صلاة مكتوبة وفيهم هذان الرجلان سليمان وهشام من كنت - ولا أمر لهما - تولي الصلاة؟

فقال له منذر: أبيت إلاّ جهلاً، هشاماً والله كنت أقدّم للمحراب، وسليمان والله كنت أرفع إلى سرير المُلك، فليس هذا مكان مسائل المدونة يا فقيه، إنما هو مكان السيف الذي ليست بعده بقية.

فقال أعزّ الله جانبه وأوضح في فصل القول مذاهبه وتمّم قبله مننه العميمة ومواهبه: أما نحن فيما اضطرنا الوفاء إليه، وقصر إجماعنا عليه لكثير من أعلام ملّة الإسلام نتبع، وفي عملهم لنا مرتبع، ولم نأت في زماننا بدع من العمل، ولا اخترعنا ما لم يتقدم نظيره الأول، إذ الناس ناس والعلماء أجناس، والقضاة شريح وإياس، والأمراء أمية وعباس، وأولياء الله أقطاب وأحراس، والرؤساء للمفاخر، والفقهاء الشافعي ومالك، وبهم / تسلك المسالك، وأبنوارهم يملىء الليل الحالك، [٨/ب]

(١) كلمة دعاء وتقرُّب يذكرها الصوفية ولا يرون بها بأساً.

(٢) كلمة غير مقروءة هذا رسمها في المخطوط: «فيرزناتة».

فإن كانوا أصابوا في اجتهادهم، فامضوا واستمروا، وعاهدوا الأباء على الوفاء لأبنائهم فبروا.

وذكروا أنهم قهروا الاجتهاد وتعمدوا السداد، فما أسعدوا في اتباعهم في طريقهم والانتظام في قربهم.

وإن كانوا قد غلطوا مع تعدد فقهائهم وعلمائهم وأعيانهم وفضلائهم، وشهرة أعلامهم، وفضل زمانهم ومكانهم، فنحن راضون بمشاركتهم في الغلط، والانتظام معهم في هذا النمط.

ومع هذا فإن كان الوفاء...(١) والرضى والالتزام والثبات على العهد، وقضاء حق المولى بعد استقراره في...(١) إلى أن يستقل الوارث بأمانته يعد علينا ذنباً، ويجر لوماً وعَتْباً، فقد رضينا أن يكون ذنبنا الوفاء، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النّساء: الآية ٤٨].

وإن عدّ حسنة فالحمد لله عليها، والشكر له على الهداية إليها.

فارتجّ المجلس وهمّ أهل العقل والعضد الأشد والرأي الأسد، وقالوا: صدقت وبالحق نطقت فمن متمثل بقول القائل:

السيف أصدق أنباءً من الكتب   في حدّه الحدُّ بين الجد واللعب

وقائل:

السيف أصدق من زياد خطبة   في الحرب إن كانت يمينك منبرا

وقائل:

ومن طلب الأعداء بالمال والظبا   وبالسعد لم يبعد عليه مرام

وقالوا: نيابتك فينا كافية، وبكل غرض وافية، وفيك لنا المقفع، ومن دونك نقول ونصنع، إلى أن يكمل هذا الهلال ويصح منه الاستقلال.

ثم قال لي: هل تدري إن ذهب هذا المذهب من قبلنا دولة من دول الإسلام مشتملة على الأعلام، وحملة السيوف والأقلام؟

وهو أعزّه الله أعلم بما هو عنه يسأل، وفضله أكمل، ومثل هذا لا يجهل.

فقلت: كثير وشهير، ولكم في الناس نظير ثم نظير، والله على كل شيء قدير، وهو الغني ومن سواه فقير.

إن قلت في شيء غريب وقوعه   فسل عنه تلق الدهر قد جاءه قدما

---

(١) كلمات مطموسة في المخطوط.

فحاضر من عاصرت أسوة من مضى — وأبناؤهم لم ينقضوا لهم حكما
/ وسابقهم خير على كل حالة — وأوفرهم ديناً وأغزرهم علما [٩/أ]

ومن ذاك:

إنما الدنيا على علاتها — شجر قد ود... [1] ودوحاً... [1]
كل معروف ومجهول الجنى — فيه ما شئت وما لم تحتسب

ثم اختبرت فألفيته تبلغ ثمانية وأربعين شخصية كلها ثابت الرسم معروف العين في دول الإسلام، والاسم قد تمتع بأعين له القدر من القسم واستوفى ما يسوغ من لذات النفس والجسم، بحيث لو نسقوا من دون فصل ما بين زماننا هذا المخصوص بالإضافة، وبين آخر زمن الخلافة لعمروا الزمان عدداً ووسعوه مطرداً، ولم تنسب أفرادهم في التعمير إلى غريب، ولا خرجت عن المعتاد في بعيد الزمان ولا قريب، فإننا إذا قسّمنا الزمان المحسوب على عدد الأسماء وجعلنا المدد على السواء، كان حصة كل واحد منهم نحواً من خمس عشرة سنة، وهي في أيام أرباب الدول عدد متوسط، وميزان مقسط، وإلى أين يذهب من يحتج بعدد أو يستظهر في الخصم على لدد أو يجري في الاستكثار إلى مدد لأكثر من ثلاثين مثالاً، قد استرسلت استرسالاً، وتعددت في أقطار الإسلام يميناً وشمالاً ما منهم إلا أذعنت له بحسب حصته من الأيام، ومضت عنه وعن من يستكفيه الأحكام، وخفقت فوقه الأعلام، واستوفى وظائفه بعد الإسلام، ومن كان على عضده الأئمة الأعلام والأديان والأحلام، فأقيمت بكل حال الصلاة والزكاة والصيام، وحجّ البيت العتيق فلم يتعطل الطواف، ولا الإحرام، وربما صلحت الأحوال بهم وتيسر المرام قدر الغمام، ورسخت الأقدام.

وسبحان من له البقاء والدوام وبيده الحل والعقد والنقض والإبرام، الغني عن العباد، الهادي إلى سبيل الرشاد، والذي لا يُسئل عما يفعل، انفرد بالعزّ الذي وضحت منه الأشهاد. فطوبى لمن سلم في حكمه، ورضي بقسمه، وعلم أن الأشياء مفروغ منها وعلم وأيقن / أن متاع الدنيا قصير، وسوى ما لديه حقير، وأن الدنيا لم تحل أيامها على ذي مرغب، وأن زمانه جنة بالنسبة إلى غيره، وقد فضل كثيراً من الأزمنة فيمن طيره، وعموم خيره، فيقصر في فضول القول والعمل من سيره، ويقصر الشغل بخاصة نفسه، والإعداد لرمسه، ويسأل الله عموم التوفيق، ويتمسك منه بالسبب الوثيق، ويفوض أمره إليه، ويتوكل في جميع أحواله عليه. [٩/ب]

---

(١) كلمات غير مقروءة.

تفسير المجمل المستخصر في الحال

وربما يجد سواه من أمعن في النظر والسؤال، ففي:

الدولة الأموية بالمشرق

يزيد بن معاوية، والوليد بن يزيد بن عبد الملك، ثم ابناه: الحكم بن الوليد، وعثمان بن الوليد.

وفي الدولة العباسية

عبد الله المأمون بن الرشيد ومحمد والأمين أخوه، وهما أميرا المؤمنين، وأخوهما قاسم، والمؤتمن بن الأمين، والمعتز والمؤيد أخو المنتصر، والمقتدر بن المعتضد.

وفي الدولة الأموية بالأندلس

الحكم بن عبد الرحمٰن، والمنتصر بن الناصر، وهشام بن الحكم المؤيد، ومحمد بن سليمان بن الحكم.

ومن الشيعة العلويين

إدريس بن إدريس، وعلي بن محمد بن إدريس ولد حسين بن يحيى من بني حمود.

ومن الشيعة العبيديين

الحاكم بن نزار، ويوسف بن عبد المجيد.

ومن بني هناد الصناهجة

باديس بن المنصور، والمعز بن باديس، والعزيز بن عُلاَ الناس.

ومن لمتونة الملثمين

إبراهيم بن تاشفين بن علي بن يوسف بن تاشفين.

ومن بني عبد المؤمن الموحدين

الرشيد بن المأمون، ويوسف بن الناصر، والمعتصم بن الواثق.

ومن الحفصيين

يونس بن إبراهيم بن أبي يحيى، وخالد بن إبراهيم.

ومن الأتراك

نصر الملك الناصر، والملك شلامش، وعلي الناصر، وكخد بن الناصر، وشعبان حفيد الناصر، وشجرة الدُّر.

ومن بني هود بالأندلس

الواثق بن محمد.

ومن الطوائف

ابن عز الدولة، ومحمود بن المظفر بن أبي عامر، وعبد العزيز بن عبد الرحمٰن بن أبي عامر، وعبد الملك ابنه، وعبد الله وتميم حفيدا باديس بن حموس.

ومن بني نصر

محمد بن إسماعيل، ويوسف بن إسماعيل، ومحمد بن يوسف.

ومن بني مزيد، وساقي القوم آخرهم شراباً

السعيد بن أبي عنان.

فقال: نريد أن تقيد لنا من أحوالهم ما يسره الذكر/ واستحضره الفكر، نجعله [١/١٠] تأنيساً في الأسمار، وراحة عند كدر الأفكار، وتأسياً بمن سلف من أهل الأمصار والأعصار.

فقلت: أما إذا كان المقصود مقصوراً على تاريخ ينقل، وأدب يعقل، وأخبار عن واقع الزمان يقرر، وكائن قد تواتر خبره وتحرر فسمع وطاعة، وجهد مبذول واستطاعة. وإن كان القصد الاحتجاج والاستدلال واستعمال طرق الجدال، فلذلك محل وموضوع يليق بسره ونجواه، وميدان يتعصب فيه ذو الهوى لهواه، أو ينتصر ذو البر والتقوى لتقواه.

وعزمكم والحمد لله قد ظهر عن ذلك غناه، وزهد في لفظه ومعناه، وظننت يومئذ أن العزيمة فاترة، حتى وقع التأكيد والعود الحميد.

فاستعنت الله على منال الطلبة المقترحة، وشرعت في الحين لإملائها، ممتثلاً أمر الوزارة، حرس الله أعلامها، مكافئاً حسن بلائها، مستعيناً بالله على قضاء حقوقها وأدائها.

ثم ظهر لي أن الاقتصار على القدر المتعين، والوقوف عند محل الاحتجاج البين، شح من ميسور، وإقناع بالقليل من موفور، وأشفقت أن نأتي بفرع خبر يتشوق إلى إتمامه، أو نقطع حديثاً يرتاح السامع إلى وصله.

فنسقت الأصول تبعاً للفروع، وجعلت الأفراد وسيلة إلى الإتيان بالمجموع ليحصل تناسب المسموع.

إلاّ أنني متى عثرت بالغرض المطلوب، سامحت القلم في الإكثار، ليعلم أن ما سواه مذكور بحسب الاجترار.

وإنني إن جمحت فيما اجتلبت، وجئت بأكثر مما طلبت، ولم أحسن في ارتكاب هذا الأمر وامتطائه... [(١)] قولهم: زيادة الأخرق أكثر من عطائه[(٢)].

فعسى أن نكون ممن استهدى زهرة غيضة فأهدى من أجلها روضة، وممن استمنح من البستان نفحة، فسلم فيها دوحة، وممن طويت سرية فاستعرض جيشاً، وممن استعير مشطاً فسوغ حماماً، ويكون اسم الكتاب من باب تسمية الشيء ببعضه، فقد سبق إلى ذلك كثير ممن خيره وسمي، ورمى بغرضه هذا المرمى، والسرف في الخير لا يسمى سرفاً، ولا يجد فاعله إلى العتب منصرفاً، لا سيما لمن تعين نصحه، وأسرف في الفضل صبحه، وسبق فضله وكرم جناه وفاء ظله.

[١٠/ب] وقد آن أن نبسط برنامج هذا التعليق ليكون / الناظر فيه محكم الاختيار في الأخبار، عالماً بما اشتمل عليه من الحلي والنضار، وسقط المتاع المخصوص بعدم الاعتبار، وليتمكن من الاختيار في الأخبار، ويقف على ما جاء بالقصد أو جاء بالاضطرار، فنقول:

يشتمل الكتاب أولاً: على مقدمة نأتي فيها بقول كلي، وعرض علمي حكمي، نبين فيه أن الله جلّ وتعالى لم تكن رحمته لتهمل العالم من ضروريات السياسة التي لا تستقيهم دونها أحواله، ولا يحسن مع عدمها مآله، وأنها شرط في السعادة

---

(١) سقطت من هنا كلمة أو جملة.

(٢) مثل عربي قديم، راجع (على رأي المثل: موسوعة الأمثال العربية والعامية) من تأليفي حوت ما يزيد على عشرين ألف مثل عربي وعامي وهي على حروف المعجم مشروحة الأمثال.

المشروطة، وبدايته المقدورة، وعودته المغبوطة، وأن من خلقه في أحسن التقويم، وحباه بالفضل الجسيم، ويسّر منافع أعضائه عبرة لمن تأملها وموقظة لمن سرّح الفكر وأعملها، مع أن أكثرها لا يفيده إلاّ صلاح دنياه، وهي وجوده الأول، وعلى ما بعده المعول أرحم وأرأف وأكرم وألطف من أن يهمل ما فيه صلاح حياته، ثم كمال ذاته وما يخطيه بالخير الدائم بعد مماته فهو متمّ نوره ولو كره الكافرون، والقائل في مخاطبة عباده: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون: الآية ١١٥].

ونشير فيها إلى رحمة المولى بالأنبياء هداة البشر الهداية . . .[١] وسريان الهداية في الناس لتوارث في سننهم وتبين فضل الله على الإنسان في تعليمه بالقلم، لتتميم النعم التي لم تكن لولاه ولا تتصل بسواه.

ثم نبين فضل التاريخ الذي لولاه لضاعت رسوم الدين، وماتت الهداية بموت الهادين.

ثم نأتي بالدول بين الغفل والمشهور، والمهموس والمهجور، ونجلب ما تعلق بأهدابها على حسب الندور، وما ينظم من الخرزات بين الشذور، ونجعل ذلك بمحاله من أماكن المعمورة من لدن أشرق صبح الإسلام المتألق النور البادي السفور، ولا ندعي الإحاطة بالأمور، ولا استيعاب حوادث الدهور، إنما نأتي بجهد المقدور، فنذكر شيئاً من أيام رسول الله ﷺ تبركاً بذكره، وافتتاحاً بأمره.

ثم نذكر من أيام الخلفاء رضي الله عنهم أيام أبي بكر الصديق، ثم أيام أبي حفص عمر بن الخطاب، ثم أيام أبي عمرو عثمان بن عفان، ثم أيام أبي الحسن علي بن أبي طالب، ثم أيام ابنه الحسن.

[١١/أ] ثم نذكر / أيام من بعد الخلفاء من الملوك، فنبدأ بدولة بني أبي سفيان ومنهم معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، ويزيد بن معاوية ولده، ثم معاوية بن يزيد.

ثم بدولة بني الزبير، ثم نأتي بدولة بني مروان بالمشرق أولاً، فنذكر أيام مروان بن الحكم، ثم أيام ولده عبد الملك بن مروان، ثم أيام ولده الوليد بن عبد الملك، ثم أيام ولده سليمان بن عبد الملك، ثم أيام عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، ثم أيام يزيد بن عبد الملك، ثم أيام هشام بن عبد الملك، ثم أيام الوليد بن يزيد بن عبد الملك، ثم أيام اليزيد بن الوليد بن عبد الملك، ثم أيام إبراهيم بن يزيد بن عبد الملك، ثم أيام مروان بن محمد بن مروان بن الحكم.

---

(١) موضع النقط طمس ثم كلمة غير مقروءة.

ونعيش في هذه الدولة المروانية ممن اجتلب الحديث فيهم وهم المبايعون قبل الاحتلام من ملوك الإسلام ثلاثة.

ثم في دولة بني العباس ببغداد فنذكر أيام أبي العباس السفاح، ثم أيام أبي جعفر المنصور، ثم أيام المهدي، ثم أيام الهادي، ثم أيام الرشيد، ثم أيام الأمين، ثم أيام المأمون، ثم أيام المعتصم، ثم أيام الواثق، ثم أيام المتوكل، ثم أيام المنتصر، ثم أيام المستعين، ثم أيام المعتز، ثم أيام المهتدي، ثم أيام المعتمد، ثم أيام المعتضد، ثم أيام المكتفي، ثم أيام المقتدر، ثم أيام القاهر، ثم أيام الراضي، ثم أيام المقتفي، ثم أيام المستكفي، ثم أيام المطيع، ثم أيام الطائع، ثم أيام القادر، ثم أيام القائم، ثم أيام المقتدي، ثم أيام المستظهر، ثم أيام المسترشد، ثم أيام الراشد، ثم أيام المقتفي، ثم أيام المستنجد، ثم أيام المستضيء، ثم أيام الناصر، ثم أيام الظاهر، ثم أيام المستنصر، ثم أيام المستعظم، وهو آخر ملوك الدولة العباسية ببغداد إلى أن تغلب عليها التتر.

وفي هذه الدولة العباسية ممن بويع قبل الاحتلام

الأمين، ثم المأمون، ثم المؤتمن، ثم ولد الأمين، ثم ولد المتوكل، ثم أخوه ثانية، ثم المعتز.

ثم نأتي بملوك وأمراء تعلقوا بأهداب هذه الدولة العباسية من بني بُوَيه، والمماليك السلجوقية التركية والديلمية، والملوك من بني حمدان بحلب، والملوك من بني طولون، وبني طغج بمصر والشام، وهم الأخشيدية وفيهم ممن شرطنا: / [١١/ب] الإخشيد بن طغج.

ثم نأتي بدولة الشيعة العبيديين الذين انتقلوا من تملك إفريقية إلى تملك المشرق فنذكر أيام عبد الله المهدي منهم، ثم أيام المنصور، ثم أيام المعتز، ثم أيام العزيز، ثم أيام الحاكم، ثم أيام الطاهر، ثم أيام المستنصر، ثم أيام المستعلي، ثم أيام الآمر، ثم أيام الحافظ، ثم أيام الظافر، ثم أيام القاهر، ثم أيام العاضد، وهو آخر بني عبيد الله ملوك الشيعة، وكان في هؤلاء العبيديين ممن بويع قبل الاحتلام: الحاكم بن نزار، ويوسف بن عبد المجيد.

ثم نأتي على ذكر دولة المماليك بالمشرق من الغُز والترك فنذكر: دولة الملك العادل نور الدين محمود، ثم دولة ولده الملك الصالح، ثم دولة أسد الدين...[١]، ثم دولة ابن أخيه صلاح الدين بعده بمصر والشام.

(١) موضع النقط طمس بالمخطوط قدره كلمة.

ثم ما اتصل به من الممالك إلى شجرة الدر.

ثم أيام الأمير أيبك.

ثم انتقال الأمر من الغُز إلى التُرك فنذكر: أيام الملك المظفر، ثم أيام الملك الظاهر، ثم أيام السعيد بن الظاهر، ثم أيام هلامش بن الظاهر، ثم أيام المنصور قلاوون، ثم أيام الملك الأشرف خليل، ثم أيام بيدلا، ثم أيام الملك الناصر وكشغا ولاجين وبيبرس، ثم استقامة الأمر للملك الناصر، ثم أيام ولده أبي بكر، وأيام ولده الآخر كجك، ثم أيام الثالث أجد، ثم أيام الرابع إسماعيل، ثم أيام الخامس شعبان، ثم أيام السادس حاجي، ثم أيام السابع حسن، ثم أيام حفيده شعبان أبي البركات الكائن على عهد هذا التعليق.

وكان في هؤلاء المذكورين بعد العباسيين ممن بويع قبل الاحتلام: ولد الإخشيد بن طغج بمصر، ثم شجرة الدُّر، ثم الملك الصالح ابن الملك العادل بحلب، ثم سلامش، ثم الملك الناصر، ثم كجك، ثم شعبان.

وبالحجاز الشريف أمراء علويون تعرضاً منهم على هذا العهد: الأمير عجلان بن رميثة بن محمود أبي سعد من ورثة آل جمان الحسني.

نرجع إلى ما يخص المغرب بما وراء برقة ونحسب الأغالبة من الملوك المستبدين لاستبداد أكثرهم، ونبدأ بذكر: أيام إبراهيم بن الأغلب، ثم بذكر أيام ولده أبي العباس، ثم بذكر أيام زيادة الله / أخيه، ثم أيام أبي العرانين، ثم أيام إبراهيم بن [١٢/أ]
أحمد الممقوت، ثم أيام أخيه العباس بن أحمد، ثم أيام أبي مضر زيادة الله الآخر.

ثم نذكر مرد مروان على عهد الشيعة بصقلية، ثم ننتقل إلى الأندلس ونبدأ بذكر: دولة المروانيين من بني أمية، فنذكر أيام عبد الرحمٰن بن معاوية أولهم، ثم أيام ابنه هشام، ثم أيام الحكم بن هشام، ثم أيام عبد الرحمٰن بن الحكم، ثم أيام ولده محمد، ثم أيام المنذر بن محمد، ثم أيام أخيه عبد الله، ثم أيام الناصر، ثم أيام المستنصر، ثم أيام هشام المؤيد، ثم أيام المهدي بن عبد الجبار، ثم أيام سليمان بن الحكم، ثم أيام المستظهر، ثم أيام المستكفي، ثم أيام المعتز والمرتضى، وفي هؤلاء ممن بويع قبل الاحتلام: هشام بن الحكم، ومحمد بن سليمان بن الحكم.

ونذكر ملوك بني حمود العلويين الذين دالوا بالأندلس، فنذكر: أيام علي بن حمود، ثم أيام القائم أخيه، ثم أيام يحيى بن علي، ثم أيام العالي، والمستعلي، ثم سائر الحموديين بإجمال.

ونذكر المشهورين من ملوك الطوائف كمثل: بني جهور بقرطبة، وبني عباد

بإشبيلية، وبني هود بسرقُسطة، وبني ذا النون بطليطلة، وبني الأفطس ببطليموس، وبني صُمادح بالمرية، وبني أبي عامر ببلنسية وغيرها، ومنذر بن يحيى بالثغور الجوفية، وبني زيري حبوس بن باديس وخافد له بغرناطة، وابن طاهر بمرسية.

والمماليك العامريين: خيران، وزهير، وموفق، وواضح، ولبيب، ومظفر، ومبارك.

وبعدهم ممن دون زمانهم: ابن حمدين، وابن حشون، وابن مردنيش، وابن هلال، وابن ممشك، وابن ملحان، وابن قيسي، وابن حجان، وابن الباجي، وابن عصام، وابن جعفر. وأضربنا عن كثير منهم احتقاراً.

ونذكر دولة محمد بن يوسف بن هود.

ثم أيام ولده أبي بكر من بعده، وهو ممن شرطنا من المبايعين بحال الصغر.

ونذكر دولة بني نصر: فأولهم محمد بن يوسف، ثم أيام ولده محمد الثاني عنه، ثم أيام ولده المخلوع، ثم أيام نصر أخيه، ثم أيام أبي الوليد ابن عمهم، ثم أيام ولده محمد، ثم أيام أخيه يوسف، ثم أيام ابن عمهم...[1] آل لمحمد بن يوسف الأمر من بعده والكثرة عليه.

[١٢/ب] وفي هؤلاء / النصريين ممن بويع في حدود الاحتلام وقبله: ثلاثة.

وننتقل إلى دول المغرب المتصل بحدود الشرق: ونبدأ من إفريقية من حيث خرجنا إلى الأندلس.

فنأتي بدولة بني الأغلب بعد أن نعد...[1] إفريقية قبلهم من عمال الخلف الصالح وأمرائهم.

ثم أيام إبراهيم بن الأغلب بن سالم، ثم أيام العباس بن إبراهيم بن الأغلب، ثم أيام زيادة الله بن إبراهيم، ثم أيام أبي عقل الأغلب بن إبراهيم، ثم أيام أبي العباس محمد بن الأغلب، ثم أيام أحمد بن محمد بن الأغلب، ثم أيام زيادة الله بن محمد بن الأغلب، ثم أيام محمد بن أحمد بن الأغلب، ثم أيام إبراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب، ثم أيام أبي العباس بن إبراهيم بن محمد بن الأغلب، ثم أيام ولده زيادة الله بن أبي العباس بن إبراهيم بن الأغلب.

ثم نأتي بدولة بني زيري بن هناد الصناجقة الذين تسلم لهم الدولة في ملك المغرب.

فنذكر ملوكهم بإفريقية، ثم بالمهدية.

---

(١) كلمة غير واضحة ومتراكبة الحروف.

فنبدأ بدولة بلقين بن زيري، ثم أيام المنصور بن بلقين، ثم أيام باديس بن المنصور، ثم أيام المعز بن باديس، ثم أيام تميم بن المعز، ثم أيام يحيى بن تميم، ثم أيام علي بن يحيى، ثم أيام الحسن بن علي بن يحيى.

ومن بني حماد بن بلقين أبناء عمهم المنفردين بقلعة حماد فنذكر منهم: أيام حماد، ثم أيام ابنه القائد، ثم أيام محسن ابن القائد، ثم أيام بلقين بن محمد بن حماد، ثم أيام الناصر عباس بن حماد، ثم أيام المنتصر وابنه، ثم أيام أباديس بن المنصور، ثم أيام العزيز بن المنصور، ثم أيام يحيى بن العزيز.

وفيهم ممن بويع قبل الاحتلام: باديس بن المنصور، وتميم بن المعز، والعزيز بن عباس.

ونذكر نبذة من أخبار صقلية، وبعض من ولي الأمر من قبل أمراء إفريقية.

ونذكر دولة بني حميد بالمغرب الأقصى والريف ودارهم أو مدينة تكور.

نذكر منهم أيام صالح بن منصور، ثم أيام المعتصم بالله، ثم أيام إدريس بعده، ثم أيام صالح بن سعيد، ثم أيام سعيد بن صالح، ثم أيام صالح بن سعيد، ثم أيام ابن عمه المؤيد بن البديع، ثم أيام إسماعيل بن موسى بن علي، ثم أيام عبد / [١/١٢] السميع بن...[١]، ثم أيام محمد بن عبد السميع، ثم أيام عبد السميع، ونذكر مصير إبراهيم لبني الفتوح الازداجي فملك يَعْلى بن الفتوح، ثم ولده يوسف، وولده عزيز بن يوسف إلى أيام لمتونة.

ثم نذكر دولة الأدارسة العلويين الذين ظهروا بالمغرب مُفْلِتاً أوّلهم من الإيقاع بأهل البيت، فنأتي منهم: بأيام إدريس بن عبد الله، ثم أيام ولده محمد بن إدريس، ثم أيام ولده علي بن محمد، ثم أيام علي بن إدريس، ثم أيام المقدام يحيى بن القاسم بن إدريس، ثم أيام يحيى بن إدريس بن عمر، ثم أيام الأمير الحسن بن محمد بن القاسم بن إدريس.

ونذكر شيئاً من أخبار ابن أبي العافية الذي نازع الأمر ولده. ثم أيام قنون بن محمد بن القاسم، ثم أيام أبي العيش ابنه، ثم أيام الحسن بن قنون أخيه.

ثم نذكر في هذه الدولة ممن بويع قبل الاحتلام اثنين: إدريس بن إدريس، وعلي بن محمد بن إدريس.

ونذكر بعد ذلك دولة بني مدرار ومن قبلهم بسجلماسة من الصفرية فنذكر: أيام عيسى بن يزيد، ثم أيام أبي الوزير إلياس بن القاسم، ثم أيام أبي الخطاب الصفري،

---

(١) طمس خفيف جعل الكلمة غير مقروءة.

ثم أيام أليسع بن مذرار، ثم أيام مالك بن أليسع، ثم أيام ابن تقية، ثم أيام أليسع بن مذرار، ثم أيام الفتح ابن الأمير، ثم أيام أبي العباس أخيه، ثم أيام المعتز بن محمد بن مساور، ثم أيام محمد بن المعتز، ثم أيام المنتصر سمعون بن محمد، ثم أيام الفتح ابن الأمير، ثم أيام من ملكها من مغراوة وغيرهم إلى دولة بني مرير أعزّها الله وأبقاها.

ونذكر بعد [ذلك][1] دولة بني خرز بالمغرب، وأيام زيري بن عطية، وابنه المعز، وأيام حمامة بن المعز بن عطية، ثم أيام محمد بن دوناس بن حمامة، ثم أيام الفتوح بن دوناس، ثم أيام مع النصر بن المعز بن زيري، ثم أيام مع تميم بن النصر.

ونذكر دولة بني يفرن من زناتة أيام يعلى بن محمد اليفريني، ثم ولده يدق بن يعلى، ثم تميم بن زيري، ثم محمد بن تميم إلى دولة لمتُونة ثم دولة بني تجين، وبني توالي وغيرهم من زناتة بإجمال واختصار.

ونذكر دولة برغواطة وإن كانت غير محسوبة من دول الإسلام ولكنها مما نذكر بحكم الانجرار، فمنهم: صالح بن طريف، ثم إلياس بن صالح بن طريف، ثم يونس بن إلياس بن صالح، ثم أبو عمر معاذ بن يونس، ثم [أيام][2] عمر بن معاذ بن / [١٣/ب]
يونس، ثم... [3] أليسع بن إسماعيل إلى دولة المرابطين، وآخر دولتهم عيسى بن أبي الأنصار.

ثم نذكر دولة لمتونة المتسمين بالمرابطين فنذكر: أيام الأمير يحيى بن إبراهيم الجد ثم [أيام] يحيى بن عمر، ثم أيام الأمير أبي بكر، ثم أيام الأمير يوسف بن تاشفين، ثم ولده علي بن يوسف، ثم تاشفين بن علي، ثم إبراهيم بن تاشفين.

ثم نذكر دولة المؤمنية المدعو قومها بالموحدين. نبدأ بخبر المهدي، ثم أيام خليفته عبد المؤمن، ثم أيام يوسف بن عبد المؤمن، ثم أيام يعقوب بن يوسف، ثم أيام الناصر بن يعقوب، ثم أيام المنتصر ابنه، ثم أيام عبد الواحد المخلوع، ثم أيام العادل، ثم أيام يحيى بن الناصر، ثم أيام المأمون إدريس، ثم أيام الرشيد، ثم أيام السعيد، ثم أيام المرتضى، ثم أيام الواثق.

ونذكر بعد ذلك دولة الحفصيين بتونس المقتطعة من دولة الموحدين بمراكش فنبدأ: بأيام الأمير أبي زكريا، ثم أيام المنتصر بالله ابنه، ثم أيام يحيى الواثق بالله، ثم أيام إبراهيم أخي المنتصر.

---

(١) زيادة يتطلبها السياق.

(٢) زيادة يتطلبها السياق.

(٣) كلمات مطموسة تقدر بثلاث كلمات.

ونذكر حديث ابن أبي عمارة.

ثم أيام أبي حفص، ثم أيام أبي عبد الله بن الواثق، ثم أيام أبي بكر بن عبد الرحمٰن، ثم أيام خالد بن يحيى، ثم أيام أبي يحيى اللحياني، ثم ولده أبي ضربة، ثم أيام يحيى بن أبي بكر بن يحيى، ومن نازعه على عهده من ابن اللحياني وابن أبي عمران، ثم أيام ولده أبي حفص عمر، ثم الفضل أخيه، ثم أيام أخيه أبي إسحاق إبراهيم، وولده خالد، ثم أيام ابن عمه أبي العباس المستقر فيها إلى هذا العهد.

ثم نذكر دولة بني ريان بتلمسان وما يليها: أيام أوّلهم أبي يحيى يعمر بن زيادة، ثم أخيه موسى بن عثمان، ثم أيام ابنه أبي تاشفين، ثم أيام عثمان بن عبد الرحمٰن، ثم أيام أبي حمئوا موسى بن يوسف بن عبد الرحمٰن بن يحيى بن يعمر ابن أميرها إلى اليوم.

ونذكر من استبد بسبتة مثل سفوت البرغواطي، ثم أيام ابن خلاص، ثم اليشتي، ثم أبا القاسم الغربي، ثم أبا حاتم ابنه، ثم أخاه ابن طالب، / ثم ولده [١/١٤] يحيى، ثم ابنه محمد بن يحيى، ثم ابن عمه محمد بن علي.

ونأتي بالدولة الطاهرة الزكية المرينية، فنذكر: القائم بها الأول عبد الحي بن محمد، ثم بنيه الثلاثة: عثمان، ومحمد، وأبا يحيى، ثم أمير المسلمين أبا يوسف، ثم أيام ولده أبي يعقوب، ثم تصيير أمره إلى عهدة أخيه جعدة، ثم إلى أخيه أبي الربيع. ثم أمير المسلمين أبي سعيد، ثم أمير المسلمين أبي الحسن، ثم إلى أمير المسلمين أبي عنان، ثم ولده أبي بكر، ثم إلى أمير المسلمين أبي سالم، ثم إلى ابن أخيه أبي زيان محمد بن أبي عبد الرحمٰن، ثم إلى بركة الإسلام، وشرف تلك الأيام، وعلم هؤلاء الأعلام أبي فارس قدّس الله أسرارهم، ورفع في محل المُلك الباقي أقدارهم.

وإنما أخرنا هذه الدولة الكريمة ليكون ذكرها الطيب الحلاوة في الأفواه باقية وحَسَنَةً في الكتب شافية واقية، وكفى بالمثل في قولهم:

«ساقي القوم آخرهم شرباً»

حُجّة، ويقول الشاعر شاهداً لا تلتبس منه محجتها:

لا تأنفن من التأخر ربما	كان التأخر فاضلاً لم يفضل
هذا كما البستان ليس يضره	أن جاء في عقب الغمام المُسبلِ
وتقدم البطل الكتائب أحمدا	أعقابها حتى تقرّ بمنزلِ
وكذلك الراعي يُقدم بالعصا	قطع السوائم أولاً في أوّلِ
وتأخر الساقي عن الشرب الذي	يسقيه من أمثال كل ممثّلِ

أو ما ترى أن النبي محمداً ساد البرية وهو آخر مُرْسَلِ

ثم نختم الكتاب بتقرير فضل الدولة المرينية على كل دولة ما عدا ما يختص بصحابة رسول الله ﷺ إذ لهم فضل الزمان والمكان والاستباق إلى الهدى والإيمان والرفعة بلقاء رسول الله ﷺ شرف الأكوان ومصطفى الرحمن.

ونرفع في هذه الدعوى ميزان الإنصاف الذي لا يظلم مثقال ذرة إلاّ وَفّى بها، وأشهر انتسابها حتى يدعى المعلنين لحجة الحق، ويقصر الفضل على الأولى به والأحق. وحسبنا الله ونعم الوكيل.

[بسم الله الرحمن الرحيم][1]

/ المقدمة التي نسبق بها الوعد ونفتتح بها هذا القصد [١٤/ب]

من يسبق بدورة السياسة ورجوع الخلق إلى دور الإقرار والرياسة، وبيان علم الله في أن علّم بالقلم، علّم الإنسان ما لم يعلم، والإشادة بفضل التاريخ تتجلى بصراحة. . . . .[2] تفرّد به هذا الكتاب بأن الله اللطيف الخبير الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، ولم يهمل شيئاً من مخلوقاته كائناً ما كان الذرة فما فوقها مقدّر بذلك ومفروغ منه عنده قبل وجود المخلوق، سبحانه لا إله إلاّ هو.

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

فلا يعمل الناظر المعتبر النظر في شيء من أعضائه أو أجزاء خلقه إلاّ وجد خلقه على ذلك الشكل وتلك الصورة لمنفعة ملحوظة أو لحكمة مقررة أو لزينة ملموحة مستحسنة.

فمن ذلك ما يجمع بين المنفعة والضرورة والزينة، ومنه ما لا يظهر منه التي تظهر منه.

مثال ذلك فيما يجمع بين الزينة والضرورة: اليدان، فإنهما زينتا الشكل من عن يمين وشمال، وكان في جريهما عن جنبي الضرورة.

الجوف، فيه مسكن الروح، زيادة صون وتكثير سياج لعزّة الروح والاحتياط عليه. ثم تعددت المنفعة في أشكال اليدين، فلولاهما لم تتأت المدافعة والاتقاء عن محل الروح، ولا صدرت الصنائع العملية التي بها يتمشى المعاش.

ثم تكثر المنافع بالكفين والأصابع التي تعين عند القبض.

---

(١) زيادة تبركية تسبيح لابتداء موضوع الكتاب وهي من عمل المحقق غفر الله تعالى له.

(٢) موضع النقط طمس وكلمات متراكبة الحروف.

ثم جعل في أطرافها الأظفار للقط الأشياء الحقيرة وإخراج الشوك، وقتل الحيوان المؤذي.

ثم كانت في أطراف الأصابع زينة ومنفعة مثل الأسنة فهي للعصي، وكالحواجب فإنها جمعت الزينة، وجعل منها فوق العينين رفرف بارز يقي ما تحته، ويتقي ما يصله من الأعلى كما تتخذ فوق الأبواب السهة والرواشن[1] المزخرفة.

وكأشفار العينين، فإنما جمعت بين الزينة والمنفعة إذ كانت في حرف الجفن كأهداب الثياب التي تزين بفتل أطرافها وجُعل منها ذلك من باب يُشرد بها الذباب عن العين دائماً.

وهذه أمور لو لم تكن لم تتعذر مع عدمها حياة الإنسان لكن عناية الله بكماله وخلقه في أحسن التقويم اقتضت ذلك فسبحان الحكيم العليم.

[1/15] فهذا مثال ما جمع / بين المنفعة والزينة.

ومثال ما انفرد بالزينة فقط: اللحية، فبها الفرق بين الذكر والأنثى حتى في بعض الطيور حكمة من الله الحكيم العليم لا إله إلاّ هو وجعل سبحانه وتعالى أجناس الحيوان كله من خلقه بين عاقل يدبّر ويقيس ويعلّم ويعلل، وفيهم غير عاقل جعل طباعه ما يكفيه لضرورة معاشه.

والكل بميزة متميزة، كان لا بد من اجتماع واستعانة بعض ببعض كالإنسان.

وبين ما يوهم...[2] في ظاهر أمره كالنحل...[2] في شأنه الظاهر وهم سائر الحيوان. وكان التميز بالعقل والفهم وصحة الفكر، وقوة النطق للإنسان وهم نوع البشر الذين أخرجهم من ظهر آدم صلوات الله على نبينا وعليه ليعمر بهم الأرض، ويقيم عليهم الحجة بالفكر والعقل، ويعمّر بهم من بعد ذلك داري البقاء: الجنة والنار ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: الآية ٣١]، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الأنعام: الآية ١١٥].

ولما أوجب الفكر والتدبير في الإنسان محاولة معاشه وإحكام الأمور الضرورية في حياته من مطعوم يقويه، وملبوس يدفيه، ومسكن يأوي إليه ويصون قوته.

ولم يكن يكفي نفسه في ذلك ما لم يحتج لغيره فإنه إن حرث يحتاج إلى آلة الحديد أو الخشب واحتاج من يعمل له الآلة إلى غير نفسه فيمن يعينه.

(١) جاء بهامش المخطوط تعريف بكلمة: «الرواشن» نصها: الرواشن بالنون روشن: الكوة. قلت: والكوة: هي الفتحة أو ما نسميه نحن الشباك أو الطاق.

(٢) كلمات غير مقروءة.

وكذلك فيما يخاط أو يبني أو ينسج أو يطبخ أو يخبز أو يجزر.

وكان الإنسان فيما يحتاج إليه من ذلك كله لا يقنعه فيه أنه وراء...[١] يتشوّف من حيث العقل والفكر إلى التزايد في طلب الأفضل والأكمل لزم الاجتماع والاستعانة من بعض ببعض، فهذا يخبز، وهذا يخيط، وهذا يحرث، وهذا يصطاد، فكان متمدناً بطبعه ومفتقراً بعضه لبعضه، ولا بد من الاجتماع والتآلف والتعامل والاستجارة والمشاركة.

ولما تعينت مبايعات ومعاملات ومشاركات لم يكن بد فيها من أحكام وشروط وحدود وأمور بإزاء ما يقع فيه فساد أو ظلم أو غش أو مطل أو تعدي أو مضايقة جوار [كان لا بد][٢] من أحكام وقوانين وعوائد وسنن وشيء يُسَمّى عدلاً وإنصافاً، ولزم وجود من ينظر في ذلك ويحكم بينهم فيه ويبين لهم الصواب ويحملهم عليه وينهاهم عن غيره.

وكان من شروط أن يكون من جنسهم بشراً منهم يخاطبهم بلسانهم ويبين لهم الصواب من غيره في جميع أمورهم / ويخبرهم في الأمور الظاهرة ويخوفهم في [١٥/ب] الأمور الباطنة من الملك القاهر فوق عباده وهو الله سبحانه وأنه يعلم أمورهم الظاهرة والباطنة.

ولزم أن يكون له عليهم مزية في الفضل ومعرفة في الخير وبرهان على ما يأتي به عن غائب.

فبعث الله فيهم ـ وهم أمّة واحدة ـ النبيين مبشرين ومنذرين ليحكموا بين الناس فيما اختلفوا فيه، وليقرروا لهم الأمور التي تصان بها أموالهم وأنفسهم وتحسن بها معاملاتهم ومجاوراتهم في الدنيا، ثم ما تختص به أحوالهم من بعد انصرافهم عن الدنيا، وأيّدهم بالدلائل الساطعة والبراهين القاطعة ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النّساء: الآية ١٦٥].

وكيف يهمل اللطيف الخبير بعباده الذين [خلقهم و] ظهرت حكمته حتى في الإصبع والظفر والحاجب وشعر العينين ـ كما قلنا ـ هذه الضرورة التي تقتضي سعادة خلقه في العاجلة والآجلة؟

حاشى وكلا، فهو أرأف وأرحم لهم ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التّوبة: الآية ٧٠]، فأرسل سبحانه الرسل صلوات الله عليهم فنصحوا وبيّنوا وأوضحوا حجج الله، صادعين بأمره موقنين بعهده.

---

(١) طمس في المخطوط.

(٢) ما بين المعقوفين زيادة يتطلبها سياق الكلام.

وورثهم من بعدهم علماؤهم ووزّائهم إلى أن ختم الله الرسالة والنبوة برسوله وعبده النبي العربي خيرة خلقه وصفوة أنبيائه، وجعله مهيمناً على الجميع وحجّة على الرسل صلى الله عليهم وسلّم.

فكان من سير الناس وأحكامه ودخول الناس أفواجاً في أمره وإنجاز الله لوعده بعموم أمره وبلوغ مُلك أُمّته ما زوى له من الأرض ما هو معروف.

ومن حيث كان رسول الله ﷺ بشراً ألزمه ما لزم كل الأحياء من شرب كأس الموت والانتقال من دار الدنيا إلى دار الآخرة، قال الله عزَّ وجل يخاطبه: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ۝﴾ [الزُّمَر: الآيتان ٣٠، ٣١]، وقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٤٤] الآية.

وأُشعِرَ باقتراب الأجل عند فراغه من التبليغ والهداية، فأنزل الله عليه: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝﴾ [النّصر: الآيات ١-٣]، فعلم ﷺ أنه منعي فيما نقل.

[١/١٦] قال بعض المفسرين: إن عمر بن الخطاب سأل ابن/ عباس رضي الله عنه عن تأويلها، فأخبره أن الله تعالى أعلم نبيه فيها انقضاء أجله.

فقال عمر: ما أعلم فيها إلاّ ما قلت.

حتى كأن النبي ﷺ كان أشدّ اجتهاداً في أمر الآخرة.

وكم تعهدنا والنبوّة لم تنقض زمانها ولا ذهب ريعانها، فسبحان من كتب اللطائف ثم أمضاها، وعرف المنن ثم أبقاها وحفظها، وعيّن طريق النجاة ثم هدى إليها وألهم إلى المقاصد المبرورة ثم أثاب عليها، لا إله إلاّ هو الرحمٰن الرحيم.

فصـــل

في لطائف الله تعالى أن علَّم بالقلم علَّم الإنسان ما لم يعلم

ولما تقدم من لطف الله جلّ جلاله بعالم الإنسان ما تقرر في جعله متآلفاً مجتمعاً مستعيناً بعضه ببعض ليكون له الفضل في معاشه وضروريات بقائه والكمال على غيره، كما له الفضل على الغير بمزية عقله وتقديره ووجود فكره ورؤيته وقبوله للصنائع والعلوم، وترقيه في طلب المزيد من الكمال حتى حسن عيشه وطابت حياته.

ووجب أن نبيِّن فضل الله عزَّ وجل عليه في تعليمه بالقلم وإلهامه إلى الاكتتاب الذي ينوب عن النطق فيما يتعذر فيه النطق أو لاختيار توجيه فضله وترجيح العوض عن النطق أو بعد مكان يفصل بين المختلطين. وإقراره سبحانه وتعالى على الاعتياض عن النطق في جملة ما قرره عليه من اكتتاب الصنائع والعلوم والملكات إما بما يقوم من حال الشيء ويقوم مقام الشيء كما قال القائل يصف حوضاً قد امتلأ وفاض، فقال:

امـتـلأ الـحـوض وقـال بـطـنـي

فكأن هيئته تنوب لفهم الإنسان مناب قوله، وإن لم يتكلم.

وإمّا بإشارة تنوب عن النطق: كما يجري عليه أحوال من فُقد الغرض منه وبه يجري نيابة الإشارة عن الكلام كما نشاهده كثيراً، ولذلك يقول الشاعر:

أرادت كلاماً فاتقت من رفيقها فلم يك إلاّ وَمؤها بالحواجب

وإمّا بالكتاب: وهو أشرف ما ناب عن النطق والكلام، وأشد أمانة على أداء ما يراد منه أداؤه، فَقَلّ أن يتحيفه أو ينقصه أو يخونه بل يؤديه بحاله ويبلغه بكماله ويدفع حكم الأسماع عن سره ويوصله إلى قوة النفس التي تتدبره في الإنسان بواسطة بصره منفرداً إذا شاء عن غيره، ثم يحكم فيه خاصة الاستماع إذا شاء عند جهره وإعلانه والخروج في الأمر عن كتمانه، وفي ذلك قيل:

/ للّه في هذه الجوانح سريرة من كاتب منها وخلف... (١) [١٦/ب]

... ... (١)

(١) بيت وبعض الكلمات المطموسة.

. . .[١] أما لفظه الكون من أسراره مهما اعتبرت معلم الأشياء

فبان بذلك أن ذلك من مزيد الكمال على مخلوقات الله وعرَّف ملائكته الكرام الكاتبين كانت المزية تماماً على التي أحسن الله به من إيداع خلقه وتيسير ضرورة نيابته، وتبعث تلك المزية منافع ماسة إليها حاجة من يدبر دُنياه وأراد قضاء الشيء من حكمة دنياه مما يتناوله ووظائف القلم كالحساب والقسم والمساحة، وإنفاذ صيغ الأمر والنهي والخبر والاستخبار بين متولي تدبير الجماعات وبين غيره، ومن ذلك توارث الصنائع والعلوم الضرورية للإنسان التي لو لم تكتب لماتت فوائدها بموت من يستنبطها أو يتممها أو يغرب المقاصد إليها من طب، وفلاحة، ونجوم، وكيمياء وغير ذلك.

وأما من جهة دينه: فكنقل الشرائع والسنن والأحكام وإلاّ ماتت بموت من سنّها وشرّعها عند موته، ولو فرض نقلها خلف عن سلف من غير كتاب لم يؤمن عليها كذب الناقلين وافتيات الواضعين والتباس الصحيح بالسقيم، واختلاط البريء بالمريب لولا الكتاب الذي بيّن حال الناقلين من جهة العدالة وغيرها، ويعني بارتهان الصحة فيه ناس متفق على ثقتهم.

ثم نجمل القول فنقول: فكان الإنسان كما تقدم وتقرر مفتقر إلى الاجتماع والتمدن مفتقر إلى معاملات ومشاركات ومؤاجرة وعدل في ذلك، وتلك المعاملات مفتقرة إلى من يسنّ بين أهلها كلما تنازعوا سُنَناً وأحكاماً يوقَف عندها، وتلك الأحكام مفتقرة إلى الإذعان والوقوف بالظاهر والباطن عندها لتصديق من يسنها ويقررها وتعظيمه وتهيبه ساحته حتى لا تسهل مخالفته لما امتاز به من شواهد الصدق ودلائل النبوّة، فإن منزلة النبي [أن][١] له المثل الأعلى وبه شغل المتكلمون عند ذكر المعجزات كلما جاء بالمعجز مستدلاً به على توسطه بين الله وبين عباده وصدقهم إياهم عنده بمنزلة من يقوم بين يدي الملك بمحضر رجاله وعبيده، فيقول لهم: الملك
[١/١٧] يأمركم بكذا أو ينهاكم عن كذا، وأنا أبلغكم عنه / ودليل صدقي فيما أبلغه أن أطلب من الملك إمارة من مزية أو مثل ذلك بعد فراغي مما نقلته عنه إعلاماً بصدقي.

ويطلب ذلك من الملك، فإذا قرر مراده منهم فعل الملك ما طلبه منه المبلِّغ فلا يكذبه بعد ذلك إلا معاند بعيد عن الحق قد طبع الله على سمعه وبصره وقلبه.

ثم كانت تلك الأحكام والسنن مفتقرة لأن تكتب لكي ترسخ ويجمعها المتّبع بعد انقراض الجيل وموت الرسول عظة جليلة ووصية باقية.

---

(١) زيادة يتطلبها السياق.

ولذلك قال رسول الله ﷺ: «عليكم بكتاب الله وسنّة رسوله، عضوا عليها بالنواجذ».

فكتبت الصحابة رضوان الله عليهم القرآن كما أنزله الله على نبيه، وكتب عنهم السنن التابعون لهم بإحسان، وتمّ أمر الله واستقام السير على ما جاء به رسوله وأنفذته الخلفاء، ثم الملوك بعدهم، والأمراء بالأقطار والأمصار التي بلغها الدين وأشرق عليها النور المبين.

والكلام في اللغات، وصور المكتوب وحروفه وأشكاله وإعطاء علل ذلك يخرج الخوض فيه عن الغرض. وفي هذا المقدار. . .(١) ويتعلق بهذا شرف التاريخ.

فصل

في شرف التاريخ

نقول: كان هذا المنقول الذي علّقنا به صلاح الدنيا والآخرة يرجع بأجناس ما يكتب ويعرف ويلقب إلى فن التاريخ، وحقيقته نقل الأخبار وإثباتها بإزاء ما يقارنها من الأخبار الزمانية والتواريخ المنقولة ما بين تاريخ زمان كغرض كُتب السيرة المعروف بابتداء أمر الإسلام، وأحوال رسول الله ﷺ في دعاء الخلق إلى الله، وما جرى بينه وبين العرب في ذلك، وما جاءهم به من معجزة، وحال هجرته إلى المدينة، وغزواته، ووفود العرب عليه، وسيره في أهله وصحبه، وكأخذه ومشاركته إلى أن توفاه الله إليه. ثم ما وقع أثناء تلك المدة من الحديث الذي هو أحد الأصول كبيان(٢) أحكام الشريعة من بعده، وتاريخ رجال، وككتب الصلاة، والتعديل والتجريح.

فلو لم يكن في التاريخ من شرف إلاّ هذا لكفي؛ إذ ثبت أنه الأصل الذي تفرّع عنه تفسير الكتاب والسنّة والتنبيه على ناسخها ومنسوخها وغريبها، ومعرفة رجالها، وبسقت من جوهره عظمة أحكامها وأفنان حلالها وحرامها إلى ما فيه الاعتبار والاستبصار والاتعاظ والازدجار / والتأتي بجولان الليل والنهار. [١٧/ب]

فمتى فتح الله على من زاول هذا الفن أبواب الرجاء ومدّ عليه ظلل العافية وطوّع له قصياه إلا نال نظر بمعزله تحفظه، واستحضر. . .(٣) والمترفين في الزمن السالف يعكره، ولم يبطره الغنى ولا لعبت به الدنيا. . .(٣) ولأن القصد بالإنسان إنما

---

(١) بياض في الأصل قدره كلمة.

(٢) في المخطوط: كبنيان، وهو تحريف.

(٣) موضع النقط كلمات مختلطة المداد.

هو مستقره، وإن ما فضل له من الدنيا ذخرة فاز وشكر لطف الله على ما ناله من فضله العاجل ولم يشغله عن العمل للآجل، ويسأل من أعطاه الإرشاد الوصول إلى مراضيه، وأحسن لما أحسن الله إليه، وانتهز الفرصة فيما يقدمه من ذلك بين يديه من خير حاضر عند القدوم عليه، واعتبر بأرباب الدنيا وخروجهم منها كما دخلوها، وصدورهم عن مواردها عطاشاً كالذي وردوا ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: الآية ٩٤]، ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ(١) أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: الآية ٤٨]، وأخذ بالقصد، وآثر فضل الرفق، ولم يتَعَنَّ في استعجال الحظ فكان من الذاكرين الشاكرين والمعتبرين المستبصرين، وإن كانت الأخرى وتعاصاه زمان أو تعذر أمان أو ضيق معاش أو عوز انتعاش تأسى بالفضلاء الذين حماهم الله الدنيا وجنبهم الغرور بها وما لقوا من الشدائد وتجرعوا الغصص، وكابدوا من الضراء ولم يكونوا أولى بذلك منه ولا أجد ريبة دونه فعلل الحلم باليقظة، وارتقب الصبح في الظلمة، والفرج في الشدّة، وعرض على نفسه النبأ العظيم، وما بعده حتى يرى كل أليم بالنسبة إليه لذّة، وكل نصب راحة ما لم يكن على بصيرة من حسن المآل والعرض الدائم بعد الانتقال، فكان من الراضين الصابرين والمسرعين العابدين، ولم يكن على فوات حظ الحلم من المستحسرين إلى ما تفيد مطالعة التاريخ من خلق جميل وسيرة حسنة، وعلاج فرح وإعداد أمر، وإتيان محمدة، واجتناب مذمة، وأنس مجلس، واستحضار حجة، وازديان بأدب، وتمسك من الكمال بسبب.

وقد ورد في كتاب الله جلّ جلاله من إطراء فن التاريخ ما فيه مفخرة لأهله، وشرف لمن آثر سلوك سبله، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا
[١٨/أ] كَانَ / حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ [يوسف: الآية ١١١].

وقال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾﴾ [يوسف: الآية ٣].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا(٢) فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ [الروم: الآية ٩].

ومطالع التاريخ سائر في الأرض وجائل في الطول منها والعرض يعرف من كُتّابه من تاريخ الأمم الخالية، والأجيال الماضية، والرسل المبعثة، والمثلات والمواعظ بما يشهد بأنه عمدة في الدين، وسبيل من سبل المهتدين.

(١) في المخطوط: ظننتم، وهو سهو من الناسخ.
(٢) في المخطوط: يعبر، وهو تحريف.

وقد كدنا نخرج عن القصد، فلنرجع إلى العرض المطلوب من هذا الغرض المجلوب.

رجع الحديث إلى التاريخ

قلت: ولما ابتعث الله نبينا [محمداً][1] ﷺ ونسخ برسالته الرسل، وجعله شهيداً عليهم، وأمته شهداء على الناس، بَلّغَ ما أمره الله به، فلم يدع شيئاً من نصائح الدنيا والآخرة إلاّ علق عليه قسطاساً قويماً، ونهج للعدل فيه صراطاً مستقيماً، وأنجز الله له وعده في علوّ كلمته وشيوع دعوته، وقال الله تعالى على لسانه يخاطب المسلمين: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: الآية ٣].

واختار له عنده دار كرامته الباقية ومعارج قدسه الراقية.

وروي عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ كثيراً ما نسمعه يقول: «إن الله يقول: إن الله لا يقبض نبياً حتى يخيِّره»، فلما احتضر رسول الله ﷺ كان آخر كلمة سمعناها منه وهو يقول: «الرفيق الأعلى من الجنة»، فقلت: والله لا يختارنا، وعرفت أنه الذي كان يقول لنا: «إن نبيّاً لا يقبض حتى يخيّر»[2].

وفي سنة عشرة من الهجرة خطب ﷺ خطبة الوداع، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: «أيها الناس اسمعوا قولي وأطيعوا فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا، بهذا الموقف أبداً، أيها الناس إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في مكانكم هذا، وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، وقد بلّغت، فمن كان عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها، وأن كل دم موضوع، [وكل ربا موضوع][3] ولكم رؤوس أموالكم لا تَظلمون ولا تُظلمون. أما بعد: أيها الناس، فإن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم هذه أبداً فاحذروه/ على دينكم». [١٨/ب]

ثم قال بعد: «وقد بلغت وتركت فيكم أمرين إن اعتصمتم بهما لن تضلوا: كتاب الله وسنّة نبيه، والمسلم أخو المسلم، فلا يحل لمسلم من أخيه إلاّ ما أعطاه عن طيب نفس، فلا تظلموا أنفسكم، اللهم قد بلغت؟».

فقال الناس: اللهم نعم.

---

(١) ما بين المعقوفين موضعه في المخطوط بياض.
(٢) طرق الحديث عند القرطبي في تفسيره (٦/ ١٣٢).
(٣) زيادة من بعض مصادر الحديث.

فقال النبي ﷺ: «اللهم اشهد».

وعن عبد الله بن مسعود قال: نعى لنا نبيّنا ﷺ نفسه قبل موته بشهر فجمعنا في بيت أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها، فنظر إلينا ودمعت عيناه وقال: «أوصيكم بتقوى الله، أوصي الله بكم، وأستخلفه عليكم، أن لا تعلوا على الله في عباده وبلاده، فإنه قال لي ولكم: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص: الآية ٨٣]، وقال: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾» [الزُّمَر: الآية ٦٠].

ثم قال: «قد دنا الفراق، والمنقلب إلى الله، وإلى سدرة المنتهى، والرفيق الأعلى، وجنة المأوى»(١).

وتوفي ﷺ يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول سنة إحدى عشرة، ودفن في ظهر يوم الثلاثاء بعده.

وعظم حزن المسلمين عليه، وكان ضجيج الناس بالمدينة يسمع من البقيع، ودون ذلك للمصيبة برسول ﷺ.

وكثرت الأشعار في رثائه والتفجع لذلك، ومما هو معروف من كلام شاعره حسان، وأبي سفيان بن الحارث وغيرهما، وقالت بنته فاطمة رضي الله عنها بعد أن رجعت إلى بيتها، واجتمع إليها النساء:

اغبر آفاق السماء وكورت ... شمس النهار وأظلم العصرانِ

فالأرض بعد النبي كئيبةٌ ... أسفاً عليه كثيرة الرجفانِ

فليبكه شرق البلاد وغربها ... والبيت ذو الأستار والأركانِ

يا خاتم الرسل المنير سراجه ... صلى عليك مُنزِّلُ الفرقان

وأظلمت الأرجاء يوم موت رسول الله، وساءت الظنون، وطأطأت الرؤوس، وأصبح الناس كالغنم المهملة في الليلة الشاتية، لولا أن الله جمع الشمل، وضمّ الفرقة، وآنس الوحشة، وحفظ الكلمة بأبي بكر الصديق، خير الناس بعد رسول الله ﷺ.

واستقام السبيل في توارث الهداية، والاقتداء، وأخذ الخلف عن السلف،

---

(١) أطراف هذا عند: الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (١٠/ ٢٨٦)، أبي نعيم في حلية الأولياء (٤/ ١٦٨)، البيهقي في دلائل النبوة (٧/ ٢٣١)، وابن كثير في البداية والنهاية (٥/ ٢٥٣)، الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (٩/ ٢٥)، والعراقي في المغني عن حمل الأسفار في الأسفار (٤/ ٤٥٥).

بشرط المحافظة في المنقول، واختيار الحامل الصون المحمول، فبلغ المأمول، ورتبت الفروع على الأصول.

[ذكر خلفاء رسول الله ﷺ]

/ ذكر خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه [١/١٩]

هو: عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تميم بن مرة. فكان علاج القَرح ودواء المصيبة القوية في [رسول][١] الله والرضا بقضاء الله والمحبة لرسول الله.

قالوا: لما بلغ موته أبا بكر الصديق رضي الله عنه، أقبل وعيناه تدمعان...[٢] ونفسه يتردد في صدره، وهو ـ مع ذلك ـ رابط الجأش والمقالة ظاهر الجلد حتى دخل على رسول الله ﷺ، فأكب، وقَبّلَ وجهه، وجعل يبكي ويقول: بأبي أنت وأمي طبت حيّاً وميّتاً، وانقطع لموتك ما لم ينقطع لأحد من النبوة فعظمت عن الصفة، وجللت عن البكاء.

ثم قال: اللهم فأبلغه عنا، اذكرنا يا محمد عند ربك ولنكن من بالك...[٣] من السكينة لم نقم لِمَا خلّفت من الوحشة.

ثم خرج، وقام خطيباً بخطبة جُلها الصلاة على رسول الله ﷺ، ثم قال: أشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وخاتم أنبيائه، وأشهد أن الكتاب كما نزل، وأن الدين كما شرع، وأن الحديث كما حَدَّث، وأن القول كما قال، وأن الله هو الحق المبين.

ثم قال: أيها الناس، من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حيّ لا يموت، وأن الله قد اختار لنبيه ما عنده على ما عندكم، وقبضه إلى ثوابه، وخلف فيكم كتابه وسُنته، فمن أخذ بهما عرف، ومن فرق بينهما أنكر. يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط، ولا يشغلنكم الشيطان بموت نبيكم ولا يفتننكم عن دينكم، ألا عاجلوا الشيطان بالخزي تعجزوه، ولا تنتظروا فيلتحق بكم.

فلما فرغ من خطبته بينما هو يفاوض عمر وأبا عبيدة، وغيرهما من الصحابة، وقد اجتمعوا إليه، جاء رسول من الناس يسعى فقال: تلافوا الأمر، واستدركوه إن الأنصار قد اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة يقولون: مِنّا أمير ومن قريش أمير.

---

(١) زيادة يتطلبها السياق.
(٢) كلمة مختلطة المداد لم أتبين قراءتها.
(٣) موضع النقط طمس بالمخطوط قدره كلمة تقريباً.

فانطلق أبو بكر وعمر، فأتياهم، فتكلم أبو بكر فذكر فضل الأنصار، وعظم حقها ثم ذكر قريشاً وعظم حقها.

ولما أخذ الكلام مأخذه، قام إليه عمر فقال: ابسط يدك يا أبا بكر، فضرب عليها فقال: إن قوتي من قوتك، فبايعه، ثم بايعه المهاجرون والأنصار.

ولما بويع جلس على المنبر من الغد، وقام عمر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، إن الله قد أبقى فيكم الذي هدى به رسولكم، وجمع أمركم صاحب رسول الله/ ﷺ وثاني اثنين إذ هما في الغار، فقوموا فبايعوه. [١٩/ب]

فبايع الناس أبا بكر بيعة العامة. ثم تكلم أبو بكر، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على محمد نبيه ﷺ، ثم قال: «أيها الناس إني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ الحق له، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلاّ ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم إلاّ عمهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم رحمكم الله».

وخطب الناس بعد ذلك اليوم ثم قال: «أيها الناس، إن الذي رأيتم مني لم يكن حرصاً على ولايتكم، ولكني خفت الفتنة والاختلاط فيما بينكم فدخلت فيها لهذا، وقد رجع الأمر والحمد لله إلى أحسن ذلك، وهذا أمركم اليوم قد رددته إليكم فقدموا من أحببتم، وأنا كأحدكم».

فأجابه الناس جميعاً: رضينا بك حظاً وقِسماً ونصيباً، فأنت الرضي، وأنت ثاني اثنين وخليفة رسول الله ﷺ على صلاتنا وهو حَيّ.

ثم أحدثوا له بيعة أخرى.

وكان رسول الله ﷺ قد وجهه ليغزو مع أسامة بن زيد، فلما توفي، قيل لأبي بكر: قد انتقضت العرب ولا ينبغي لك أن تغزو بجماعة المسلمين. فقال رضي الله عنه: والذي نفس أبي بكر بيده لو علمت أن السباع تخطفني من المدينة لأنفذت جيش أُسامة كما أمر رسول الله، ولو لم يبق في العرب غيري لأنفذته.

ونهض بقوة الله إلى ردّ العرب إلى الإسلام، وبنى ما كاد ينهدم من قواعده، وقال: والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه.

وعقد أحد عشر لواء، وضرب من عصى بمن أطاع، فجبر الكسر ورد الناس إلى الإسلام.

ثم جهّز الجيوش إلى العراق والشام وكان من أمره ما هو معروف. وجاءه

داعي ربه. . .(١) في لحاق صاحبه ﷺ ورضي الله عنه بعد مرضه أياماً.

وقيل له: لو أرسلت إلى الطبيب؟

فقال: قد أرسلت.

فقالوا: وما قال لك؟

فقال: قال لي: إني أفعل ما أشاء.

ولما ثقل، قالت له عائشة رضي الله عنهما: أتريد أن تعهد إلى الناس؟

قال: نعم.

قالت: فافعل وبيّن للناس / حتى يعلموا من الولي بعدك. [٢٠/أ]

قال: نستخير الله.

فقالت: إن أولى الناس بعدك عُمر.

فقال: نعم الوالي عمر، ونعم الرجل الخارج ـ يعني عثمان ـ وكان يلومه.

ولما أصبح دعا نفراً، فاستشارهم واحداً واحداً حتى رأى ما لديهم.

ثم اضطجع، ودعا بعثمان، فكتب: هذا ما عهد به أبو بكر بن أبي قحافة خليفة محمد رسول الله ﷺ عند آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة، داخلاً فيها في الحالة التي يؤمن بها الكافر ويتقي الفاجر ويصدق الكاذب، إني أستخلف عليكم عمر بن الخطاب، فإن عدل واتقى فذلك ظني فيه، وإن بدّل أو غيّر، فالخير أردت، ولا يعلم الغيب إلاّ الله، ولكل امرىء ما اكتسب ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشُعَراء: الآية ٢٢٧].

ولما أوصى إلى عمر قال: لست أقبل خلافتك.

فقال: لا بد لك. . .(٢) عني.

فقال أبو بكر: يا غلام، السيف.

فقال عمر: إذا كان السيف فسمعاً وطاعة، قلّد أبو هشام في البهجة.

ثم توفي لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة من الهجرة، وهو ابن ثلاث وستين سنة، ولم يتلبس بشيء من الدنيا ولا غيّر من حاله من بعدما أفضت إليه الخلافة، وذكر أنه كان يسكن بالسيخ من خارج.

وكانت له قطعة من الغنم تروح عليه، وربما رعاها بنفسه، وكان يحلب للحي

(١) موضع النقط كلمة مختلطة الحروف أو متراكبة الحروف.
(٢) موضع النقط كلمات لم أتبين قراءتها.

مواشيهم، فلما بويع بالخلافة قالت جارية من الحيّ: إلاه لا يحلب لنا. وسمعها فقال: بل لعمري لأحلبنها لكم، وإني لأرجو أن لا يغيّرني ما دخلت فيه عن خلق كثير كنت عليه، ثم تولى بعد إلى المدينة[١].

ذكر خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه

وقام بأمر المسلمين من بعده أولى الناس وأفضلهم بعده، القوي الجريء بالله وفي الله، الفتاح الأغر والميمون النقيبة الفاروق بين الحق والباطل الذي لو سلك فجاً لسلك الشيطان غير الفج الذي سلك، أبو حفص عمر بن الخطاب بن نُفَيْل بن عبد العزى بن رباح بن قرط بن رزاح بن عدي بن كعب.

بويع يوم مات أبو بكر، خلف به صاحبيه وتسمى بأمير المؤمنين وكان قوياً في الله متواضعاً لله شديداً في ذات الله تعالى يلبس المرقوع ويشتمل بالعباءة، ويحمل القربة على كتفيه مع هيبة الله التي جللته، وعزّته التي شهرته، وفتح الفتوح، وجنّد الأجناد، وأرّخ المكتوبات، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إن الله يقول: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء: الآية ١٠٥]، هذا وعد من ربكم، فإن تزهدوا في الدنيا يجمع الله لكم الدنيا والآخرة. في كلام غير هذا.

وفتح الشام، والعراق، وطَهَّرَ المسجد الأقصى، وأغزى المغرب واستقرت بيده.. يسفره منها شيء، ولا فارق لبابته الخشن إلى أن لحق بربه، ورمدت المدينة على عهده، فقال: ما هذا؟ هذا شيء لم يكن على عهد رسول الله ﷺ، ولا عهد أبي بكر إلاّ من حادث أحدثتموه ووالله لا أساكنكم بهذه المدينة إلاّ أن تتوبوا، فتابوا بأجمعهم.

ثم رجفت ـ أي تزلزلت ـ فضربها بالدرة وقال: أتزلزلي على قوم تائبين. فسكنت الأرض.

وحج رضي الله عنه سنة ثلاث وعشرين ولم يحج بعدها، فقال في انصرافه وقد مرَّ بواد: الحمد لله، ولا إله إلاّ الله الذي لم يزل يعطي ما شاء لمن يشاء. لقد كنت بهذا الوادي أرعى إبلاً للخطاب وكان فظاً غليظاً يتعتعني إذا عملت، ويضربني إذا

---

(١) ومن مصادر ترجمة أبي بكر وهي كثيرة نذكر منها: الإصابة (٣/ ١٠١)، أسد الغابة (٣/ ٣٠٩)، الاستيعاب (٩٦٣)، تجريد أسماء الصحابة (١/ ٣٢٣)، أصحاب بدر (٤١)، التحفة اللطيفة (٢/ ٣٥٨)، تاريخ الإسلام (٢/ ٩٧)، الرياض المستطابة (١٤٠)، ديوان الإسلام (٦٦)، تهذيب الكمال (٢/ ٧٠٩)، الدرر المكنون (٧٠)، صفة الصفوة (١/ ٢٣٠)، إلى غير ذلك كثير.

غفلت، فصرت، وأصبحت، وأمسيت، وأنا اليوم أمير المؤمنين ليس بيني وبين الله أحد أخشاه، وقال:

لا شيء مما ترى تبقى بشاشته ... يبقى الإله ويودي المال والولدُ
لم تغن عن هرمز يوماً خزائنه ... والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا
أين الملوك التي كانت لعزتها ... من كل أوب إليها وافِدٌ يَفِدُ
حوض هنالك مورود بلا كذب ... لا بد من ورده يوماً كما وردوا

ولما اختار الله له ما عنده قدم علج من سبي فارس كان مملوكاً للمغيرة بن شعبة يدعى أبا لؤلؤة، وكان نجاراً وقد كَلّفه المغيرة خراجاً ضاق به فشكى به إلى عمر.

فقال عمر: ليس خراجك بكثير في جنب ما تحسن من الأعمال، وأنت الذي تقول: لو شئت لصنعت رحىً تطحن بالريح.

فقال: والله لأصنعن رحىً يتحدّث بها بعدي الناس.

فقال عمر: أما العلج فقد توعدني.

وقعد أبو لؤلؤة لعمر رضي الله عنه في بعض زوايا المسجد، وبيده خنجر، فلما مرَّ به عمر ضربه به ست ضربات إحداهن في سُرَّته.

وطعن اثني عشر رجلاً من المسلمين، ثم نحر نفسه.

واحتمل عمر إلى منزله، ودخل عليه عبد الله بن عمر ولده وهو يجود بنفسه.

فقال: يا أمير المؤمنين استخلف على أمة محمد، فإنه إن جاء راعي إبلك أو غنمك وقد تركها / لمته. [٢١/أ]

فقال: إن أستخلف فقد استخلف من هو خير مني، وإن أترك فقد ترك من هو خير مني.

ثم جمع أهل الشورى وهم: عبد الرحمٰن بن عوف، وعلي، وعثمان، والزبير، وسعد، وطلحة. وقال: تشاوروا ثلاثة أيام.

وجرى بينه وبين القوم كلام مشهور، ثم أغمي عليه، . . .[1] أنه قال: أوصي الخليفة منكم بتقوى الله، وأحذره مثل مضجعي هذا.

ثم التفت، وقد نادوه بالصلاة، فصلى بحاله وجرحه يثعب.

ثم قال: اخرجوا عني، اللهم اجمعهم على الحق ولِّ أمر أمّة محمد خيرهم.

(١) موضع النقط كلمة مطموسة بالمخطوط.

ثم توفي في السابع والعشرين من ذي الحجة سنة أربع وعشرين للهجرة. ودفن مع رسول الله ﷺ وأبي بكر[(١)].

ذكر خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه

وقام بأمر المسلمين بعد أمير المؤمنين عثمان بن عفان بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف[(٢)].

وهو ذو النورين وصهر رسول الله ﷺ، والذي أخبر رسول الله ﷺ أنه تستحي منه ملائكة السماء رحمة الله عليه ورضوانه.

وامتدت ظلال الإسلام في أيامه ووردت الفتوحات، وكثر المال، واتسعت الخطة الإسلامية.

ولما بايعه الناس خرج فصلى العصر وزاد في أعطيات الناس مائة مائة، ثم صعد منبر رسول الله ﷺ فخطب الناس وقال: إنكم في دار قلعة، وفي بقية أعمار فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه من أعمالكم، ألا وأرى الدنيا قد طويت على الغرور، فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور.

وهو الذي فسح مسجد رسول الله ﷺ وباشر العمل فيه بيده. وكان عثمان كثير الجود والبذل والسماح والحياء.

وفي أيامه اقتنى الصحابة الدور والضياع. ونوّه ببني أميّة واستعملهم وأناط بهم الولايات، وقلدهم الممالك والأقطار وأمنوه، فساءت سيرتهم في الناس إلى أن فسدت بسببهم دنياه، وجرى في شأنه الحادث الشنيع لتعصب أهل مصر...[(٣)] عليه.

---

(١) ومن المصادر التي ترجمت لعمر وهي كثيرة أيضاً نذكر منها غير ما أُلف في سيرته وحياته كصاحبه أبي بكر، وعثمان، وعلي: الإصابة (٤/٥٨٨)، أسد الغابة (٤/١٤٥)، الاستيعاب (٣/ ١١٤٤)، الاستبصار (٣٩١)، تهذيب الكمال (٢/٢٦٨)، الرياض المستطابة (١٤٧)، الحلية (١/ ٣٨، ٥٥)، طبقات ابن سعد (٩/ ١٤١)، طبقات الحفاظ (٦٢٨)، موسوعة رجال الكتب التسعة (٦٥٣٢) وغير ذلك كثير جداً.

(٢) كذا قد صنفت في سيرته الكتب والمؤلفات الكثيرة وترجمت له العديد من الكتب ومن مصادر ترجمته نذكر: أسماء الصحابة الرواة (٢٨)، تهذيب التهذيب (٧/١٣٩)، تقريب التهذيب (٢/ ١٢)، تاريخ البخاري الكبير (٦/ ٢٠٨)، الجرح والتعديل (٦/ ١٦٠)، تاريخ الثقات (١١٠٩)، شذرات الذهب (١/ ١٠)، (١/ ٢٥، ٣٠، ٣٣، ٤٣، ٤٥)، نسب قريش (١١٠)، جمهرة أنساب العرب (٨٣)، أنساب الأشراف (٤٤، ٤٥)، موسوعة رجال الكتب التسعة (٦٠٥١)، وغير ذلك كثير وكثير.

(٣) موضع النقط بياض قدره كلمة واحدة.

قال المؤرخ: واستعدى أهل مصر على أميرهم وعظم الطعن على عثمان وثار به أولئك الناس، وحصروه في داره أياماً، ثم اقتحموها عليه، فقتلوه بعد أن طولب بترك الخلافة، فأبى ذلك بما هو معلوم.

وكان قتله يوم الجمعة بعد العصر لثمان عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين / من الهجرة رحمة الله عليه. [٢١/ب]

وكان عثمان يصوم النهار ويقوم الليل. وأراد الناس القتال عنه لما حُصر، فأبى، وقال: سنجتمع وإياهم عند الله، وسيرون بعدي أموراً يتمنون أني عشت لهم.

وأقام ثلاثة أيام لم يدفن إلى أن دفن بِحُشّ كَوْكَب[١] وأُجص قبره.

وتركبت على قتل عثمان...[٢] الفتنة المشهورة كما شاء من له الخلق والأمر سبحانه.

ذكر خلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه

بويع بعد عثمان علي بن أبي طالب[٣] رضي الله عنهما.

وفَخَر علي بنفسه وبقرباه من رسول الله ﷺ، وصهره المنعقد على فاطمة بنته، وكونه منه بمنزلة هارون من موسى.

أشــــهــــر مــــن الــــشــــمــــس فالشمس أكبر من حلي ومن حُلَلِ

الجامع بين العلم والفقه في الدين

---

(١) قال ياقوت الحموي في معجم البلدان: حش كوكب: بفتح أوله وتشديد ثانيه، وبضم أوله أيضاً. والحُشُّ في اللغة: البستان، وبه سمي المخرج حشّاً لأنهم كانوا إذا أرادوا الحاجة خرجوا إلى البساتين. وكوكب الذي أُضيف إليه: اسم رجل من الأنصار. وهو عند بقيع الغرقد اشتراه عثمان بن عفان رضي الله عنه وزاده في البقيع، ولما قُتل أُلقي فيه، ثم دفن في جنبه. وحُشّ طلحة: موضع آخر بالمدينة.

(٢) موضع النقط كلمة أو كلمتان لم أتبينها لطمس بهما من رطوبة أصابت المخطوط في كثير من مواضعه.

(٣) أُلِفت في سيرته الكتب الكثيرة ونسبت إليه طائفة، وتشيع له قوم وهو أشهر من أن يعرف، ومن المصادر الكثيرة التي ترجمت له أذكر منها على سبيل الاختصار: الإصابة (٢/ ١٠٥)، أسد الغابة (٤/ ٩١)، الاستبصار (٣٩٠)، حلية الأولياء (٢/ ٨٧، ٦١)، طبقات ابن سعد (٩/ ١٣٧)، أسماء الصحابة الرواة (ت: ١٠)، تجريد أسماء الصحابة (١/ ٣٩٢)، تاريخ الخلفاء (١٦٦)، شذرات الذهب (١/ ٤٩)، البداية والنهاية (٧/ ٢٢٣)، تاريخ بغداد (١/ ١٣٣)، الرياض المستطابة (٢/ ١٦٣)، تهذيب الكمال (٢/ ٩٧١)، تهذيب التهذيب (٧/ ٣٣٤)، تقريب التهذيب (٢/ ٣٩)، تاريخ البخاري الكبير (٦/ ٢٥٩)، الجرح والتعديل (٦/ ١٩١)، موسوعة رجال الكتب التسعة (٦٣٥٤) وغير ذلك كثير جداً.

وقاتل أبطال الكافرين والزاهد في الدنيا والمؤتي الحكمة وفصل الخطاب.

وروي عنه أنه نظر إلى المال ببيت مال المسلمين فقال: يا صفراء، ويا بيضاء، غُرّي غَيْري.

وفرّق ذلك، وصلى في مكانه.

ومن المأثور عنه قوله: طلقت دنياكم ثلاثاً لا رجعة فيها. ولذلك يشير الشاعر يخاطب العلويين من ذريته وقد ضعفت حظوظهم في الدنيا بعده:

عتبت على الدنيا وقلت إلى متى　　أرى غمرات همها ليس تنجلي
أكل كريم من علي بجاره　　حرام عليه الوقر غير مُحَلَّلِ
فقالت نعم يا ابن الوصي لأنني　　غضبت عليكم يوم طلقني عَلي

وحلَّ هذا المعنى أبو عبد الله بن الأبار في درر السمط، فقال: أتدري لِمَ حُرِمَ بنو علي الدنيا، وإن تبوأوا من الفضل الرتبة العُليا؟ لأن أباهم طلقها ثلاثاً لا رجعة فيها وزوج الأب على الابن حرام.

وامتنع معاوية بن أبي سفيان من بيعته وأخَذَ البيعة على أهل الشام لنفسه على الطلب بدم عثمان من قتلته.

وماج بحر الفتنة التي أخبر بها رسول الله ﷺ بين يدي وفاته بما هو معروف، فلا فائدة في إعادة الكلام في جمهوره.

وآلت الحال إلى القتال بصفّين بين أهل الشام، وأهل العراق، ودامت أياماً.

[١/٢٢] ولما أشفق الناس من اتصال الحرب وتمادي البأس وشارف على الفتح / طالب أهل الشام التحاكم إلى كتاب الله، ورفعوا المصاحف فوق رماحهم.

فأشار علي بقبول ما دعوا إليه، وكان في ذلك بين أصحابه خطب طويل إذ لم يغب عنه أنها مكيدة.

واتفق الجميع على تعيين حكمين[١] تفوض لهما الطائفتان الحكم بما أنزل الله واقتضى اجتهاد الحكمين اختيار رجل من الصحابة يرتفع ببيعته الشتات وتذهب بالاجتماع عليه الفتنة.

فلما خاطب الناس بما رضياه، وعزل أحدهما عليّاً رضي الله عنه، قام الحكم الثاني فأقرّ معاوية وأشهد باختياره إياه.

(١) الشائع أن الحكمين هما أبو موسى الأشعري وعمرو بن العاص رضي الله عنهما والله أعلم بمن كانا.

فاضطرب الأمر على عَلِيّ رضي الله عنه، فرفضت طائفة التحكيم وانصرفت عنه. وأنكرت أخرى - وهم الخوارج - على عَلِيّ التحكيم ونابذته، وناظرها [جماعة][(١)] فرجع منهم كثير.

وقاتل من سواهم، وأوقع فيهم بالنهروان، ورجع إلى الكوفة عن مهادنة بينه وبين معاوية تجري فيها المحاورة والتفاوض وفضّ النزاع في هذا الأمر ومعالجته قبل تجدد الحروب.

فانتدب [بعض الناس][(١)] منهم ثلاثة رجال يقتل أحدهم معاوية، والآخر عمرو بن العاص، والآخر علياً.

وكان المنتدب إلى قتل علي رحمه الله عبد الرحمٰن بن ملجم، وثلاثتهم يعتقدون التقرّب بذلك [إلى الله][(٢)] نعوذ بالله من الضلال البعيد.

فضرب أحدهم معاوية وهو يهوي إلى السجود فأصابت الضربة إليته، فَسَلِمَ، وقتل الخارجي.

وضرب صاحب عمرو رجلاً كان أشبه الناس بعمرو اسمه خارجة - وكان قاضٍ - فقتله، وقال: أردت عمراً، وأراد الله خارجة.

وأقبل ابن ملجم لعنه الله فكمن لعلي رضي الله عنه في بعض زوايا المسجد، فلما خرج ينادي الصلاة، ضربه بالسيف على رأسه، وقبض عليه وحمل إلى منزله.

فكانت وفاته ليلة إحدى وعشرين لرمضان، وهو موعد الثلاثة بإيقاع ما عزموا عليه من سنة أربعين من الهجرة الكريمة. واستؤذن في ابن ملجم، فقال: إن مت فاقتلوه بي وإن تعفوا أقرب للتقوى، فإن عشت أرى رأيي [فيه][(٣)].

وقيل: ألا تعهد؟

فقال: لا، ولكني أتركهم كما تركهم رسول الله ﷺ.

ولم يترك يوم مات لأهله شيئاً سوى سيفه ومضجعه، ودراهم فضلت من عطائه كان يشتري بها خادماً رحمة الله عليه ورضوانه[(٤)].

---

(١) زيادة يتطلبها السياق.

(٢) زيادة يتطلبها السياق.

(٣) زيادة يتطلبها الإيضاح.

(٤) قال ابن حزم رحمنا الله وإياه في رسالته: أسماء الخلفاء والولاة وذكر مددهم (ص ١٠٨) في ذكره خلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: يكنى أبا الحسن، وليّ الخلافة يوم قتل عثمان رضي الله عنهما بالمدينة. فرحل عن المدينة إلى الكوفة فاستقر بها، وكانت الخلافة قبل ذلك =

[٢٢/ب]

/ خلافة الحسن بن علي[١] رضي الله عنهما

ولما توفي علي رضي الله عنه بايع أهل العراق ولده الحسن سبط رسول الله ﷺ. . .[٢] الامتعاض، وزحف بمن اجتمع إليه منهم إلى محاربة معاوية، فلما. . .[٣] وفكر فيما يكون بينهما من القتال عظم عليه واختار حقن الدماء وصلاح الأمة، فجرت بينه وبين معاوية المفاوضة التي أجلت عن تسليم الأمر إلى معاوية. فبايعه الحسن بن علي بالخلافة هو ومن كان معه، ودخلا معاً الكوفة وانصرف معاوية إلى الشام، وانصرف الحسن إلى المدينة.

وكانت مدة الحسن رضي الله عنه في الخلافة إلى يوم أسلم الأمر إلى معاوية خمسة أشهر وخمسة وعشرين يوماً، واشترط على معاوية أن يكون له الأمر بعده.

وكان الحسن رضي الله عنه من الفضل والهدى على ما ينبغي أن يكون عليه بضعة من رسول الله ﷺ، وولد بنته سيدة نساء أهل الجنة.

وروي. . .[٤] قال: حدثنا الأعمش عن سفيان عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ للحسن بن علي: «إن ابني هذا سيد يصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»[٥].

= بالمدينة. وتأخر عن بيعته قوم من الصحابة بغير عذر شرعي إذ لا شك في إمامته. وقتل رضي الله عنه بالكوفة غيلة، قتله عبد الرحمٰن بن ملجم المرادي حين دخل المسجد وذلك في رمضان لثلاث بقين منه لسنة أربعين من الهجرة، وله ثلاث وستون سنة.
أمه: فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف، مهاجرة رضوان الله عليها. وفي أيامه كانت وقعة الجمل وصفّين، وعلم الناس منه فيها كيف قتال أهل البغي، وحديثهما قد اعتنى به ثقات أهل التاريخ كأبي جعفر بن جرير وغيره.
وقتل أهل النهروان من الخوارج، ونِعْمَ الفتح كان أنذر به ﷺ. وكانت خلافته رضي الله عنه أربع سنين وتسعة أشهر وعشرة أيام، واستضيم المسلمون في قتله غيلة، رضي الله عنه.

(١) قال ابن حزم في الرسالة السابقة الكلام عنها في ذكره لخلافة الحسن رضي الله عنه (ص ١٠٩): يكنى أبا محمد، ولي الخلافة يوم مات أبوه عليّ. وكانت مدة خلافته ستة أشهر. كره سفك الدماء فتخلى عن حقه لمعاوية بن أبي سفيان، وانخلع وبايع معاوية وعاش رضي الله عنه متخلياً عن الدنيا إلى أن مات سنة ثمان وأربعين. وأمه: فاطمة بنت رسول الله ﷺ.

(٢) موضع النقط طمس قدره كلمة.

(٣) موضع النقط طمس قدره ثلاث كلمات تقريباً والله أعلم.

(٤) كلمة غير مقروءة في المخطوط.

(٥) أطراف هذا الحديث عند الحميدي في المسند (٧٩٣)، وكنز المتقي الهندي (٣٧٦٩١)، الخطيب في تاريخ بغداد (١١/ ٣٦٤، ١٣/ ١٨)، الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٢/ ٢٢٦)، ابن أبي شيبة (١٢/ ٩٦)، (١٥/ ٩٦)، الطبراني في الكبير (٣/ ٢٣)، ابن حجر في الفتح (١٣/ ٦٦).

وهو أول من خلع نفسه في الإسلام وسلّم الأمر إلى غيره، وكان انخلاعه على رأس ثلاثين سنة من وفاة رسول الله ﷺ، وهو مصداق الخبر عنه إذ قال: الخلافة بعدي ثلاثون سنة(١). وإذا صح هذا الخبر، فإنما تطبق الخلافة على ما يخص الخلفاء البررة المُقتدين بمن خلفوه في كل شيء من أمور الدنيا والآخرة والذين لحقوه ولم يغيروا منها شيئاً، وما يختص بمن معهم، فهو أولى باسم الخلافة وقد تكلم الناس في الفرق بين المُلك والخلافة وإن وجد الفرق فليس إلاّ بشدة الاقتداء بالمصدر الأول.

وإنما جلبنا ذكر خلفاء رسول الله ﷺ تبركاً، فنكون على بصيرة من أمره إذا نصب ميزان النصفة. وحسبنا الله ونعم الوكيل.

ذكر دولة بني أمية
دولة معاوية بن أبي سفيان(٢) رضي الله عنه

/ وهو أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف. [٢٢/أ]

فجمع مع رسول الله ﷺ في النسب.

وقيل: كنيته: أبو عبد الرحمٰن.

وانعقدت بيعته ببيت المقدس في شوال سنة إحدى وأربعين.

وكانت... (٣) أعلى بيوت المسلمين بالشام. وله المجد المنظور، والفخر

---

(١) وأطراف هذا الحديث عند الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٢/ ٢١٠، ٢٢٥)، الربيع بن حبيب في المسند (١٥٣١)، وابن حجر في فتح الباري (٨/ ٧٧، ١٢/ ٢٨٧، ١٣/ ٢١٢)، الطحاوي في مشكل الآثار (٤/ ٣١٣)، ابن كثير في التفسير ٦/ ٨٥)، القرطبي في التفسير (١٢/ ٢٩٧، ٢٩٨)، ابن كثير في البداية والنهاية (٣/ ٢١٩)، (٦/ ٢٢٥)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٤/ ٢٢٢)، الطبراني في الكبير (١/ ٤٥)، البغوي في شرح السنة (١٤/ ٧٤)، أحمد في المسند (٥/ ٢٢٠، ٢٢١)، الترمذي (٢٢٢٦)، وابن عدي في الكامل (٣/ ١٢٣٧).

(٢) قال ابن حزم في رسالة أسماء الخلفاء والولاة (ص ١١٠) في ولاية معاوية بن أبي سفيان: ثم ولي الخلافة إذ تركها الحسن بن علي بن أبي طالب لمعاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف. يكنى: أبا عبد الرحمٰن.
بويع لثلاثة أشهر خلت من سنة إحدى وأربعين. وكانت مدته عشرين سنة غير سبعة أشهر. ومات في نصف رجب سنة ستين، وسنه ثمان وسبعين سنة. وأمه: هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف. مسلمة رحمها الله تعالى. وفي أيامه حوصرت القسطنطينية. وقتل حُجر بن عدي وأصحابه صبراً بظاهر دمشق. أيضاً من الوهن للإسلام أن يقتل من رأى النبي ﷺ من غير رِدّة ولا زنى بعد إحصان ولعائشة في قتلهم كلام محفوظ. وفي أيامه بنيت القيروان بإفريقية.

(٣) مواضع النقط كلمات مطموسة في المخطوط تتراوح في كل موضع بين كلمة إلى ثلاث كلمات.

المشهور بأنسابه. . .[١] إلى رسول الله ﷺ، ومصاهرته إياه على أم حبيبة بنت أبي سفيان أم المؤمنين رضي الله عنهما.

وهو المثل المعروف في سعة الصدر[١]، والتجرّد للأمر، وبلوغ الغاية في الدهاء، واستئلاف الناس، ولم يكن في أمثاله أحوج. . .[١] واستقامت له الأمور، واجتمعت عليه الأمة، فسميت سنة ولايته سنة. . .[١].

وكانت معاملته لأهل بيت النبوة جزلة، وسيرته في الجهاد حميدة، وأخباره في الحلم والإغضاء وحُسن الملكة شهيرة، منها:

أنه قسم يوماً من الفيء قُطُفاً، فأعطى شيخاً من جند أهل الشام قطيفة لم ترضه، وكان شكس الأخلاق، فحلف أن يضرب بها رأس معاوية، وأتاه، فأخبره.

فقال له معاوية: أوفِ بنذرك، وليرفق الشيخ بالشيخ.

وتوفي الحسن بن علي وليّ عهده في حياته، فأخذ البيعة لولده يزيد بن معاوية على كره من الناس والله أعلم بما خفي من سبل اجتهاده.

فذكر نقلة الأخبار أنه لما وفد عليه وفود العراق وغيرها، وكان ممن وفد الأحنف بن قيس فقال: إن الناس سواء في منكر زمان قد سلف ومعروف زمان يؤتنف، ويزيد حبيب قريب، فإن توله عهدك فعن غير كِبَر مُعْنٍ أو مرض مُضْنٍ، وقد حلبت الدهور وأجريت الأمور فاعرف من تستند إليه بعهدك ومن توليه الأمر بعدك. فراوده ذلك ثم أمضاه فيما بعده.

قال المؤرخ: أجمع معاوية على البيعة لابنه، فأحضر الناس بعد مراوضة وتمهيد، وقد شعر بكراهية قوم لذلك.

وقام رجل من عنده فوقف على رأس معاوية واخترط سيفه شبراً، ثم قال: أمير المؤمنين هذا ـ وأشار إليه ـ فإن يمت فهذا ـ وأشار إلى يزيد ـ فإن أبَيْنَ فهذا ـ وأشار إلى قائم سيفه ـ فقال له معاوية: اقعد فأنت سيد الخطباء.

[٢٣/ب] وتمت البيعة ليزيد، والبلاد مالية بعد ببقايا أصحاب رسول الله ﷺ/ . . .[٢] أصحابه. . .[١] والإسلام عزيز روضه، وابن ولد رسول الله، وأولاد الأوَل وأرباب الشورى المؤتمنين على حسن النظر للمسلمين وصون ظهورهم. ثم مرض معاوية رضي الله عنه بدمشق بقصر ملكه في رجب سنة إحدى وستين من الهجرة وله ثمانون سنة.

---

(١) إليه ينسب المثل القائل: لو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت.

(٢) موضع النقط غير مقروء لطمس بالمخطوط.

وفي بعض الروايات: وكان ابنه يزيد غائباً ببعض البلاد[١] فبعث إليه بالضحاك بن قيس، ومسلم بن عقبة وقال لهما:

أبلغا يزيد وصيتي وقولا له: انظر أهل الحجاز فإنهم أهلك، وأكرم من قدم منهم، وتعاهد من غاب عنك. وانظر أهل العراق فإن سألوك أن تعزل كل يوم والياً، فافعل، فإن عزل عامل أهون من أن يشهر عليك مائة سيف [ألف][٢] سيف. وانظر أهل الشام فاجعلهم بطانتك، عيبتك[٣].

ثم مات من يومه ودفن بباب...[٤] من دمشق وقبره اليوم مزور بها معروف[٥].

---

(١) في الكامل في التاريخ: وقيل: لما اشتد مرضه ـ أي مرض معاوية ـ كان ولده يزيد بحوارين، فكتبوا إليه يحثونه على المجيء ليدركه، فقال يزيد شعراً:

جاء البريد بقرطاس يخُبُّ به ... فأوجس القلب من قرطاسه فزَعَا
قلنا: لك الويل ماذا في كتابكُمُ ... قال: الخليفة أمسى مُثْبَتاً وجِعَا
ثم انبعثنا إلى خوص مزممة ... نرمي الفجاج بها لا نأتلي سرعا
فمادت الأرض أو كادت تميدُ بنا ... كأن أغبر من أركانها انقطعا
من لم تزل نفسه توفي على شَرَفٍ ... توشك مقاليد تلك النفس أن تقعا
فلما انتهينا وباب الدار مُنْصَفِقٌ ... وصوت رملة[١] رِيعَ القلب فانصدعا
ثم ارعوى القلب شيئاً بعد طيرته ... والنفس تعلم أن قد أثبتت جزعا
أودى ابن هند وأودى المجد يتبعه ... كانا جميعاً فماتا قاطنين معا
أغر أبلج يستسقى الغمام به ... لو قارع الناس عن أحسابهم قرعا

(١) هي ابنة معاوية.

فأقبل يزيد، وقد دفن. فأتى قبره، فصلى عليه.

(٢) زيادة من الكامل.

(٣) زاد ابن الأثير في الكامل في وصيته فقال بعد هذا: فإن رابك من عدوك شيء فانتصر بهم، فإذا أصبتهم فاردد أهل الشام إلى بلادهم فإنهم إن أقاموا بغير بلادهم تغيّرت أخلاقهم وإني لستُ أخاف عليك أن ينازعك في هذا الأمر إلاّ أربعة نفر من قريش: الحسين بن علي، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، وعبد الرحمٰن بن أبي بكر. فأما ابن عمر: فإنه رجل قد وقذته العبادة، فإذا لم يبق أحد غيره بايعك. وأما الحسين بن علي: فهو رجل خفيف ولن يتركه أهل العراق حتى يخرجوه، فإن خرج وظفرت به، فاصفح عنه، فإن له رحماً ماسة، وحقاً عظيماً، وقرابة من محمد ﷺ. وأما ابن أبي بكر: فإن رأى أصحابه صنعوا شيئاً صنع مثله، ليس له هِمَّة إلاّ في النساء واللهو. وأما الذي يجثم لك جثوم الأسد، ويراوغك مراوغة الثعلب، فإن أمكنته فرصة وثب فذاك ابن الزبير، فإن هو فعلها بك فظفرت به، فقطعه إرباً إرباً، واحقن دماء قومك ما استطعت.

(٤) موضع النقط كلمة مطموسة وربما كان موضعها تُومَاءَ، فإن بدمشق باب بهذا الاسم على ما ذكر ياقوت في معجمه حيث قال: باب توماء: أحد أبواب مدينة دمشق لما حاصر المسلمون دمشق أيام أبي بكر رضي الله عنه. ولم أقف على أسماء أبواب دمشق في ترجمته لمدينة دمشق، فالله أعلم باسم الباب.

(٥) وفي الكامل في التاريخ عن تاريخ وفاته ودفنه قال: ثم مات بدمشق لهلال رجب. وقيل: للنصف =

دولة يزيد بن معاوية بن أبي سفيان(١)

وكنيته: أبو خالد.

وكان طاغية جباراً عظيم البأو والأنفة بخلافة أبيه.

وخلعه أهل المدينة، وجعلوا أمرهم إلى عبد الله بن حنظلة.

= منه. وقيل: لثمان بقين منه. وكان مُلكه تسع عشرة سنة، وثلاثة أشهر وسبعة وعشرين يوماً، مذ اجتمع له الأمر وبايع له الحسن بن علي. وقيل: كان ملكه تسع عشرة سنة وثلاثة أشهر. وقيل: وثلاثة أشهر إلا أياماً. وكان عمره: خمساً وسبعين سنة. وقيل: ثلاثاً وسبعين سنة. وقيل: توفي وهو ابن ثمانين سنة. وقيل: خمس وثمانين سنة. وقيل: لما اشتدت علّته وأرجف به قال لأهله: احشوا عيني إثمداً، وادهنوا رأسي. ففعلوا، وبرقوا وجهه بالدهن، ثم مهد له، فجلس، وأذن للناس، فسلّموا قياماً ولم يجلس أحد. فلما خرجوا عنه قالوا: هو أصح الناس. فقال معاوية عند خروجهم من عنده:

وتجلدي للشامتين أريهمُ ... أني لريب الدّهر لا أتضعضعُ
وإذا المنية أنشبت أظفارها ... ألفيت كل تميمة لا تنفعُ

(١) قال ابن حزم في رسالة أسماء الخلفاء والولاة (ص ١١١) في ولاية يزيد بن معاوية: بويع يزيد بن معاوية إذ مات أبوه. يكنى أبا خالد. وامتنع من بيعته الحسين بن علي بن أبي طالب، وعبد الله بن الزبير بن العوام. فأما الحسين عليه السلام والرحمة فنهض إلى الكوفة، فقتل قبل دخولها. وهو ثالثة مصيبة في الإسلام بعد أمير المؤمنين عثمان، أو رابعها بعد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وخرومه، لأن المسلمين استضيموا في قتله ظلماً علانية.

وأما عبد الله بن الزبير، فاستجار بمكة، فبقي هناك إلى أن أغزى يزيد الجيوش إلى المدينة - حرم رسول الله ﷺ -، وإلى مكة - حرم الله تعالى -، فقتل بقايا المهاجرين والأنصار يوم الحَرّة. وهي أيضاً أكبر مصائب الإسلام وخرومه، لأن أفاضل المسلمين، وبقية الصحابة، وخيار المسلمين من جلّة التابعين، قتلوا جهراً وظلماً في الحرب وصبراً.

وجالت الخيل من مسجد رسول الله ﷺ وراثت وبالت في الروضة بين القبر والمنبر، ولم تصل جماعة في مسجد النبي ﷺ، ولا كان فيه أحد حاشا سعيد بن المسيب فإنه لم يفارق المسجد، ولولا شهادة عمرو بن عثمان بن عفان، ومروان بن الحكم عند مُجْرِم بن عُقبة المُرّي بأنه مجنون لقتله. وأكره الناس على أن يبايعوا يزيد بن معاوية على أنهم عبيد له إن شاء باع وإن شاء أعتق.

وذكر له بعضهم على حكم القرآن وسنة رسول الله ﷺ، فأمر بقتله، فضرب عنقه صبراً. وهتك مُسْرِفُ أو مُجْرِمُ الإسلام هتكاً، وانتهب المدينة ثلاثة أيام، واستُخِفَّ بأصحاب رسول الله ﷺ ومُدّت الأيدي إليهم، وانتهبت دورهم، وانتقل هؤلاء إلى مكة شرّفها الله تعالى فحوصِرَت، ورمي البيت بحجارة المنجنيق وتولى ذلك الحصين بن نُمير السكوني في جيوش من أهل الشام. وذلك لأن مُجرم بن عقبة المُري مات بعد وقعة الحرة بثلاث ليال، وولّي مكانه الحصين بن نمير.

وأخذ الله تعالى يزيد أخذ عزيز مقتدر فمات بعد الحرة بأقل من ثلاثة أشهر أو أزيد من شهرين، وانصرفت الجيوش عن مكة. ومات يزيد في نصف ربيع الأول سنة أربع وستين وله نيف وثلاثون سنة. أمه: ميسون بنت بَحْدَل الكلبية. وكانت مدته ثلاث سنين وثمانية أشهر وأياماً فقط.

فجمع إليهم الجيوش لنظر مسلم بن عقبة المري فنزل بالحرة منها وأحاط بالمدينة واقتحم على أهلها. فقاتلوه مستميتين حتى غُلبوا.

فقتل منهم من قريش، والمهاجرين، والأنصار ألف رجل وسبعمائة، ومن سائر الناس عشرة آلاف رجل سوى النساء والصبيان. وانتهبت المدينة ثلاثة أيام، وعطلت الصلوات في مسجد رسول الله ﷺ، ولم يُجِر من استجار بجواره، وقتل عبد الله بن حنظلة.

قال العُتبي: قتل من أصحاب النبي ﷺ ثمانون ولم يبق به... وذلك في سنة ثلاث وستين من الهجرة.

ولما بلغ الخبر يزيد تمثّل بشعر بعض الجاهلية:

ليت أشياخي ببدر شهدوا　　جزع الخزرج من وقع الأسل

ولا شاهد على ما كان ينطوي عليه من النفاق والحقد على أصحاب رسول الله ﷺ بسبب من قتلوا من قومه في الجاهلية بين يدي رسول الله ﷺ أكبر من هذا.

وكان ملك يزيد مفتاح الشر وباكورة الفساد الناشيء في ولاة / أمر المسلمين [٢٤/أ] واختلال ذلك المنصب الكريم وتجريده من وشمة السلف، وأول من تظاهر بشرب الخمر، وجاهر باللهو واللعب، وأسقط المبالاة، والناس...[1] وظيفة صلاتهم وخطبة جماعاتهم، وانتهى في ذلك إلى...[1] رفيعة ويقلده ويجلسه للناس بمحله والوقت معمور بأشراف العرب وفضلاء الصحابة.

ثم أوقع بالحسين بن علي بن أبي طالب يوم عاشوراء بكربلاء فقتله وثمانين رجلاً من أهل بيته على يد عبيد الله بن زياد، وأسر نساءه وحفيدة رسول الله ﷺ وحملهن حاسرات الوجوه على ظهور الجمال.

ووضع رأسه بين يديه وأمر أن يطاف به على البلاد إلى أن يبلغ مصر وبها اليوم مشهده الكريم، ولله درّ القائل:

وإن قتيل الطف من آل هاشم　　أذل رقاب المسلمين فذلّتِ
ألم تر أن الأرض أضحت مريضةً　　لقتل حُسين والبلاد اقشعرتِ
فلا يُبعد اللّه البلاد وأهلها　　وإن أصبحت منهم برغمي تحلتِ

ودرّ القائل:

أبي...[2] له في دينه في بلاده　　تضيق عليهم فسحة...[1]
وما الدين إلا دين جدهم الذي　　به أصدروا في العالمين وأوردُ

(١) موضع النقط كلمات غير مقروءة لطمس بالمخطوط.
(٢) كلمات غير مقروءة بالمخطوط.

ولم يزل الحزن متصلاً على الحسين والمآتم قائمة في البلاد يجتمع لها الناس ويختلفون لذلك ليلة ويوم قتل فيه بعد الأمان من نكير دول قتلته ولا سيما بشرق الأندلس.

فكانوا على ما حدثنا به شيوخنا من أنهم بالشرق يقيمون هم الجنازة في شكل من الثياب يسجوه خلف سُترة في بعض البيت وتحتمل الأطعمة والأضواء والشموع وتجلب القراء، ويوقد البخور ويتغنى بالمراثي الحسينية كقول الإمام أبي بحر صفوان بن إدريس من أهل بيته وولد الخطيب بمسجدها أعادها الله تعالى، وهو المعني بمراثي الحسين بن علي رضي الله عنه ونفعه.

سلام كأزهار الربى يتنسَّم ... على منزل منه الهدى يُتَعَلَّمُ
على مصرع للفاطميين غُيِّبَت ... لأوجههم فيه بدور وأنجمُ
[٢٤/ب] / على...... [1] فاطهر أهله ... لعاينت أعضاء النبي تُقَسَّمُ
على كربلاء ألا خلف الغيث بكربلا ... وإلاّ فإن الدمع أندر وأكرم
مصارع............ [1] ... وناح عليهن الحطيم وزمزم
عطّروا الأحجار والركن والصفا ... وموقف جمع والمقام المعظم
وبالحجر الملثوم عنوان حسرة ... ألست تراه وهو أسود أسحم
وروضة مولانا النبي محمد ... تبدى عليها الثكل يوم تُحرّم
ومنبره... [2] والجذع أعولا ... عليهم عويلاً بالضمائر يفهم
ولو قدرت تلك الجمادات قدرهم ... لدك حراء واستطير يَلَمْلَمُ
وما قدر مالكي البلاد وأهلها ... لآل رسول اللّه والردّة أعظم
لو أن رسول الله يحيي بُعَيْدهم ... رأى ابن زياد أمّه كيف تعقم
وأقبلت الزهراء قدس تربها ... تنادي أباها والمدامع تَسْجُمُ
تقول: أبي هم غادروا ابني نهبة ... لما صاغه قيْن وما مج أرقم
سقوا حسيناً بالسمّ كأساً رويداً ... ولم يقرعوا سنا ولم يتندم
هم قطعوا رأس الحسين بكربلا ... كأنهم قد أحسنوا حين أجرم
فخذ منهم ثاري وسكن جوانحاً ... وأجفان عين تستطير وتَسْجُمُ
أبي وانتصر للسبط واذكر مصابه ... وغَلَّيه والنهر ريان مُفْعَمُ

(١) موضع النقط كلمات مطموسة.
(٢) موضع النقط كلمات مطموسة.

وأسر بنيه بعده واحتمالهم كأنهم من نسل كسرى تُغْنَّمُ
ونَقْر يزيد في الثنايا التي اغتدت ثنايا بك فيها أيها النور تَلْثُمُ
إذا صَدَقَ الصِّدِّيق حملة مُقدِمِ وما فارق الفاروق فاض ولهذَمُ
وعاث بهم عثمان عيث ابن حُرَّةٍ وأعلى عَليٌّ كعب من كان يُهْضَمُ
وجب لهم جبريل. . .[1] غارب من الغَيِّ لا يُعْلَى وَلا يُتَسَنَّمُ
ولكنها أقدارُ رَبِّي بها قضى فلا يتخطى النقض ما هو مُبْرَمُ
قضى الله أن يقضي عليهم عبيدهم لتشقى بهم تلك العبيد وتَنْقَمُ
/ هُمُ القوم أما سعيهم متخيب مضاع وأما دارهم فجهنم [١/٢٥]
فيا أيها المغرور والله غاضبٌ لبنت رسول الله أين. . . . . .[1]
قفوا ما عدونا بالدموع فإنها لتصغر في حق الحسين وفاطم
ومهما سمعتم في الحسين مراثيا تُعبر عن محض الأسى وتترحَّمُ
فمدوا أكُفّاً مستعدين بدعوةٍ وصلوا على جد الحسين وسلِّمُ

والحسينية التي يستعملها اليوم المُسْمِعُونَ، فيلوون. . .[2] ويبدلون الأثواب في الرفض كأنهم يشقون الأعلى عن الأسفل، بقية من هذا لم تنقطع بعد وإن ضعفت، ومهما قيل: الحسينية أو الصفة، لم يُدْرَ اليوم أصلها.

ومن مراثي أبي بحر قال، وهي أول كلمة نَظَمْتُهَا في هذا المعنى:

إذا جادت دموعي في انتحابِ فما دعوى الغمام في الانسكابِ
وحق لي البكاء فإن حُزْني يثير الدمع في جفن السراب
وأين لي العزاء وقد تردى فراس الصبر في نار المصاب
ويا عينيّ إن لم تستهِلاّ ثكلتكما إذاً بين السحاب
على سبط الرسول على الحسين على نجل الشهيد أبي تراب
يزيد فكم يزيد عليت حقدي رُزِئْتَ الفوز من حُسن المآب
قتلتم سبطه قتل الأعادي لقد وُفِقْتُم لِسِوى الصواب
وسقتم أهله سوق السَّبَايا أهذا ما قرأتم في الكتاب
لقد نَشِبَ الحسين من البلايا من الطلقاء في ظفر وناب

(١) موضع النقط كلمات مطموسة في المخطوط.
(٢) كلمات غير ظاهرة بالمخطوط لطمس به.

تشكى بالغليل فأورده ... ولكن كل مطرود الذباب
أيوم الطف لا بوركت يوماً ... جعلت الأسد نهباً للكلاب
جنابك حيث طل بنو عليٍّ ... ألاَ لاَ دَرَّ دَرُّكَ مِن جناب
ألم تحلقهم فتذودَ عنهم ... وتحصب من رماهم بالمصاب
[٢٥/ب] / ألا يا...[1] وراء راجع ... جوابي لا قررت على الجواب
علام تركت نُور الله يُطْفَى ... غداتك بالمهندة العِضَاب
هو المختار.........[2] ... لقد ضحيت بالغِلْقِ اللباب
ألم تغدو ثكلت على انتصار ... فتقذفهم بسَمِيك من شهاب
ويا نجل الدعي دعي حوب ... لقد لفقت نسلاً من كِذَاب
نصيبك من جناب الخُلد فاهنأ ... نصيب أبيك من صدق انتساب
غدوت على الحساب بيوم شرٍّ ... صنعت به صنيعاً للذئاب
وليس دم الحسين أرقت لكن ... مزجت دم الرسول مع التراب
ولولا قاتل يومئذٍ أبوه ... عَدَاك عن الغنيمة والإياب
وسلط ذو الفِخار عليك حتى ... تواري شمس ظلك بالحجاب
ولو أني حضرت بكربلاء ... إذا حَمِدَ الحسين بها مناب
إذاً لسَقَيْتُ عنه السيف رِيّاً ... وليس سوى نجيعي من ضواب
أمولاي الحسين نداء عبدٍ ... عظيم الحزن فيك والانتحاب
منحتك من بنات الفكر بكراً ... بها طار شرارها زندُ اكتئاب
عسىٰ الرحمٰن يقبلها فتضحى ... شفاعةُ أحمد عنها ثواب

قلت: واشتهر صفوان رحمه الله برثاء الحسين وظهرت عليه بركات ذلك بما هو مشهور عند من عُني بأخباره.

حدثني غير واحد من شيوخنا رحمهم الله بما معناه: أن صفوان اضطر إلى تجهيز بنت أو بنيات كن له وضاق عنهن وسعه، فرحل من بلده مرسية إلى حضرة مراكش على عهد ملوكها من بني عبد المؤمن بن علي، وأظنه ولده يوسف أو المنصور، وصعب عليه الوصول إليه، أو إيصال أرقعته.

---

(١) موضع النقط كلمات مطموسة.

(٢) كلمات غير مقروءة لطمس بالمخطوط.

ولما عجز عن ذلك التزم العُكوف بمحل استقراره، وشرع في الرجوع إلى بلده خائباً قصده، وما راعه إلا النداء عليه ورجال السلطان تبحث عنه، ولما عُثِر به استعجل إلى باب السلطان، وأدخل عليه، والسلطان ملاطف له سائل عن حاله مستفهم له / عن غرضه، ولم يبرح حتى أُجيب أمله بما لم يكن قد ظنه وبما حظي به [٢٦/أ] من المعونة والمتاع الذي يليق بالنساء وتيسير وظائف القُفُول بها . . .[١] رزق وعناية. فسأل عن سبب ذلك.

فإذا السلطان يخبره: أنه رأى رسول الله ﷺ في النوم يعتبه ويقول له: صفوان بن إدريس المشغول بخدمتنا والتفجع لولدنا على البُعد وطول العهد ببابك قد غُفِل عنه ما هذا حقه، ابحث الساعة عنه ويسِّر حاجته، فقد تعين علينا حقه. وخرج دامع العين خجلاً من رسول الله ﷺ فتيسّر مطلب صفوان.

قلت: فما يكون غدر يزيد وبأي وجه يلقى رسول الله ﷺ بعد هذا الجفاء الذي لا تصح معه دعوى الإيمان ولا خفاء بجهالة من يعتقد أن يزيد خليفة من خلفاء الله وورثة نبيه بسلف أو نسب أو غير ذلك، بل دعوى الإسلام لا تصح حتى يصح حُبّ محمد صلوات الله عليه وبره ورعيُهُ واتباعه والانتظام فيمن رضي عنه وحسبه منهم.

فمن قَتَل ولده وأهل بيته وساق ذريته أسرى باديات الوجوه مستباحة الحُرْمَة.

وأغرب من ذلك وأشد بُعداً في العصبية والجاهلية من قال: وقد قرأ خبر أنه كتب في بعض كتبه إنما قتله بسيف جَدِّهِ.

وليت شعري من قَلَّدَ يزيد سيف جد الحسين عليه السلام، أو من حكم له بأنه أولى منه بسيف جَدِّهِ.

وقال بعض أصحابنا: إذا كان الحكم الشرعي فيمن لطخ منبر الخطبة أو عود الاتكاء بالأذى أن يُقتل للقطع على غيره بالفساد الدال عليه عمله من امتهان رسوم الشريعة، فما ظنك بمن قتل ولد رسول الله ﷺ، ثم عبث برأسه ولعب بثناياه بقضيبه، وانتقم من حرمه وذريته وأظهر الشماتة به، فالحمد لله على معافاة زماننا من مثل هذه الآفات، وإياه نسأل أيضاً العصمة في المحيا والممات برحمته. ثم أن الله عزَّ وجل لم يمهل يزيد وأراح منه فهلك في منتصف صفر من سنة أربع وستين من الهجرة.

وترك أمره إلى معاوية ولده، وكان مضعفاً، لا بل مُوَفَّقاً[٢].

---

(١) موضع النقط طَمسٌ في المخطوط.

(٢) ذكر ابن الأثير في الكامل أسماء من قتل مع الحسين في حديث طويل في سرده لأحداث سنة إحدى وستين في ذكر مقتل الحسين: قال سليمان: لما قتل الحسين ومن معه حملت رؤوسهم إلى ابن =

....

= زياد، فجاءت كندة بثلاثة عشر رأساً وصاحبهم قيس بن الأشعث. وجاءت هوازن بعشرين رأساً وصاحبهم شمر بن ذي الجوشن الضبابي. وجاءت بنو تميم بسبعة عشر رأساً. وجاءت بنو سعد بستة رؤوس. وجاءت مذحج بسبعة رؤوس. وجاء سائر الجيش بسبعة رؤوس فذلك سبعون رأساً.
وقتل الحسين، وقتله سنان بن أنس النخعي لعنه الله. وقتل العباس بن علي وأمه أم البنين بنت حزام، قتله زيد بن داود الجنبي، وحكيم بن الطفيل السنبسي. وقتل جعفر بن علي، وأمه أم البنين أيضاً. وقتل عبد الله بن علي وأمه أم البنين أيضاً. وقتل عثمان بن علي وأمه أم البنين أيضاً، رماه خولي بن يزيد بسهم فقتله. وقتل محمد بن علي وأمه أم ولد فتله رجل من بني دارم. وقتل أبو بكر بن علي وأمه ليلى بنت مسعود الدارمية، وقد شك في قتله. وقتل علي بن الحسين بن علي وأمه ليلى ابنة أبي مرة بن عروة الثقفي، وأمها ميمونة ابنة أبي سفيان بن حرب، قتله منقذ بن النعمان العبدي. وقتل عبد الله بن الحسين بن علي وأمه الرباب ابنة امرىء القيس الكلبي، قتله هانىء بن ثبيت الحضرمي. وقتل أبو بكر ابن أخيه الحسن أيضاً، وأمه أم ولد، قتله حرملة بن الكاهن، رماه بسهم. وقتل القاسم بن الحسن أيضاً، قتله سعد بن عمرو بن نفيل الأزدي. وقتل عون بن أبي جعفر بن أبي طالب وأمه جمانة بنت المسيب بن نجية الفزاري قتله عبد الله بن قحطبة الطائي. وقتل محمد بن عبد الله بن جعفر، وأمه الخوصاء بنت خصفة بن تيم الله بن ثعلبة قتله عامر بن نهشل التيمي. وقتل جعفر بن عقيل بن أبي طالب، وأمه أم البنين ابنة الشقر بن الهضاب، قتله بشر بن الخوط الهمداني. وقتل عبد الرحمٰن بن عقيل، وأمه أم ولد، رماه عمرو بن صبيح الصيداوي بسهم فقتله. وقتل مسلم بن عقيل بالكوفة، وأمه أم ولد. وقتل عبد الله بن مسلم بن عقيل، وأمه رقية ابنة علي بن أبي طالب، قتله عمرو بن صبيح الصيداوي، وقيل: قتله مالك بن أسيد الحضرمي. وقتل محمد بن أبي سعيد بن عقيل، وأمه أم ولد، قتله لقيط بن ياسر الجهني. واستصغر الحسن بن الحسن بن علي، وأمه خولة بنت منصور بن زياد الفزاري واستصغر عمرو بن الحسن، وأمه أم ولد فلم يقتلا.
وقتل من الموالي: سليماً مولى الحسين، قتله سليمان بن عوف الحضرمي. وقتل منجح مولى الحسين أيضاً. وقتل عبد الله بن يقطر رضيع الحسين.
قال ابن عباس: رأيت النبي ﷺ الليلة التي قتل فيها الحسين وبيده قارورة، وهو يجمع فيها دماً. فقلت: يا رسول الله ما هذا؟ قال: «هذه دماء الحسين وأصحابه أرفعها إلى الله تعالى». فأصبح ابن عباس فأعلم الناس بقتل الحسين، وقصَّ رؤياه، فوجد قد قتل في ذلك اليوم.
وروي: أن النبي ﷺ أعطى أم سلمة تراباً من تربة الحسين، حمله إليه جبريل، فقال النبي ﷺ لأم سلمة: «إذا صار هذا التراب دماً، فقد قُتل الحسين». فحفظت أم سلمة ذلك التراب في قارورة عندها. فلما قتل الحسين صار التراب دماً، فأعلمت الناس بقتله أيضاً. وهذا يستقيم على من يقول: أم سلمة توفيت بعد الحسين، ثم إن ابن زياد قال لعمر بن سعد بعد عوده من قتل الحسين: يا عمر ائتني بالكتاب الذي كتبته إليك في قتل الحسين. قال: مضيت لأمرك، وضاع الكتاب. قال: لتجئني به. قال: ضاع. قال: لتجئني به. قال: ترك والله يقرأ على عجائز قريش بالمدينة اعتذاراً إليهن، أما والله لقد نصحتك في الحسين نصيحة لو نصحتها أبي سعد بن وقاص لكنت قد أديت حقه. فقال عثمان بن زياد أخو عبيد الله: صدق والله، لوددت أنه ليس من بني زياد رجل إلا وفي أنفه خزامة إلى يوم القيامة. وأن الحسين لم يقتل. فما أنكر ذلك عبيد الله بن زياد.
=

....

= وذكر وفاته يزيد فقال: وفي هذه السنة - أي في سنة أربع وستين - توفي يزيد بن معاوية بحُوّارين من أرض الشام لأربع عشرة خلت من شهر ربيع الأول، وهو ابن ثمان وثلاثين سنة في قول بعضهم. وقيل: تسع وثلاثين، وكانت ولايته ثلاث سنين وستة أشهر، وقيل: ثمانية أشهر. وقيل: توفي في ربيع الأول سنة ثلاث وستين وكان عمره خمساً وثلاثين سنة، وكانت خلافته سنتين وثمانية أشهر، والأول أصح. وأمه: ميسون بنت بحدل بن أنيف الكلبية. وكان له من الولد: معاوية وكنيته أبو عبد الرحمٰن، وأبو ليلى، وهو الذي وُلي بعده.

وخالد ويكنى أبا هاشم، يقال: إنه أصاب علم الكيمياء ولا يصح ذلك لأحد، وأبو سفيان. وأمهم أم هاشم بنت أبي هاشم بن عتبة بن ربيعة تزوجها بعده مروان بن الحكم. وله أيضاً عبد الله بن يزيد كان أرمى العرب، وأمه أم كلثوم بنت عبد الله بن عامر، وهو الأسوار. وعبد الله الأصغر، وعمر، وأبو بكر، وعتبة، وحرب، وعبد الرحمٰن، ومحمد لأمهات شتى. ثم ذكر طرفاً من سيرته فقال: قال محمد بن عبيد الله بن عمرو العتبي: نظر معاوية ومعه امرأته ابنة قريظة إلى يزيد. وأمه ترجله، فلما فرغت منه قبلته بين عينيه، فقالت ابنة قريظة: لعن الله سواد ساقي أمك. فقال معاوية: أما والله لما تفرجت عنه وركاها خير مما تفرجت عنه وركاك، وكان لمعاوية من ابنة قريظة عبد الله، وكان أحمق، فقالت: لا والله ولكنك تؤثر هذا عليه. فقال: سوف أبين لك ذلك. فأمر فدعي له عبد الله فلما حضر قال: أي بني إني أردت أن أعطيك ما أنت أهله ولست بسائل شيئاً إلا أجبتك إليه. فقال: حاجتي أن تشتري كلباً فارهاً وحماراً. فقال: أي بُني أنت حمار، وأشتري لك حماراً؟! قم فاخرج.

ثم أحضر يزيد، وقال له مثل قوله لأخيه، فخرّ ساجداً ثم قال حين رفع رأسه: الحمد لله الذي بلغ أمير المؤمنين هذه المدة وأراه فيّ هذا الرأي، حاجتي أن تعتقني من النار، لأن من ولي أمر الأمة ثلاثة أيام أعتقه الله، فتعقد لي العهد بعدك وتوليني العام الصائفة، وتأذن لي في الحج إذا رجعت، وتوليني الموسم، وتزيد لأهل الشام كل رجل عشرة دنانير وتفرض لأيتام بني جمح وبني سهم وبني عدي لأنهم حلفائي. فقال معاوية: قد فعلت، وقَبّل وجهه. فقال لامرأته ابنة قريظة: كيف رأيت؟ قالت: أوصه به يا أمير المؤمنين. ففعل. وقال عمر بن سبيئة: حج يزيد في حياة أبيه، فلما بلغ المدينة جلس على شراب له، فاستأذن عليه ابن عباس والحسين فقيل له: إن ابن عباس إن وجد ريح الشراب عرفه، فحجبه، وأذن للحسين. فلما دخل وجد رائحة الشراب مع الطيب، فقال: لله وطيبك مما هذا؟ قال: هو طيب يصنع بالشام، ثم دعا بقدح فشربه، ثم دعا بآخر، فقال: اسق أبا عبد الله. فقال له الحسين: عليك شرابك أيها المرء لا عين عليك مني. فقال يزيد:

ألا يا صاح للعجب ... دعوتُك ذا ولم تجبِ
إلى الفتيات والشهوات ... والصهباء والطربِ
وباطية مكللة ... عليها سادة العربِ
وفيهن التي تَبَلَتْ ... فؤادك ثم لم تَتُبِ

فنهض الحسين وقال: بل فؤادك يا ابن معاوية تبلت. وقال شقيق بن سلمة: لما قتل الحسين ثار عبد الله بن الزبير فدعا ابن عباس إلى بيعته، فامتنع. وظن يزيد أن امتناعه تمسك منه ببيعته، فكتب إليه: أما بعد: فقد بلغني أن الملحد ابن الزبير دعاك إلى بيعته، وأنك اعتصمت ببيعتنا وفاء منك، فجزاك الله من ذي رحم خير ما يجزي المواصلين لأرحامهم الموفين بعهودهم، فما أنسى من =

دولة معاوية بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان[(١)]

[٣٦/ب] / ولكن أبا ليلى قد كره هذه الكُنية التي تجريها العرب على المضعوفين فنبذ الأمر لما تصير إليه ونبذ طوقه ولم يتقلده، وسنه إذ ذاك تسع عشرة سنة بهم. ثم جمع الناس، وخطبهم، فقال: أيها الناس، إني نظرت في أموركم فضعفت عنها . . .[(٢)] من الخلافة، فاختاروا لأنفسكم. وقام فدخل بيته، واجتمع إليه بنو أمية وقالوا: اعهد إلى من تريد.

فقال: والله لا أتجرع مرارتها وتكون لبني أمية حلاوتها.

ومات لأيام من خطبته في السنة التي توفي فيها أبوه بشهر أو نحوه، وقام بالأمر بعده مروان بن الحكم[(٣)].

= الأشياء، فلست بناس برَّكَ وتعجيل صلتك بالذي أنت له أهل، فانظر من طلع عليك من الآفاق ممن سحرهم ابن الزبير بلسانه فأعلمهم بحاله فإنهم منك أسمع الناس ولك أطوع منهم للمحل.
فكتب إليه ابن عباس: أما بعد: فقد جاءني كتابك، فأما تركي بيعة ابن الزبير، فوالله ما أرجو بذلك برَّكَ ولا حمدك، ولكن الله بالذي أنوي عليم. وزعمت أنك لست بناسٍ برّي، فاحبس أيها الإنسان برَّكَ عني فإني حابس عنك برّي. وسألت أن أحبب الناس إليك وأبغضهم وأخذلهم لابن الزبير فلا ولا سرور ولا كرامة كيف وقد قتلت حسيناً، وفتيان عبد المطلب مصابيح الهدى ونجوم الأعلام؟ غادرتهم خيولك بأمرك في صعيد واحد مرملين بالدماء، مسلوبين بالعراء، مقتولين بالظماء، لا مكفنين ولا مسودين، تسفى عليهم الرياح وينشيء بهم عوج البطاح، حتى أتاح الله بقوم لم يشركوا في دمائهم فكفنوهم وأجنوهم، وبي وبهم لو عززت وجلست مجلسك الذي جلست فما أنسى من الأشياء، فلست بناس إطرادك حسيناً من حرم رسول الله ﷺ إلى حرم الله. وتسييرك الخيول إليه، فما زلت بذلك حتى أشخصته إلى العراق، فخرج خائفاً يترقب، فنزلت به خيلك عداوة منك لله ولرسوله ولأهل بيته الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، فطلب إليكم المرادعة وسألكم الرجعة، فاغتنمتم قلّة أنصاره واستئصال أهل بيته وتعاونهم عليه كأنكم قتلتم أهل بيت من الترك والكفر، فلا شيء أعجب عندي من طلبتك ودي وقد قتلت ولد أبي وسيفك يقطر من دمي، وأنت أحد ثاري، ولا يعجبك أن ظفرت بنا اليوم فلنظفرن بك يوماً والسلام.

(١) قال ابن حزم في رسالة الخلفاء والولاة ومددهم (ص ١١٢ : ١١٣): ثم بويع أبو ليلى معاوية بن يزيد بن معاوية فبقي نحواً من أربعين يوماً، ثم رأى صعوبة الأمر، وكان رجلاً صالحاً، فتبرأ عن الأمر وانخلع، ولزم بيته. ومات رحمه الله بعد انقضاء نحو أربعين يوماً، وسِنّه عشرون سنة.

(٢) موضع النقط كلمات غير ظاهرة لطمس بالمخطوط.

(٣) ذكر ابن الأثير في الكامل بيعته فقال: بويع لمعاوية بن يزيد بالخلافة بالشام ولعبد الله بن الزبير بالحجاز. ولما هلك يزيد بلغ الخبر عبد الله بن الزبير بمكة قبل أن يعلم الحصين بن نمير، ومن معه من عسكر الشام، وكان الحصار قد اشتد من الشاميين على ابن الزبير. فناداهم ابن الزبير، وأهل مكة: علام تقاتلون وقد هلك طاغيتكم؟ فلم يصدقوه، فلما بلغ الحصين خبر موته بعث إلى ابن الزبير، فقال: موعد ما بيننا الليلة بالأبطح، فالتقيا وتحادثا. فراث فرس الحصين، فجاء حمام الحرم يلتقط روث الفرس. فكفّ الحصين فرسه عنهن وقال: أخاف أن يقتل فرسي حمام الحرم. =

دولة مروان بن الحكم بن العاص ابن أمية بن عبد شمس بن مناف(١)

ولما توفي معاوية، وكان مروان حاضراً إذ ذاك بدمشق، دعا إلى نفسه، وطلب

= فقال ابن الزبير: تتحرجون من هذا، وأنتم تقتلون المسلمين في الحرم. فكان فيما قال له الحصين: أنت أحق بهذا الأمر، هلم فلنبايعك، ثم اخرج معنا إلى الشام، فإن هذا الجند الذين معي هم وجوه الشام وفرسانهم، فوالله لا يختلف عليك اثنان، وتؤمن الناس وتهدر هذه الدماء التي كانت بيننا، وبينك وبين أهل الحرم.
فقال له: أنا لا أهدر الدماء، والله لا أرضى أن أقتل بكل رجل منهم عشرة منكم. وأخذ الحصين يكلمه سِرّاً وهو يجهر. ويقول: والله لا أفعل. فقال له الحصين: قبّح الله من يعدك بعد ذاهباً وآيباً، قد كنت أظن أن لك رأياً، وأنا أكلمك سِرّاً، وتكلمني جهراً، وأدعوك إلى الخلافة، وأنت لا تريد إلا القتل والهلكة، ثم فارقه ورحل هو وأصحابه نحو المدينة.
وندم ابن الزبير على ما صنع، فأرسل إليه: أما المسير إلى الشام فلا أفعله، ولكن بايعوا لي هناك، فإني مؤمنكم، وعادل فيكم. فقال الحصين: إن لم تقدم بنفسك لا يتم الأمر فإن هناك ناساً من بني أمية يطلبون هذا الأمر. ثم سار الحصين إلى المدينة، فاجترأ أهل المدينة على أهل الشام، فكان لا يتفرد منهم أحد إلا أخذت دابته فلم يتفرقوا. وخرج معهم بنو أمية من المدينة إلى الشام ولو خرج معهم ابن الزبير لم يختلف عليه أحد. فوصل أهل الشام دمشق وقد بويع معاوية بن يزيد، فلم يمكث إلا ثلاثة أشهر حتى هلك. وقيل: بل ملك أربعين يوماً. ومات وعمره إحدى وعشرون سنة، وثمانية عشر يوماً. ولما كان في آخر إمارته أمر فنودي: الصلاة جامعة، فاجتمع الناس، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد: فإني ضعفت عن أمركم، فابتغيت لكم مثل عمر بن الخطاب حين استخلفه أبو بكر فلم أجده، فابتغيت ستة مثل ستة الشورى، فلم أجدهم، فأنتم أولى بأمركم، فاختاروا له من أحببتم.
ثم دخل منزله وتغيب حتى مات. وقيل: إنه مات مسموماً، وصلى عليه الوليد بن عتبة بن أبي سفيان، ثم أصابه الطاعون من يومه، فمات أيضاً. وقيل: لم يمت، وكان معاوية أوصى أن يصلي الضحاك بن قيس بالناس حتى يقوم لهم خليفة. وقيل لمعاوية: لو استخلفت؟ فقال: لا أتزود مرارتها وأترك لبني أمية حلاوتها.

(١) قال ابن الأثير في أحداث سنة أربع وستين في ذكر بيعة مروان بن الحكم: بويع مروان بن الحكم بالشام، وكان السبب فيها: أن ابن الزبير لما بويع له بالخلافة ولي عبيد الله بن الزبير المدينة، وعبد الرحمٰن بن جحدم الفهري مصر، وأخرج بني أمية، ومروان بن الحكم إلى الشام، وعبد الملك بن مروان يومئذ ابن ثمان وعشرين سنة. فلما قدم الحصين بن نمير ومن معه إلى الشام أخبر مروان بما كان بينه وبين ابن الزبير، وقال له ولبني أمية: نراكم في اختلاط، فأقيموا أميركم قبل أن يدخل عليكم شأنكم فتكون فتنة عمياء صماء.
وكان من رأي مروان: أن يسير إلى ابن الزبير فيبايعه بالخلافة، فقدم ابن الزبير من العراق، وبلغه ما يريد مروان أن يفعل فقال له: قد استحييت لك من ذلك أنت كبير قريش وسيدها، تمضي إلى ابن خبيب فتبايعه ـ يعني ابن الزبير، لأنه كان يكنى بابنه خبيب ـ. فقال: ما فات شيء بعد. فقام إليه بنو =

الأمر وقال:

إني أرى فتنة تغلي مراجلها والملك بعد أبي ليلى لمن غلب

= أمية ومواليهم وتجمع إليه أهل اليمن، فسار إلى دمشق وهو يقول: ما فات شيء بعد، فقدم دمشق، والضحاك بن قيس قد بايعه أهلها على أن يصلي بهم ويقيم لهم أمرهم حتى يجتمع الناس وهو يدعو إلى ابن الزبير سِرّاً.

وكان زفر بن الحارث الكلابي بقنسرين يبايع لابن الزبير، والنعمان بن بشير بحمص يبايع له أيضاً.

وكان حسان بن مالك بن بحدل الكلبي بفلسطين عاملاً لمعاوية ولابنه يزيد، وهو يريد بني أمية، فسار إلى الأردن، واستخلف على فلسطين روح بن زنباع الجذامي. فثار نائل بن قيس بروح فأخرجه من فلسطين وبايع لابن الزبير. وكان حسان في الأردن يدعو إلى بني أمية، فقال لأهل الأردن: ما شهادتكم على ابن الزبير، وقتلى الحرة؟ قالوا: نشهد إنه منافق، وأن قتلى الحرة في النار. قال: فما شهادتكم على يزيد وقتلاكم بالحرة؟ قالوا: نشهد أنه على الحق وإن قتلانا في الجنة. قال: فأنا أشهد لئن كان يزيد وشيعته على الحق إنهم اليوم على حق ولئن كان ابن الزبير وشيعته على باطل إنهم اليوم عليه. قالوا له: صدقت، نحن نبايعك على أن نقاتل من خالفك وأطاع ابن الزبير على أن تجنبنا هذين الغلامين ـ يعنون ابني يزيد: عبد الله وخالداً ـ فإنَّا نكره أن يأتينا الناس بشيخ ونأتيهم بصبي.

وكتب حسان إلى الضحاك كتاباً يعظم فيه حق بني أمية وحسن بلائهم عنده، ويذم ابن الزبير، وأنه خلع خليفتين، وأمره أن يقرأه على الناس. وكتب كتاباً آخر وسلّمه إلى الرسول ـ واسمه ناغضة ـ وقال له: إن قرأ كتابي على الناس وإلاّ فاقرأ هذا الكتاب عليهم. وكتب حسان إلى بني أمية يأمرهم أن يحضروا ذلك. فقدم ناغضة، فدفع كتاب الضحاك إليك، وكتاب بني أمية إليهم. فلما كانت الجمعة، صعد الضحاك المنبر فقال له ناغضة: لتقرأ كتاب حسان على الناس. فقال له الضحاك: اجلس. فقال إليه ثانية، وثالثة وهو يقول: اجلس، فأخرج ناغضة الكتاب، وقرأه على الناس. فقال الوليد بن عتبة بن أبي سفيان: صدق حسان، وكذب ابن الزبير، وشتمه... وسار الضحاك وبنو أمية نحو الجابية، فأتاه ثور بن معن السلمي، فقال: دعوتنا إلى ابن الزبير فبايعناك على ذلك وأنت تسير إلى هذا الأعرابي من كلب تستخلف ابن أخته خالد بن يزيد. فقال الضحاك: فما الرأي؟ قال: الرأي أن تُظهر ما كنا نكتم وتدعو إلى ابن الزبير. فرجع الضحاك ومن معه من الناس فنزل بمرج راهط ودمشق بيده.

واجتمع بنو أمية وحسان وغيرهم بالجابية، نكان حسان يصلي بهم أربعين يوماً، والناس يتشاورون.

وكان مالك بن هبيرة السكوني يهوى خالد بن يزيد، والحصين بن نمير يميل إلى مروان. فقال مالك للحصين: هل نبايع هذا الغلام الذي نحن ولدنا أباه، وقد عرفت منزلتنا من أبيه؟ فإنه يحملنا على رقاب العرب غداً ـ يعني خالداً ـ. فقال الحصين: لا والله، لا تأتينا العرب بشيخ وتأتيها بصبي.

فقال مالك: والله لئن استخلفت مروان ليحسدك على سوطك وشراك نعلك وظل شجرة تستظل بها، إن مروان أبو عشيرة وأخو عشيرة، فإن بايعتموه كنتم عبيداً لهم، ولكن عليكم بابن أختكم.

فقال الحسين: إني رأيت في المنام قنديلاً معلقاً في السماء، وإن من يلي الخلافة يتناوله، فلم ينله أحد إلاّ مروان، والله لنستخلفنه.

وقام روح بن زنباع الجذامي فقال: أيها الناس إنكم تذكرون عبد الله بن عمر وصحبته وقدمه في الإسلام، وهو كما تذكرون ولكنه ضعيف وليس بصاحب أمر أمة محمد الضعيف، وتذكرون ابن =

فبويع يوم الأربعاء لثلاث خلون من ذي القعدة سنة أربع وستين.

ولما مرج أمر بني أمية، وكان يوم بويع سنة اثنين وستين سنة، وجعل البيعة بعده لخالد بن يزيد بن معاوية، وبه مهد الأمر لنفسه، وكأنه كافل ولي الخلافة.

وخالد هذا من شرط من ذهبنا إليه في بيعة من لم يبلغ سِن الاحتلام.

وانحاز عند ذلك قيس وسائر مضر، وغيرهم من نزار إلى الضحاك بن قيس الفهري.

وسار إليه مروان، فكان له الظهور.

وقتل الضحاك، وقتل معه من نزار وقيس مقتلة عظيمة، واستقام الأمر بعد ذلك لمروان بالشام.

ودعا عبد الله بن الزبير إلى نفسه بالخلافة بالحجاز، ثم بالعراق حسبما يأتي ذكره.

وتوفي مروان لثلاث خلون من رمضان سنة خمس وستين.

وكان سبب موته فيما حكاه غير واحد من المؤرخين:

أنه كان قد تزوج أم خالد المعهود إليه بعده وهي عاتكة بنت هاشم بن ربيعة. فدخل عليه ابنها خالد المذكور وقد صرف عنه البيعة لولده عبد الملك بن مروان، فكلمه بما أغضبه.

= الزبير وهو كما تذكرون أنه ابن حواري رسول الله ﷺ، وأنه ابن ذات النطاقين ولكنه منافق قد خلع خليفتين يزيد وابنه معاوية، وسفك الدماء وشق عصا المسلمين وليس المنافق بصاحب أمة محمد ﷺ. وأما مروان بن الحكم، فوالله ما كان في الإسلام صدع إلا كان ممن يشعبه، وهو الذي قاتل علي بن أبي طالب يوم الجمل. وإنّا نرى للناس أن يبايعوا الكبير ويستشيروا الصغير - يعني بالكبير مروان وبالصغير خالد بن يزيد - فاجتمع رأيهم على البيعة لمروان بن الحكم، ثم لخالد بن يزيد، ثم لعمرو بن سعيد بن العاص من بعد خالد على أن إمرة دمشق لعمرو، وإمرة حمص لخالد بن يزيد.

فدعا حسان خالداً، فقال: يا ابن أختي إن الناس قد أبوك لحداثة سنك وإني والله ما أريد هذا الأمر إلاّ لك ولأهل بيتك، ما أبايع مروان إلاّ نظراً لكم. فقال خالد: بل عجزت عنا. قال: والله ما عجزت عنكم ولكن الرأي لك ما رأيت. ثم بايعوا مروان لثلاث خلون من ذي القعدة سنة أربع وستين. وقال مروان حين بويع له:

لما رأيت الأمر أمراً نهبا ... يَسَّرْتُ غساناً لهم وكلبا
والسكسكين رجالاً غُلْبا ... وطيئاً يأباه إلاّ ضربا
والقين يمشي في الحديد نكبا ... ومن تنوخ مشمخرّاً صعبا
لا يأخذون الملك إلاّ غصبا ... فإن دنت قيس فقل لا قربا

فقال له مروان: اذهب يا ابن الرطبة الكن، أو قال: يا ابن الربوح.

[١/٢٧] وهي المرأة[١]/ التي يغشى عليها عند المواقعة.

فانصرف باكياً ودخل على أمه، فلامها فيما جنت عليه.

فقالت له: مهلاً عليك فوالله لا يقوله لأحد بعد.

وعمدت من الليل إلى وسادة فجعلتها فوق أنفسه وقعدت عليها، فمات.

وكانت مدة مُلْكِهُ تسعة أشهر وأياماً قليلة.

وولي الأمر بعده عبد الملك.

ونحن نذكر ما كان في دولة عبد الله بن الزبير، ثم نكر إلى تمام الدولة المروانية.

دولة أبي خبيب عبد الله بن الزبير[٢] رضي الله عنه

ودعا إلى نفسه بمكة والحجاز عبد الله بن الزبير على ثمانية وسبعين يوماً من بعد مروان بن الحكم.

فاستقامت له الخلافة، ثم دخل في إمرة العراق، فوجه إليه أخاه مصعب بن

---

(١) تكررت عبارة: وهي المرأة في أول الورقة [٢٧/أ] فحذفت التكرار.

(٢) قال ابن حزم في رسالة أسماء الخلفاء والولاة (ص ١١٣): بويع له بمكة سنة أربع وستين بعد ثلاثة أشهر منها. وأجمع عليه المسلمون كلهم من إفريقية إلى خراسان، حاشا شرذمة ابن الأعرابية بالأردن (هو حسان بن مالك بن بحدل الكلبي) فوجه إليهم رسوله مروان بن الحكم ليأخذ بيعتهم بعد أن بايعه مروان بن الحكم. فلما ورد عليهم خلع الطاعة. وهو أول من شقّ عصا المسلمين بلا تأويل ولا شبهة، وبايعه أهل الأردن وخرج على ابن الزبير، وقتل النعمان بن بشير ـ أول مولود في الإسلام من الأنصار، وصاحب رسول الله ﷺ ـ بحمص. وخرج المختار بن أبي عُبيد بن مسعود الثقفي فقتِلَ بالكوفة، وادعى النبوة في جهالات توجب أنه كان يعلم من نفسه أنه ليس كما يظهر، وحاله مضبوطة عند علماء التاريخ.

ومن جيد ما وقع منه: أنه تتبع بعض الذين شاركوا في أمر ابن الزهراء الحسين فقتل منهم ما أقدره الله عليه، وفعل أفعالاً يُعَفِّي فيها على هذه الحسنة. وقَتَلَ بالكوفة ممن توهم منه ما يوجب مُباينة ما هو عليه، فهذا كان الغالب عليه. وتغلب مروان على مصر والشام، ثم مات بعد عشرة أشهر فقام مقامه في الخُلعان لعبد الله بن الزبير ابنه عبد الملك. وبقية فتنة إلى أن قوي أمره، ووجَّه عامله الحجاج بن يوسف إلى مكة فحاصرها ورمى البيت بحجارة المنجنيق. وقتل ابن الزبير في المسجد الحرام بمكة سنة ثلاث وسبعين في جمادى الآخرة مُقبلاً غير مُدْبِر، مدافعة عن نفسه مقاتلاً، فلذلك لم يعرف من قتله، وله ثلاث وسبعون سنة، وهو أول مولود ولد في الإسلام. وقتله أحد مصائب الإسلام وخرومه لأنَّ المسلمين استضيموا بقتله ظُلْماً علانية وصلبه واستحلال الحرم. وكانت ولايته تسعة أعوام وشهرين ونصف شهر. أمه: أسماء بنت أبي بكر الصديق رضوان الله عليه.

الزبير المثل المضروب فيما جمع الله له من الجمال والشجاعة، وقلال العرب وعقيلتي العرب، عائشة بنت طلحة، وسكينة بنت الحسين بن علي، فاتصلت خلافته إلى يوم قتل بمكة سنة ثلاث وتسعين.

وأخبار عبد الله بن الزبير وأخبار مصعب وخُطَبُ عبد الله وسيرته، وأخبار مصعب وحروبه، وقتل عبيد الله بن زياد وأخبار ولايته بالعراق تقتضي شرحاً وبسطاً لم نبن عليه في الأمور المعروفة والتواريخ المشهورة.

دولة عبد الملك بن مروان بن الحكم ابن العاصي بن أمية(١)

وولي الأمر بعد مهلك مروان ولده عبد الملك بن مروان ابنه بعهد من أبيه، فاستقل بالأمر.

وكان فقيهاً ملازماً للمسجد معدوداً من أهل العلم وهو أبو الأملاك من بني أمية.

زعموا أنه رأى في الحلم كأنه يبول في المحراب مرات.

فعبر ذلك بأولاد له يتناوبون ملك الإسلام.

وعانى شدائد لم يعانيها ملك قبله، فذكر أنه ورد عليه في ليلة واحدة مقتل عبيد الله بن زياد، ومن كان معه، وهزيمة جيوشه التي جمعها، ومقتل حبيش بن دلجة، وكان على جيش له بالمدينة لحرب ابن الزبير.

ثم دخول بابل بن قيس فلسطين وسفر مصعب بن الزبير إليها.

ثم خروج ملك الروم ونزوله بالمصيصية يريد الشام.

ثم ثورة أوباش دمشق ودُعَّارها، وفرار من كان في سجنها من عدوه. ثم أن خيل الأعراب أغارت على جبال الشام، وجبال حمص وبعلبك. وغير ذلك مما نمى إليه المقطعات/ . . .(٢) واضطر إلى مسالمة الروم بضريبة تدفع إلى ملكهم بحساب [٢٧/ب] ألف دينار في كل عام، ورحل إلى ابن الزبير فلما أبعد عن دمشق بلغه وثوب عمرو بن سعيد بن العاصي بداره. . .(٣) وأن الله أبدل له العُسر يسرا، وأجناك من الصبر

---

(١) قال ابن حزم في رسالة أسماء الخلفاء والولاة (ص ١١٥) وَلِيَ إذ قُتل ابن الزبير، وبقي إلى أن مات يوم الخميس النصف من شوال سنة ست وثمانين بدمشق. وكانت ولايته ثلاثة عشر عاماً وشهرين ونصفاً. أمه: عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس، قتله النبي ﷺ صبراً. وكان سِنُّهُ إذ مات اثنتان وخمسون سنة.

(٢) موضع النقط ثلاث كلمات غير مقروءة لطمس بالمخطوط.

(٣) موضع النقط طمس بالمخطوط.

ظفراً. . .(١) بفتحها، ولا تترك عمرو بن سعيد عن عهد، ثم. . .(١) ووجه الحجاج بن يوسف، وهو أول من استعمله.

فنازل عبد الله بن الزبير بمكة بعد الفراغ من أخيه مصعب بالعراق، وقتله والاستيلاء على العراق.

فضيق على عبد الله بن الزبير، وشدد حصاره، ورمى الكعبة بالمنجانيق حتى دخلها عليه عنوة، وقتله وصلبه بها وخرج عليه عقبة بن الأشعث بن قيس في أمم من كبار السلف من التابعين وكان اللقاء بدير الجماجم، ووقعت بين جيوشه وبين القوم نيف وثمانون وقعة تفانى فيها الخلق، ثم كانت. . .(١) عقبة بن الأشعث، فقُتِل، وعظم عليه أمر الخوارج.

وحروب الخوارج مع المهلب بن أبي صفرة والحجاج مشهورة في كل تاريخ. وكذلك أخبار الحجاج إلى أن هلك سنة خمس وتسعين بواسط، وقد بلغت سنين ولايته عشرين سنة وأحصى من قتله صبراً سوى من مات في حروبه فكانوا مائة وعشرين ألفاً.

والحجاج هو الذي أرسى قواعد ملك بني مروان، في إطار من حصد شوكة العراق واستأصل أعداءهم فيها، وأشقى الناس من باع آخرته بدنيا غيره، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وقد ولع بأخبار عبد الملك القُصَّاص وأرباب الأخبار لجلالة قدره وسياسته في ملكه وانفساح مدته. وتوفي بدمشق يوم السبت لأربع عشرة مضت من شوال سنة ست وثمانين(٢).

دولة الوليد بن عبد الملك بن مروان ويُكنى أبا العباس(٣)

وكان جباراً عنيداً وملكاً عظيماً جريئاً على سفك الدماء، يُكَلَّم في غضب ولا

(١) كلمة مطموسة في المخطوط.

(٢) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء عن عبد الملك بن مروان (٢٤٦/٤): الخليفة الفقيه، أبو الوليد، الأموي، ولد سنة ست وعشرين. سمع عثمان، وأبا هريرة، وأبا سعيد، وأم سلمة، ومعاوية، وابن عمر، وبَريرَة، وغيرهم. ذكرته لغزارة علمه. . . تملك بعد أبيه الشام ومصر، ثم حارب ابن الزبير الخليفة، وقتل أخاه مصعباً في وقعة مَسْكِين، واستولى على العراق، وجهز الحجاج لحرب ابن الزبير فقتل ابن الزبير سنة اثنتين وسبعين، واستوثقت الممالك لعبد الملك.
قال ابن سعد: كان قبل الخلافة عابداً ناسكاً بالمدينة. . . وكان أبيض طويلاً مقرون الحاجبين، أعين، مُشرِفَ الأنف، رقيق الوجه، ليس بالبادن، أبيض الرأس واللحية. ثم قال في آخر ترجمته: كان من رجال الدهر ودهاة الرجال، وكان الحجاج من ذنوبه.

(٣) قال ابن حزم في رسالة أسماء الخلفاء والولاة (ص ١١٥، ١١٦): يكنى بأبي العباس، ولّي إذ مات =

يراجع في سطوة.

وكان يدعى فارس بن مروان، وأغزى الغرب، فبلغ جيش عماله بإفريقية السوس وفتحت له الأندلس على عهده بما هو معروف لا نطرقه في جليته وشياعه واشتهاره في كل كتاب.

ونظر إليه عبد الملك لما حضرته الوفاة وهو يبكي، فقال: ما هذا الكنين والحماقة؟ إذا أنا مِت فشمر، واتزر، والبس جلد نمر/ وضع سيفك على عاتقك فمن [٢٨/أ] أبدى خلاف نفسه لملكك فاضرب عنقه، ومن سكت مات بدائه.

واستعمل الحجاج بعد عبد الملك واغتبط به، وكانت وفاته بدير مروان من الشام وحُمل على أعناق الرجال إلى دمشق ودفن بها خارج باب الصغير.

وكانت وفاته يوم السبت لأربع عشرة خلت من جمادى الآخرة سنة خمس وتسعين(١).

وولي الأمر بعده أخوه سليمان.

= أبوه وبقي والياً إلى أن مات يوم السبت في النصف من جُمادى الأولى سنة خمس وتسعين. وكانت مدة ولايته تسع سنين، وسبعة أشهر. ومات وله ستُّ وأربعون سنة. أمه: ولادة بنت العباس بن جزء بن الحارث بن زُهير بن جذيمة العبسي. وفي أيامه فُتحت الأندلس، وما وراء النهر بخراسان والسند.

(١) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (٤/ ٣٤٧): أبو العباس... الأموي الدمشقي الذي أنشأ جامع بني أمية. بويع بعهد من أبيه، وكان مترفاً دميماً سائل الأنف، طويلاً، أسمر، بوجهه أثر جُدري، في عنفقته شيب يتبختر في مشيته، وكان قليل العلم نهمته في البناء. أنشأ أيضاً مسجد رسول الله ﷺ، وزخرفه، ورُزق في دولته سعادة. ففتح بوّابة الأندلس، وبلاد الترك، وكان لُحَنَةً، وحرص على النحو أشهراً فما نفع. وغزا الروم مراتٍ في دولة أبيه، وحجّ.
وقيل: كان يختم في كل ثلاث، وختم في رمضان سبع عشرة ختمة. وكان يقول: لولا أن الله ذكر قوم لوط ما شعرت أن أحداً يفعل ذلك. وقال ابن أبي عَبْلة: رحم الله الوليد، وأين مثل الوليد، افتتح الهند، والأندلس، وكان يعطيني قِصاع الفضة، أقسمها على القُرّاء. وقيل: إنه قرأ على المنبر: يا ليتُها، وكان فيه عَسْفٌ وجبروت، وقيام بأمر الخلافة وقد فرض للفقهاء والأيتام والزَّمْنى، والضعفاء، وضبط الأمور، فالله يُسامحه... وقد كان عزم على خلع سليمان من ولاية العهد لولده عبد العزيز، فامتنع عليه عمر بن عبد العزيز، وقال: لسليمان بيعة في أعناقنا. فأخذه الوليد، وطين عليه، ثم فتح عليه بعد ثلاث وقد مالت عنقه. وقيل: خنقه بمنديل حتى صاحَتْ أم البنين. فشكر سليمان لعمر ذلك، وعهد إليه بالخلافة.
ومن مصادر ترجمته: تاريخ الإسلام (٤/ ٦٥)، العبر (١/ ١١٤)، فوات الوفيات (٤/ ٢٥٤)، البداية والنهاية (٩/ ٧٠)، العقد الثمين (٧/ ٣٨٩)، الذهب المسبوك (٢٩)، النجوم الزاهرة (١/ ٢٢٠)، تاريخ الخلفاء (٢٢٣)، شذرات الذهب (١/ ١١١).

دولة سليمان بن عبد الملك بن مروان(١)

يكنى أبا أيوب، وكان يُدعى الداعي إلى الله لحرصه على المحافظة على معالم الشريعة، وكان فصيحاً، شاعراً، عارفاً بأيام الناس وأخبارهم...(٢) والملوك، وممن يضرب به المثل في ذلك.

قال المسعودي في التاريخ: وكان يبسط في كل يوم مائة رطل بالعراء من الطعام، وربما أتاه الطباخون...(٣) فيها الدجاج المشوي وعليه الحُلة من الوشي المثقلة فالتهمه و [كان من](٤) حرصه على الأكل يدخل يده في كمه، ويقبض على الدجاجة وهي حارة فيفصلها.

ولما انقضت أيامه استلزمت أثوابه وحُلَلَهُ بذلك، ويظهر أنه لا عتب عليه في ذلك، فإنه مرض معروف(٥).

---

(١) قال ابن حزم في رسالة الخلفاء (ص ١١٦): كنيته أبو أيوب، وسُكناه بالرملة من فلسطين، وكانت سُكنى أبيه وأخيه بدمشق. بويع يوم مات أخوه الوليد، وبقي والياً إلى أن مات يوم الجمعة لعشر خلون من صفر سنة تسع وتسعين. فكانت ولايته عامين وتسعة أشهر وخمسة أيام. ومدة عمره، قيل: سبع وثلاثون سنة. وهو شقيق الوليد أخيه. وفي أيامه حُوصرت القسطنطينية، وحاصرها أخوه مسلمة، وسن مسلمة أربع وعشرون سنة.

(٢) موضع النقط طمس بالمخطوط.

(٣) كلمة مطموسة بالمخطوط.

(٤) زيادة يتطلبها السياق.

(٥) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (٥/ ١١١) في ترجمته: كان دَيِّناً فصيحاً مفوهاً عادلاً مُحباً للغزو يقال: نشأ بالبادية. مات بذات الجنب، ونقش خاتمه: أُومِنُ بالله مُخْلِصاً. وأمه وأم الوليد هي ولادة بنت العباس بن حزن العبسية... وكان أبيض كبير الوجه مقرون الحاجبين جميلاً، له شعر يضرب منكبيه، عاش تسعاً وثلاثين سنة، قسم أموالاً عظيمة، ونظر في أمر الرعية، وكان لا بأس به، وكان يستعين في أمر الرعية بعمر بن عبد العزيز، وعزل عمال الحجاج. وكتب: إن الصلاة كانت قد أُميتت فأحيوها بوقتها. وهم بالإقامة ببيت المقدس، ثم نزل قنسرين للرباط، وحج في خلافته. وقيل: رأى بالموسم الخلق، فقال لعمر بن عبد العزيز: أما ترى هذا الخلق الذين لا يحصيهم إلا الله، ولا يسع رزقهم غيره؟
قال: يا أمير المؤمنين هؤلاء اليوم رعيتك وهم غداً خُصماؤك. فبكى وقال: بالله أستعين. وعن ابن سيرين قال: يرحم الله سليمان افتتح خلافته بإحياء الصلاة واختتمها باستخلافه عمر. وكان سليمان ينهى الناس عن الغناء. وكان من الأَكَلَة حتى قيل: إنه أكل مرة خروفاً وست دجاجات وسبعين رمانة، ثم أتي بمكوك زبيب طائفي فأكله. ولما مرض بدابق قال لرجاء بن حيوة الكندي: من لهذا الأمر؟ قال: ابنك غائب. قال: فالآخر؟ قال: صغير. قال: فمن ترى؟ قال: عمر بن عبد العزيز. قال: أتخوف إخوتي. قال: وَلِّ عمر، ثم من بعده يزيد بن عبد الملك وتكتب كتاباً، وتختمه، وتدعوهم إلى بيعة مَنْ فيه. قال: لقد رأيت.

=

وقال صاحب الخطبة في الزرد: يا بني، امعنوا في الوَدِك، وكونوا آكل من سليمان بن عبد الملك، فقد بلغني أنه خرج من الحمام واستعجل الطعام، فأُتي إليه بمائة خروف، فأكل أجوافها بمائة رقاقة، ثم جيء بمعتاد الطعام فأكل كأن لم يأكل من قبل شيئاً.

وله المنقبة الشريفة بإيثار عمر بن عبد العزيز والعهد له من بعده دون إخوته وولده؛ ولذلك قيل: إن ولداً لعمر بن عبد العزيز فاخر ولداً لسليمان بن عبد الملك، فذكر له ولد عمر فضل أبيه وحاله.

فقال له ولد سليمان بن عبد الملك: إن شئت فأقلل، وإن شئت فأكثر، فما أبوك إلاَّ حسنة من حسنات أبي.

وبمثله قال أبو عبد الله بن الأبار القضاعي في درر الزمان: يزعم الناس أن عمر أحيا الإيمان، وأنا أخالف، لكون ذلك من سليمان.

وفي أيام سليمان: كانت نكبة موسى بن نصير، ومطالبته بسبب فيء الأندلس.

وكان موسى رجلاً صالحاً/ تقياً إلاَّ أنه بُغي عليه عنده. [٢٨/ب]

وكانت وفاة سليمان بن عبد الملك سنة تسع[١].

ووليّ الأمر بعده أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رحمه الله.

دولة عمر بن عبد العزيز بن مروان رضي الله عنه[٢]

وهو: عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم.

= وكتب العهد، وجمع الشرط، وقال: من أبى البيعة، فاقتلوه، وفعل ذلك، وتم. ثم كُفِّن سليمان في عاشر صفر سنة تسع وتسعين، وصلى عليه عمر بن عبد العزيز. وقيل: عاش أربعين سنة، وخلافته سنتان وتسعة أشهر وعشرون يوماً عفا الله عنه، وفي آل مروان نصب ظاهر سوى عمر بن عبد العزيز رحمه الله.

(١) ومن مصادر ترجمة سليمان بن عبد الملك: تاريخ خليفة (٢٨١، ٢٩٢)، تاريخ الفسوي (١/ ٢٢٣)، تاريخ اليعقوبي (٣/ ٣٦)، تاريخ الطبري (٦/ ٥٤٦)، مروج الذهب (٢/ ١٢٧)، وفيات الأعيان (٢/ ٤٢٠، ٤٢٧)، تاريخ الإسلام (٤/ ٨)، العبر (١/ ١١٥)، فوات الوفيات (٢/ ٦٨)، البداية والنهاية (٩/ ١٨٣)، شذرات الذهب (١/ ١١٦).

(٢) كتبت في سيرته الكتب ودونت الدواوين وملأت طباق الأرض بحسن سجاياه وعدله وورعه وزهده وعدله وعُدَّ خامس الخلفاء الراشدين، ومن مصادر ترجمته نذكر: طبقات ابن سعد (٥/ ٣٣٠)، تاريخ خليفة (٣٢١)، تاريخ الفسوي (١/ ٥٦٨)، حلية الأولياء (٥/ ٢٥٣)، طبقات الشيرازي (٦٤)، تاريخ الإسلام (٤/ ١٦٤)، سير أعلام النبلاء (٥/ ١١٤)، تذكرة الحفاظ (١/ ١١٨)، العبر (١/ ١٢٠)، فوات الوفيات (٣/ ١٣٣)، البداية (٩/ ١٩٢)، العقد الثمين (٦/ ٣٣١)، تاريخ الخلفاء (٢٢٨)، شذرات الذهب (١/ ١١٩)، وغير ذلك كثير جداً.

أمه: أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب.

وكان إماماً في الفضل والورع والزهد في الدنيا، والقيام بالحق، والعمل على الآخرة، وأبى أن يأخذ من بيت المال لاقتصاره على مُوَيْلٍ كان له.

ولم يُر يوماً باكياً أكثر من يوم قرىء عهده على الناس بمسجد دمشق...(١) سليمان بن عبد الملك الذي عهد له.

وذكر أنه لما مَلَّ الحياة وثقل عليه المرض قال لبعض ولده: أشتاق إلى لقاء الله.

وكان يقول: خُلِقْتُ امرءً تواقاً تُقْتُ إلى...(٢) فبلغتها، وتقت إلى الخلافة فبلغتها، ثم تقت إلى ما عند الله.

قال أبو محمد بن قتيبة: كتب عمر بن عبد العزيز إلى ابن أبي زكريا:

أما بعد: فإذا بلغك كتابي هذا فأقدم. فقدم عليه، فقال: مرحباً بك يا ابن أبي زكريا.

---

(١) طمس في المخطوط.

(٢) طمس في المخطوط، ومما قال في ترجمة الذهبي في سير أعلام النبلاء: الإمام الحافظ العلاّمة المجتهد الزاهد العابد السيد أمير المؤمنين حقاً أبو حفص القرشي الأموي المدني ثم البصري الخليفة الزاهد الراشد أشجُ بني أمية... وكان من أئمة الاجتهاد، ومن الخلفاء الراشدين رحمة الله عليه... قالوا: ولد سنة ثلاث وستين. قال: وكان ثقة مأموناً، له فقه وعلم وورع روى حديثاً كثيراً، وكان إمام عدل رحمه الله، ورضي عنه.. وذكر صفته سعيد بن عفير فقال: إنه كان أسمر، رقيق الوجه حسنه، نحيف الجسم، حسن اللحية، غائر العينين، بجبهته أثر نفحة دابة، قد وخطه الشيب.

وقال إسماعيل الخُطبي: رأيت صفته في بعض الكتب: أبيض رقيق الوجه... وعن عبد العزيز بن يزيد الأيلي قال: حج سليمان بن عبد الملك، ومعه عمر بن عبد العزيز فأصابهم برق ورعد حتى كادت تنخلع قلوبهم. فقال سليمان: يا أبا حفص هل رأيت مثل هذه الليلة قط أو سمعت بها؟ قال: يا أمير المؤمنين، هذا صوت رحمة الله فكيف لو سمعت صوت عذاب الله؟!

... قال الليث: بدأ عمر بن عبد العزيز بأهل بيته فأخذ ما بأيديهم وسمى أموالهم مظالم ففزعت بنو أمية إلى عمته فاطمة بنت مروان فأرسلت إليه: إني قد عناني أمر، فأتته ليلاً، فأنزلها عن دابتها، فلما أخذت مجلسها قال: يا عمة، أنت أولى بالكلام. قالت: تكلم يا أمير المؤمنين. قال: إن الله بعث محمداً ﷺ رحمة، ولم يبعثه عذاباً، واختار له ما عنده، فترك لهم نهراً شُرْبُهُم سواء، ثم قام أبو بكر فترك النهر على حاله، ثم عمر، فعمل عمل صاحبه، ثم لم يزل النهر يشتق منه يزيد، ومروان، وعبد الملك، والوليد، وسليمان، حتى أفضى الأمر إليّ، وقد يبس النهر الأعظم ولن يروى أهله حتى يعود إلى ما كان عليه. فقالت: حسبك، فلست بذاكره لك شيئاً. ورجعت فأبلغتهم كلامه... وقال أبو عمر الضرير: مات بدير سمعان من أرض حمص يوم الجمعة لعشر بقين من رجب، وله تسع وثلاثون سنة ونصف. وقالت طائفة: في رجب، ولم يذكروا اليوم، وكانت خلافته سنتين وخمسة أشهر وأياماً.

قال: وبك يا أمير المؤمنين.

قال: حاجة لي قبلك.

فقال: بين العين والأنف حاجتك إن قدرت عليها.

قال: لست أُكلفك إلاّ ما تقدر عليه.

قال: نعم.

قال: إن تثني على الله تبارك وتعالى بمبلغ علمك، وتجتهد حتى إذا فرغت سألت الله تعالى أن يقبض عمر، وأمنت معك.

فقال الرجل: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون بيني وبينك أمة محمد، هذا ما لا يحل لي.

قال: فإني أعزم عليك بحق الله ورسوله وحقي عليك إن كان لي عليك حق إلاّ فعلت.

فبكى، ثم استرجع، ثم أقبل بشيء على الله وإنه ليبكي حتى إذا فرغ قال: اللهم إن عمر سألني بحقك وحق رسولك يا رب فاقبض عمر كما سأل، ولا تبقني بعده.

قال: وجاء شيء لعمر فسقط في حجره، فقال وهذا أي رب معنا فإني أحبه.

قال: فما كانوا إلاّ خرزات في خيط فانقطع الخيط فاتبع بعضهم بعضاً.

وتوفي عمر بن عبد العزيز بدير سمعان من أعمال حمص يوم الجمعة لخمس بقين من رجب سنة إحدى ومائة.

وقبره مشهور يغشاه الناس ويتبركون به، ذكره المسعودي.

ثم ولي الأمر بعده اليزيد بن عبد الملك بن مروان.

/ دولة اليزيد بن عبد الملك بن مروان(١) [٢٩/أ]

ولم يكن لليزيد بن عبد الملك ما تصرف وإنما كان على عظم الملك في زمانه

(١) ومن مصادر ترجمة يزيد ما يلي: سير أعلام النبلاء (٥/ ١٥٠)، تاريخ خليفة (٩/ ٢٧٨)، تاريخ اليعقوبي (٣/ ٥٢)، تاريخ الطبري (٧/ ٢١)، تاريخ الإسلام (٤/ ٢١٢)، العبر (١/ ١٢٨)، فوات الوفيات (٤/ ٣٢٢)، البداية والنهاية (٩/ ٢٣١)، شذرات الذهب (١/ ١٢٨)، ومما قال الذهبي في سير أعلام النبلاء في ترجمته: الخليفة أبو خالد القرشي الأموي الدمشقي استخلف بعهد عقده له أخوه سليمان بعد عمر بن عبد العزيز.

وأمه هي: عاتكة بنت يزيد بن معاوية ولد سنة إحدى وسبعين، وكان أبيض جسيماً جميلاً مدور الوجه لم يتكهل. . قال ابن وهب: حدثنا عبد الرحمٰن بن يزيد قال: لما توفي عمر بن عبد العزيز قال يزيد: سيروا بسيرة عمر بن عبد العزيز، فأُتي بأربعين شيخاً شهدوا أن الخلفاء ما عليهم حساب =

واتساع الخطة وتناهي الدنيا غَرقاً في اللهو، والغناء. . .(١) وزاد أمره فضحة ما كان من اتصال أيامه بأيام عمر بن عبد العزيز، وهو الذي شهر غرامه بالجاريتين حبابة وسلاّمة، وكان يجلسهما عن يمينه وعن شماله، فإذا غنتاه، وأخذ منه الشراب، هزل وقال لهما: أتأذنان لي أن أطير أريد أن أطير، فتظهران الجزع وتقولان: فلمن تدعنا وتدع أمة محمد؟

وخبره على موت حبابة بين يديه مشهور وأنه أظهر من الجزع عليها ما لم يسمع بمثله من قبل حتى تغير، وقيل له: إن الناس يتمزحون بجزعك، فدفنها وقال وهو واقف على قبرها:

فإن تسل عنك النفس أو تدع الأسى ... فباليأس أسلوا عنك لا بالتجلد
[وكل خليل لامني فهو قائلٌ ... من أجلك هذا هامة اليوم أو غدِ(٢)]

وقيل: إنه نبش اللحد عنها بعد ذلك متشوقاً إليها.

وفي مثل حاله قلت وقد مات لي سَكَنٌ عزيز عليّ وأنا في حال غربة بمدينة سلا وكان إذ ذاك جملة أنسي:

يا قلب كم هذا الجوى والخفوق ... دماءك استبق لئلا يقوى
فقال: لا قول ولا حول لي ... قد كان فحسبي الشكوى
فارقني الرشد وفارقته ... لما تعشقت بشيء يفنى

نصير الله كلف نفوسنا على ما لا يفنى وجعلها ممن شغل بالمعنى عن المغنى، وممن كتب له الزيادة من بعد الحسنى برحمته.

وهو أول من قدم صبياً لم يبلغ الحُلم في ملوك الإسلام. وفتح الباب على وفور أهل بيته، فلم يختلف عليه منهم أحد في ذلك حسبما تأدى إلينا.

حدَّث الإمام أبو الفرج الأصبهاني بسنده أن اليزيد بن عبد الملك لما وجَّه الجيوش إلى يزيد بن المهلب، وعقد الأمر لمسلمة بن عبد الملك على الجيش، وابن

= ولا عذاب. وقال ابن الماجشون وآخر: إن يزيد قال: والله ما عُمَرُ بن عبد العزيز بأحوج إلى الله مني. فأقام أربعين يوماً يسير بسيرته، فتلطفت حَبَابة وغَنّتْهُ أبياتاً. فقال للخادم: ويحك، قل لصاحب الشرطة يُصلي بالناس. وهي التي أحب يوماً الخلوة معها، فحذفها بعنبة وهي تضحك فوقعت في فيها، فشرقت فماتت، وبقيت عنده حتى أروحت، واغتم لها، ثم زار قبرها وقال:

* فإن تسل عنك النفس . . . *

ثم رجع، فما خرج إلا على النعش.

(١) كلمة مطموسة في المخطوط.

(٢) زيادة من مصارع العشاق (١/ ١٢٠).

أخيه العباس بن الوليد بن عبد الملك، وعقد له على دمشق، فقال له العباس: يا أمير المؤمنين إن أهل العراق أهل غدر وإرجاف، وقد وجهتنا محاربين والحوادث تحدث، ولا آمن أن يرجف أهل العراق فيقال: مات أمير المؤمنين ولم يعهد فيفت ذلك في أعضاد ابن عبد الملك أهل الشام، فلو عهدت عهداً لعبد العزيز بن الوليد أو ولد عبد الملك[١].

/ قال: بل ولد عبد الملك. [٢٩/ب]

قال: وأخوك أحق بالخلافة أم ابن أخيك؟

قال: إذا لم يكن من ولدي[٢] فأخي أحق بذا من ابن أخي.

قال: فإن ابنك لم يبلغ، فبايع لهشام، ثم لابنك بعد هشام.

قال: والوليد يومئذ له إحدى عشرة سنة.

فقال: غداً أبايع.

فلما أصبح فعل ذلك، وبايع لهشام بولاية العهد وبعده لابنه الوليد وأن لا يُخلع الوليد بعده ولا يغيِّر عهده ولا يحتال عليه. فلما أدرك الوليد ندم اليزيد، فكان ينظر إليه ويقول: الله بيني وبين من جعل هشاماً بيني وبينك.

ولم يزل الوليد مكرَّماً عند هشام، رفيع المنزلة، ثم طمع في خلعه، وعقد العهد بعده لمسلمة ابنه.

فجعل يذكر مجون[٣] الوليد بن يزيد، وتهتكه، وإدمانه على الشراب، ويظهر ذلك في مجلسه، ويقوم...[٤] فوَلاَّه الحج ليظهر ذلك منه بالحرمين الشريفين.

فزاد ذلك وظهر منه فعل كثير مذموم...[٥] والمغَنين والشراب، وأمر مولاه فحجّ بالناس.

فلما رجع طالبه هشام بأن يخلع نفسه، فأبى[٦]. فحرمه العطاء وسائر مواليه وأشياعه وجفاه جفاءً شديداً.

---

(١) بعده في الكامل: فبلغ ذلك مسلمة بن عبد الملك، فأتى أخاه يزيد فقال: يا أمير المؤمنين، أيما أحب إليك: أخوك أم ابن أخيك؟ قال: بل أخي...

(٢) في المخطوط: ولده، والتصويب من الكامل.

(٣) طمس بالمخطوط أثبت معناه من الكامل.

(٤) طمس بالمخطوط.

(٥) طمس في المخطوط.

(٦) في الكامل من التاريخ في أحداث سنة خمس وعشرين ومائة في ذكر بيعة الوليد بن يزيد بن عبد الملك، قال ابن الأثير: فلما ولي هشام أكرم الوليد بن يزيد حتى ظهر من الوليد مجون وشرب الشراب ـ وكان يحمله على ذلك عبد الصمد بن عبد الأعلى مؤدّبه، واتخذ له ندماء. فأراد هشام أن يقطعهم عنه، فولاّه الحجّ سنة ست عشرة ومائة، فحمل معه كلاباً في صناديق، وعمل قبة على قدر =

فخرج عن دمشق وسكن بعض ضياعه، وأخرج معه عبد الصمد بن عبد الأعلى مؤدِّبه وكان يرمى بالزندقة.

ودعا هشام الناس إلى خلعه والبيعة لمسلمة بن هشام.

وكان مسلمة يُكنى أبا شاكر، كني بذلك لمولى كان لمروان يكنى أبا شاكر كان ذا دين وفضل، وكانوا يعظمونه ويتبركون به.

فأجابه إلى خلع الوليد والبيعة لمسلمة فلان وفلان من خاصة هشام. فكتب إلى الوليد:

ما تدع شيئاً من المنكر إلاّ أتيته غير متحاش ولا مستتر، فليت شعري ما دينك فما أدري أعلى الإسلام أنت أم لا؟

فكتب إليه الوليد بن يزيد يعرض له بولده المنهمك أيضاً في الشراب واللهو:

يا أيها السائل عن ديننا ... نحن على دين أبي شاكر

نشربها صرفاً وممزوجةً ... بالسخن أحياناً وبالفاتر

فغضب هشام على ابنه مسلمة وقال له: يعيِّرني بك الوليد، وأنا أرشحك للخلافة، فالزم الأدب، واحضر الصلوات. وولاَّه الموسم سنة سبع عشرة ومائة، فأظهر النسك [واللين][1] وقسَّم بمكة والمدينة أموالاً.

قال المدائني: وبلغ خالداً القسري ما عزم عليه هشام، فأتاه، فقال: أنا بريء من خليفة يكنى أبا شاكر.

[٣٠/أ] فبلغت مسلمة عنه/ وكان ذلك سبب الإيقاع به.

وحدث أن دخل الوليد يوماً مجلس هشام ولم يكن هشام حاضراً، فجلس الوليد [في][2] مجلس هشام، وأقبل هشام، فما كاد الوليد يتنحى عن صدر مجلسه

= الكعبة ليضعها على الكعبة، وحمل معه الخمر. وأراد أن ينصب القبة على الكعبة ويشرب فيها الخمر، فخوّفه أصحابه وقالوا: لا نأمن من الناس عليك وعلينا معك، فلم يفعل.
وظهر للناس منه تهاون في الدين واستخفاف. فطمع هشام في البيعة لابنه مسلمة وخلع الوليد، وأراد الوليد على ذلك فأبى. فقال له: اجعله، فأبى، فتنكر له هشام وأضرّ به، وعمل سراً في البيعة لابنه مسلمة، فأجابه قوم، وكان ممن أجابه: خالاه محمد وإبراهيم ابنا هشام بن إسماعيل، وبنو القعقاع بن خليد العبسي، وغيرهم من خاصته.
فأفرط الوليد في الشراب وطلب اللذات. فقال له هشام: ويحك يا وليد، والله ما أدري أعلى الإسلام أنت أم لا؟ ما تدع شيئاً من المنكر إلاّ أتيته. . .

(١) ما بين المعقوفين زيادة من الكامل.
(٢) زياد يتطلبها السياق.

إلاَّ أنه رماه بأن رحل له قليلاً فجلس هشام.

فقال: كيف أنت يا وليد؟

قال: صالح.

قال: ما فعلت برباطك؟

قلت: وهي جمع رباط، وهو آلة[١] من آلات الغناء؟

فقال الوليد: هي مهملة ومستعملة.

قال: فما فعل ندماؤك؟

قال: ...[١] لعنهم الله إن كانوا شراً ممن حضر، وقام.

فقال هشام: جأوا في عنق ابن اللخناء. فلم يفعلوا، ودفعوه رويداً، فقال الوليد:

أنا ابن العاصي وعثمان والدي ومروان جدي...[٢] آل عامر

أنا ابن عظيم القريتين وعزها ....[٢] والعصاة الأكابر

نبي الهدى خالي ومن يك خالد نبي الهدى...[٢] فخر به من يفاخر

قالوا: مات مسلمة بن هشام في حياة أبيه هشام وكان ينكر عليه تنقص الوليد ويعاتبه فيه[٣].

دولة هشام بن عبد الملك بن مروان[٤]

وكان هشام ملكاً عظيماً خشن الجانب، جمَّاعاً للأموال، متيقظاً في مملكته،

(١) طمس بالمخطوط. (٢) طمس بالمخطوط.

(٣) ذكر الذهبي وفاة يزيد بآخر ترجمته فقال بعد ذكره للشعر الذي قيل في حبابه: ومات بعد أيام. قيل: مات بسواد الأردن، ومرض بنوع من السلّ. وقال أبو مسهر: مات بإربد. وقالوا: مات لخمس بقين من شعبان سنة خمس ومائة. فكانت دولته أربعة أعوام وشهراً. وعهد بالخلافة إلى أخيه هشام، ثم من بعده لولده الوليد بن يزيد ذاك الفويسق، وخلف أحد عشر ابناً.

(٤) من مصادر ترجمته: سير أعلام النبلاء (٥/ ٣٥١)، تاريخ اليعقوبي (٣/ ٥٧)، تاريخ الطبري (٧/ ٢٠٠)، مروج الذهب (٢/ ١٤٢)، تاريخ الإسلام (٥/ ١٧٠)، دول الإسلام (١/ ٨٥)، مرآة الجنان (١/ ٢٦١)، فوات الوفيات (٤/ ٢٣٨)، خلاصة الذهب المسبوك (٢٦)، البداية والنهاية (٩/ ٣٥١)، النجوم الزاهرة (١/ ٢٩٦)، تاريخ الخلفاء (٢٦٩).

ومما قال الذي في ترجمته في سير أعلام النبلاء: قال ابن سعد عن الواقدي: حدثني سحبل بن محمد قال: ما رأيت أحداً من الخلفاء أكره إليه الدماء من هشام، ولقد دخله من قتل زيد بن علي وابنه يحيى أمر شديد حتى قال: وددت لو كنت افتديتهما. =

مباشراً للأمور بنفسه، لا يغيب شيء من أمر مُلكه، وكان أحول العينين، ولم يكن في أهل بيته كذلك غيره.

ولذلك حكايات ونوادر مشهورة.

وفي أيامه قُتل زيد بن علي بن الحسين وأُخفي قبره، ثم عُثر به، فكتب هشام إلى عامله أن اصلبه عرياناً. . .[1] وأقام مصلوباً خمس سنين، ثم أمر بإحراقه وذروه في الرياح، وهو من بُخلاء الملوك.

حُكي أنه دخل بستاناً له ومعه ندماؤه فطافوا فيه، وفيه من كل الثمار، فجعلوا يأكلون ويقولون: بارك الله لأمير المؤمنين.

فقال: وكيف يُبارك له فيه وأنتم تأكلونه؟. ثم دعا قيِّمه فقال: اقلع شجره وازرع مكانه زيتوناً حتى لا يأكل أحد منه شيئاً. وذمَّ الناس مذهبه في ذلك، ومنعوا ما في أيديهم.

فلم ير زمان أصعب من زمانه، واختلطت الدولة الأموية على عهده.

[٣٠/ب] وورد عليه أيام دولته كتاب ابن هبيرة يُعرف أنه رأى ببخارى وقت/ السحر شيئاً سقط من السماء ودوي كالرعد القاصف أسقطت فيه الحوامل، فنظر فإذا قد انفرج من السماء فرجة عظيمة ونزل أشخاص عظماء، وسمع في السماء زأر وصوت قائل يقول: يا أهل الأرض اعتبروا، يا أهل السماء هذا جبرائيل الملك أنزله الله بعذاب. فلما طلع النهار أتى الناس إلى ذلك الموضع فوجدوا شقّاً في الأرض لا يدرى له قرار، يصعد منه دخان أسود. كل ذلك مثبوت عند قاضي بخارى بأربعين عدلاً.

قلت: نقلته من خط أبي العباس بن أبي حجلة من بعض ما كتب به إلى. . .

ومات هشام لست خلون من ربيع الآخر سنة خمس وعشرين ومائة.

قالوا: إن هشام بن عبد الملك قد دعا سالم، فقال له سالم: لقد رأيت منك ما غمَّني.

فقال: ويحك، وكيف لا أغتم وأهل العلم يزعمون أنني ميت إلى ثلاثة وثلاثين يوماً؟

فلما كان في ليلة تمام المدة، دقّ الباب خادم، وقال: أجب أمير المؤمنين، وادخل في يدك دواء الذبحة، وقد كنت مرضت بذلك وانتفعت به.

= وقال الواقدي: حدثني ابن أبي الزناد عن أبيه قال: ما كان أحد أكره إليه الدماء من هشام، ولقد ثقل عليه خروج زيد.

(١) طمس في المخطوط.

وجئت فاستعمل الدواء، فتغرغر، فازداد الوجع، ثم سكن قليلاً، فقال: يا ابن سالم، قد خفّ ما كنت أجد، فانصرف واترك الدواء.

فانصرفت عنه، فلم يك إلاّ ساعة حتى سمعت الصراخ عليه.

وكان قد وضع العهد للوليد، فأغلق الخزّان الأبواب، وجمعوا المتاع والماعون.

فلما أرادوا غسله طلبوا قمقماً يسخّن فيه [الماء][1] لغسله، فلم يوجد عنده حتى استعير من الجيران، وذلك ليصير غنى المُلك إلى ضده.

وذكروا أن ببابه ظهره خاصة دون عياله وحشمه، وخزائنه كان يحملها سبعمائة جمل وعشرون جملاً.

إن في ذلك لعبرة.

ونظر إلى أهله يبكون حوله فقال: جاد لكم هشام بالدنيا وجُدتم له بالبكاء.

وولي بعده الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان.

دولة الوليد بن اليزيد بن عبد الملك[2]

وكنيته أبو العباس.

وكان ماجناً، معاقراً، شاعراً، جوّاداً، مصروف الهمة إلى الملذات، خالعاً لثوب الحياء والدين، يقطع زمانه بابن شريح المغني، ومعبد المدني، والغريض، وابن عائشة، وابن محرز، وطويس، ودهمان.

وفي أيامه قُتل يحيى بن زيد [بن الحسين][3] بن علي بن أبي/ طالب [١/٣٦]

---

(١) زيادة يتطلبها السياق.

(٢) من مصادر ترجمته: سير أعلام النبلاء (٥/ ٣٧٠)، اليعقوبي في تاريخه (٣/ ٧١)، تاريخ الطبري (٧/ ٢٠٩)، مروج الذهب (٢/ ١٤٥)، الأغاني (٧/ ٩٥١)، تاريخ الإسلام (٥/ ١٧٣)، البداية والنهاية (١٠/ ٢، ٥)، تاريخ الخميس (٢/ ٣٢٠).

ومما قال الذهبي في سيرته في سير أعلام النبلاء: ولد سنة تسعين، وقيل: سنة اثنتين وتسعين، ووقت موت أبيه كان للوليد نيف عشرة سنة فعقد له أبوه بالعهد من بعد هشام بن عبد الملك، فلما مات هشام بن عبد الملك سُلّمت إليه الخلافة...

قال مروان بن أبي حفصة: قال لي الرشيد: صف لي الوليد! قلت: كان من أجمل الناس، وأشعرهم، وأشدهم...

قال الواقدي: حدثنا ابن أبي الزناد عن أبيه قال: كان الزهري يقدح أبداً عند هشام في الوليد، ويذكر أموراً عظيمة، حتى يذكر الصبيان، وأنه يخضبهم. ويقول: يجب خلعه، فلا يقدر هشام. ولو بقي الزهري لقتك به الوليد.

(٣) زيادة من الكامل لابن الأثير.

بالجوزجان من بلاد خراسان على يد نصر بن سيّار[١].

ولم يكن في ملوك بني أمية أبعد مدى في التهتك والتخلع من الوليد هذا، فبأحاديثه وانتهاكه لحرمات الله سارت الأمثال.

فيقال: إنه فتح المصحف يوماً على نيَّة التفاؤل، فقابله في الورقة منه قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝١٥﴾ [إبراهيم: الآية ١٥]، فوجد على المصحف بسخفه وترفه وبُعد شأوه في البطال...[٢] وجعل يرميه بالسهام ويقول:

أتُوعِد كلَّ جبارٍ عنيدٍ[٣] فها أنا ذاك جبَّار عنيد

---

(١) قال ابن الأثير في الكامل في ذكره لخبر قتل يحيى بن زيد بن الحسين بن علي بن أبي طالب في أحداث سنة خمس وعشرين ومائة: وسبب قتله أنه سار بعد قتل أبيه إلى خراسان... فأتى بلخ فأقام بها عند الحريش بن عمرو بن داود حتى هلك هشام وولي الوليد بن يزيد، فكتب يوسف بن عمر إلى نصر بمسير يحيى بن زيد وبمنزله عند الحريش وقال له: خذه أشد الأخذ، فأخذ نصر الحريش فطالبه بيحيى. فقال: لا علم لي به. فأمر به فجلد ستمائة سوط. فقال الحريش: والله لو أنه تحت قدميّ ما رفعتهما عنه. فلما رأى ذلك قريش بن الحريش قال: لا تقتل أبي وأنا أدلك على يحيى. فدله عليه، فأخذه نصر، وكتب إلى الوليد يخبره. فكتب الوليد يأمره أن يؤمنه ويخلي سبيله وسبيل أصحابه. فأطلقه نصر وأمره أن يلحق بالوليد وأمر له بألف درهم. فسار إلى سرخس، فأقام بها، فكتب نصر إلى عبد الله بن قيس بن عباد يأمره بسيره عنها. فسيَّره عنها، فسار حتى انتهى إلى بيهق، وخاف أن يغتاله يوسف بن عمرو، فعاد إلى نيسابور، وبها عمرو بن زرارة، وكان مع يحيى سبعون رجلاً، فرأى يحيى تجاراً، فأخذ هو وأصحابه دوابهم، وقالوا: علينا أثمانها. فكتب عمرو بن زرارة إلى نصر يخبره. فكتب نصر يأمره بمحاربته. فقاتله عمرو، وهو في عشرة آلاف، ويحيى في سبعين رجلاً، فهزمهم يحيى، وقتل عمراً وأصاب دواب كثيرة، وسار حتى مرَّ بهراة، فلم يعرض لمن بها وسار عنها. وسرح نصر بن سيار سالم بن أحوز في طلب يحيى، فلحقه بالجوزجان فقاتله قتالاً شديداً، فرُمي يحيى بسهم، فأصاب جبهته، رماه رجل من عنزة يقال له: عيسى. فقتل أصحاب يحيى عن آخرهم، وأخذوا رأس يحيى، وسلبوه قميصه.

فلما بلغ الوليد قتل يحيى، كتب إلى يوسف بن عمر: خذ عجيل أهل العراق فأنزله من جذعه - يعني زيداً - وأحرقه بالنار، ثم انسفه باليم نسفاً. فأمر يوسف به فأُحرق، ثم رضه وحمله في سفينة، ثم ذراه في الفرات.

وأما يحيى فإنه لما قتل صلب بالجوزجان فلم يزل مصلوباً حتى ظهر أبو مسلم الخراساني واستولى على خراسان، فأنزله، وصلى عليه ودفنه وأمر بالنياحة عليه في خراسان. وأخذ أبو مسلم ديوان بني أمية، وعرف منه أسماء من حضر قتل يحيى، فمن كان حياً قتله ومن كان ميتاً خلفه في أهله بسوء، وكانت أم يحيى ريطة بنت أبي هاشم عبد الله بن محمد ابن الحنفية.

(٢) طمس بالمخطوط.

(٣) في الكامل الشطر الأول على النحو التالي: «تهددني بجبّار عنيد...» ثم قال بعد ذكره للشعر، فلم يلبث بعد ذلك إلاّ يسيراً حتى قُتل.

إذا ما جئت ربك يوم حشر فقل: يا رب مزّقني الوليد

وعن المدائني قال: لما ولّي الوليد بن يزيد اهتم بالغناء والشرب والصيد، وحمل المغنين والملهين إليه من المدينة وغيرها.

وأرسل إلى أشعب[١] فجيء به إليه، فألبسه سراويل من جلد قرد له ذنب، وقال له: ارقص وغني صوتاً يعجبني، فإن فعلت فلك. وغناه، فأعجبه، فأعطاه ألف درهم.

وذكروا أنه واقع جارية يوماً وهو سكران فلما تنحّى عنها أذّنه المؤذن بالصلاة، فحلف أن لا يصلي بالناس غيرها، فخرجت متلثمة، فصلت بالناس.

وحدَّث عمرو الوادي[٢] قال: دخلت إليه وعنده أصحابه وقد تغدى وهو يشرب، فقال: اشرب. فشرب وطرب وغنى صوتاً واحداً، وأخذ عباءة فرفعها وأخذ كل واحد حاجته فوقف بها.

فقام وقمنا حتى بلغنا إلى الحاجب، ورآنا فصاح بالناس: الحرم الحرم، فوقفوا، ودخل إليه [الحاجب][٣] فقال: جعلني الله فداك، اليوم يوم يحضر فيه الناس. فأمره الوليد أن يشرب.

فقال: إنما أنا حاجب، فلا تحملني على الشراب وما شربته قط.

فقال: اجلس، واشرب.

فامتنع، فما فارقناه حتى صببنا في حلقه القمع، وقام وهو سكران.

وقال: وكان ينادمه القاسم بن الطويل العبادي، وكان أديباً طرباً كثير الشراب، وكان لا يصبر عنه.

وطرب ليلة طرباً شديداً إلى أن غلبه السكر فنام في موضعه وانصرف ابن الطويل، فلما أفاق سأل عنه، فعُرِّفَ خبر انصرافه. فغضب، وقال...[٤] لغلام/ [٣١/ب]

(١) قال ابن واصل الحموي في تجريد الأغاني (ص ٢٠١٦) في أخبار شعب الطامع: هو أشعب بن جبير، واسمه شُعيب، وكنيته أبو العلاء. وكان يقال لأمه: أم الجلندح. وقيل: بل أم حميد، مولاة أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما واسمها حميدة. وكان أبوه خرج مع المختار بن أبي عبيدة، فأسرع مصعب بن الزبير فضرب عنقه صبراً، وقال: تخرج عليّ وأنت مولاي؟!
ونشأ أشعب بالمدينة في دار آل أبي طالب، وتولت تربيته عائشة بنت عثمان بن عفان رضي الله عنه... وذكر أن أشعب كان يقرأ القرآن، وكان حسن الصوت، وروى شيئاً من الحديث.
... وحكي عن الأصمعي قال: رأيت أشعب يغني، وكأن صوته بلبل.
وهو مشهور بنوادر الطمع والتطفل والإلحاح في الطلب.

(٢) هو مُغني أيضاً من مشاهير المغنين.

(٣) زيادة يتطلبها السياق.

(٤) موضع النقط طمس في المخطوط.

كان...[١]: ائتني برأسه.

فمضى حتى ضرب عنقه وأتى برأسه فوضعه بين يديه، فلما أفاق أنكره، وسأل عن الخبر، فعُرِّفَ، واسترجع...[١] فجعل يقلِّب رأسه بين يديه ويبكي، ثم دخل إلى جواريه، فقلن له: ما أبكاك؟ فقال: كيف الحياة بعد الخليل بن الطويل. ولم يعش بعده إلاَّ يسيراً حتى قُتل.

قلت: ونبرأ إلى الله من عهدة شيء مما ذُكر، وإنما نقلده ذمّة ناقله حسبما ذكره صاحب الجامع الكبير الإمام أبو الفرج الأصفهاني.

قال: ولما أكثر الوليد التهتك وانهمك في الشراب...[١] ملَّ الناس أيامه وكرهوه وكان من أمره ما نذكره بعد.

ذكر أخذ الوليد البيعة لابنيه الحكم وعثمان وتصيير الخلافة إليهما وهما صبيان صغيران لم يبلغا

قال الطبري: وفي سنة خمس وعشرين ومائة عقد الوليد بن اليزيد البيعة للحكم ابنه ولعثمان من بعد الحكم، وكتب بذلك إلى الأمصار، وهذه نسخة الرسالة التي كتبها:

فإن الله تباركت أسماؤه، وجلَّ ثناؤه، اختار الإسلام ديناً لعباده، وبعث به خيرته من خلقه، واصطفى من الملائكة رُسلاً ومن الناس يدعون إلى التي هي أحسن ويهدون إلى صراط مستقيم، حتى انتهت كرامة الله تعالى إلى نبوءته إلى محمد ﷺ على حين ضمور من العلم، وعمى من الناس، وتشتيت بين الناس، وتفرقة من السُّبُل، وطموس من أخلاق الحياة، فأنار الله به الدنيا، وكشف به من العمى، واستنقذ به من الضلالة والردى، وجعله رحمة للعالمين، وختم به وَحْيَه، وجمع له ما أكرم به الأنبياء قبله، وقفى [به][٢] على آثارهم مصدقاً لما أنزل، ومهيماً عليه، داعياً إليه، وآمراً به حتى كان من أجابه من أمَّته وهم الذين أكرمهم الله به، مصدِّقين لما سلف من أنبياء الله ورُسله، فما كذَّبهم فيما...[٣] ناصحين لهم فيما اتهموهم فيه، ذابّينَ عن حُرَمِهم التي كانوا لها منتهكين، ومعظِّمين منها ما كانوا له مصغرين، فليس [٣٢/أ] من أمَّة محمد ﷺ/ أحد يسمع لأحد من أنبياء الله فيما بعثه الله به مكذِّباً، ولا له مؤذياً بتسفيه له أورد عليه أو جحد لما أنزل الله معه. ثم أن الله استخلف خُلفاءه على

(١) موضع النقط طمس في المخطوط.

(٢) زيادة يتطلبها السياق.

(٣) طمس بالمخطوط.

منهاج نبوءته حتى قبض نبيه ﷺ فختم به وحيه لإبانة حكمه، وإقامة سننه، وحدوده، والأخذ بهما. واستخلف بعده الخلفاء تأييداً بهم للإسلام وتسديداً بهم لعراه وتقوية بهم لقوى جنابه، ودفعاً بهم عن حدوده، وعدلاً بهم بين عباده، وإصلاحاً بهم لبلاده، فإنه تبارك وتعالى يقول: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٥١].

وتابع خلفاء الله على ما أوردهم عليه من أمر أنبيائهم واستخلفوهم عليه، فلا يتعرَّض لحقهم أحد إلا صُيِّر عدو الله، ولا يفارق جماعتهم أحدٌ إلاَّ أهلكه الله، ولا يستخف بولايتهم ويتهم قضاء الله فيهم إلاَّ أمكنهم الله منه وسلطهم عليه وجعله نكالاً وعظة لغيره، وكذلك صنيع الله بمن فارق الجماعة التي أمر الله بلزومها والأخذ بها، والأثرة بها، والتي بها قامت السموات والأرض، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [فُصِّلَت: الآية ١١]، وقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ٣٠].

فبالخلافة أبقى الله في الأرض من عباده، وبطاعة من ولاهم إياها سعد من ألهمه نصرها ووفِّق لها، فإن الله عزَّ وجلَّ علم أن لا قوام لشيء ولا صلاح له إلاَّ بالطاعة التي يحفظ الله بها حقَّه، ويمضي بها أمره، ويُنكل بها عن معاصيه، ويوقف عن حرماته، فمن أخذ بحظه منها كان له وليّاً، ولأمره مطيعاً، ولرشده مصيباً، ولعاجل الخير وآجله مخصوصاً، ومن تركها عمداً أو حادَّ الله فيها أضاع نصيبه، وعصى ربه، وخسر دنياه وآخرته، وكان ممن غلبت عليه الشقوة، واستحوذت عليه الأمور التي تُورد أهلها أفظع المشارع وتسوقهم إلى أسوأ/ المكاره. [٣٢/ب]

. . .(١) ثم إن الله، وله الحمد والمن والفضل، هدى الأمة لأفضل الأمور، وحقن دمائها، والتئام إلفتها، واجتماع كلمتها، واعتدال عمودها، وإصلاح دعائمها، وذخر النعمة عليها في دنياها بعد خلافته التي جعلها الله لهم نظاماً ولأمورهم خطاماً ألا وهو العهد الذي ألهم الله خلفاءه إلى توطيده، والنظر للمسلمين في دينهم بعده، وتوكيده ليكون لهم ما يحدث لخلفائه ثقة في المفزع وملتجأ وصلاحاً لذات البين وتثبيتاً لأرجاء الإسلام، وقطعاً لنزغات الطامعين فيما يتطلع إليه أولياءه، وينازعهم عليه، وحفظاً من تلف هذا الدين وانصداع شعب أهله واختلافهم فيما جعلهم الله عليه منه، فلا يريهم الله في ذلك إلاّ كذب أمانيهم، ويجدون الله قد أحكم بما قضى

(١) طمس في المخطوط.

من ذلك عقده ونفى عنهم من أراد فيها إدغالاً وبها إعلالاً، ولما شدَّد الله منها اعتماراً أكمل الله بها الخلافة، وسبَّب لهم من إعزازه وإكرامه وإعلائه وتمكينه باب [٣٣/أ] هذا العهد من تمام الإسلام وكمال ما استوجب الله على أهله من المنن العظام/ ومما جعل الله فيه لمن أجراه على يديه، وقضى على لسانه، لنصر الدين وعزِّ المسلمين أحسن الأجر الذي به وُسِمَت وجوهكم وتلتقي نواصيكم في أمر دينكم، وإن فيه من الدنيا بلاءً حسناً في سعة العافية، فأنتم حقيقون بشكر الله على قيام خليفتكم بأمر جماعتكم من أن تهلك، وجديرون بمعرفة كنه واجب حقه عليكم وطاعته على الذين عزم عليه فيكم، فلتكن منزلته لكم منكم، وفضيلته في أنفسكم على قدر حسن بلائه عندكم إن شاء الله.

ثم إن أمير المؤمنين لم يكن قد استخلفه الله تعالى لشيء من الأمور أشد عليه من هذا العهد؛ لعلمه بمنزلته من أمر المسلمين وبما أراهم الله فيه من الأمور التي يغتبطون بها وبما يقضي لهم ويختار له ولهم فيه، ويستقضي له ولهم فيه الأئمة وولاة الحكم، وعنده علم الغيب، وهو على كل شيء قدير، ونسأله أن يعلِّمه مناصحة المسلمين عامة.

وقد رأى أمير المؤمنين أن يعهد إليكم عهداً بعهده، كونوا فيه على مثل ما كان عليه من قبلكم في مثله من انعقاد الأمل، وطمأنينة الأنفس، وصلاح ذات البين، وعلم مواضع الأمر الذي جعله لأهله رعاية وصلاحاً، ولكل منافق فاسق يُحب إتلاف هذا الدين وفساد أهله، وقد ولَّى أمير المؤمنين ذلك الحكم ابن أمير المؤمنين، ثم أخاه عثمان ابن أمير المؤمنين، وهما ممن يرتجى أن يكونا لله رضاً ولصالح المؤمنين مقنعاً لما جمع الله فيهما من وفاء الرأي وصحة الدين وجزالة المروءة والمعرفة في صالح الأمر، وليتم لكم أمير المؤمنين ولنفسه في ذلك خيراً، فبايعوا للحكم ابن أمير [٣٣/ب] المؤمنين باسم الله وبركته ولأخيه من بعده على السمع والطاعة، وأجدوا في ذلك/ أحسن ما كان، والله يرعاكم ويثبتكم ويعزكم ويقويكم في مستقبلكم وفيما مضى، . . .[١] وقد سبق لكم في ذلك من نِعَم الله وحسن قسمته بما أنتم حقيقون أن يكون جزاؤكم عليه بقدر ما أبلاكم عليه وصنعَ لكم فيه.

وأمير المؤمنين أولى بأن يجعل الأمر مكانه من أهل بيته وولده ويقدمه بين يدي الباقي منهما لو يؤخره بعده، واعلموا أن الحُكم لله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة، فاسألوه أن يبارك لأمير المؤمنين ولكم في الذي اختاره لكم وقدَّر منه أن يجعل عاقبته عافية وسرور وغبطة، فإن ذلك سرَّه لا يملكه إلاَّ هو، ولا يرغب فيه إلاَّ إليه.

---

(١) طمس في المخطوط.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وذلك في يوم الثلاثاء لثمان بقين من رجب سنة خمس وعشرين ومائة.

وكان العهد الذي كتب به إلى العمال وأمر أن يبايعوا عليه الناس بعد:

بسم الله الرحمن الرحيم

تبايعوا لعبد الله الوليد أمير المؤمنين، وللحكم ابن أمير المؤمنين من بعده، ولعثمان ابن أمير المؤمنين بعد الحكم على السمع والطاعة، فإن حدث بهما حدث فأمير المؤمنين أملك في ولده ورعيته يقدم من أحب ويؤخر من أحب، عليك بذلك عهد الله وميثاقه. ولا خفاء بطول هذا المكتوب وجفائه وكونه مما يُنكر على دول الفصاحة والإيجاز، وتخير الألفاظ ودرب الفضول، إلاَّ أن الإطالة والتكرار قلَّ أن ينكرا في الوثائق والعهود، والله يتجاوز عن الجميع برحمته.

وتمت هذه البيعة لهاذين الوليدين الصغيرين وكانا لم يُقاربا الاحتلام، فما امتنع عليهما أحد، والجيل موفور من أعمامهما وأبناء أعمامهما بني عبد الملك بن مروان، وسواهم، وذلك مشهور في كتب التاريخ.

وعن المدائني قال: حدثني بعض موالي الوليد قال: دخلت إليه وقد عقد البيعة لابنيه بعده، فقلت: يا أمير المؤمنين أقول قول الموثوق بنصيحته/ أم يسعني [٣٤/أ] السكوت؟

قال: قل قول الموثوق بنصيحته.

فقلت: . . . .(١).

ثم أمضى ذلك، وهي أول بيعة في الإسلام ـ أعني بيعة الوليد لابنيه بعده لمن لم يبلغ الحلم ـ ولأقاربه من بعد يزيد بن معاوية بن يزيد، وكتب في تولي ذلك لمن أراد أن يتأسى به أو يقتدي.

وكان مآل أمرهما بعد قيام اليزيد بن الوليد ابن عم أبيهما على أبيهما وقتله إياه(٢) ما يأتي التعريف به في دولة يزيد الآتية بعد هذه.

---

(١) موضع النقط طمس يتخلله كلام مفاده نصيحة منه للوليد بأن ذلك يجر على ولديه الأذى، وتضمنه شعر، غير أن الوليد لم يأخذ بتلك النصيحة وأمضى ما عزم عليه. وفي الكامل هو سعيد بن بيهس، وذكر أنه حبسه حتى مات في الحبس.

(٢) ذكر ابن الأثير في الكامل قتل الوليد بن يزيد في أحداث سنة ست وعشرين ومائة، فقال: قتل الوليد بن يزيد بن عبد الملك الذي يقال له: الناقص، في جمادى الآخرة، وكان سبب قتله ما تقدم ذكره من خلاعته ومجانته، فلما وَلِي الخلافة لم يزد من الذي كان فيه من اللهو واللذة، والركوب للصيد، وشرب النبيذ، ومنادمة الفُسّاق إلا تمادياً. فثقل ذلك على رعيته وجنده وكرهوا أمره، وكان =

وكان على ما ذكره المؤرخون ممن باشر التعريف به في دولة اليزيد، جماعة من

= أعظمه ما جنى على نفسه من إفساده بني عميه هشام، والوليد، فإنه أخذ سليمان بن هشام فضربه مائة سوط وحلق رأسه ولحيته وغرّبه إلى عمان من أرض الشام فحبسه بها، فلم يزل محبوساً حتى قُتل الوليد.

وأخذ جارية كانت لآل الوليد، فكلمه عثمان بن الوليد في ردها. فقال: لا أردها. فقال: إذن تكثر الصواهل حول عسكرك. وحبس الأفقم يزيد بن هشام، وفرّق بين روح بن الوليد وبين امرأته. وحبس عدّة من ولد الوليد فرماه بنو هاشم وبنو الوليد بالكفر، وغشيان أمهات أولاد أبيه. وقالوا: قد اتخذ مائة جامعة لبني أمية، وكان أشدهم فيه يزيد بن الوليد. وكان الناس إلى قوله أميل لأنه كان ظاهر النسك ويتواضع.

وكان قد نهاه سعيد بن بيهس بن صهيب عن البيعة لابنيه الحكم وعثمان لصغرهما، فحبسه حتى مات في الحبس. وأراد خالد بن عبد الله القسري على البيعة لابنيه فأبى، فغضب عليه. فقيل له: لا تخالف أمير المؤمنين. فقال: كيف أبايع من لا أصلي خلفه ولا أقبل شهادته؟ قالوا: فتقبل شهادة الوليد مع فسقه؟! قال: أمير المؤمنين غائب عني وإنما هي أخبار الناس.

فسدت اليمانية عليه، وفسدت قضاعة، وهم واليمن أكثر جند أهل الشام. فأتى حريث، وشبيب بن أبي مالك الغساني، ومنصور بن جمهور الكلبي، وابن عمه حيال بن عمرو، ويعقوب بن عبد الرحمٰن، وحميد بن منصور اللخمي، والأصبغ بن ذؤالة، والطفيل بن حارثة، والسري زياد إلى خالد بن عبد الله القسري، فدعوه إلى أمرهم فلم يجبهم.

وأراد الوليد الحج فخاف خالد أن يقتلوه في الطريق، فنهاه عن الحج فقال: لِمَ؟ فأخبره، فحبسه وأمر أن يطالب بأموال العراق، ثم استقدم يوسف بن عمر من العراق، وطلب منه أن يحضر معه الأموال وأراد عزله وتولية عبد الملك بن محمد بن الحجاج بن يوسف. فقدم يوسف بأموال لم يحمل من العراق مثلها. فلقيه حسان النبطي، فأخبره أن الوليد يريد أن يولي عبد الملك بن محمد، وأشار عليه أن يحمل الرشاء إلى وزرائه، ففرق فيهم خمسمائة ألف. وقال له حسان: اكتب على لسان خليفتك بالعراق كتاباً: إني كتبت إليك ولا أملك إلاّ القصر، وادخل على الوليد والكتاب معك مختوماً واشتر منه خالداً. ففعل، فأمره الوليد بالعود إلى العراق، واشترى منه خالداً القسري بخمسين ألف ألف فدفعه إليه فأخذه معه في محمل بغير وطاء إلى العراق. فقال بعض أهل اليمن شعراً على لسان الوليد يحرّض عليه اليمانية. وقيل: إنها للوليد يوبّخ اليمن على ترك نصر خالد:

ألم تهتج فتذكر الوصالا وحبلاً كان متصلاً فزالا

في أبيات تركت ذكرها لعدم الإطالة، وأُجيب عليه بأبيات من حمزة بن بيض، ثم قال ابن الأثير مستأنفاً الخبر. فأتت اليمانية يزيد بن الوليد بن عبد الملك فأرادوه على البيعة، فشاور عمر بن يزيد الحكمي فقال له: لا يبايعك الناس على هذا، وشاور أخاك العباس، فإن بايعك لم يخالفك أحد وإن أبى كان الناس له أطوع. فإن أبيت إلاّ المضي على رأيك فأظهر أن أخاك العباس قد بايعك.

وكان الشام وبيئاً، فخرجوا إلى البوادي وكان العباس بالقسطل، ويزيد بالبادية أيضاً بينهما أميال يسيرة. فأتى يزيد أخاه العباس، فاستشاره فنهاه عن ذلك، فرجع وبايع الناس سراً وبث دعاته فدعوا الناس. ثم عاود أخاه العباس فاستشاره ودعاه إلى نفسه فزجره، وقال: إن عدت لمثل هذا لأشدنك وثاقاً وأحملنك إلى أمير المؤمنين. فخرج من عنده، فقال العباس: إني لأظنه أشأم مولود في بني مروان.

=

الأعلام منهم: محمد بن شهاب الزهري، وعبد الملك بن عبد العزيز بن جريج، وأبو

= وبلغ الخبر مروان بن محمد بأرمينية، فكتب إلى سعيد بن عبد الملك بن مروان يأمره أن ينهى الناس ويكفهم ويحذرهم الفتنة ويخوّفهم خروج الأمر عنهم. فأعظم سعيد ذلك، وبعث الكتاب إلى العباس بن الوليد، فاستدعى العباس يزيد وتهدده فكتمه يزيد أمره فصدقه. وقال العباس لأخيه بشر بن الوليد: إني أظن أن الله قد أذن في هلاككم يا بني مروان:

إنـي أعـيـذكـم بـالـلّـه مـن فـتـن مـثـل الـجـبـال تـسـامـى ثـم تـنـدفـع

في أبيات. فلما اجتمع ليزيد أمره وهو متبد، أقبل إلى دمشق وبينه وبين دمشق أربع ليال متنكراً في سبعة نفر على حمير، فنزلوا بجرود على مرحلة من دمشق. ثم سار فدخل دمشق وقد بايع له أكثر أهلها سراً وبايع أهل المزة، وكان على دمشق عبد الملك محمد بن الحجاج، فخاف الوباء فخرج منها فنزل قطناً واستخلف ابنه على دمشق وعلى شرطته أبو العاج كثير بن عبد الله السلمي. فأجمع يزيد على الظهور، فقيل للعامل: إن يزيد خارج، فلم يصدق.

وراسل يزيد أصحابه بعد المغرب ليلة الجمعة، فكمنوا عند باب الفراديس حتى أذّن للعشاء، فدخلوا فصلوا وللمسجد حرس قد وكلوا بإخراج الناس منه بالليل، فلما صلّى الناس أخرجهم الحرس، وتباطأ أصحاب يزيد حتى لم يبق في المسجد غير الحرس وأصحاب يزيد، فأخذوا الحرس، ومضى يزيد بن عنبسة إلى يزيد بن الوليد فأعلمه وأخذ بيده. فقال: قم يا أمير المؤمنين وابشر بنصر الله وعونه. فقام، وأقبل في اثني عشر رجلاً. فلما كان عند سوق الحمر لقوا أربعين رجلاً من أصحابهم ولقيهم زهاء مائتي رجل، فمضوا إلى المسجد فدخلوه وأخذوا باب المقصورة فضربوه.

فقالوا: رسل الوليد. ففتح لهم الباب خادم فأخذوه، ودخلوا فأخذوا أبا الحاج وهو سكران، وأخذوا خزائن بيت المال. وأرسل إلى كل من كان يحذره فأخذه، وقبض محمد بن عبيدة وهو على بعلبك، وأرسل بني عذر إلى محمد بن عبد الملك بن محمد بن الحجاج فأخذوه. وكان بالمسجد سلاح كثير فأخذوه. فلما أصبحوا جاء أهل المزة، وتتابع الناس، وجاءت السكاسك، وأقبل أهل داريا، ويعقوب بن محمد بن هانىء العبسي، وأقبل عيسى بن شبيب التغلبي في أهل دومة، وحرستا، وأقبل حميد بن حبيب النخعي في أهل ديرمران، والأرزة، وسطرا، وأقبل أهل جرش، وأهل الحديثة، ودير زكا، وأقبل ربعي بن هاشم الحارثي في الجماعة من بني عذرة، وسلامان، وأقبلت جهينة ومن والاهم.

ثم وجّه يزيد بن الوليد بن عبد الملك عبد الرحمٰن بن مصادف في مائتي فارس ليأخذوا عبد الملك بن محمد بن الحجاج بن يوسف من قصره، فأخذوه بأمان، وأصاب عبد الرحمٰن خُرجين في كل واحد منهما ثلاثون ألف دينار. فقيل له: خذ أحد هذين الخرجين. فقال: لا تتحدث العرب عني أني أول من خان في هذا الأمر. ثم جهّز يزيد جيشاً وسيّرهم إلى الوليد بن يزيد بن عبد الملك، وجعل عليهم عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك.

وكان يزيد لما ظهر بدمشق سار مولى للوليد إليه فأعلمه الخبر وهو بالأغدف من عمان، فضربه الوليد وحبسه، وسير أبا محمد عبد الله بن يزيد بن معاوية إلى دمشق، فسار بعض الطريق، فأقام، فأرسل إليه يزيد بن الوليد عبد الرحمٰن بن مصادف، فسأله أبو محمد ثم بايع ليزيد بن الوليد. ولما أتى الخبر إلى الوليد قال له يزيد بن خالد بن يزيد بن معاوية: سر حتى تنزل حمص فإنها حصينة، ووجه الخيول إلى يزيد فيقتل أو يؤسر.

=

إسحاق بن يسار مولى قيس بن مخرمة، والإمام الأوزاعي أبو عمرو بن عبد

= فقال عبد الله بن عنبسة بن سعد بن العاص: ما ينبغي للخليفة أن يدع عسكره ونساءه، قبل أن يقاتل، والله يؤيد أمير المؤمنين وينصره. فقال يزيد بن خالد: وما نخاف على حرمه، وإنما أتاه عبد العزيز وهو ابن عمهن، فأخذ بقول ابن عنبسة، وسار حتى أتى البخراء، قصر النعمان بن بشير، وسار معه من ولد الضحاك بن قيس أربعون رجلاً، فقالوا له: ليس لنا سلاح، فلو أمرت لنا بسلاح فما أعطاهم شيئاً، ونازله عبد العزيز. وكتب العباس بن الوليد بن عبد الملك إلى الوليد: إني آتيك. فقال الوليد: أخرجوا سريراً، فأخرجوه فجلس عليه وانتظر العباس، فقاتلهم عبد العزيز، ومعه منصور بن جمهور، فبعث إليهم عبد العزيز زياد بن حصين الكلبي، يدعوهم إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، فقتله أصحاب الوليد، واقتتلوا قتالاً شديداً.

وكان الوليد قد أخرج لواء مروان بن الحكم الذي كان عقده بالجابية. وبلغ عبد العزيز مسير العباس إلى الوليد، فأرسل منصور بن جمهور إلى طريقه، فأخذوه قهراً، وأتي به عبد العزيز، فقال له: بايع لأخيك يزيد. فبايع ووقف ونصبوا راية وقالوا: هذه راية العباس قد بايع لأمير المؤمنين يزيد. فقال العباس: إن لله خدعة من خدع الشيطان، هلك بنو مروان. فتفرّق الناس عن الوليد وأتوا العباس وعبد العزيز.

وأرسل الوليد إلى عبد العزيز يبذل له خمسين ألف دينار، وولاية حمص ما بقي، ويؤمنه من كل حدث على أن ينصرف عن قتاله، فأبى ولم يجبه. فظاهر الوليد بين درعين، وأتوه برفسية السندي والراية، فقاتلهم قتالاً شديداً، فناداهم رجل: اقتلوا عدو الله قتلة قوم لوط، ارجموه بالحجارة. فلما سمع ذلك دخل القصر، وأغلق عليه الباب وقال:

دعوا لي سلمى والطلاء وقينة ... وكأساً ألا حسبي بذلك مالا
إذا ما صفى عيشي برملة عالج ... وعانقت سلمى ما أريد بدالا
خذوا ملككم لاثبت اللّه ملككم ... ثبات يساوي ما حييت عقالا
وخلوا عناني قبل عير وما جرى ... ولا تحسدوني أن أموت هزالا

فلما دخل القصر وأغلق الباب، أحاط به عبد العزيز، فدنا الوليد من الباب وقال: أما فيكم رجل شريف له حسب وحياء أكلمه؟ قال يزيد بن عنبسة السكسكي: كلمني. قال: يا أخا السكاسك، ألم أزد في أعطياتكم؟ ألم أرفع المؤنة عنكم؟ ألم أعط فقراءكم؟ ألم أخدم زمناكم؟ فقال: إنا ما ننقم عليك في أنفسنا إنما ننقم عليك في انتهاك ما حرّم الله وشرب الخمر ونكاح أمهات أولاد أبيك واستخفافك بأمر الله. قال: يا أخا السكاسك، فلعمري لقد أكثرت وأغرقت، وإن فيما أحل الله سعة عما ذكرت.

ورجع إلى الدار، وجلس وأخذ مصحفاً، ونشره يقرأ فيه، وقال: يوم كيوم عثمان. فصعدوا على الحائط، وكان أول من علاه يزيد بن عنبسة، فنزل إليه، فأخذه بيده، وهو يريد أن يحبسه، ويؤامره فيه. فنزل من الحائط عشرة منهم منصور بن جمهور، وعبد السلام اللخمي، فضربه عبد السلام اللخمي على رأسه، وضربه السندي بن زياد بن أبي كبشة في وجهه، واحتزوا رأسه، وسيّروه إلى يزيد، فأتاه الرأس وهو يتغدى فسجد. وحكى له يزيد بن عنبسة ما قاله للوليد. قال: آخر كلامه: الله لا يرتق فتقكم، ولا يلم شعثكم، ولا يجمع كلمتكم. فأمر يزيد بنصب رأسه. فقال له يزيد بن فروة مولى بني مرة: إنما تنصب رؤوس الخوارج، وهذا ابن عمك وخليفة، ولا آمن إن نصبته أن ترقّ له قلوب الناس ويغضب له أهل بيته. فلم يسمع منه ونصبه على رمح وطاف به في دمشق، ثم

=

الرحمٰن بن عمر إمام أهل الشام، وعلى مذهبه كان العمل بالأندلس قبل اشتهار أصحاب مالك بها، والليث بن أبي أسامة مولى عنبسة بن أبي سفيان، وأبو عمرو بن العلاء أحد الأئمة السبعة، وابن شبرمة، وابن أبي ليلى، وربيعة مولى المنكدر، وزيد بن أسلم مولى عمر بن الخطاب، وسفيان الثوري، ومالك بن أنس رضي الله عنه.

وحسبك بهؤلاء الأئمة، وبرد بن سنان، وحيوة بن شريح وأمثالهم.

ولولا أن يطول الكتاب لجلبنا أسماء آلاف من الفضلاء والعلماء، وكانوا على عهد ذلك رحمة الله عليهم أجمعين.

وكانت وفاة الوليد، غفر الله لنا وله، يوم الخميس لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة سنة ست وعشرين ومائة للهجرة.

دولة يزيد بن الوليد بن عبد الملك ابن مروان بن الحكم(١)

/ يكنى أبا خالد. [٢٤/ب]

= أمر به أن يدفع إلى أخيه سليمان بن يزيد، فلما نظر إليه سليمان قال: بعداً له أشهد أنه كان شروباً للخمر ماجناً فاسقاً، ولقد أرادني في نفسي الفاسق.
وكان سليمان ممن سعى في أمره، وكان مع الوليد مالك بن أبي السمع المُغني، وعمرو الوادي المُغني أيضاً. فلما تفرّق عن الوليد أصحابه وحصر، قال مالك لعمرو: اذهب بنا. فقال عمرو: ليس هذا من الوفاء، نحن لا يعرض لنا، لأنا لسنا ممن يقاتل. فقال مالك: والله لئن ظفروا بك وبي لا يقتل أحد قبلي وقبلك، فيوضع رأسه بين رأسينا، ويقال للناس: انظروا من كان معه في هذه الحال، لا يعيبونه بشيء أشد من هذا، فهربا.
وكان قتله لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة سنة ست وعشرين. وكانت مدة خلافته سنة وثلاثة أشهر. وقيل: سنة وشهرين، واثنتين وعشرين يوماً. وكان عمره اثنتين وأربعين سنة. وقيل: قُتل وهو ابن ثمان وثلاثين سنة. وقيل: إحدى وأربعين سنة. وقيل: ست وأربعين سنة.

(١) مصادر ترجمته كثيرة نذكر منها: سير أعلام النبلاء (٥/ ٣٧٤)، تاريخ خليفة (٣٦٨)، تاريخ اليعقوبي (٣/ ٧٤)، البداية والنهاية (١٠/ ١١)، الكامل في التاريخ في أحداث سنة (١٢٦)، الطبري في حوادث سنة (١٢٦)، النجوم الزاهرة (١/ ١٢٦)، تاريخ الخميس (٢/ ٣٢١). ويقول الذهبي في سير الأعلام في ترجمته: أبو خالد القرشي، الأموي، الدمشقي، الملقب بالناقص، لكونه نقص عطاء الأجناد. توثب على ابن عمه الوليد بن يزيد، وتمّ له الأمر، واستولى على دار الخلافة في سنة ست وعشرين، ولكنه ما مُتّع ولا بلع ريقه..
وقال خليفة بن خياط: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم عن أبيه قال: إن يزيد بن الوليد خطب عند قتل الوليد فقال: إني والله ما خرجت أشراً ولا بطراً ولا حرصاً على الدنيا، ولا رغبة في المُلك، وإني لظلوم لنفسي إن لم يرحمني ربي، ولكني خرجت غضباً لله ولدينه، وداعياً إلى كتاب الله وسنّة نبيه =

ولد بأرمينية، من ولد فيروز بن يزدجرد. وهو أول مَلِك في الإسلام.

وقام على الوليد منكراً لما اشتهر به من البطالة، فلما استجمع له أمره وهو منتبذ عن دمشق وبين البادية أربع ليال، فأقبل متنكراً في سبعة أنفس على حُمر.

وكان الوليد أيضاً منتبذاً عن دمشق في صيده ولهوه، فدخل دمشق اليزيد وقد بايع له أكثر أهلها.

وعلى دمشق يومئذ عبد الملك بن محمد بن الحجاج بن يوسف.

فصلّى اليزيد مع بعض أصحابه بمسجدها، فلما فرغ الناس صاح بهم الحرس، فجعلوا يخرجونهم من باب ويدخلون من غيره حتى لم يبق في المسجد إلاّ الحرس وأصحاب يزيد، فقبضوا على الحرس، وأتوا باب المقصورة وهو متصل بدار الخلافة، فقرعُوه وقالوا: نحن رُسُل الوليد في مهمة. ففتح لهم خادم الباب، فدخلوا، وقبضوا على من كان به. وكان في المسجد سلاح كثير قدم به سليمان بن هشام من الجزيرة فأخذوه واستظهروا به.

= حين درست معالم الهدى، وطفىء نور أهل التقوى، وظهر الجبّار المستحلّ للحرمة، والراكب البدعة، فأشفقت إذ غشيكم ظلمه أن لا يُقلع عنكم من ذنوبكم، وأشفقت أن يدعو أناساً إلى ما هو عليه، فاستخرت الله ودعوت من أجابني، فأراح الله منه البلاد والعباد. أيها الناس، إن لكم عندي إن وليت أن لا أضع لبنة على لبنة، ولا أنقل مالاً من بلد إلى بلد حتى أسد الثغور، فإن فضل شيء رددته إلى البلد الذي يليه حتى تستقيم المعيشة، وتكون فيه سواء، فإن أردتم بيعتي على الذي بذلت لكم فأنا لكم، وإن ملتُ فلا بيعة لي عليكم، وإن رأيتم أقوى مني عليها فأردتُم بيعته فأنا أول من يبايع، ويدخل في طاعته، وأستغفر الله لي ولكم.

قال عثمان بن أبي العاتكة: أول من خرج بالسلاح في العيد، يزيد بن الوليد، خرج بين صفين من الخيل في السلاح من باب الحصن إلى المصلى. وعن أبي عثمان الليثي: أن يزيد الناقص قال: يا بني أمية، إياكم والغناء، فإنه يُنقص الحياء ويزيد في الشهوة، ويهدم المروءة، وينوب عن الخمر، فإن كنتم لا بد فاعلين، فجنبوه النساء، فإن الغناء داعية الزنا. قال محمد بن عبد الله بن عبد الحكم: سمعت الشافعي يقول: لما ولي يزيد بن الوليد، دعا الناس إلى القَدَر، وحملهم عليه، وقرب غيلان القدري ـ أو قال: أصحاب غيلان ـ. قلت: كان غيلان قد صلبه هشام قبل هذا الوقت بمدة.

ومات يزيد الناقص في سابع ذي الحجة سنة ست وعشرين ومائة. فكانت دولته ستة أشهر، ومات وكان شاباً أسمر نحيفاً، حسن الوجه. وقيل: مات بالطاعون، وبويع من بعده أخوه إبراهيم بن الوليد. ودفن بباب الصغير، سامحه الله. وقال ابن الفُوطي في معجم الألقاب: إن لقبه الشاكر لله. ولد سنة ثمانين، وتوفي يوم الأضحى بالطاعون بدمشق. وآخر ما تكلم به: واحسرتاه واأسفاه. ودفن بباب الفراديس. وكان مربوعاً أسمر، خفيف العارضين، فصيحاً شديد العُجب. يقال: نبشه مروان الحمار وصلبه. . وليزيد من الأولاد: خالد، والوليد، وعبد الله، وعبد الرحمٰن، وأصبغ، وأبو بكر، وعبد المؤمن، وعلي.

وقد أسرع إليهم الناس من دون أمرهم. . .[١] ونادى يزيد في العطاء وندب إلى قتل الوليد.

واتصل بالوليد الخبر، فخذله الناس وتقاعدوا عنه، وتحصن ببعض الحصون من نظر حمص، ورام الدفاع عن نفسه، فغلب وكوثر فقعد في بيته، وأخذ المصحف، فنشره وقال: يوم كيوم عثمان.

فقتل وهو ابن اثنين وأربعين سنة. واستولى اليزيد على المُلك، وكان مُتقللاً خيِّراً، إلا أنه كان معتزلي المذهب فيما ذُكر عنه.

وكانت المعتزلة فيما نقل تفضله على عمر بن عبد العزيز.

وهيهات من ذا الذي يفضل عمر ويرجح به.

وكان ولد الوليد حكم وعثمان الذَيْن جلبنا حديث بيعتهما، ممن استأثر بهما سجنه. وكان قريب الوفاة من الولاية. فلما مرض طوق سجنه من شيعة اليزيد بن الوليد المظاهرين على قتل أبيهما من خاف من بقائهما، ورجوع الأمر إليهما على نفسه تهلكاً، عليه رحمة الله.

وكانت وفاة اليزيد بن الوليد حتف أنفه بدمشق مستهل ذي الحجة من سنة ست وعشرين ومائة.

ولما قارب الوفاة عزم أولياؤه عليه في الاستخلاف. فبايع لأخيه إبراهيم بن الوليد.

/ دولة إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك ابن مروان بن الحكم[٢] [٣٥/أ]

كنيته: أبو إسحاق.

وكان خيِّراً من الضعفاء، فاضطربت عليه الأمور، وكثر في أيامه الهرج،

---

(١) طمس بالمخطوط.

(٢) قال ابن الأثير في أحداث سنة ست وعشرين ومائة في ذكره لبيعة إبراهيم بن الوليد بالعهد: أمر يزيد بن الوليد بالبيعة لأخيه إبراهيم ومن بعده لعبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك، وكان السبب في ذلك أن يزيد مرض سنة ست وعشرين ومائة، فقيل له ليبايع لهما، ولم تزل القدرية بيزيد حتى أمر بالبيعة لهما. . . ثم ذكر خلافته فقال فيها: فلما مات يزيد بن الوليد قام بالأمر بعده أخوه إبراهيم، غير أنه لم يتم له الأمر، فكان يسلم عليه تارة بالخلافة، وتارة بالإمارة، وتارة لا يسلم عليه بواحدة منهما. فمكث أربعة أشهر، وقيل: سبعين يوماً. ثم سار إليه مروان بن محمد فخلعه على ما نذكره، ثم لم يزل حياً حتى أصيب سنة اثنتين وثلاثين، وكنيته أبو إسحاق، وأمه أم ولد.

واختلفت الكلمة، وسقطت الهيبة.

ونازعه الأمر مروان بن عبد الملك وخرج عليه وهزم جيشه وكانوا أزيد من مائة ألف فانخلع سريعاً، وسَلَّم الأمر إلى مروان بن محمد المذكور، وبايعه يوم الجمعة لاثنتي عشرة ليلة من صفر سنة سبع وعشرين ومائة(١).

وعاش بعد ذلك إلى أن مات يوم الزاب في حروب مروان بن محمد في طلبه الأمر لنفسه على أبيات منسوبة للحكم بن الوليد الصبي المسجون قالها تحريضاً لمروان لينتقم به من عدوه، وهي:

ألا يا ليت كلباً لم تلدنا وكنا من............(٢)

---

(١) قال ابن الأثير في أحداث سنة سبع وعشرين في ذكره لمسير مروان إلى الشام وخلع إبراهيم: فلما مات يزيد سار مروان في جنود الجزيرة وخلف ابنه عبد الملك في جمع عظيم على الرقة. فلما انتهى مروان إلى قنسرين لقي بها بشر بن الوليد ـ وكان ولاّه أخوه يزيد قنسرين ـ ومعه أخوه مسرور بن الوليد، فتصافوا، ودعاهم مروان إلى بيعته، فمال إليه يزيد بن عمر بن هبيرة في القيسية، وأسلموا بشراً، وأخاه مسروراً، فأخذهما مروان فحبسهما. وسار معه أهل قنسرين متوجهاً إلى حمص، وكان أهل حمص قد امتنعوا حين مات يزيد من بيعة إبراهيم وعبد العزيز، فوجه إليهم إبراهيم عبد العزيز وجند أهل دمشق، فحاصرهم في مدينتهم، وأسرع مروان السير، فلما دنا من حمص، رحل عبد العزيز عنها، وخرج أهلها إلى مروان فبايعوه، وساروا معه.
ووجه إبراهيم بن الوليد الجنود من دمشق مع سليمان بن هاشم فنزل عين الجر في مائة وعشرين ألفاً، ونزلها مروان في ثمانين ألفاً، فدعاهم مروان إلى الكفُ عن قتاله وإطلاق ابني الوليد: الحكم وعثمان من السجن، وضمن لهم أنه لا يطلب أحداً من قتله الوليد، فلم يجيبوه وجدّوا في قتاله، فاقتتلوا ما بين ارتفاع النهار إلى العصر، وكثر القتل بينهم، وكان مروان ذا رأي ومكيدة، فأرسل ثلاثة آلاف فارس فساروا خلف عسكره، وقطعوا نهراً كان هناك وقصدوا عسكر إبراهيم ليغيروا فيه. فلم يشعر سليمان ومن معه وهم مشغولون بالقتال إلاّ بالخيل والبارقة والتكبير في عسكرهم من خلفهم. فلما رأوا ذلك انهزموا، ووضع أهل حمص السلاح فيهم لحنقهم عليهم فقتلوا منه سبعة عشر ألفاً. وكفّ أهل الجزيرة وأهل قنسرين عن قتلهم وأتوا مروان من أسرائهم بمثل القتلى وأكثر، فأخذ مروان عليهم البيعة لولدي الوليد، وخلى عنهم، ولم يقتل منهم إلاّ رجلين: يزيد بن العقار، والوليد بن مصاد الكبيين، وكانا ممن وليا قتل الوليد فحبسهما حتى هلكا في حبسه. وهرب يزيد بن خالد القسري فيمن هرب مع سليمان إلى دمشق، واجتمعوا مع إبراهيم وعبد العزيز بن الحجاج فقال بعضهم لبعض: إن بقي ولد الوليد حتى يخرجهما مروان ويصير الأمر إليهما لم يستبقيا أحداً من قتلة أبيهما، والرأي قتلهما. فرأى ذلك يزيد بن خالد، فأمر بالأسد مولى خالد بقتلهما. فأخرج يوسف بن عمر فضرب رقبته، وأرادوا قتل أبي محمد السفياني، فدخل بيتاً من بيوت السجن، وأغلقه وألقى خلفه الفرش والوسائد واعتمد على الباب، فلم يقدروا على فتحه، فأرادوا إحراقه، فلم يؤتوا بنار حتى قيل: قد دخلت خيل مروان المدينة. فهربوا، وهرب إبراهيم، واختفى، وانتهب سليمان ما في بيت المال، فقسمه في أصحابه، وخرج من المدينة.

(٢) طمس في المخطوط.

أيذهب عامر بدمي وملكي فلا غثّاً أصبت ولا ثمينا
فإن أهلك أنا وولي عهدي فمروان أمير المؤمنينا

فمن أجل هذه ـ فيما زعموا ـ طلب مروان الخلافة بأهل الجزيرة وقنسرين وحمص. . .[1] في محله، وإنما قلنا هذا ليعلم الواقف عليه اعتداد القوم يومئذ ببيعة الوليد للصّغير بحيث إن بني مروان بنوا الطلب بحقه في الخلافة لشعر قاله الصبي هو وأخوه وليّ العهد في السجن، وشمّر لاستخلاصه، مع دينه وفضله فما يبالي هو ومن معه بما في ذلك من المحنة. ولا حول ولا قوّة إلا بالله.

دولة مروان بن محمد الجعدي[2]

ويكنى: أبا عبد الملك.

ولقبه: القائم بحق الله.

وكان رجل قومه عزماً وسياسة وتدبيراً للحروب.

وكان يُنبز بالحمار لجِرانه في الحروب، ووقوفه في الهيجاء.

---

(١) كلمة مطموسة بالمخطوط.

(٢) من مصادر ترجمته: سير أعلام النبلاء (٦/ ٧٤)، تاريخ خليفة (٤٠٣)، تاريخ الطبري في حوادث سنة (١٠٥، ١١٤، ١٢٦، ١٢٧)، وفي الكامل لابن الأثير في حوادث سنة (١٢٧ وما بعدها حتى سنة ١٣٢)، تاريخ الإسلام (٥/ ٢٢٢، ٩٢٨)، البداية والنهاية (١٠/ ٢٢، ٤٢، ٤٦)، رسالة أسماء الخلفاء (١٢٠).

وقال الذهبي في سير أعلام النبلاء: أبو عبد الملك الأموي الخليفة، يعرف بمروان الحمار، وبمروان الجعدي نسبة إلى مؤدبه جعد بن درهم. ويقال: اصبر في الحرب من حمار. وكان مروان بطلاً شجاعاً، داهية، رزيناً، جبّاراً يصل السّير بالسُّرى، ولا يجف له لِبْدٌ، دوّخ الخوارج بالجزيرة. ويقال: بل العرب تسمي كل مائة عام حماراً، فلما قارب ملك آل أمية مائة سنة لقبوا مروان بالحمار. وذلك مأخوذ من موت حمار العُزَير عليه السلام وهو مائة عام، ثم بعثهما الله تعالى.

مولد مروان بالجزيرة في سنة اثنتين وسبعين إذ أبوه متوليها، وأمه أم ولد. . وكان أبيض، ضخم الهامة، شديد الشهلة، كثّ اللحية أبيضها، ربعة، مهيباً، شديد الوطأة، أديباً، بليغاً، له رسائل تؤثر. ومع كمال أدواته لم يُرزق سعادة، بل اضطربت الأمور، وولت دولتهم.

بويع بالإمامة في نصف صفر سنة سبع وعشرين ومائة. . قال المدائني: كان مروان عظيم المروءة، محباً للهو، غير أنه شُغل بالحرب، وكان يحب الحركة والسفر. ومن جبروت مروان، أن يزيد بن خالد بن عبد الله القسري الأمير، كان قد قاتله، ثم ظفر به، فأدخل عليه يوماً، فاستدناه، ولفّ على إصبعه منديلاً ورضّ عينه حتى سالت، ثم فعل كذلك بعينه الأخرى، وما نطق يزيد، بل صبر، نسأل الله العافية.

وقيل: إن أم مروان الحمار كُردية يقال لها: لُبابة جارية إبراهيم بن الأشتر، أخذها محمد من عسكر إبراهيم، فولدت له مروان، ومنصوراً، وعبد الله. ولما قتل مروان هرب ابناه: عبد الله وعبيد الله إلى الحبشة، فقتلت الحبشة عبيد الله، وهرب عبد الله، ثم بعد مدة ظفر به المنصور، فاعتقله.

إلاّ أن دولته صادفت الانقضاء لتمام أمر العباسيين على عهده.

وقام عليه سليمان بن هشام، وكانت بينهم حروب عظيمة انجلت عن هزيمة سليمان بن هشام وقتل ثلاثين ألفاً، وقُتل من أصحابه الخوارج ستة آلاف.

وقبض في أيامه على إمام الدعوة العباسية إبراهيم بن إسحاق بن محمد بن علي، وقتله في سجنه، فانتقلت الدعوة إلى أبي العباس أيوب/ بعده، وأقبلت جيوش [٣٥/ب] العباسيين المسودة يتخذون الرايات السود ولباس. . .[١] وكان اللقاء المنجلي عن هزيمة مروان. وأجفل مروان إلى جهة مصر وتلاحق به وقد نزل الزاب الصغير عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس في عساكر أهل خُراسان. وقد عظم على مروان فيها الهزيمة يوم السبت لإحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة سنة اثنتين وثلاثين ومائة.

ومضى مروان في هزيمته يتخطى بلاد الشام حتى انتهى إلى مصر فقتل في أحوازها.

قال صاحب البهجة: روى عبد الله بن محمد قال: سألت أبا. . .[٢] الحميري: كم كان جند بني مروان؟

فقال: ثلاثمائة وخمسين ألفاً من أهل الشام، ومائة ألف وخمسين ألفاً من أهل العراق.

فلم تغن العِدةُ والعُدةُ لما انقضت المدة. .[٢].

وكانت هذه الدولة الأموية أوسع الدول الإسلامية خطة لاشتمال ملكها على المغرب والأندلس بما لم يكن لغيرها من بعدها، وكان من مفاخرها: معاوية، وعمر بن عبد العزيز، وكفى.

والكون لا بد أن تفسد وأسواق الفضل لا بد أن تكسد.

ومما زعم به المؤرخون بالتجربة أن كل بيوتات الملوك تُختم أسماؤهم إذا انقرضوا بمثل ما ابتدأت به.

فابتدىء بيت معاوية رضي الله عنه من الأمويين باسمه معاوية، وختم باسمه معاوية بن يزيد ولده.

وابتدىء بنو مروان بمروان بن الحكم، وختموا بمروان بن محمد.

ومما وجد ذلك مطرداً في كثير من المواقع، ونحن ننتقل إلى ذكر الدولة العباسية فننبه منها على ما يَخُصّها من طلبتنا، وهي أسماء من بُويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام.

---

(١) طمس بالمخطوط.

(٢) كلمة مطموسة في المخطوط.

ذكر الدولة العباسية بالمشرق

وفيهما ممن جعلنا هذا الكتاب لأجله وهم المبايعون قبل الاحتلام سبعة نفر أولهم: محمد بن الرشيد الملقب بالأمين، وأخوه عبد الله بن الرشيد الملقب بالمأمون، وأخوهما أبا القاسم بن الرشيد، ثم موسى بن الأمين، والمنتصر، والمعتز، والمؤيد، ثم المقتدر أبو جعفر بن المقتصد[1].

ونحن نُلمح بالملوك العباسيين على سبيل الاختصار، ثم نصرح فنفصل القول عند الوصول إلى غرضنا منهم إن شاء الله، ونقول بإعانة الله تعالى:

[٣٦/أ] لما أراد الله جلَّ جلاله انقضاء إمرة بني أمية بانتقال أمرهم إلى غيرهم/ حرك خواطر شيع من الخلق عند ملل الناس لبني أمية، وأمال قلوبهم إلى ذرية العباس عم رسول الله ﷺ واعتقدوا أنهم ظلموا علياً وذريتهم ونجسوا في إرثهم، وعضدوا ذلك بآثار عن رسول الله ﷺ، ووعدوا برد ذلك إليهم، واستدراك الفائت من أمرهم إلى تكهنات وحدثان كثير . . .[2] والرجوع إليه فيه والأمين للإمامة إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب المسمى بإبراهيم الإمام[3].

---

(١) كذا ذكر ثمانية أسماء وقد سبق أن قال إنهم سبعة أنفس.

(٢) طمس بالمخطوط.

(٣) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (٥/ ٣٧٩) في ترجمته: أبو العباس الهاشمي، كان بالحميمة من البلقاء، عهد إليه أبوه بالأمر، وعلم به مروان الحمار، فقتله . . . قال الخُطَبِي: أوصى محمد بن علي إلى ابنه إبراهيم فسمي بالإمام بعد أبيه. وانتشرت دعوته بخراسان، ووجه إليها بأبي مسلم والياً على دعاته، فظهر هناك فكان يدعو إلى طاعة الإمام من غير تصريح باسمه إلى أن ظهر أمره، ووقف مروان على أمره، فأخذ إبراهيم وقتله.
قال صالح بن سليمان: كان أبو مسلم يكاتبه، فقدم رسوله فرآه عربياً، فصيحاً، فغمه ذلك. فكتب إلى أبي مسلم: ألم أنهك عن أن يكون رسولك عربياً يطلع على أمرك، فإذا أتاك، فاقتله. فأحسَّ الرسول، ثم قرأ الكتاب، فذهب به إلى مروان. فأخذ إبراهيم فغمَّهُ بحران في مِرْفَقَةٍ. ويقال: إن إبراهيم حضر الموسم في حشمه فشهر نفسه، فكان سبباً لأخذه. ويقال: أتته عجوزها شمية تسترفده، فوصلها بمال جزيل، واعتذر. ويذكر أن أبا مسلم صبغ خرقاً سوداً وشدها في رمح، وكانوا يسمعون بحديث رايات سود من قِبل المشرق، فتاقت أنفسهم إلى ذلك، وتبعه عبيد فقال: من يتبعني فهو حُرٌّ، ثم خرج بهم، فوقعوا بعامل في تلك الكورة فقتلوه، ثم كثروا. ولما قتل إبراهيم قال: الأمر بعدي لابن الحارثية، يعني: السفاح.

وفي سنة ثمان وعشرين ومائة وجّه الإمام إبراهيم أبا مسلم الخراساني المعروف بالسّراج إلى خُراسان وكتب إلى أصحابه ومنتحلي اعتقاده والعالمين بإمامته يقول: إني قد أمرته بأمري، فاسمعوا منه واقبلوا قوله وإني قد أمّرته على خراسان وعلى ما غلب عليه بعد ذلك، وهذا في أيام مروان وعلى حال تشاغل كثير منهم بحروب الشام ومنازعة سليمان بن هشام بن عبد الملك مروان وإياه الملك.

والتأث أمر أبي مسلم إلى السنة بعدها وخرج إلى خراسان، وقد بعث إليه الإمام إبراهيم براية النصر الموعود، وهو لواء يدعى الظل على رمح طوله أربعة عشر ذراعاً، وراية تدعى السحاب على رمح طوله ثلاثة عشر ذراعاً.

وتأويل هذين الاسمين: الظل والسحاب، أن الدعوة تطبق الأرض وتعمها كما يطبقها ويعمها السحاب والظل.

وكتب إلى سليمان بن كثير بمثل ما كتب إلى أبي مسلم.

وقد كانت اجتمعت لهم أموال وعدّة من سلاح وأثواب. وكان ما اجتمع لهم من المال ثلاثمائة ألف وستين ألف درهم، فوصل أبو مسلم خراسان، ووجّه الدعاة والنقباء إلى بلخ، وإلى طخارستان، والطالقان، وخوارزم، وحَدَّ لهم أن يكون إعلان الدعوة لخمس بقين من رمضان هذه السنة.

وفي ليلة الخميس لخمس بقين، أخرج أبو مسلم الخراساني اللواء المسمّى بالظلّ والراية المسماة بالسحاب، وهو يقول: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الحجّ: الآية ٣٩]. ولبس السواد، وأوقد النيران عامّة ليلته للشيعة، وكانت العلامة، واجتمعوا...[1]. فأمر سليمان بن كثير من رؤوس الدعاة وأكابر أصحاب العباسية أن يصلي به وبالشيعة، ونصب له منبراً وأمره أن يبدأ بالصلاة قبل الخطبة بغير أذان ولا إقامة وأن يخطب على المنبر جالساً، وأن يُكبِّر/ [٣٦/ب] في الركعة الأولى ست تكبيرات تباعاً، ثم يقرأ ويركع بالسابعة ويكبِّر في الركعة الثانية خمس تكبيرات تباعاً، ثم يقرأ ويركع بالسادسة. ويفتتح الخطبة بالتكبير، ثم يختتمها بالتكبير.

فلما قضى سليمان بن كثير الصلاة والخطبة انصرف أبو مسلم والشيعة إلى خباء قد أعدّه لهم أبو مسلم، فطعموا مستبشرين. ثم انتشرت الدعوة، واتسمت بالظهور، فأذن الله بالإدالة.

وكتب نصر بن سيَّار أمير مروان على العراق يخبره بخبر أبي مسلم وظهوره

(١) طمس بالمخطوط.

وقوته وأنه يدعو إلى إبراهيم الإمام ابن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، وكتب إليه بهذه الأبيات:

أرى خلل الرماد وميض نار ... يوشك أن يكون لها ضرام
فإن النار بالعودين تذكى ... وإنّ الحرب أوّلها الكلام
أقول من التعجب ليت شعري ... أأيقاظ أمية أم نيام
فإن كانوا لحينهم نياما ... فقل قوموا فقد حان القيام
[ففرّي عن رحالك ثم قولي ... على الإسلام والعرب السلام[١]]

فسيَّر مروان الكتب في [طلب][٢] إبراهيم بن محمد، وكان مستتراً بأحواز البلقاء من دمشق. فتوجه عامل البلقاء في طلبه، فأتى إبراهيم وهو في مسجده فأخذه وكتفه وحمله إلى مروان. فحبسه مروان في السجن حتى مات مغتالاً بأمر مروان[٣].

---

(١) هذا البيت زيادة من كتاب الإمامة والسياسة لابن قتيبة الدينوري (٢/ ١٣٨).

(٢) زيادة يتطلبها السياق.

(٣) قال ابن الأثير في ذكره لقتل إبراهيم الإمام في أحداث سنة اثنين وثلاثين ومائة: اختلف الناس في موته فقيل: إن مروان حبسه بحران، وحبس سعيد بن هشام بن عبد الملك وابنيه: عثمان، ومروان، وعبد الله بن عمر بن عبد العزيز، والعباس بن الوليد بن عبد الملك، وأبا محمد السفياني، هلك منهم في وباء وقع بحران العباس بن الوليد، وإبراهيم بن محمد بن علي الإمام، وعبد الله بن عمر.
فلما كان قبل هزيمة مروان من الزاب بجمعة خرج سعيد بن هشام وابن عمه ومن معه من المحبوسين فقتلوا صاحب السجن، وخرجوا، فقتلهم أهل حران ومن فيها من الغوغاء. وكان فيمن قتله أهل حران شراحيل بن مسلمة بن عبد الملك، وعبد الملك بن بشر التغلبي، وبطريق أرمينية الرابعة ـ واسمه كوشان ـ وتخلف أبو محمد السفياني في الحبس، فلم يخرج فيمن خرج ومعه غيره لم يستحلوا الخروج من الحبس فقدم مروان منهزماً من الزاب، فجاء فخلى عنهم. وقيل: إن مروان هدم على إبراهيم بيتاً فقتله.
وقد قيل: إن شراحيل بن مسلمة بن عبد الملك كان محبوساً مع إبراهيم، فكانا يتزاوران فصار بينهما مودة، فأتى رسول من شراحيل إلى إبراهيم يوماً بلبن فقال: يقول لك أخوك: إني شربت من هذا اللبن فاستطبته، فأحببت أن تشرب منه. فشرب منه فتسكر جسده من ساعته ـ وكان يوماً يزور فيه شراحيل فأبطأ عليه ـ فأرسل إليه شراحيل: إنك أبطأت فما حبسك؟ فأعاد إبراهيم: إني لما شربت اللبن الذي أرسلت به قد أسهلني. فأتاه شراحيل، فقال: والله الذي لا إله إلاّ هو ما شربت اليوم لبناً، ولا أرسلت به إليك، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون، احتيل والله عليك. فبات إبراهيم ليلته وأصبح ميتاً من الغد. فقال إبراهيم بن هرثمة يرثيه:

قد كنت أحسبني جلداً فضعضعني ... قبرٌ بحران فيه عصمة الدِّين
فيه الإمام وخير الناس كلهم ... بين الصفائح والأحجار والطين
فيه الإمام الذي عمت مصيبته ... وعيّلت كل ذي مال ومسكين
فلا عفا اللّه عن مروان مظلمةً ... لكن عفا اللّه عمَّن قال آمين

=

ولما أُخذ الإمام إبراهيم كتب إلى الآفاق ينعي إليهم نفسه، ويأمرهم بالخروج إلى الكوفة مع أخيه أبي العباس بعهده، وقد جعله الخليفة من بعده، وأمر الدُّعاة أن يسمعوا منه ويطيعوا. فشخص عند ذلك [هو][١] ومن معه من أهل بيته إلى الكوفة، وفيهم أعمامه عبد الله، وداود، وعيسى، وصالح، وغيرهم.

فأسر لهم أبو مسلم الدَّاعي واتصل بالشيعة أن الإمام قدم الكوفة، فاستبشروا ووفد عليه وجوههم وصارت البيعة إلى أخيه أبي العباس عبد الله بن محمد بن علي، فتربع.

ولما ظهر أمر العباسية ودخل الناس في بيعتهم جهَّز أبو العباس السفاح الجيوش إلى مروان مع عمه صالح، وعمه عبد الله، وكان من استيلائهم على أمره، وقتلهم إياه بأحواز مصر ما هو معلوم[٢].

= وكان إبراهيم خيِّراً فاضلاً كريماً، قدم المدينة مرة ففرق في أهلها مالاً جليلاً، وبعث إلى عبد الله بن الحسن بن الحسن بخمسمائة دينار، وبعث إلى جعفر بن محمد بألف دينار، وبعث إلى جماعة العلويين بمال كثير. فأتاه الحسين بن زيد بن علي، وهو صغير، فأجلسه في حجره، قال: من أنت؟ قال: أنا الحسين بن زيد بن علي. فبكى حتى بلَّ رداءه، وأمر وكيله بإحضار ما بقي من المال، فأحضر أربعمائة دينار فسلمه إليه وقال: لو كان عندنا شيء آخر لسلمته إليك. وسَيَّر معه بعض مواليه إلى أمه ريطة بنت عبد الملك بن محمد ابن الحنفية يعتذر إليها. وكان مولده سنة اثنتين وثمانين، وأمه أم ولد بربرية، اسمها سلمى.

(١) زيادة يتطلبها السياق.

(٢) قال ابن الأثير في أحداث سنة اثنتين وثلاثين في ذكره لقتل مروان بن محمد، وكان قتله ببوصير من أعمال مصر لثلاث بقين من ذي الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائة. وكان مروان لما هزمه عبد الله بن علي بالزاب أتى مدينة الموصل، وعليها هشام بن عمرو التغلبي، وبشار بن خزيمة الأسدي، فقطع الجسر. فناداهم أهل الشام: هذا أمير المؤمنين مروان. فقالوا: كذبتم أمير المؤمنين لا يفر. وسبه أهل الموصل، وقالوا: يا جعدي، يا معطل، الحمد لله الذي أزال سلطانكم، وذهب بدولتكم، الحمد لله الذي أتانا بأهل بيت نبينا.

فلما سمع ذلك سار إلى بلد، فعبر دجلة وأتى حران وبها ابن أخيه أبان بن يزيد بن محمد بن مروان عامله عليها، فأقام بها نيفاً وعشرين يوماً. وسار عبد الله بن علي حتى أتى الموصل فدخلها وعزل عنها هشاماً، واستعمل عليها محمد بن صول، ثم سار في أثر مروان بن محمد، فلما دنا منه عبد الله حمل مروان أهله وعياله، ومضى منهزماً، وخلف بمدينة حران ابن أخيه أبان بن يزيد وتحته أم عثمان ابنة مروان. وقدم عبد الله بن علي حران، فلقيه أبان مسوداً مبايعاً له، فبايعه له، ودخل في طاعته، فأمَّنَهُ ومن كان بحران والجزيرة. ومضى مروان إلى حمص فلقيه أهلها بالسمع والطاعة، فأقام بها يومين أو ثلاثة، ثم سار منها. فلما رأوا قلة من معه طمعوا فيه وقالوا: مرعوباً منهزماً، فاتبعوه بعدما رحل عنهم فلحقوه على أميال. فلما رأى غبرة الخيل كمن لهم، فلما جاوزوا الكمين صافهم مروان فيمن معه، فأشدهم فأبوا إلا تناله، فقاتلهم، وأتاهم الكمين من خلفهم، فانهزم أهل حمص، وقتلوا حتى انتهوا إلى قريب المدينة. وأتى مروان دمشق وعليها الوليد بن معاوية بن مروان =

ولما قتل مروان، وقصد المسودة الكنيسة التي كان فيها بنات مروان ونساؤه،

= خلفه بها، وقال: قاتلهم حتى يجتمع أهل الشام.
ومضى مروان حتى أتى فلسطين، فنزل نهر أبي فطرس ـ وقد غلب على فلسطين الحكم بن ضبعان الجذامي ـ فأرسل مروان إلى عبد الله بن يزيد بن روح بن زنباع الجذامي فأجاره ـ وكان بيت المال في يد الحكم ـ. وكان السفاح قد كتب إلى عبد الله بن علي يأمره باتباع مروان، فسار حتى أتى الموصل، فتلقاه من بها من مسودين، وفتحوا له المدينة. ثم سار إلى حران، فتلقاه أبان بن يزيد مسوداً كما تقدم، فأمّنه، وهدم عبد الله الدار حتى حُبس فيها إبراهيم. ثم سار من حران إلى منبج، وقد سودوا فأقام بها، وبعث إليه أهل قنسرين ببيعتهم. وقدم عليه أخوه عبد الصمد بن علي، أرسله السفاح مدداً له في أربعة آلاف، فسار بعد قدوم عبد الصمد بيومين إلى قنسرين، وكانوا قد سودوا، فأقام يومين. ثم سار إلى حمص وبايع أهلها وأقام بها أياماً، ثم سار إلى بعلبك، فأقام يومين، ثم سار فنزل مزة دمشق، وقدم عليه أخوه صالح بن علي مدداً، فنزل مرج عذراء في ثمانية آلاف.
ثم تقدم عبد الله فنزل على الباب الشرقي، ونزل صالح على باب الجابية، ونزل أبو عون على باب كيسان، ونزل بسام بن إبراهيم على باب الصغير، ونزل حميد بن قحطبة على باب تومة، وعبد الصمد ويحيى بن صفوان، والعباس بن يزيد على باب الفراديس. وفي دمشق الوليد بن معاوية فحصروه ودخلوها عنوة يوم الأربعاء لخمس مضين من شهر رمضان سنة اثنتين وثلاثين ومائة...
وأقام عبد الله بن علي في دمشق خمسة عشر يوماً، ثم سار يريد فلسطين، فلقيه أهل الأردن، وقد سودوا، وأتى نهر فطرس وقد ذهب مروان، فأقام عبد الله بفلسطين.
ونزل بالمدينة يحيى بن جعفر الهاشمي، فأتاه كتاب السفاح يأمره بإرسال صالح بن علي في طلب مروان، فسار صالح من نهر أبي فطرس في ذي القعدة سنة اثنتين وثلاثين ومائة ومعه ابن فتان، وعامر بن إسماعيل. فقدم صالح أبا عون، وعامر بن إسماعيل الحارثي، فساروا حتى بلغوا العريش، فأحرق مروان ما كان حوله من علف وطعام. وسار صالح فنزل النيل، ثم سار حتى أتى الصعيد، وبلغه أن خيلاً لمروان يحرقون الأعلاف. فوجّه إليهم، فأخذوا، وقدم بهم على صالح وهو بالفسطاط، وسار فنزل موضعاً يقال له ذات السلاسل. وقدم أبو عون عامر بن إسماعيل الحارثي، وشعبة بن كثير المازني في خيل أهل الموصل، فلقوا خيلاً لمروان فهزموهم، وأسروا منهم رجالاً، فقتلوا بعضاً واستحيوا بعضاً، فسألوهم عن مروان، فأخبروهم بمكانه، على أن يؤمنوهم. وساروا فوجدوه نازلاً في كنيسة في بوصير، فوافوه ليلاً. وكان أصحاب أبي عون قليلين، فقال لهم عامر بن إسماعيل: إن أصبحنا ورأوا قلّتنا أهلكونا ولم ينج منا أحد. وكسر جفن سيفه، وفعل أصحابه مثله وحملوا على أصحاب مروان فهزموا.
وحمل رجل على مروان فطعنه، وهو لا يعرفه، وصاح صائح: صُرع أمير المؤمنين، فابتدروه، فسبق إليه رجل من أهل الكوفة كان يبيع الرمّان، فاحتزّ رأسه، فأخذه عامر، فبعث به إلى أبي عون، وبعثه أبو عون إلى صالح، فلما وصل إليه أمر أن يقص لسانه، فانقطع لسانه. فأخذه هِر، فقال صالح: ماذا تُرينا الأيام من العجائب، والعبر، هذا لسان مروان قد أخذه هر! . وقال الشاعر:

قد فتح اللّه مصر عنوة لكم ... وأهلك الفاجر الجعدي إذ ظلما
فلاك مقوَلَه هِر يجرجره ... وكان ربك من ذي الكفر منتقما

وسيره صالح إلى أبي العباس السفاح. وكان قتله لليلتين بقيتا من ذي الحجة. ورجع صالح إلى الشام، وخلف أبا عون بمصر، وسلّم إليه السلاح والأموال والرقيق. ولما وصل الرأس إلى السفاح =

[١/٣٧] إذا بخادم من خدم مروان شاهر/ السيف يحاول الدخول عليهن، فأخذوا الخادم وسألوه عن أمره. فقال: إن مروان [أمرني][١] إن قتل أن أضرب رقاب بناته ونسائه، فلا تقتلوني فإنكم إن قتلتموني فقدتم ميراثي في رسول الله ﷺ.

ثم قال: هلموا، وجاء بهم إلى موضع رمال وقال: لكم فيه العباءة، والبُرد، والقضيب، والنعل، والقطيفة، والخصف، وقد دفنها مروان. . .[٢] عبد الله بن علي.

فوجه به إلى أبي العباس السفاح، فتداوله بنو العباس إلى دولة المقتدر. واستولى العباسيون على ملك بني أمية واستأثروا بخزائنهم، وسبوا حريمهم، وذخيرتهم.

وذكروا أنه لما قدم بنات مروان بن محمد، وجواريه، وأسارى قومه، على صالح بن علي تكلمت ابنة مروان الكبرى فقالت: يا عم أمير المؤمنين، حفظ الله لك من أمرك ما تحب حفظه، وأسعدك في الأمور بخواص نعمه وعمَّكَ بالعافية في الدنيا والآخرة، نحن بناتك، وبنات أخيك وابن عمك، فيسعنا من عفوك ما وسعكم من جورنا.

فقال: إذاً لا نستبقي، ألم يَقتل أبوكِ بالأمس ابن أخي إبراهيم بن محمد بن علي الإمام بالسجن؟ ألم يقتل هشام بن عبد الملك زيد بن علي بن الحسين وصلبه في كناسة بالكوفة؟ وقتل امرأة زيد بالحيرة؟ ألم يقتل الوليد بن يزيد يحيى بن زيد وصلبه بخراسان؟ ألم يقتل عبد الله بن زياد مسلم بن عقيل بن أبي طالب؟ ألم يقتل يزيد بن معاوية الحسين بن علي مع من قتل من أهل بيته؟ ألم يخرج حرم رسول الله ﷺ سبايا ونَفَلَهم؟ وورد على يزيد رأسه كأنما بُعث إليه برأس رجل من أهل الشرك؛ ثم أوقف يزيد حرم رسول الله ﷺ موقف السبي يتصفحهن جنود أهل الشام الجُفاة الطغاة ويطلبون منه أن يهب حرم رسول الله ﷺ استخفافاً بحقه وجرأة على الله وكفراً لأنْعُمِهِ؟ فما الذي استبقيتم مِنَّا أهل البيت؟

قالت: يا عَمِّ أمير المؤمنين، فليسعنا عفوكم.

قال: أما العفو، فنعم، وقد وسعكم. فإن أحببت زوجتك من الفضل بن صالح بن علي. وزوَّجت أختك من أخيه عبد الله.

فقالت: وأي عز خير من هذا، بلى، تلحقنا بحران.

= كان بالكوفة، فلما رآه سجد، فلما رفع رأسه قال: الحمد لله الذي أظهرني عليك، وأظفرني بك، ولم يبق ثأري قِبلك، وقِبل رهطك أعداء الدين.

(١) زيادة يتطلبها السياق.

(٢) موضع النقط طمس بالمخطوط.

قال: أفعل ذلك يكُنَّ إن شاء الله.

وكان مروان قد كتب إلى عبد الله بن علي يستوصيه ببناته وحرمه فكان...[١] قولك الحق لنا في دمك والحق عليك.../...[٢] الملوك[٢]. [٣٧/ب]

دولة أبي العباس السفاح[٣]

...[٤] أبو العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس.

فكان ملكاً جليل القدر، بعيد الصيت.

كان أخوه أبو جعفر صاحب مشورته، وأبو مسلم الداعي...[٤]، وحميد أخوه على الحرب إلى آخر مدته.

وهو أول من رسم الوزارة بأبي سلمة حفص بن سليمان الهمداني الخلال وسماه وزير آل محمد.

ولما أُتي إليه برأس مروان، سجد فأطال السجود، ثم رفع رأسه، فقال: الحمد لله الذي لم يبق ثأري قِبلك وقِبل رهطك، والحمد لله [الذي][٥] أظفرني بك، وأظهرني عليك.

---

(١) موضع النقط طمس في المخطوط.

(٢) ومما قاله ابن الأثير في خبر قتل مروان في الكامل: ولما قتل مروان هرب ابناه عبيد الله، وعبد الله، إلى أرض الحبشة، فلقوا من الحبشة بلاء، قاتلهم الحبشة، فقتل عبيد الله ونجا عبد الله في عدّة ممن معه فبقي إلى خلافة المهدي، فأخذه نصر بن محمد بن الأشعث عامل فلسطين، فبعث به إلى المهدي.

(٣) مصادر ترجمته: رسالة أسماء الخلفاء والولاة لابن حزم (ص ١٢١، ١٢٣)، سير أعلام النبلاء (٦/ ٧٧)، تاريخ خليفة (٤٠٩)، تاريخ الطبري (٧/ ٤٢١)، تاريخ بغداد (١٠/ ٥٣)، فوات الوفيات (٢/ ٢١٥)، البداية والنهاية (١٠/ ٥٢)، شذرات الذهب (١/ ١٨٣)، وغير ذلك.

ومما قال الذهبي في سير أعلام النبلاء: أول الخلفاء من بني العباس كان شاباً، مليحاً، مهيباً أبيض، طويلاً، وقوراً... ولكن لم تطل أيام السفاح، ومات في ذي الحجة سنة ست وثلاثين ومائة، وعاش ثمانية وعشرين سنة في قول. وقال الهيثم بن عدي، وابن الكلبي: عاش ثلاثاً وثلاثين سنة، وقام بعده المنصور أخوه. وقيل: بل مولده سنة خمس ومائة... وعن السفاح قال: إذا عظمت القُدْرَةُ، قَلّت الشهوة. قَلّ تبرع إلا ومعه حق مضاع. الصبر حسن إلا على ما أوْتَغَ الدين وأوهن السلطان.

قال الصولي: أحضر السفاح جوهراً من جوهر بني أمية، فقسمه بينه وبين عبد الله بن حسن بن حسن. وكان يضرب بجود السفاح المثل. وكان إذا تعادى اثنان من خاصته لم يسمع من أحدهما في الآخر، ويقول: الضغائن تولد العداوة.

(٤) موضع النقط طمس بالمخطوط.

(٥) زيادة من الكامل في التاريخ.

ثم قال: ما أبالي متى طرقني الموت، قد قتلت بني الحصى، وبني أبيه من بني أمية مائتين، وأحرقت شلو هشام بيزيد بن علي، وقتلت مروان بأخي إبراهيم.

ولما استولى على ملك بني أمية نبش قبورهم وأخرج ما ألقي فيها من عظام بالية وأشباح باقية، فأحرق بعضها، وصلب بعضها، وانتقم من بقايا بني أمية بما لم يتقدم قبله ممن أراد خفاء نفسه. فلقد زعموا أن شاعراً دخل عليه وقد. . .[١] مجلس الطعام، فأنشده:

لا يغرنك ما ترى من أناس ... إن تحت الثياب داءً دويّا
فضع السيف وارفع السوط حتى ... لا ترى فوق ظهرها أمويّا

قال: فأمر فشدخوا بالعُمُد، وجعلت عليهم البُسُط والطعام، وأكل الناس وإنه ليُسْمَعُ أنين بعضهم، وكانوا عدداً كثيراً[٢].

وتوفي بمدينة الأنبار التي بناها وسماها الهاشمية، يوم الأحد لاثنتي عشرة ليلة من ذي الحجة سنة ست وثلاثين ومائة.

وعهد إلى أخيه [أبي][٣] جعفر المنصور، ولعيسى بن محمد بن علي بعده.

---

(١) موضع النقط طمس بالمخطوط.

(٢) في الكامل لابن الأثير، في ذكره لقتل بني أمية قال قبل ذكره لهذا الشعر: دخل سديف على السفاح وعنده سليمان بن هشام بن عبد الملك، وقد أكرمه، فقال سديف، فذكر الشعر بنحوه مما هنا، ثم قال: فقال سليمان: قتلتني يا شيخ. ودخل السفاح، وأُخذ سليمان فقتل. ودخل شبل بن عبد الله مولى بني هاشم على عبد الله بن علي، وعنده من بني أمية نحو تسعين رجلاً على طعام، فأقبل عليه شبل فقال:

أصبح الملك ثابت الأساس ... بالبهاليل من بني العباسِ
طلبوا وتر هاشم فشفوها ... بعد ميل من الزمان وباس
لا تقيلن بني عبد شمس عثارا ... واقطعن كل رقلة وغراس
ذلّها أظهر التودد منها ... وبها منكم كحر المواسي
ولقد غاظني وغاظ سوائي ... قربهم من نمارق وكراسي
أنزلوها بحيث أنزلها اللّه ... بدار الهوان والاتعاس
واذكروا مصرع الحسين وزيداً ... وقتيلاً بجانب المهراس
والقتيل الذي بحران أضحى ... ثاوياً بين غُربةٍ وتناسي

فأمر بهم عبد الله، فضربوا بالعمد حتى قتلوا وبسط عليهم الأنطاع، فأكل الطعام عليها وهو يسمع أنين بعضهم حتى ماتوا جميعاً. وأمر عبد الله بن علي بنبش قبور بني أمية بدمشق.

(٣) سقط من المخطوط.

ذكر دولة أبي جعفر المنصور(١)

وكان المنصور ملكاً حازماً عالماً، أحزم أهل بيته وأشدهم تقتيراً على نفسه، وخالف عليه عمه عبد الله بن علي، ودعا إلى نفسه، فأظهره الله عليه. ونازعه الأمر محمد بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، جد هؤلاء الأدارمية اللاحقين/ بالمغرب. وجرت بينهما مخاطبات ومحاورات شهيرة في كتب التاريخ، [١/٢٨] ثم قاتل هو وأنصاره هذه الطوائف الحسنية فاستأصلها ولم تقم لها معه قائمة.

وروي عنه أنه قال لجلسائه يوماً: ما رأيت رجلاً أنصح من الحجاج لبني...

فقال المسيب بن زهير: يا أمير المؤمنين، ما سبقنا الحجاج بأمر تخلفنا عنه،

---

(١) قال الذهبي في ترجمته في سير أعلام النبلاء (٧/ ٨٤): الخليفة أبو جعفر عبد الله بن محمد بن علي الهاشمي العباسي المنصور. وأمه سلامة البربرية. ولد في سنة خمس وتسعين أو نحوها، ضرب في الآفاق، ورأى البلاد، وطلب العلم. قيل: كان في صباه يُلَقَّبُ: بمدرك التراب، وكان أسمر، طويلاً، نحيفاً، مهيباً، خفيف العارضين، مُعَرَّقِ الوجه، رحب الجبهة كأن عينيه لسانان ناطقان تخالطه أبهة الملك بزي النُّسَّاك، تَقْبَله القلوب وتتبعه العيون، أقنى الأنف بيِّن القنا، يخضب بالسواد. وكان فحل بني العباس، هيبة وشجاعة ورأياً وحزماً ودهاءً وجبروتاً. وكان جمّاعاً للمال حريصاً، تاركاً للهو واللعب، كامل العقل، بعيد الغور، حسن المشاركة في الفقه والأدب والعلم.

أباد جماعة كباراً حتى توطد له المُلك، ودانت له الأمم على ظُلم فيه وقوة نفس، ولكنه يرجع إلى صحة إسلام وتدين في الجملة، وتصون وصلاة وخير، مع فصاحة وبلاغة وجلالةٍ. وقد ولي بليدة من فارس لعاملها سليمان بن حبيب بن المهلب بن أبي صُفْرة، ثم عزله وضربه وصادره، فلما استخلف قتله. وكان يُلَقَّب: أبا الدوانيق، لتدنيقه ومحاسبته الصُّنَّاع، لما أنشأ بغداد. وكان يبذل الأموال في الكوائن المخوفة ولا سيما لما خرج عليه محمد بن عبد الله بن حسن بالمدينة، وأخوه إبراهيم بالبصرة.

قال أبو إسحاق الثعالبي: على شهرة المنصور بالبخل، ذكر محمد بن سلام أنه لم يُعطِ خليفة قبل المنصور عشرة آلاف ألف درهم دارت بها الصِّكَاك، وثبتت في الدواوين، فإنه أعطى في يوم واحدٍ، كل واحد من عمومته عشرة آلاف ألف. وقيل: إنه خلَّف يوم موته في بيوت الأموال تسعمائة ألف ألف درهم ونيف... وعن المنصور قال: الملوك أربعة: معاوية، وعبد الملك، وهشام بن عبد الملك، وأنا.

حجّ المنصور مرات منها في خلافته مرتين، وفي الثالثة مات ببئر ميمون قبل أن يدخل مكة. قال مبارك الطبري: حدثنا أبو عبيد الله الوزير، سمع المنصور يقول: الخليفة لا يصلحه إلا التقوى، والسلطان لا يصلحه إلا الطاعة، والرعية لا يصلحها إلا العدل، وأولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة، وأنقص الناس عقلاً من ظلم من هو دُونَه.

ومن مصادر ترجمته: تاريخ الطبري (٧/ ٤٦٩)، الوزراء والكُتاب (٩٦)، مروج الذهب (٢/ ٢٢٨)، تاريخ بغداد (١٠/ ٥٣)، العبر (١/ ٢٢٨)، تاريخ الإسلام (٦/ ٢١٤)، دول الإسلام (٩٣)، فوات الوفيات (٢/ ٢١٦)، البداية والنهاية (١٠/ ١٢١)، العقد الثمين (٢/ ٢٤٨)، تاريخ الخلفاء (٢٥٩)، شذرات الذهب (١/ ١٨٥)، رسالة الخلفاء والولاة (ص ١٢٣).

والله ما خلق الله على وجه الأرض خلقاً أعز علينا من نبينا محمد ﷺ، وقد أمرتنا بقتل أولاده فأطعنا ذلك، فهل نصحناك أم لا؟

فقال المنصور: اجلس لا جلست.

وأخبار أبي جعفر المنصور وخطبه، وما تعامل فيه...[1]، وأبي مسلم الخراساني شهيرة، ونحن لا نستكثر من ذكر الشهير...[1].

وتوفي المنصور وهو حاج بأحواز مكة يوم السبت لست خلون من ذي الحجة سنة ثمان وخمسين ومائة.

وعهد إلى ولده المهدي بعده.

ذكر دولة محمد المهدي بن المنصور[2]

وقام المهدي بالأمر بعده، وكنيته أبو العباس.

وكان ملكاً عظيماً، مستجد الحُمُود، بذّالاً للأموال، على الضد في السخاء من خلق أبيه.

زعموا أنه أنفق لأيام من موت أبيه أربعة عشر ألف ألف دينار وأربعة آلاف درهم، إلى أن فرغت بيوت الأموال، ودخل عليه خُزَّانُهَا فرموا بالمفاتيح إليه، وقالوا: ما نفعل بمفاتيح بيوت خاوية؟. ثم استأنف الأمر وجبر الإصر.

وحكي أنه صلّى يوماً في مسجد المدينة، وكان إلى جانبه رجل، فعطف عليه وسأله عن حال أميرهم، فأثنى عليه خيراً.

ثم استدرجه يسأله عن أمير المؤمنين وهو لا يعرفه.

فلعنه لعناً شديداً وأتبعه بكل نقيصة وقبيحة. فلما انصرف لطف في أمره حتى

---

(١) طمس بالمخطوط.

(٢) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (٧/ ٤٠٠) في ترجمته للمهدي: مولده بإيذج من أرض فارس سنة سبع وعشرين، وقيل: في سنة ست. وأمه أم موسى الحميرية. كان جواداً ممداحاً معطاءً محبباً إلى الرعية، قصاباً في الزنادقة باحثاً عنهم، مليح الشكل قد مرّ... ولما اشتد ولاّه أبوه مملكة طبرستان، وقد قرأ العلم، وتأدب وتميز. عزم أبوه أموالاً حتى استنزل ولي العهد ابن أخيه عيسى بن موسى من العهد للمهدي. ولما مات المنصور، قام بأخذ البيعة للمهدي الربيع بن يونس الحاجب.
وكان المهدي أسمر مليحاً مضطرب الخلق، على عينه بياض، جعد الشعر، ونقش خاتمه: الله ثقة محمد وبه نؤمن. وقال يقطونة: أنبأنا أبو العباس المنصوري قال: لما حصلت الخزائن في يد المهدي، أخذ في ردّ المظالم، فأخرج أكثر الذخائر، ففرّقها وبرّ أهله ومواليه، فقيل: فرّق أزيد من مائة ألف ألف.
وقيل: إنه أثنى عليه بالشجاعة، فقال: لِمَ لا أكون شجاعاً وما خفت أحداً إلا الله؟.

وصل إليه، فقال له: ويلك. . .[(١)].

فقال: لا، الله يعيذ أمير المؤمنين من ظلم أحد.

قال: فلِمَ لعنتني وشتمتني في المسجد؟

قال: المَلَلُ والله فديتك يا سيدي، وامرأتي طالق وما أملك أحرار وصدقة، قد أغير كنيتي في اليوم مرتين أو ثلاثاً من كثرة الملل. فضحك المهدي ووصله[(٢)].

قلت: هذه علّة قديمة لم يؤت الملوك مع رعاياهم وخدامهم شرّاً منها على أي حال كانوا من الفضل/ والصلاح أو لغيره، فسبحان من قال وقوله الحق: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف: الآية ١٠٢]. [٢٨/ب]

وكانت وفاته ليلة الخميس لسبع بقين من المحرّم سنة تسع وستين ومائة. وولي بعده ولده: موسى الهادي.

دولة موسى الهادي بن محمد المهدي[(٣)]

ولّي الأمر بعد المهدي، الهادي ابنه، وكان موسى صعب المرام، شجاعاً،

---

(١) طمس بالمخطوط.

(٢) ومما ذكر ابن حزم في ترجمته في رسالته أسماء الخلفاء (ص ١٢٤): لم يزل والياً إلى أن مات سنة تسع وستين ومائة. فكانت ولايته عشر سنين وأشهراً إذ مات وله ثلاث وأربعون سنة بعيساباد. أمه أم موسى بنت منصور الحميري، كانت من أهل القيروان بإفريقية، فتزوجها هناك فتى من ولد عبيد الله بن عباس بن عبد المطلب، وكان خليعاً متخلعاً، فولدت له ابنه.
وكان لها زوج قبله خياط ولدت منه ولداً وبلغ ذلك قومها، فنهض أبو جعفر المنصور بنفسه، وذلك في خلافة هشام بن عبد الملك، فدخل القيروان ووجد الخياط قد مات أو طلقها، فتزوجها أبو جعفر وأتى بها، فلما صارت الخلافة إليه سمَّوْا ابن الخياط طيفور، وقالوا: هو مولى المهدي، وإنما كان أخاه لأمه، وهو جد عبيد الله بن أحمد بن أبي طاهر مؤلف أخبار بغداد.

(٣) من مصادر ترجمته: الكامل في التاريخ في أحداث سنة تسع وستين وسبعين ومائة، وسير أعلام النبلاء (٧/ ٤٤١)، الوزراء والكُتّاب (١٦٧)، مروج الذهب (٢/ ٢٥٥)، تاريخ بغداد (١٣/ ٢١)، العبر (١/ ٢٥٧)، البداية والنهاية (١٠/ ١٣١)، تاريخ الخلفاء (٢٧٩)، شذرات الذهب (١/ ٢٦٦)، رسالة الخلفاء (ص ١٢٥). وقال ابن الأثير في الكامل: وكانت خلافته سنة وثلاثة أشهر. وقيل: كانت أربعة عشر شهراً، وكان عمره ستاً وعشرين سنة، وقيل: ثلاثاً وعشرين سنة، وصلى عليه الرشيد، وكانت كنيته أبا محمد، وأمه الخزيران أم ولد. ودفن بعيسابا ذا الكبرى في بستانه. وكان طويلاً جسيماً أبيض مشرباً بحمرة، وكان بشفته العليا نقص وتقلص، وكان المهدي قد وكّل به خادماً يقول له: موسى أطبق، فيضم شفته، فلقب موسى أطبق.
وقال الذهبي في سير أعلام النبلاء (في ترجمته: كان يشرب المسكر، وفيه ظلم وشهامة ولعب، وربما ركب حماراً فارهاً، وكان شجاعاً، فصيحاً، لَسِناً، أديباً، مهيباً، عظيم السطوة. قال ابن حزم: كان سبب موته أنه دفع نديماً له من جُرُف على أصول قصب قد قطع، فتعلق به النديم، فوقع =

سفّاكاً للدماء، جريئاً مقداماً، شديد التسرّع والعجلة، محبّاً في الشعر.

وحكايته مع الخارجي الذي. . .[١]، وأقبل عليه به معروفة.

وفي أيامه قُتل الحسين بن علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب بفخ من أحواز مكة في طائفة من أهل بيته رحمهم الله.

وكان يظهر اللهو والمعاقرة، واشتغل بها عن الملك.

ثم تفاقم الأمر بعده حتى لم يقف عند غاية.

وتوفي ليلة الجمعة لاثنتي عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأول سنة سبعين ومائة.

وولي الأمر بعده أخوه هارون بعهد أبيه.

دولة هارون الرشيد بن محمد المهدي[٢]

وكان هارون الرشيد ملكاً عظيماً، قريباً من الاعتدال في أموره، إلا ما كان فيه

= معه فدخلت قصبة في دُبُره، فكان ذلك سبب موته، فهلكا جميعاً.

. . . وكان كوالده في استئصال الزنادقة وتتبعهم، فقتل عدّة منهم: يعقوب بن الفضل بن عبد الرحمٰن بن العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم، وظهرت بنته حبلى منه أكرهها. . . . وخرج على الهادي حسين بن علي بن الحسن بن حسن الحسني بالمدينة، المقتول في وقعة فَخّ بظاهر مكة، وكان قليل الخير، وعسكره أوباش. وهلك الهادي فيما قيل: من قرحة. ويقال: سَمَّتْهُ أُمه الخيزران لما أجمع على قتل أخيه الرشيد، وكانت متصرفة في الأمور إلى الغاية، وكانت من مولّدات المدينة، فقال لها: لئن وقفت ببابك أمير لأقتلنك، أما لك مغزل يشغلك أو مصحف يذكرك أو سُبحة، فقامت لا تعقل غضباً.

(١) طمس في المخطوط.

(٢) من مصادر ترجمته: تاريخ بغداد (١٤/ ٥)، تاريخ الخلفاء (٢٨٣)، شذرات الذهب (١/ ٣٣٤)، دول الإسلام (١/ ١١٣)، تاريخ خليفة (٣٤٧)، المعرفة والتاريخ (١/ ١٦١)، تاريخ اليعقوبي (٣/ ١٣٩)، تاريخ الطبري (٨/ ٢٣٠)، المختصر في أخبار البشر (١/ ٣٠٥)، العبر (١/ ٣١٢)، سير أعلام النبلاء (٩/ ٢٨٦)، وقال فيها الذهبي في ترجمته: كان من أنبل الخلفاء، وأحشم الملوك، ذا حجّ وجهاد، وغزو وشجاعة، ورأى أمه أم ولد اسمها خيزران.

وكان أبيض طويلاً، جميلاً، وسيماً، إلى السِّمن، ذا فصاحة وعلم وبصر بأعباء الخلافة، وله نظر جيد في الأدب والفقه، قد وخطه الشيب. أغزاه أبوه بلاد الروم وهو حدث في خلافته. وكان مولده بالري سنة ثمان وأربعين ومائة. قيل إنه كان يصلي في خلافته في كل يوم مائة ركعة إلى أن مات، ويتصدّق بألف. وكان يحب العلماء، ويعظّم حرمات الدين، ويبغض الجدال والكلام، ويبكي على نفسه ولهوه وذنوبه، لا سيما إذا وُعِظَ، وكان يحب المديح، ويجيز الشعراء، ويقول الشعر. . . ووعظه الفضيل فأبكاه حتى شهق في بكائه. ولما بلغه موت ابن المبارك حزن عليه وجلس للعزاء، فعزّاه الأكابر.

=

من الميل للدعة وبذل الأموال الخطيرة في سبيل اللهو ومطاوعة اللذات.

وهو الذي أوقع بالبرامكة ووزرائه وكُتّابه وكانوا زينة ملكه ودرر مِلكه، فأبادهم وصيّرهم عبرةً من عِبَرِ الأيام.

وقتل جعفر بن يحيى بن خالد، وكان في الوزراء من رجال الكمال.

ذكروا أنه وقّع بين يدي الرشيد على ألف توقيع كلها بموجب الفقه.

وقال سفيان بن عيينة رضي الله عنه: اللهم إنه قد كفاني مؤنة الدنيا فاكفه مؤنة الآخرة.

وفي أيامه تناهت الخلافة وكذلك الأبهة فكثرت عنه أخبار القصّاص والمحدّثين في الجماهير.

وكان اليزيد بن عبد الملك من بني مروان أول من أخذ البيعة لولده، وهو صبيّ غير محتلم من بعد يزيد بن معاوية. ثم أخذ الوليد البيعة لابنيه وهما صغيران، فكذلك الرشيد كان أول بني العباس الذين سلكوا ذلك المسلك، ثم تبعه من بعده.

وهو أول من عقد لولده العهد وأخذ له البيعة وسمّاه الأمين، وهو ابن خمس سنين أو ما يقرب منها/ مطاوعة لأم الأمين أمّ جعفر المدعوّة بزبيدة[١] بنت جعفر بن [٣٩/أ] المنصور.

ثم عقد البيعة لأخيه بعده، عبد الله، وسمّاه المأمون...[٢] لابنه القاسم بعدهما بأيام.

ذكروا أن الرشيد قال للقاسم يوماً قبل أن يبايع له ـ وكان بديناً سميناً ـ: ليت للمأمون بعض لحمك هذا.

= ... قال الجاحظ: اجتمع للرشيد ما لم يجتمع لغيره، وزراؤه البرامكة، وقاضيه القاضي أبو يوسف، وشاعره مروان بن أبي حفصة، ونديمه العباس بن محمد عم والده، وحاجبه الفضل بن الربيع أتيَهُ الناس، ومُغَنّيه إبراهيم الموصلي، وزوجته زبيدة.

... ومحاسنه كثيرة، وله أخبار شائعة في اللهو، واللذات، والغناء الله يسمح له. قال ابن حزم: أراه كان يشرب النبيذ المختلف فيه، لا الخمر المتفق على حرمته. قال: ثم جاهر جهاراً قبيحاً. قلت: حجّ غير مرة، وله فتوحات ومواقف مشهودة، ومنها فتح مدينة هِرَقْلَة، ومات غازياً بخراسان، وقبره بمدينة طوس. عاش خمساً وأربعين سنة، صلى عليه ولده صالح. توفي في ثالث جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين ومائة.

(١) قال الأستاذ عمر رضا كحالة في كتابه أعلام النساء (٢/ ١٧) في تعليقه على ترجمتها: زبيدة لقب غلب عليها واسمها: أمة العزيز، وكان المنصور يرقصها وهي صغيرة، وكانت سمينة حسنة البدنة، فيقول لها: يا زبيدة، فغلب عليها ذلك، وتكنى أم الواحد.

(٢) طمس في المخطوط.

فقال له الولد: نعم ببعض حظه.

فأعجبه جوابه، فقال له: قد وصيت الأمين والمأمون بك.

فقال: أما أنت يا أمير المؤمنين فقد توليت النظر لهما بنفسك، ووكلّت النظر لي إلى غيرك.

فَرَقَّ وكتب له البيعة من بعدهما، ولقبه بالمؤتمن.

ومن مختصر غريب: وفي هذه السنة ـ يعني سنة ست وثمانين ومائة ـ خرج هارون الرشيد من الرَّقة يريد الحج في...[1] فمرّ بالأنبار، ولم يدخل مدينة السلام ولكنه نزل منزلاً على شاطىء الفرات يدعى الزاوية تبعد عن مدينة السلام سبعة فراسخ.

وخلّف على الرقة إبراهيم بن عثمان وأخرج مع نفسه ابنيه: الأمين، والمأمون، فسار حتى المدينة، فأعطى أهلها ثلاث أعطية كانوا يقدمون إليه فيعطيهم عطاءهم، ثم يقدمون على الأمين فيعطيهم عطاءً ثانياً، ثم يقدمون على عبد الله المأمون فيعطيهم عطاءً ثالثاً.

ثم سار إلى مكة، فأعطى أهلها عطاءً عظيماً، فبلغ عطاؤه ألف ألف دينار وخمسين ألف دينار.

وكان الرشيد عقد لابنه محمد ولاية العهد في شعبان سنة ثلاث وسبعين ومائة.

ثم بايع لعبد الله ابنه بالرقة في سنة ثمان وثمانين وسمّاه المأمون، وضمّ إليه من حَدِّ همذان إلى آخر المشرق.

وقيل: كان القاسم بن الرشيد في حجر عبد الملك بن صالح، فكتب عبد الملك إلى الرشيد:

يا أيها الملك الذي ... لو كان بجماله...[2] سعدا
اعقد لقاسم بيعة ... واقدح له في البلاد زندا
الله فردٌ واحدٌ ... فاجعل ولاة العهد مردا

فكان أول...[2] الرشيد على البيعة للقاسم، وسمّاه المؤتمن، وولاّه الجزيرة، [٣٩/ب] والثغور، والعواصم، فقال في ذلك عبد الملك بن صالح: / ...[3].

فلما حجّ هارون الرشيد وقضى مناسكه عقد لمحمد الأمين وعبد الله المأمون

---

(١) موضع النقط طمس بالمخطوط.

(٢) كلمات مطموسة بالمخطوط.

(٣) فذكر شعراً له ولغيره كثير تركته كله لإصابة معظمه بالطمس.

كتابين وحشد الفقهاء وأراهم إياهما أحدهما على. . .[١] المشترطة عليه من الوفاء لعبد الله وتسليم ما ولاّه من الأعمال وصيّر إليه من الضياع والأموال.

والثاني: نسخة بالبيعة/ التي أخذها على الخاصة والعامة والشروط التي عقدها [٤٠/أ] لعبد الله على محمد وأشهد على الكتابين، وأخذ البيعة لمحمد ولعبد الله من سائر. . .[٢] وقوّاده، ووزرائه، وسائر أهل خدمته بعد أن أمر بقراءتهما على الناس، وأمر بوضع الكتابين في البيت الحرام، وتقدم على الحجبة في حفظهما.

ونسخة الكتاب الذي عقده هارون الرشيد على ابنه محمد:

هذا كتابٌ لعبد الله بن هارون الرشيد، أمير المؤمنين، كتبه محمد بن هارون أمير المؤمنين في صحة من عقله وطائعاً غير مكره. . . ولاّني العهد وصيّر البيعة لي في رقاب المسلمين جميعاً، وولّي عبد الله بن هارون الرشيد أمير المؤمنين العهد والخلافة وجميع أمور المسلمين بعدي، وولّي عبد الله بن هارون برضى نفسي وتسليم، طائعاً غير مكره، وَوَلاّه خراسان وثغورها وكورها، وخراجها، وطرقها، وبريدها، وبيوت أموالها وصدقاتها، وحشدها، وعشرها، وجميع أعمالها في حياته وبعده، وشرطت لعبد الله بن هارون أمير المؤمنين برضى مني وطيب نفس لأخي عبد الله بن هارون للوفاء بما عقد له هارون أمير المؤمنين من العهد والولاية والخلافة، وأمور المسلمين جميعاً بعدي، وتسليم ذلك له، وما جعل له من ولاية خراسان وأعمالها كلها، وما أقطعه أمير المؤمنين من قطعه، وجعل له من عقدة أو ضيعة من ضياعه، أو ما ابتاع من الضياع والعقار وما أعطاه في حياته وصحته من مال أو حلي أو متاع أو كسوة أو منزل أو دواب أو قليل أو كثير فهو لعبد الله بن هارون أمير المؤمنين، ومسلّماً إليه، وقد عرفت ذلك كله شيئاً شيئاً فإن حدث بأمير المؤمنين حدث الموت فإن الخلافة إلى محمد ابن أمير المؤمنين هارون، فعلى محمد إنفاذ ما أمر به هارون أمير المؤمنين في تقليد عبد الله بن هارون أمير المؤمنين خراسان والكور التي سمّاها أمير المؤمنين، وكان عبد الله ابن أمير المؤمنين من معسكر أمير المؤمنين وغيره من سلطان أمير المؤمنين وما ضمّ إليه أمير المؤمنين من أهل بيت أمير المؤمنين، وأن يمضي عبد الله ابن أمير المؤمنين. . .[٣] ولده الري إلى أقصى عمل خراسان وليس لمحمد ابن أمير المؤمنين أن يحول عنه قائداً ولا . . .[٣] ولا رَجُلاً واحداً ممن انضم إليه من أصحابه الذين ضمهم إليه أمير المؤمنين ولا يُحول عبد

(١) كلمة في المخطوط لم أتبين قراءتها هذا رسمها: «محمرية».
(٢) طمس في المخطوط.
(٣) طمس في المخطوط.

[٤٠/ب] الله/ ابن أمير المؤمنين ولا حتى التي ولآه إياها أمير المؤمنين من ثغر وغيره من أعمالها كلها من بلاد الري وكورها إلى أقصى خراسان وثغورها وبلادها، وما هو منسوب إليها...[١] ولا يفرق أحد من أصحابه وقوّاده عنه، ولا يحول عليه أحد ولا يبعث عليه ولا أحد من عمّاله وولاة أمره داعياً، ولا محاسباً، ولا عاملاً، ولا يدخل عليه في صغير من أمره، ولا كبير ضرر، ويحول بينه وبين العمل في ذلك كله برأيه وتدبيره، ولا يعرض لأحد من...[١] أمير المؤمنين من أهل بيته، وصحابته، وقضاته، وعُماله، وكُتّابه، وقوّاده، ومواليه، وجدوه يلتمس به إدخال الضرر عليهم، والمكروه في أنفسهم وأقربائهم، ومواليهم، وضياعهم، ودورهم، ورباعهم، وأمتعتهم، ورقيقهم، ودوابهم، ولا شيء من ذلك صغير ولا كبير، ولا أحد من الناس بأمره ورأيه وهواه وترخيص له في ذلك وإدهان منه لأحد من ولد آدم، ولا يحكم في أمرهم، ولا أحد من قضاته، وإن نزع إليه واحد ممن ضمّ أمير المؤمنين إلى عبد الله من أهل بيت أمير المؤمنين، وصحابته، وقوّاده، وعمّاله، وكُتّابه، وخدمه، ومواليه، وجنده، ورفض...[٢] ومكانه مع عبد الله ابن أمير المؤمنين عاصياً له، ومخالفاً عليه، فعلى محمد ابن أمير المؤمنين ردّه لعبد الله ويصغي له...[٣] حتى ينفذ فيه رأيه وأمره، فإن أراد محمد ابن أمير المؤمنين خلع عبد الله ابن أمير المؤمنين عن ولاية العهد من بعده أو عزلاً لعبد الله عن ولاية خراسان وثغورها وأعمالها والرّي من حَدّ عملها، والكور التي سماها أمير المؤمنين في كتابه أو صرف أحد من قواده الذين ضمهم أمير المؤمنين ممن قدَّم قدماً إليه أو نقصه قليلاً أو كثيراً ممن خافهُ أمير المؤمنين عليه بوجه من الوجوه أو بحيلة من الحيل، صغرت أو كبرت، فلعبد الله ابن أمير المؤمنين الخلافة من بعد أمير المؤمنين وهو المقدّم على محمد ابن أمير المؤمنين وولي الأمر بعده، والطاعة من جميع قوّاد أمير المؤمنين هارون وأهل العطاء والفضل والمجاهدة لمن خالفه والنصرة له، والذبّ عنه ما كانت الحياة في أبدانهم، وليس لأحد منهم جميعاً ممَّن كانوا أو حيث كانوا أن يخالفه ولا يعصيه ولا يخرج عن طاعته، ولا يطيع محمد ابن أمير المؤمنين من صرف العهد عنه إلى غيره أو انتقاصه شيئاً مما جعله أمير المؤمنين في حياته وصحته واشترطه عليه في
[٤١/أ] كتابه/ الذي كان في بيت الله الحرام مع كتاب لولده عبد الله ابن أمير المؤمنين...[٤] وأنتم في حل من البيعة التي كانت في أعناقكم لمحمد ابن أمير المؤمنين...[٤] مما جعله أمير المؤمنين هارون على محمد ابن أمير المؤمنين... الخلافة، وليس لمحمد

---

(١) طمس في المخطوط. (٢) طمس في المخطوط.

(٣) سقط استدرك بهامش المخطوط بقلم غير قلم الناسخ ولم يظهر الاستدراك.

(٤) طمس في المخطوط.

ولا لعبد الله ابني أمير المؤمنين أن يخلعا. . .[١] أمير المؤمنين ولا يقدّما عليه أحداً من أولادهما وقرابتهما ولا غيرهم من جميع الرعية بعدما أفضت الخلافة إلى عبد الله ابن أمير المؤمنين، فالأمر إليه في إمضائه على ما أخذ أمير المؤمنين من العهد المقام بعده أو صرف الأمر عنه إلى من رأى من ولده أو إخوته وتقديم من أراد أن يقدم قبله وتصيير القاسم ابن أمير المؤمنين بعد من تقدّم بحكمهما له. . .[٢] فعليكم معشر المسلمين إنفاذ ما كتب به أمير المؤمنين في كتابه هذا وشرطه وأمر به. وعليكم السمع والطاعة لأمير المؤمنين فيما ألزمكم وأوجب عليكم به عبد الله ابن أمير المؤمنين وعهد الله وذمة رسول الله ﷺ، والعهود والمواثيق التي أخذ الله على الملائكة المقربين والنبيين والمرسلين ووكده في أعناق المؤمنين والمسلمين لينفذ لعبد الله ابن هارون أمير المؤمنين في حق عبد الله، والقاسم ابن أمير المؤمنين ما سمّى وكتب في كتابه هذا واشترط عليكم وأقررتم به على أنفسكم فإن بدلتم من ذلك شيئاً أو غيّرتم أو نكلتم أو خالفتم ما أمركم به أمير المؤمنين واشترطه عليكم في كتابه هذا برئت منكم ذمّة الله وذمّة رسوله محمد ﷺ وذمم أمير المؤمنين والمسلمين، وكل مال هو إليهم لكل رجل منكم أو تستفيدونها إلى خمسين سنة فهو صدقة على المساكين، وعلى كل رجل المشي إلى مكة خمسين حجّة تروا واجباً لا يقبل الله تعالى منه إلاّ الوفاء بذلك، وكل مملوك له أو يملكه إلى خمسين سنة حُرٌّ، وكل امرأة له فهي طالق ثلاثاً البتة طلاق الحرج. . .[٣] والله عليكم بذلك كفيل وراع وكفى بالله حسيباً.

نسخة الشرط الذي كتبه المأمون بخط يده في الكعبة

هذا كتاب لعبد الله بن هارون أمير المؤمنين، كتبه عبد الله ابن هارون أمير المؤمنين، في صحة من عقله، وجواز من أمره، وصدق نيته فيما كتب من كتابه/ [٤١/ب] هذا. . .[٤] من الفضل والصلاح له ولأهل بيته وجماعة المسلمين، أن أمير المؤمنين الثغور والخلافة وجميع أمور المسلمين في. . .[٤] بغداد. . .[٤] وثغور خراسان وكورها، وجميع أعمالها وشرط علي. . .[٤] فيما كان لي من الخلافة وولاية أمور العباد بعده وولاية خراسان وجميع أعمالها وشرط لي أن لا يتعرض لي في شيء مما أقطعني أمير المؤمنين وأصلح لي من الضياع والعقار، وما ابتعت من ذلك، وما أعطاني أمير المؤمنين من الأموال والجواهر والكساوي والمتاع والدواب والرقيق

---

(١) طمس في المخطوط.
(٢) طمس في المخطوط.
(٣) طمس في المخطوط.
(٤) طمس في المخطوط.

وغير ذلك، ولا يعرض لي ولا لأحد من حاشيتي وكُتّابي بسبب محاسبة، ولا يُدخل عَلَيَّ ولا عليهم ولا على من استعنت به من جميع الناس مكروهاً في نفس، ولا دم، ولا شعر، ولا بشر، ولا مال، ولا صغير من الأمور ولا كبير، فأجابه إلى ذلك وأقرَّ به وكتب له كتاباً أكّد فيه على نفسه ما عقده له ورضي به أمير المؤمنين وقبله، وعرف له صدق نيته فيه، فشرطت لأمير المؤمنين وجعلت على نفسي أن أسمع لمحمد وأطيع، ولا أعصيه، ولا أغشه، وأن أوفي ببيعته وولايته، ولا أغدر، ولا أنكث، وأنفذ كُتبه، وأموره، وأن أحسن مؤازرته وجهاد عدوه في ناحية ما وفّى لي بما شرط لأمير المؤمنين ورضي به أمير المؤمنين، ولم ينقض أمراً من الأمور التي شرطها أمير المؤمنين لي عليه، فإن احتاج محمد ابن أمير المؤمنين إلى جند وكتب لي يأمرني بإشخاصهم إليه أو إلى ناحية من نواحيه أو إلى عدو خالفه فأراد نقض شيء من سلطانه أو مماطلة الذي أسنده أمير المؤمنين إليه وولاّه إياه، فعلي أن أنفذ أمره ولا أخالفه، ولا أقصر في شيء كتب إليّ به، وأراد محمد أن يُوَلّي من ولده العهد والخلافة بعدي فذلك له إن. . .[1] جعله أمير المؤمنين إليَّ واشترطه عليه وشرطه على نفسه في أمري وله. . .[1] عليّ الوفاء به لا أنقض ذلك، ولا أغيّره، ولا أبدّله، ولا أقدم قبله أحداً من ولدي ولا قريباً ولا بعيداً من الناس أجمعين، أن يولي أمير المؤمنين هارون أحداً من أولاه العهد من بعدي فليس مني ومحمد [إلاّ][2] الوفاء، وجعلت لأمير المؤمنين وعداً عليّ الوفاء به بما اشترطت وسميت في كتابي هذا ما [١/٤٢] وفّى لي محمد بجميع ما اشترط/ لي أمير المؤمنين عليه في نفسي، وما أعطاني أمير المؤمنين من جميع الأمور والأعطيات في هذا الكتاب الذي كتبه لي. وعليّ عهد الله وميثاقه، وذمّة رسول الله ﷺ، وذمّة المؤمنين، وأشد ما أخذ الله على النبيين والمرسلين من عهده ومواثيقه والأيمان المؤكدة التي أمر الله بالوفاء بها. . .[3] إن أنا نقضت شيئاً مما شرطت وسميت في كتابي هذا أو غيّرته أو بدّلته فقد برئت من الله ومن ولايته ودينه، ومن آل محمد رسول الله ﷺ، ولقيت الله يوم القيامة كافراً مشركاً، وكل امرأة اليوم هي لي أو أتزوجها إلى ثلاثين سنة طالق ثلاثاً البتة طلاق الحرج، وكل مملوك لي اليوم أو أملكه إلى ثلاثين سنة هو حرّ لوجه الله، وعليَّ المشي إلى بيت الله الحرام الذي بمكة ثلاثين حجّة نذراً عليّ في عنقي حافياً راجلاً لا يقبل الله مني إلا الوفاء بذلك، وكل مال لي أو أملكه إلى ثلاثين سنة هو بالغ للكعبة، وكل ما جعلت لأمير المؤمنين وشرطت في كتابي هذا لازم لي لا أصير إلى غيره ولا أنوي سواه.

---

(١) طمس في المخطوط. (٢) زيادة يتطلّبها السياق. (٣) طمس في المخطوط.

شهد سليمان ابن أمير المؤمنين، وفلان وفلان.

وكتب في ذي الحجة سنة سبع وثمانين ومائة.

ونسخة كتاب هارون الرشيد إلى العمال

أما بعد، فإن الله ولي [أمير][1] المؤمنين وولي ما ولآه، والحافظ لما استرعاه، والمُنعم عليه بالنصر والتأييد في مشارق الأرض ومغاربها، والكالىء والحافظ والكافىء من جميع خلقه، وهو المحمود على جميع آلائه، المسؤول تمام أحسن ما مضى من قضائه لأمير المؤمنين عنده والقيام بما يرضي ويوجب له أحسن المزيد، وقد كان من نعمة الله عند أمير المؤمنين وعندك وعند عوام المسلمين ما ولّى الله من محمد وعبد الله ابني أمير المؤمنين بتبليغه بما أحسن ما أملت الأمة وقدمت إليه أعناقها، وقذفه الله تعالى في قلوب العامّة من المحبة والمودة والسكون إليهما والثقة بهما...[2] أمورهم وجميع أمورهم وجمع إلفتهم وصلاح دنياهم، ودفع المكروه والشتات والفرقة عنهم حتى ألقوا إليهما أزمتهم وأعطوهما بيعتهم وصفقة أيمانهم بالعهود والمواثيق، وتوكيد الأيمان المغلظة عليهم ما أراده الله، فلم يكن مكره وأمضاه فلم يؤكده أحد من العباد/...[1] ولا صرفه عن محبته ومشيئته وما سبق في [٤٢/ب] علمه كافة ولا ناقض لأمره، ولا معقّب لحكمه، ولم يزل أمير المؤمنين منذ اجتمعت الأمة على عقد البيعة لأمير المؤمنين ومن بعد أمير المؤمنين ولعبد الله ابن أمير المؤمنين من بعده، ورأي أمير المؤمنين يجعل رأيه وفكرته ورؤيته فيمن يظن فيه الصلاح لنا ولجميع الرعية، والجمع للكلمة واللمّ للشعث والدّفع للشتات والفرقة، والحسم لكيد أعداء المسلمين لسلِ الكفر والنفاق والغل والشقاق، والقطع لآمالهم من كل فرصة يأملون إدراكها وانتهازها منه بانتقاض حقها، ويستخير الله أمير المؤمنين في ذلك وتحمله العزيمة على ما فيه الخيرة لنا ولجميع المسلمين، والعزّة والمروءة باختلاف أحوالها، وإصلاح ذات البين بينها، وتحصينها من كيد أعدائها ومكرهم وبغيهم وسعيهم بالفساد، فعزم...[3] لأمير المؤمنين على...[1] البيعة منهما لأمير المؤمنين بالسماع والطاعة لأمره، واكتتاب الشرط على كل واحد منهما لأمير المؤمنين ولنا بأشدّ المواثيق والعهود وأغلظ الأيمان والتوكيد، ولا حل لكل واحد منهما على صاحبه بما التمس به أمير المؤمنين لإجماع الفقهاء وتواصوا وتواصلهما ومؤازرتهما ومكافأتهما على حسن النظر لنفسهما ولرعية أمير المؤمنين التي استرعاهما، الجماعة لدين وكتابه وسنن نبيه ﷺ، والجهاد لعدوّ المسلمين من كانوا وحيث كانوا لقطع طمع كل عدوّ مظهر العداوة ومبذلها، وكل منافق ومراءٍ وأهل

---

(١) زيادة يتطلّبها السياق. (٢) طمس في المخطوط. (٣) كلمة لم أتبين قراءتها.

الأهواء الضالّة المضلّة من فرقة تكيد بكيد توقعه بينهما، ودحرٍ تَدْحَرُ به لهما، وما يلتمس لهما أعداء المنعم وأعداء دينه من الضرّ بين الأمة والسعي بالفساد فيها، والدعاء إلى البدع والضلالة، وقد نظر أمير المؤمنين لدينه ورعيته ولرسول الله ﷺ، ومناصحته لله ولرسوله ولجميع المسلمين، وذبّاً عن سلطان الله التي حَمَّلَهُ إياها واجتهاداً لكل ما فيه قربة إلى الله، وما يُنال به رضوانه والوسيلة عنده.

[٤٢/أ] فلما قدم لمكة أظهر لمحمد، وعبد الله رأيه في ذلك وما/ نظر لهما، فقبلا كل ما نواهما إليه من التوكيد على أن يضعا بيعتهما بأمر أمير المؤمنين في بطن بيت الله الحرام بخطوط أيديهما. . .[١] أمير المؤمنين وقوله، وصحابته، وقضاته، وحجبته. . .[١] كتابين استودعهما أمير المؤمنين الحجبة، وأمر بتعليقهما في داخل الكعبة. . .[٢] أمير المؤمنين من ذلك كله في داخل بيت الله الحرام وبطن الكعبة، وأمر قضاته الذين شهدوا عليها وحضروا كتابهما أن يعلموا جميع من حضر الموسم من الحاج، والعلماء، وقوّاد الأمصار، ما شهدوا عليه من شرطهما وكتابهما وقراءة ذلك عليهم ليعرفوه، ويحفظوه، ويؤدوه إلى إخوانهم وأهل بلدانهم وأمصارهم. ففعلوا ذلك، وقرأوا عليهم الشرطان جميعاً في المسجد الحرام.

فانصرفوا وقد شهدوا عليهم بذلك، وأثبتوا الأشعار عليه، وعرفوا نظر أمير المؤمنين وعنايته بصلاحهم، وحقن دمائهم، ولمّ شعثهم، وإطفاء جمرة أعداء الله وأعداء دينه وكتابه وجماعة المسلمين. . .[٣] فأكثروا الدعاء لأمير المؤمنين والشكر لما كان منه في ذلك، وقد نسخ لك أمير المؤمنين ذينك الشرطين اللذين كتبهما لأميري المؤمنين: محمد وعبد الله في بطن الكعبة في أسفل كتابه هذا، فأحمد الله على ما صنع لمحمد وعبد الله وليي عهد المسلمين حمداً كثيراً، وأشكره ببلائه عند أمير المؤمنين وعند وليي عهد المسلمين وعندك وعند جماعة أمة محمد ﷺ وعلى آله كثيراً.

واقرأ كتاب أمير المؤمنين على من قبله، وأفهمهم إيّاه، وقم به بينهم وأثبته في الديوان قبلك، واكتب لأمير المؤمنين بما يكون في ذلك إن شاء الله.

وحسبنا الله ونعم الوكيل، وبه الحول والقوّة والطول.

وكتب إسماعيل بن صبيح يوم السبت لسبع بقين من المحرّم، سنة ست وثمانين ومائة[٤].

---

(١) طمس في المخطوط.
(٢) طمس في المخطوط.
(٣) طمس في المخطوط.
(٤) ثم جاء بعد هذا بيتان من الشعر لإبراهيم الموصلي غير مقروءة كلماتهما وبهما تنتهي صفحة [٤٣/أ].

ويُذكر أن العهود أمر بها/ فعلقت بالبيت الحرام من مكة. [٤٣/ب]

...[١] وأخبار هارون الرشيد كثيرة وشهيرة...[١] وحكي...[١] أنه من أهل الجنة، واستفتى العلماء في ذلك، فلم يُفْتِهِ أحد أنه من أهلها، فأرسل إلى ابن السمّاك، القاضي الكوفي، فاستحضره وسأله، فقال: قدر أمير المؤمنين على معصية فتركها خوفاً من الله؟

قال: نعم.

قال: لبعض الناس جارية، فعلقت بها وأنا شاب، فلما ظفرت بها، فكّرت في أن الزنى من الكبائر، وخفت من النار، فكففت عنها.

فقال له ابن السماك: أبشر يا أمير المؤمنين، فإنك من أهل الجنة.

فقال هارون: ومن أين أخذته؟

فقال من قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النّازعات: الآيتان ٤٠، ٤١].

فسُرّ الرشيد، وأجزل صلته. وهذا في باب الرجاء.

وكانت وفاة الرشيد بطوس، نصف ليلة السبت، لثلاث خلون من جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين ومائة[٢].

---

(١) طمس في المخطوط.

(٢) قال ابن الأثير في الكامل في ذكره لموت هارون الرشيد: مات أول جمادى الآخرة لثلاث خلون منه، وكانت اشتدت علّته بالطريق بجرجان، فسار إلى طوس فمات بها. قال جبرائيل بن بختيشوع: كنت مع هارون الرشيد بالرّقة، وكنت أول من يدخل عليه في كل غداة أتعرف حاله في ليلته، ثم يحدّثني وينبسط إليّ، ويسألني عن أخبار العامة. فدخلت عليه يوماً، فسلمت عليه، فلم يكد يرفع طرفه، ورأيته عابساً مفكّراً مهموماً، فوقفت ملياً من النهار وهو على تلك الحال، فلما طال ذلك أقدمت فسألته عن حاله، وما سببه؟ فقال: إن فكري وهمّي لرؤيا رأيتها في ليلتي هذه قد أفزعتني، وملأت صدري.

فقلت: فرّجت عني يا أمير المؤمنين، ثم قبّلت يده، ورجله، وقلت: الرؤيا إنما تكون لخاطر أو بخارات رديئة، وتهاويل السوداء، وهي أضغاث أحلام. قال: فإني أقصها عليك، رأيت كأني جالس على سريري هذا إذ بدت من تحتي ذراع أعرفها، وكفٌ أعرفها لا أفهم اسم صاحبها، وفي الكفّ تربة حمراء. فقال لي قائل أسمعه ولا أرى شخصه: هذه التربة التي تدفن فيها. فقلت: وأين هذه التربة؟ قال: طوس وغابت اليد، وانقطع الكلام. قلت: أحسبك لما أخذت مضجعك فكرت في خراسان، وما ورد عليك منها، وانتقاض بعضها، فذلك الفكر أوجب هذه الرؤيا. قال: كان ذلك. قال: فأمرته باللهو والانبساط، ففعل ونسينا الرؤيا، وطالت الأيام، ثم سار إلى خراسان لحرب رافع، فلما صار ببعض الطريق ابتدأت به العلّة، فلم تزل تزيد حتى دخلنا طوس، فبينا هو يُمرض في بُستان في ذلك القصر الذي هو فيه إذ ذكر تلك الرؤيا، فوثب متحاملاً يقوم ويسقط، =

دولة محمد الأمين بن هارون الرشيد[١]

وكنيته أبو موسى، وقيل: أبو عبد الله. وكان أبوه كما ذُكر قد عقد له ولاية العهد، وأخذ له البيعة على جميع الناس بالأمر بعده، ولقّبه بالأمين وهو ابن خمس سنين، خاصة بعد أن عقد له ذلك الفضل بن يحيى بن خالد بخراسان، وقيل في ذلك:

أقمت بمرو على التوفيق قد ضعفت ... على يد الفضل أيدي العجم والعرب
ببيعة لولي العهد حكمها ... بالنصح منه وبالإشفاق والحرب
.........[٢] عقداً لا انقضاض له ... لمصطفى من بني العباس منتخب

وكان الأمين هذا ملكاً جليلاً أصيلاً، إلاّ أنه ذهب في الراحة والاستغراق في الشهوات كل مذهب[٣]. وفي السنة الأولى من ولايته حلّ ما عقده أبوه بينه وبين

= فاجتمعنا إليه نسأله. فقال: أتذكر رؤياي بالرقة في طوس؟ ثم رفع رأسه إليّ مسروراً فقال: جئني من تربة هذه البستان. فأتاه بها في كفّه حاسراً عن ذراعيه. فلما نظر إليه قال: هذه والله الذراع التي رأيتها في منامي، وهذه الكفّ بعينها، وهذه التربة الحمراء ما خرمت شيئاً. وأقبل على البكاء والنحيب، ثم مات بعد ثلاثة.

(١) مصادر ترجمته: سير أعلام النبلاء (٩/ ٣٣٤)، تاريخ الخلفاء (٢٩٧)، تاريخ الطبري (٨/ ٣٦٥)، تاريخ بغداد (٣/ ٣٣٦)، دول الإسلام (١/ ١٢٤)، البداية والنهاية (١٠/ ٢٢٢)، شذرات الذهب (١/ ٣٥٠)، الوافي بالوفيات (٥/ ١٣٥)، العبر (١/ ٣٣٥)، الكامل في التاريخ من سنة ست وثمانين ومائة إلى سنة ثمان وتسعين ومائة، رسالة أسماء الخلفاء والولاة (ص ١٢٦).
ومما ترجم له به الذهبي في سير أعلام النبلاء أن قال: أمه زبيدة بنت الأمير جعفر بن المنصور، عقد له أبوه الخلافة وكان مليحاً، بديع الحسن، أبيض، وسيماً، طويلاً، ذا قوة وشجاعة، وأدب وفصاحة، ولكنه سيىء التدبير، مفرط التبذير، أرعن لعّاباً، مع صحة إسلام ودين. يقال: قتل مرة أسداً بيديه. قال أحمد بن حنبل: إني لأرجو أن يرحم الله الأمين بإنكاره على ابن عُلَيَّة، فإنه أدخل عليه، فقال له: يا ابن الفاعلة، أنت الذي تقول: كلام الله مخلوق؟ قال الذهبي: ولم يصرّح بذلك ابن علية، حاشاه، بل قال عبارة تُلزِمُه بعض ذلك.

(٢) طمس في المخطوط.

(٣) قال ابن الأثير في الكامل في ذكره خلافة الأمين: بُويع الأمين بالخلافة في عسكر الرشيد صبيحة الليلة التي توفي فيها الرشيد. وكان المأمون حينئذ بمرو، فكتب حمويه مولى المهدي صاحب البريد إلى نائبه ببغداد ـ وهو سلام أبو مسلم ـ يعلمه بوفاة الرشيد، فدخل أبو مسلم على الأمين فعزّاه، وهنّاه بالخلافة، فكان أول الناس فعل ذلك. وكتب صالح بن الرشيد إلى أخيه الأمين يخبره بوفاة الرشيد، مع رجاء الخادم، وأرسل معه الخاتم، والقضيب، والبردة. فلما وصل رجاء انتقل الأمين من قصره بالخلد إلى قصر الخلافة. وصلّى بالناس الجمعة، ثم صعد المنبر، فنعى الرشيد وعزّى نفسه، والناس، ووعدهم الخير، وأمّن الأبيض والأسود، وفرّق في الجند الذين ببغداد رزق أربعة وعشرين شهراً، ودعا إلى البيعة، فبايعه جلّة أهل البيت، وكل عمّ أبيه، وأمر سليمان بن المنصور بأخذ البيعة على القوّاد وغيرهم، فأمر السندي أيضاً بمبايعة من عداهم.

أخيه المأمون، وتجنّى عليه، وبايع لابنه موسى، وسمّاه: الناطق بالحق ـ وهو لا ينطق، ولا يعقل، طفل في خمس سنين ـ وخصّه بعلي بن عيسى، وولاّه العراق، وأخذ له البيعة بمكة/ والمدينة على خواصّ الناس. [٤٤/أ]

وجعل على شرطته محمد بن عيسى بن نهيك، . . .[١] عثمان بن عيسى بن نهيك أخاه، وعلى خراجه عبد الله ابن. . .[١].

ووجّه إلى مكة رسولاً جاءه بالكتابين اللذين كان الرشيد كتبهما وعلّقهما بالكعبة.

ولما اتّصل الخبر بالمأمون، نابذه، وأقلع عليه الحجّة، وخالفه بخراسان، ودعا إلى نفسه، وقدم طاهر بن الحسين قائده لمطالعة الأمر، وأخرج إليه الأمين العساكر مع علي بن عيسى بن ماهان، فظفر به طاهر وقتله، واستولى على عساكره.

وقدم على بغداد، فحاصر بها الأمين، وشدّ خناقه إلى أن كان من أمره ما يُنكر أن. . .[٢]. وبلغ محمد الأمين من إيثار اللهو، وترك ضروريات الخلافة، والاستغراق في السخف والشراب للغاية التي لا شيء وراءها حسبما تقرّر في كتب التاريخ، فلينظره هناك من أراده.

وحكي عنه: أن مدبّر أمره دخل عليه وقد اشتدّ به الأمر. . .[١] يُفاوضه في مهمة، فألفاه مغموماً محزوناً، ورام أن يلقي إليه ما عنده في أمر. . .[١] والمُحَاصِر للحضرة.

فقال: إليك عني، فإني قد ذهبت مُقَرّطتي ـ وكانت المقرطة سمكة قد اتخذ لها قرطاً من ذهب فيه حجر نفيس من الياقوت ـ ففقدها ولم يجدها، فطلبها طيلة يومئذ، فعلم أنه لا يفلح.

وكانت وفاته بأيدي رجال طاهر بن الحسين، لخمس بقين من المحرّم سنة ثمان وتسعين ومائة[٣].

---

(١) طمس في المخطوط. (٢) طمس في المخطوط.

(٣) قال صاحب الكامل في ذكره لصفة الأمين وعمره وولايته: قيل: إن محمداً ولي يوم الخميس لإحدى عشرة ليلة بقيت من جمادى الأولى سنة ثلاث وتسعين ومائة. وقتل ليلة الأحد لست بقين من المحرم سنة ثمان وتسعين ومائة. . . وأمه زبيدة بنت جعفر الأكبر ابن المنصور. وكانت ولايته في النصف من جمادى الآخرة، وكان عمره ثمانياً وعشرين سنة. وكان سبطاً أنزع صغير العينين، أقنى جميلاً طويلاً عظيم الكراديس، بعيد ما بين المنكبين، وكان مولده بالرصافة.
ولما وصل خبر قتله إلى المأمون أذن للقوّاد، وقرأ الفضل بن سهل الكتاب عليهم، فهنؤوه بالظفر ودعوا له. وكتب إلى طاهر وهرثمة بخلع القاسم المؤتمن من ولاية العهد فخلعاه في شهر ربيع الأول من هذه السنة. وأكثر الشعراء في مراثي الأمين وهجائه.

وتتابع لعهد قريب من هذه الدولة العباسية وهي المختصة بعنوان الملّة، وريعان العزّة، واحتفال الوقت بفضلاء ما لملّة تقليداً خالفه أربعة تنافسوا في تقلّد عهد المسلمين بحال الصغر والطفولة والغلامية، والبعد عن زمن الاحتلام، والخلوّ التام عن الشروط المعتبرة.

وكان. . .[1] عقد عهدهم على من ينوب عنهم في أمور المسلمين، وكان على الأقطار التي أخذت فيها على الناس الخاصة والعامة وجُلي عليهم. . .[1] النظر أو أخطأ في جماعتي العلماء والفقهاء والمحدّثين بحور زاخرة، وأعلام فاخرة، ورؤساء دنيا وآخرة، مثل أحمد بن أبي داود قاضي بغداد الشهير بالفضل والجود/ . . .[1]، [٤٤/ب] وهو أحد أصحاب أبي يوسف القاضي. ولي القضاء زمن المنصور، وحمل الناس عنه الفقه والمسائل. . .[1] وولي قضاء أقطار من العمار، وأخذ عنه الإمام أحمد والحسن بن عطية بن سعد بن جنادة.

حدّث عن أبيه، وعن الأعمش، وكان من قضاة العدل، وحفص بن عبادة بن طلق، سمع القواريري، وهشام بن عمر، والأعمش، وكان كثير الحديث، ثقة، ثبتاً، ولي القضاء ببغداد ثم الكوفة، وقال: والله ما توليت القضاء حتى حلّت لي الميتة.

وذكر أنه مرض خمسة عشر يوماً، فرد رزقها على العامل وقال: لا حق لي في هذا.

وسليمان بن حرب أبو أيوب الأزدي، سمع شعبة، وجرير بن حازم، وولي قضاء بغداد.

وسعيد بن عبد الرحمٰن بن عبد الله المديني، سمع هشام بن عروة وغيره، وولي قضاء بغداد.

وسوار بن عبد الله بن سوار، حدّث عن المعتمر ويحيى بن القطان وغيرهما، وولي قضاء بغداد وهو مشهور في قدماء القضاة.

وشريك بن عبد الله النخعي، سمع المعتمر، وروى عنه ابن المبارك، ووكيع، وولي قضاء الكوفة، وله حكايات في الصلابة على الملوك وإنفاذ أحكام الشرع على أوليائهم.

وصالح بن أحمد بن محمد بن حنبل مع أبيه، وكان ثقة صدوقاً، زاهداً، صالحاً، وولي قضاء أصبهان.

ومنهم عبد الرحمٰن بن زياد بن أنعم الإفريقي، روى عنه الثوري، وابن لهيعة،

(١) طمس في المخطوط.

وولي القضاء بإفريقية.

ومنهم عبد الله بن الحسين العنبري، سمع خالد الحذّاء، وداود بن أبي هند، وولي القضاء ببغداد.

وعمر بن حبيب العمروي، حدّث عن أبي داود وخالد الحذاء، وهشام بن عروة، وولي قضاء البصرة، وبغداد.

وعلي بن محمد بن علي الدامغاني، قاضي القضاة، ابن قاضي القضاة، سمع من أبي يعلى، وأبي بكر الخطيب وغيرهم.

وعلي بن ضبيان أبو الحسن العبسي، حدّث عن إسماعيل بن أبي خالد، وعبد الملك بن سليمان، وولي/ قضاء القضاة في زمن الرشيد. [I/45]

والقاسم بن سلاّم أبو عيسى، روى عن...[1]، والأصمعي، وابن الأعرابي، والكسائي.

ومحمد بن عبد الله بن علافة، روى عن الأوزاعي، وروى عنه ابن المبارك، ووكيع وقضاة بغداد.

ومحمد ابن...[2] حدّث عن الليث بن سعد، وأبي يوسف، وغيرهما، وتولى...[3] والقضاء، وكان يصلي في كل يوم مائة ركعة.

ومحمد بن عبد الله بن المثنى بن أنس بن مالك، سمع مالك بن دينار، وولي القضاء أيام الرشيد.

ويحيى بن زكريا بن أبي زائد أبو سعيد، سمع أبا هشام بن عروة، وولي القضاء بالمدائن.

ويحيى بن أكثم قاضي القضاة في أيام المأمون، سمع ابن المبارك، وسفيان بن عيينة، ويعقوب بن إبراهيم أبا يوسف القاضي، سمع الأعمش وأبا إسحاق الشيباني، وهشام بن عروة، وهو أول من دُعي بقاضي القضاة في الإسلام.

ومحمد بن أبي عمر أبو نصر القاضي، ولي القضاء ببغداد في حياة أبيه وبعد وفاة أبيه.

ومن القرّاء والعلماء

إسماعيل بن إبراهيم الزبيري الأسدي أبو علي، يُذكر أنه لم يضحك قط، وكان من كبار الحفّاظ العلماء.

---

(١) طمس في المخطوط. (٢) طمس في المخطوط. (٣) طمس في المخطوط.

وإسحاق بن يوسف بن محمد الأزرق، سمع الثوري، والأعمش، وشريكاً.

وآدم بن أبي إياس، وكان صالحاً. له حديث عن سعيد، والليث بن سعد، وحماد بن سلمة، وخالد بن عبد الله الواسطي، روى عن وكيع، وابن مهدي، وعفان، ورواح بن عُبادة بن العلاء.

وأبو محمد القيسي، سمع من جُريج والأوزاعي، ومالك وشعبة، وزهير بن حرب، وأبي خيثمة، وسعية بن الحجاج بن الورد، وأبو...(١) العتكي.

وعبد الله بن إدريس بن يزيد الأزدي، سمع الأعمش ومالك بن أنس، وشعبة، وسفيان الثوري، وعبد الله بن محمد بن عبد الله بن جعفر أبو جعفر الجعفي.

وعبد الله بن محمد بن إبراهيم بن أبي شيبة، سمع شريكاً وسفيان، وهُشيم الوائلي، وروى عنه أحمد بن حنبل، والبغوي، وعبد الله بن سفيان، أبو بكر...(١) وعبد الأعلى بن مسهر بن مسهد الدمشقي.

وعيسى بن يونس بن أبي إسحاق...(٢) الأعمش، وخلف، وحدّث ببغداد.

وعلي بن عبد الله بن جعفر بن نجيح، روى عنه الإمام أحمد بن حنبل.

وعاصم بن الحسن بن محمد أبو الحسن القاضي، سمع أبا مهدي، وأبا [٤٥/ب] مهدي، وأبا الحسين ابن...(١) وعفان/بن مسلم الثقة. روى عن أبي خيثمة والبخاري.

والفضل بن دكين، سمع الأعمش، ووكيع، وسفيان الثوري، ومالكاً، وشعبة، ومحمد بن إسماعيل يوسف الترمذي...

و(٣)... كوفي سمع أبا إسحاق الشعبي، وعبد الملك بن عمير، والأعمش، و...(١)، والبخاري، ومسلم.

ووكيع بن الجراح، سمع إسماعيل بن أبي خالد...(١) وروى عنه ابن المبارك وقتيبة، وهاشم بن قاسم الكناني، سمع شعبة، وسفيان، روى عنه أبو خيثمة.

والهياج بن بسطام الهروي، سمع يونس ابن...(١)، وداود بن أبي هند، وابن عون، وإسماعيل بن أبي خالد، وليث بن أبي سليم في خلق كثير، وقدم بغداد وحدّث بها، واجتمع عليه مائة ألف.

وهشيم بن بشير أبو معاوية الواسطي، سمع عمر بن دينار، ويونس، والزهري، روى عنه مالك والثوري.

---

(١) طمس في المخطوط. (٢) طمس في المخطوط. (٣) طمس في المخطوط.

ويحيى بن أبي زكريا بن زائدة، حدّث عن يحيى بن سعيد الأعمش وغيرهم، حدّث عنه الإمام أحمد بن حنبل...[1] والفقهاء وتاج الزاهدين والأولياء. كان حافظاً للقرآن عالماً بظاهر كتاب الله تعالى وباطنه، إماماً في الحديث والفقه والعربية وغير ذلك من العلوم التي لم يجتمع لغيره من الأئمة، وقدر على الفقر والتقلل على ما لم يقدر عليه غيره. وردّ من الأموال على ما أحصي خمسين ألفاً، وصبر على ما ناله من النكال في جانب الله والوقوف مع الحق بما هو معروف.

وقد دوِّنت الكتب في فضائله.

وربيعة بن عبد الرحمٰن، سمع أنس بن مالك، وعامّة التابعين.

وروى عنه مالك، وشعبة والليث بن سعد، وعبد العزيز بن سلمة الماجشون، وكان فقيهاً عالماً، سمع الزهري، وابن المنكدر، وأبا حازم في خلق كثير.

ومحمد بن إدريس بن العباس الإمام الشافعي، وحسبك به مفخرة ملّة الإسلام، وإمام الأئمة الأعلام قاطبة، وكتبة بها العلم.

سمع مالك بن أنس، وإبراهيم بن سعد...[2]، وحفظ الحديث وهو ابن سبع سنين. وروى عنه أحمد بن حنبل، وسليمان بن داود الهاشمي، وأبو ثور.

ورأى في منامه علي بن أبي طالب يُسَلِّم عليه ويصافحه، وخلع خاتمه فجعله في إصبعه.

ففسرت له بأن مصافحته لك/ أمان من العذاب، وإنما خلع خاتمه وجعله في [٤٦/أ] إصبعك لتبلغ أمرك من أمّة محمد ما بلغ من أمرها في المشرق والمغرب.

وأفتى وعمره خمس عشرة سنة، وكان يحيي الليل، وكان مع ذلك كثير التلاوة، يختم القرآن كل يوم ختمة.

قال إسحاق بن راهويه:...[3]، وقال: تعال أذهب بك إلى من لم تر عيناك مثله، فذهب به إلى الشافعي...[1]. وتوفي رضي الله عنه بمصر، وقد بُلغ به من الإشادة والتعظيم ما ليس وراءه مبلغ.

ويذكر أن بعض المغاربة من المالكية وقّعه على مكتوب بتربة الإمام الشافعي فيه من إطراء الإمام وأوصافه، فكتب تحته: ولِمَ لا يكون كذلك وشيخه مالك.

وأنشدني الشيخ الخطيب، رئيس الطائفة أبو عبد الله بن مرزوق أبياتاً ليس على نظم المشارقة في مدح الإمام الشافعي والثناء، ذكر أنها مما كتب ببعض مشاهده، وهي بعد بسم الله الرحمٰن الرحيم:

---

(١) طمس في المخطوط. (٢) طمس في المخطوط. (٣) طمس في المخطوط.

الشافعي إمام الناس كلهم في العلم والحلم والطلاب والناس
أصحابه خير أصحاب ومذهبه خير المذاهب عند اللّه والناس
له الإمامة والدنيا مسلّمة كما الخلافة في أولاد عباس

فأجابه عن ذلك مغيّراً على المغربي الشاطر المتقدّم الذكر:

كفاك فضلاً أن امتاحت معارفه[1]

وعلي بن حمزة الكسائي المقرىء الإمام. وعمر بن عثمان بن قنبر. . .[2] المعروف بسيبويه.

ويحيى بن زياد، ويحيى بن المبارك.

ومن الصوفية

الشيخ أبو سعيد الخراز، وأسود بن سالم صاحب معروف، وبشر الحافي. . .[2]، وأبو نصر الموصلي، ومعروف الكرخي.

[٤٦/ب] ولو وقع الانتقاص لم. . ./ . . .[3] دون التبرّك بهم في العهود الملوكية والاستخلافات الخلافية، ولم تنقل التواريخ عنهم حكاية في إنكار ما وقع على عهد من تقدم ذكره[4].

دولة المأمون بن الرشيد

ولما فرغ. . .[5] محمد الأمين، قَدِمَ أخوه المأمون بغداد، وكنيته أبو العباس. . .[6] أبو جعفر، وهو ابن ثمان وعشرين سنة[7].

---

(١) فذكرا خمسة أبيات ذكرت السطر الأول منها لإصابة معظم كلمات القصيدة بطمس، ومآثر الشافعي رحمه الله تعالى وفضائله كثيرة فاكتفيت بتلك الإشارة.

(٢) طمس في المخطوط.

(٣) طمس في المخطوط.

(٤) لم أحب أن أترجم لهؤلاء الأعلام الذين ذكرهم من أهل القرآن، والقراءات، والحديث، واللغة، والفقه، والزهد، لكثرتهم واشتهارهم، وحتى لا يطول الكتاب أو التعليق عليه.

(٥) موضع النقط طمس بالمخطوط.

(٦) في سير الأعلام: كنيته أبو العباس، فلما استخلف اكتنى بأبي جعفر.

(٧) من مصادر ترجمته: تاريخ اليعقوبي (٣/ ١٧٢)، الأخبار الطوال (٤٠٠)، تاريخ الطبري (٨/ ٤٧٨)، مروج الذهب (٢/ ٢٤٧)، تاريخ بغداد (١٠/ ١٨٣)، البداية والنهاية (١٠/ ٢٤٤)، النجوم الزاهرة (٢/ ٢٢٥)، تاريخ الخلفاء (٣٠٦)، شذرات الذهب (٢/ ٣٩)، فوات الوفيات (٢/ ٢٣٥)، سير أعلام النبلاء (١٠/ ٢٧٢)، تاريخ الخميس (٢/ ٣٣٤) وغير ذلك.

=

كان له بصر بالعلوم العقلية، طلبها وطلب الحديث وكتبه، وحضر مجلس مالك.

حدّث يحيى بن أكثم قال:

كنت عنده ليلة . . .[١].

فقال: يا يحيى، انظر أي شيء تحت رجلي؟ فنظرت، فلم أرَ شيئاً، فدعا بالشمع فتبلّد الفراشون، وقال: انظروا . فإذا تحت الفراش حيّة.

فقلت: قد انضاف إلى كمال أمير المؤمنين علم بالغيب.

فقال: معاذ الله، ولكن، هتف بي هاتف وأنا نائم الساعة، فقال:

يا راقد الليل انتبه إن الخطوب لها سُرَا

. . . . بزمانه ثقة مُحلله الغُرَا

فانتبهت، فعلمت أنه قد حدث أمر إما قريب أو بعيد، فتأملت فكان ما رأيت.

وكان المأمون رحمه الله من عقود الدولة العباسية بمنزلة، يرجع إلى علم وثيق المعاقد، والحلم، كريم المشاهد.

وكان يتشيع إلى علي رضي الله عنه، وكلّمه العباسيون في ذلك فقال لهم:

ولي الأمر قبلي عبد الله بن العباس البصرة، وولي عبيد الله بن العباس اليمن، وولي قثم بن العباس مكة.

وصيّر الخلافة من بعده إلى علي بن موسى وزوّجه ابنته أم حبيبة، وأختها أم الفضل، ولده محمود بن علي بن موسى، ورأى العباس ذلك.

وأشاروا على عمه إبراهيم بن المهدي بن المنصور بالدعاء لنفسه، وقد رحل المأمون في بعض تحركاته عن بغداد، فتمت بيعته، وخطب الناس، ودعوه المبارك.

= ومما ترجم له به الذهبي في سير أعلام النبلاء أن قال: ولد سنة سبعين ومائة. قرأ العلم والأدب والأخبار والعقليات، وعلوم الأوائل، وأمر بتعريب كتبهم، وبالغ، وعمل الرّصد فوق جبل دمشق، ودعا إلى القول بخلق القرآن وبالغ، نسأل الله تعالى السلامة . . . وكان من رجال بني العباس حزماً وعزماً ورأياً وعقلاً وهيبة وحلماً ومحاسنه كثيرة في الجملة.

وقال ابن أبي الدنيا: كان أبيض، ربعة، حسن الوجه تعلوه صفرة، وقد خطه الشيب، وكان طويل اللحية، أعين، ضيق الجبين، على خده شامة. أتته وفاة أبيه وهو بمرو، سائراً لغزو ما وراء النهر، فبايع من قِبَلَهُ لأخيه الأمين، ثم جرت بينهما أمور وخطوب وبلاء وحروب تُشيب النواصي إلى أن قُتِلَ الأمين، وبايع الناس المأمون في أول سنة ثمان وتسعين ومائة.

(١) طمس في المخطوط.

ثم كرّ المأمون إلى بغداد، فقلع إبراهيم واختفى وقبض عليه وحبسه ورجع بعد إليه وعفا عنه ونادمه[١].

وهذه من مستغربات قصص الحلم.

ولإبراهيم في ذلك أشعار كثيرة منها، وقد وقفت بين يديه:

نعم ذنبي إليك عظيم وأنت أعظم منه

[1/47] / فخذ بحقك أو لا فاصفح بصفح الله عنه

إن لم أكن في فعالي من الكرام فكن......[٢]

فقال المأمون: القدرة تُذهِبُ الحفيظة، والندم توبة، عفوت عنك لا تثريب عليك، يغفر الله لك، وعفا عنه، وأمر بردّ ماله وضياعه إليه[٣]، وفي هذا يقول

---

(١) قال ابن الأثير في الكامل في ذكر بيعة إبراهيم بن المهدي سنة (٢٠٢): في هذه السنة بايع أهل بغداد إبراهيم بن المهدي بالخلافة ولقّبوه المبارك، وكانت بيعته أول يوم من المحرم، وقيل: خامس، وخلعوا المأمون، وبايعه سائر بني هاشم، فكان المتولي لأخذ البيعة المطلب بن عبد الله بن مالك، فكان الذي سعى في هذا الأمر السندي وصالح صاحب المصلى، ونصير الوصيف وغيرهم غضباً على المأمون حين أراد إخراج الخلافة من ولد العباس، ولتركه لباس آبائه من السواد.

(٢) طمس في المخطوط.

(٣) وقال ابن الأثير أيضاً في الكامل في أحداث سنة (٢١٠) في ذكر ظفر المأمون بإبراهيم بن المهدي: وفي هذه السنة في ربيع الأول أخذ إبراهيم بن المهدي وهو متنقب مع امرأتين وهو في زيّ امرأة أخذه حارس أسود ليلاً، فقال: من أين أنتن وأين تُرِدْنَ هذا الوقت؟ فأعطاه إبراهيم خاتم ياقوت كان في يده له قدر عظيم ليخليهن، ولا يسألهن، فلما نظر الحارس إلى الخاتم استرابهن، وقال: خاتم رجل له شأن، ورفعهن إلى صاحب المسلحة، فأمرهن أن يسفرن، فامتنع إبراهيم، فجذبه جذبة، فبدت لحيته فدفعه إلى صاحب الجسر، فعرفه، فذهب به إلى باب المأمون وأعلمه به، فأمر بالاحتفاظ به إلى بكرة. فلما كان الغد أقعد إبراهيم في دار المأمون والمقنعة التي تقنع بها في عنقه والملحفة على صدره ليراه بنو هاشم والناس ويعلموا كيف أُخذ، ثم حوّله إلى أحمد بن أبي خالد فحبسه عنده. ثم أخرجه معه لما سار في الصلح إلى الحسن بن سهل، فشفع فيه الحسن، وقيل: ابنته بوران. وقيل: إن إبراهيم أخذ فحمل إلى دار ابن إسحاق المعتصم ـ وكان المعتصم عند المأمون ـ فحمل رديفاً لفرح التركي.

فلما دخل على المأمون قال له: هيه يا إبراهيم؟! فقال: يا أمير المؤمنين وليّ الثار محكم في القصاص، والعفو أقرب للتقوى، ومن تناوله الاغترار بما مدّ له من أسباب الشقاء أمكن عاديه الدهر من نفسه، وقد جعلك الله تعالى فوق كل ذي ذنب دونك، فإن تعاقب فبحقك، وإن تعفُ فبفضلك. قال المأمون: بل أعفو يا إبراهيم، فكبّر وسجد.

وقيل: بل كتب إبراهيم هذا الكلام إلى المأمون، وهو متخف فوقع المأمون في حاشية رقعته: القدرة تذهب الحفيظة والندم توبة، وبينهما عفو الله عزّ وجل وهو أكبر ما يسأله. فقال إبراهيم يمدح المأمون:

يا خير من رفلت يمانية به فبفضلك بعد النبي لآيس أو طائع

في أبيات كثيرة.

إبراهيم بن المهدي:

رددت مالي ولم تبخل عليّ به وقبل ردكَ مالي قد حفظت دمي
فبؤت منك وما كافيتها بيد هما حياة ابن موسى...[١]

وفي شعبان سنة تسع ومائتين أملك بخديجة بنت الحسن بن سهل بوران ونثر الحسن في ذلك الأملاك ما لم يسمع بمثله قط في جاهلية ولا إسلام. فنثر على الهاشميين والقوّاد بنادق مِسْكٍ فيها رقاع بأسماء ضياع وجواهر فمن وقعت بيده بندقة استوفى ما فيها من وكيله الحسن بحسب سعده وحظه.

وغزا الأرض وأبعد الأثر.

وفي أيامه ترجمت الكتب في العلوم العقلية إلى العربية.

وأطلقت المناظرة في العقائد.

وفي سنة اثنتي عشرة ومائتين أظهر القول بخلق القرآن[٢].

وفيها: أعلن النداء ببراءة الذمّة ممن ذكر معاوية بخير.

فكان ذلك كله عيب الكمال في دولته، وسيئات عظمت على كثير من محاسن مدته.

فسبحان من له الكمال المحض، المحمود في ملأ السماء والأرض لا إلٰه إلاّ هو.

---

(١) طمس في المخطوط.

(٢) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء: قيل: إن المأمون لتشيعه أمر بالنداء بإباحة المتعة ـ متعة النساء ـ فدخل عليه يحيى بن أكثم، فذكر له حديث علي رضي الله عنه بتحريمها، فلما علم بصحة الحديث رجع إلى الحق، وأمر بالنداء بتحريمها. أما مسألة القرآن: فما رجع عنها، وصمم على امتحان العلماء في سنة ثماني عشرة، وشدّد عليهم، فأخذه الله... وفي سنة اثنتي عشرة:... أظهر المأمون تفضيل عليّ على الشيخين، وأن القرآن مخلوق.

ومما ذكر ابن الأثير في امتحانه العلماء في فتنة خلق القرآن في أحداث سنة (٢١٨): في هذه السنة كتب المأمون إلى إسحاق بن إبراهيم ببغداد في امتحان القضاة، والشهود، والمحدّثين بالقرآن، فمن أقرّ أنه مخلوق محدث خلى سبيله، ومن أبى أعلمه به ليأمره فيه برأيه، وطوّل كتابه بإقامة الدليل على خلق القرآن، وترك الاستعانة بمن امتنع عن القول بذلك، وكان الكتاب في ربيع الأول. وأمر بإنفاذ سبع نفر منهم: محمد بن سعد كاتب الواقدي، وأبو مسلم مستملي يزيد بن هارون، ويحيى بن معين، وأبو خيثمة زهير بن حرب، وإسماعيل بن داود، وإسماعيل بن أبي مسعود، وأحمد بن الدورقي. فأشخصوا إليه، فسألهم، وامتحنهم عن القرآن، فأجابوا جميعاً بأن القرآن مخلوق. فأعادهم إلى بغداد، فأحضرهم إسحاق بن إبراهيم داره، وشهر قولهم بحضرة المشايخ من أهل الحديث، فأقروا بذلك فخلى سبيلهم.

وتوفي المأمون غازياً بصقع يعرف بالبرذون لثلاث عشرة ليلة خلت من رجب، سنة ثمان عشرة ومائتين[١].

دولة المعتصم بن الرشيد[٢]

واسمه: محمد بن هارون. وكنيته أبو إسحاق. وكان فارساً شهماً.

ويقال له: الثماني، إذ كان ثامن أهل بيته، وولد في الشهر الثامن سنة ثمانين، وفتح ثمان مدن، وقتل ثمانية...[٣] وملك ثمان سنين وثمانية أشهر، وثمانية أيام. وهو أول من استخدم المماليك من الروم، والديلم، ونوابهم، لِمَا أراد الله من

---

(١) قال صاحب الكامل في ذكره لموت المأمون في السنة المذكورة: لما اشتدّ مرضه وحضره الموت كان عنده من يلقّنه، فعرض عليه الشهادة، وعنده ماسويه الطبيب، فقال لذلك الرجل: دعه فإنه لا يفرّق في هذه الحال بين ربّه وماني. ففتح المأمون عينيه، وأراد أن يبطش به، فعجز عن ذلك، وأراد الكلام فعجز عنه، ثم أنه تكلم فقال: يا من لا يموت ارحم من يموت، ثم توفي من ساعته.
ولما توفي حمله ابنه العباس، وأخوه المعتصم إلى طرسوس، فدفناه بدار خاقان خادم الرشيد وصلى عليه المعتصم، ووكلوا به حرساً من أبناء أهل طرسوس وغيرهم مائة رجل، وأجري على كل رجل منهم تسعون درهماً. وكانت خلافته عشرين سنة وخمسة أشهر وثلاثة وعشرين يوماً، سوى سنين كان دعى فيها بمكة وأخوه الأمين محصور ببغداد. وكان مولده للنصف من ربيع الأول سنة سبعين ومائة.

(٢) مصادر ترجمته: المعارف (٣٩٢)، الأخبار الطوال (٤٠١)، تاريخ بغداد (٣/ ٣٤٢)، تاريخ الطبري (٩/ ١١٨)، مروج الذهب (٧/ ١٠٢)، البدء والتاريخ (٦/ ١١٤)، العبر (١/ ٤٠٠)، تاريخ الخلفاء (٣٣٣)، تاريخ الخميس (٢/ ٣٣٦)، شذرات الذهب (٢/ ٦٣)، البداية والنهاية (١٠/ ٢٩٥)، النجوم الزاهرة (٢/ ٥٢٠)، فوات الوفيات (٤/ ٤٨)، الوافي بالوفيات (٥/ ١٣٩)، سير أعلام النبلاء (١١/ ٢٩٠). وقال الذهبي فيه في ترجمة المعتصم: ولد سنة ثمانين ومائة، وأمه ماردة أم ولد. بويع بعهد من المأمون في رابع عشر رجب سنة ثمان عشرة. وكان أبيض اللحية طويلها، ربع القامة، مشرب اللون، ذا قوة وبطش وشجاعة وهيبة، لكنه نزر العلم.
... وقال غير نفطويه: خلّف من الذهب ثمانية آلاف ألف دينار، وثمانية عشر ألف ألف درهم، وثمانين ألف فرس، وثمانية آلاف مملوك، وثمانية آلاف جارية، وبنى ثمانية قصور، وقيل: بلغ مماليكه ثمانية عشر ألفاً، وكان ذا سطوة إذا غضب لا يبالي من قتل.
... قال الخطيب: كثر عسكر المعتصم، وضاقت عليهم بغداد، فبنى مدينة سُرَّ مَنْ رَأى وتحوّل إليها، وتسمّى أيضاً: العسكر.... وقال علي بن الجعد: جعل المعتصم يقول: ذهبت الحيلة فليس حيلة، فلبس حيلة، حتى صمت. وقيل: إنه قال: أؤخذ وحدي من بين هذا الخلق. وله نظم وسط، وكلمات جيدة. وقيل: إنه جعل زند رجل بين أصبعيه فكسره.

(٣) موضع النقط كلمة في المخطوط مطموسة، وفي سير أعلام النبلاء: وله فتوحات ثمانية: بابك، عمورية، والزُّط، وبحر البصرة، وقلعة الأجراف، وعرب ديار ربيعة، والشاري، وفتح مصر يعني قهر أهلها قبل خلافته، وقتل ثمانية: بابك، والأفشين، ومازيار، وباطيس، ورئيس الزنادقة، وعجيفاً، وقارون، وأمير الرافضة.

استيثارهم بملكه، وللتغلّب على ولده وولد ولده من بعده.

وكان أميناً، فشا في أيامه القول بخلق القرآن وتألّف أئمة الإسلام/ لذلك[٤٧/ب] محن.

وكان المعتصم يميل إلى التبديد والاستمتاع بلذات الدنيا، وإيثار المغنين والملهين على ما في كتب التاريخ من الأغاني وغيرها. وكان من مناقبه فتح عمورية، وكان ملكهم قد خرج إلى بلاد المسلمين فاستولى على ما يجاوره...[١] فقام له المعتصم فشمّر للدفاع ولبس الصوف وأشاع...[١] من فتح عمورية.

وفي ذلك يقول حبيب بن أوس الطائي قصيدته...[٢] على المنجمين في عهده إذ كانوا يخبرون على وفورهم إذ ذاك وشهدت أعلامهم بحوادث في العالم أكذبها الله بخلافها من نصر المعتصم، وغلبته على بلاد الروم، وما فتح الله من أبواب الخير للمسلمين في أيامه.

السيف أصدق أنباء من الكتب ... في حده الحدّ بين الجد واللعب
والعلم في شهب الأرماح لامعة ... بين الخمسين لا في السبعة الشهب
ابن الرواية أم ابن النجوم وما ... صاغوه من زخرف فيها ومن كذب
تخرصاً وأحاديثاً مُلَفَّقَةً ... ليست بنبع إذا عُدت ولا غرب
غرائب زعموا الأيام مُجفلة ... عنهن في صفر الإسلام أو رجب
وهل الأبراج العليا مدبرة ... ما كان متقلباً أو غير متقلّب
يقضون بالأمر عنها وهي غافلة ... ما دار في فلك منها وفي قُطُب
لو بنيت قط أمراً قبل موقعه ... لم يخف ما حلّ بالأوتار والطلب
فتح الفتوح تَعَلّى أن تحيط به ... نظم من الشعر أو نثر من الخطب
فتح بفتح أبواب السماء له ... وتبرز الأرض في أثوابها القشب

وتوفي المعتصم بسر من رأى، لثامن عشرة خلت من ربيع الأول سنة سبع وعشرين[٣].

(١) طمس في المخطوط.
(٢) طمس في المخطوط.
(٣) وفي سير أعلام النبلاء: مات المعتصم يوم الخميس لإحدى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول سنة سبع وعشرين ومائتين، وله سبعة وأربعون سنة وسبعة أشهر، ودفن بسر من رأى، وصلّى عليه ابنه الواثق. وقال ابن الأثير في الكامل في ذكره لوفاة المعتصم: توفي المعتصم أبو إسحاق محمد بن هارون الرشيد... لثمان عشرة مضت من ربيع الأول. وكان بدو علّته أنه احتجم أول يوم في المحرم واعتلّ عندها.

وكانت ولايته ذروة الدولة العباسية، ومن بعده أخذت في الاضمحلال، وطوى بساط الجهاد في سبيل الله والقتال، وولي بعد المعتصم الواثق.

/ دولة الواثق بن المعتصم[١] [I/٤٨]

واسمه هارون.

وكان شغوفاً بالشراب والغناء...[٢] على رأي أبيه في القول بخلق القرآن، وله في ذلك حكايات.

= قال زنام الزامر: أفاق المعتصم في علّته التي مات فيها إفاقة قال: هيؤوا لي الزلال لأركب غداً. فركب في الزلال في دجلة وأنا معه، فمرّ بإزاء منازله فقال: يا زنام أزمر لي:

يا منزلاً لم تبلَ أطلالـه حاشى لأطلالك أن تبلى

الأبيات. قال: فما زلت أزمّر له هذا الصوت وأكرّره وقد تناول منديلاً بين يديه، فما زال يبكي فيه وينتحب حتى رجع إلى منزله، ولما احتضر المعتصم جعل يقول: ذهبت الحيل ليست حيلة حتى أصمت، ثم مات ودفن بسامرا وكانت خلافته ثمان سنين وثمانية أشهر ويومين. وكان مولده سنة تسع وسبعين ومائة. وقيل: سنة ثمانين ومائة في الشهر الثامن، وهو الثامن الخلفاء من ولد العباس. مات عن ثمانية بنين وثمان بنات، وملك ثمان سنين وثمانية أشهر. فعلى القول الأول يكون عمره سبعاً وأربعين سنة وسبعة أشهر.

(٢) طمس في المخطوط.

(١) مصادر ترجمته: تاريخ بغداد (١٤/ ١٥)، تاريخ الخلفاء (٣٦٧)، تاريخ الخميس (٢/ ٣٣٧)، النبراس لابن دحية (٧٣)، تاريخ اليعقوبي (٣/ ٢٠٤)، تاريخ الطبري (٩/ ١٢٣)، مروج الذهب (٧/ ١٤٥)، فوات الوفيات (٤/ ٢٢٨)، سير أعلام النبلاء (٦/ ٣٠٦)، والكامل في التاريخ في أحداث سنة (٢٢٧) وما بعدها إلى سنة (٢٣٢)، وقال الذهبي في سير أعلام النبلاء: أمه روميّة اسمها قراطيس أدركت خلافته.... كان مولده في شعبان سنة ست وتسعين ومائة.

قال يحيى بن أكثم: ما أحسن أحد إلى الطالبيين ما أحسن إليهم الواثق، ما مات وفيهم فقير. وقال حمدون بن إسماعيل: كان الواثق مليح الشِّعر، وكان يحب مولى أهداه له من مصر شخص، فأغضبه، فحرد حتى قال لبعض الخدم: والله إن مولى ليروم أن أكلّمه من أمس، فما أفعل، فعمل الواثق:

يا ذا الذي بعذابي ظَلَّ مفتخراً ما أنت إلاّ مليك جار إذ قدر
لولا الهوى لتجازينا على قدر وإن أفق منه يوماً ما فسوف ترى

قال الخطيب: استولى أحمد بن أبي داود عليه وحمله على التشدّد في المحنة، والدعاء إلى خلق القرآن... وعن طاهر بن خلف قال: سمعت المهتدي بالله بن الواثق يقول: كان أبي إذا أراد أن يقتل رجلاً أحضرنا، قال: فأُتي بشيخ مخضوب مُقيَّد. فقال أبي: ائذنوا لأحمد بن أبي داود وأصحابه، وأُدخل الشيخ، فقال: السلام عليكم يا أمير المؤمنين. فقال: لا سَلَّم الله عليك. قال: بئس ما أدّبك مُؤدِّبُكَ، قال الله تعالى: ﴿وإذا حُيِّيتُم بتحيَّةٍ فحَيُّوا بأحسنَ منها أو رُدُّوها﴾ [النساء: ٨٦]. فقال أحمد: الرجل متكلم. قال: كَلِّمْه. فقال: يا شيخ، ما تقول في القرآن؟ قال: لم تنصفني ولي السؤال. قال: سَلْ. قال: ما تقول أنت؟ قال: مخلوق. قال: هذا شيء علمه =

وذكروا أنه أدخل على الواثق. . .[١] فقال: ما تقول في خلق القرآن؟

وكان الشيخ يقول: إنه به صمم. . .[١] اليوم ولا أقدر على الخياطة.

فغضب الواثق وقال: . . .[٢] بصوت أعلى.

فقال: لي أكثر من عشرين سنة ما عملتها. فهمّ الواثق بالضحك، وقال. . .[١] فصاحوا بالقول.

فقال: وما أقول في القرآن والتوراة والإنجيل والزبور كل الأربعة مخلوقة.

وهو يعقد بأصابعه.

فلما خرج، قيل له: إنه كان يشير إلى أصابعه. فأمر بِرَدِّهِ، فطلب فلم يوجد.

ومات الواثق حتف أنفه لست بقين من ذي الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائتين.

وكان قد ارتأى على والده في الاستظهار بالمماليك، وأبناء العجم. . .[٣].

وجعل مقاليد أموره بأيدي العجم، فأخذت الدولة العربية في. . .[١] رسمها عما قليل.

واختار الوزراء من بعده للمُلك أخاه جعفراً.

= رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وعمر، والخلفاء، أم لم يعلموه؟ فقال: شيء لم يعلموه. قال: سبحان الله، شيء لم يعلموه وعلمته أنت؟! فخجل وقال: أقلني. قال: المسألة بحالها، ما تقول في القرآن؟ قال: مخلوق. قال: شيء علمه رسول الله ﷺ؟ قال: عَلِمَهُ. قال: أعلمه ولم يدع الناس إليه؟ قال: نعم. قال: فوسعه ذلك؟ قال: نعم. قال: أفلا وسعك ما وسعه، ووسع الخلفاء بعده؟.

فقام الواثق، فدخل الخلوة، واستلقى، وهو يقول: شيء لم يعلمه النبي ﷺ، ولا أبو بكر، ولا عمر، ولا عثمان، ولا علي، علمته أنت، سبحان الله، عرفوه، ولم يدعوا إليه الناس، فهلا وسعك ما وسعهم. ثم أمر برفع قيد الشيخ، وأمر له بأربعمائة دينار، وسقط من عينه ابن أبي داود، ولم يمتحن بعدها أحداً.

. . . قال ابن أبي الدنيا: كان أبيض تعلوه صُفرة، حسن اللحية، في عينه نكتة. . . . قال زرقان بن أبي داود: لما احتضر الواثق ردّد هذين البيتين:

الموت فيه جميع الخلق مشترك — لا سوقة منهم يبقى ولا ملك

ما ضرّ أهل قليل في تفرّقهم — وليس يغني عن الأملاك ما مَلكوا

ثم أمر بالبسط فطويت وألصق خدّه بالتراب، وجعل يقول: يا من لا يزول ملكه، ارحم من زال ملكه. وكانت خلافته خمس سنين ونصفاً، ومات بسامرا لستّ بقين من ذي الحجة.

(١) طمس في المخطوط.

(٢) طمس في المخطوط.

(٣) طمس في المخطوط.

دولة جعفر المتوكل بن المعتصم[١]

بويع يوم وفاة أخيه.

وكان شديد الاستغراق في الشهوات، وبالغاً أقصى ما بلغ المترفين من الملوك.

ذكر الجوزي في تاريخ بغداد أنه بلغ عدد الفرّاشين كل يوم بداره أربعة آلاف فرّاش.

قلت: يرحم الله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، لو عاش إلى زمان المتوكل هذا لكنه رحمه الله أظهر السنّة.

وقيل: إنه رُئي في المنام بعد موته، وقيل له: ما فعل الله بك؟

قال: غفر لي.

قيل: وبماذا؟

قال: بقليل من السُّنَّة أحييتها.

وهو الذي بَنَى الجعفرية، والمكاني، والبنية المسماة اللؤلؤة.

وأنفق على...[٢] والجوسق أكثر من مائة ألف ألف.

وكانت له أربعة آلاف سرية...[٢]. ونالت بآل طالب في أيامه محنة عظيمة، ومنعوهم وغيرهم من زيارة قبر الحسين[٣] وأمر بتسويته ونبشه، فلم يوجد فيه أثر رِمَّةٍ ولا غيرها.

---

(١) مصادر ترجمته: تاريخ بغداد (٧/ ١٦٥)، العبر (١/ ٤٤٩)، فوات الوفيات (١/ ٢٩٠)، البداية والنهاية (١٠/ ٣١٠)، العقد الثمين (٣/ ٤٣١)، سير أعلام النبلاء (١٢/ ٣٠)، شذرات الذهب (٢/ ١١٤)، النجوم الزاهرة (٢/ ٢٧٥)، تاريخ الخلفاء (٣٤٦)، وفيات الأعيان (١/ ٣٥٠).
قال ابن الأثير في الكامل في أحداث سنة (٢٣٢) في ذكر خلافة المتوكل: في هذه السنة بويع المتوكل على الله جعفر بن المعتصم بعد موت الواثق. وسبب خلافته أنه لما مات الواثق حضر الدار أحمد بن أبي داود، وإيتاخ، ووصيف، وعمر بن فرج، وابن الزيات، وأبو الوزير أحمد بن خالد، وعزموا على البيعة لمحمد بن الواثق - وهو غلام أمرد قصير - فألبسوه دراعة سوداء، وقلنسوة، فإذا هو قصير. فقال وصيف: أما تتقون الله، توّلون هذا الخلافة؟ فتناظروا فيمن يوّلونه، فذكروا عدّة، ثم أحضر المتوكل، فلما حضر ألبسه أحمد بن أبي داود الطويلة وعممه، وقبّل بين عينيه، وقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، ثم غسل الواثق وصلّى عليه ودفن. وكان عمر المتوكل يوم بويع سناً وعشرين سنة. ووضع العطاء للجند لثمانية أشهر. وأراد ابن الزيّات أن يلقّبه المنتصر، فقال أحمد بن أبي داود: قد رأيت لقباً أرجو أن يكون موافقاً وهو المتوكل على الله. فأمر بإمضائه فكتب به إلى الآفاق.

(٢) طمس في المخطوط.

(٣) قال ابن الأثير في الكامل في أحداث سنة (٢٣٦) في ذكر ما فعله المتوكل بمشهد الحسين بن علي بن =

ولما أتمَّ بناء الجعفرية، أحضر القرّاء، وبعدهم الملهين، فلما قضى القوم شأنهم وهب لهم ألف ألف.

وكان موته بتدبير ابنه/ المنتصر على يدي بُغا التركي لأربع خلون من شوال سنة سبع وأربعين ومائتين. [٤٨/ب]

وكان قد أخذ العهد الشديد على الناس بالطاعة لبنيه الثلاثة من بعده وهم: محمد المنتصر الذي صار إليه أمره...[١]، والمعتز بالله، وإبراهيم المؤيد بالله.

في كتب كتبها وشروط اشترطها...[١] جزءٌ من الأعمال، وجعل ولي عهده المُنتصر المذكور...[٢] وإبراهيم المؤيد.

واستوثق من الناس، واستحلفهم على ذلك، وفرّق الأموال، ووعد الناس

= أبي طالب عليه السلام: في هذه السنة أمر المتوكّل بهدم قبر الحسين بن علي، وهدم ما حوله من المنازل والدور، وأن يُبذر ويُسقى موضع قبره، وأن يُمنع الناس من إتيانه. فنادى بالناس في تلك الناحية من وجدناه عند قبره بعد ثلاثة حبسناه في المطبق، فهرب الناس وتركوا زيارته، وخرب وزرع. وكان المتوكل شديد البغض لعلي بن أبي طالب، ولأهل بيته، وكان يقصد من يبلغه عنه أنه يتولى علياً وأهله بأخذ المال والدم.

وكان من جملة ندمائه عبادة المخنث، وكان يشدّ على بطنه من تحت ثيابه مخدّة، ويكشف رأسه وهو أصلع، ويرقص بين يدي المتوكل والمغنون يغنون: قد أقبل الأصلع البطين خليفة المسلمين. يحكي بذلك علياً عليه السلام، المتوكل يشرب ويضحك. ففعل ذلك يوماً والمنتصر حاضر، فأومأ إلى عبادة يتهدده، فسكت خوفاً منه، فقال المتوكل: ما حالك؟ فقام وأخبره، فقال المنتصر: يا أمير المؤمنين، إن الذي يحكيه هذا الكلب ويضحك منه الناس، هو ابن عمك وشيخ أهل بيتك وبه فخرك، فكل أنت لحمه إن شئت ولا تطعم هذا الكلب وأمثاله منه. فقال المتوكل للمغنين: غنوا جميعاً:

غارَ الفتى لابن عمه رأس الفتى في حِرِّ أمه

فكان هذا من الأسباب التي استحلّ بها المنتصر قتل المتوكل.

قيل: إن المتوكل كان يبغض من تقدّمه من الخلفاء، المأمون، والمعتصم، والواثق، في محبة علي وأهل بيته، وإنما كان ينادمه ويجالسه جماعة قد اشتهروا بالنصب والبغض لعليّ منهم علي بن الجهم الشاعر الشامي بني شامة بن لؤي، وعمرو بن فرخ الرخجي، وأبو السمط من ولد مروان بن أبي حفصة من موالي بني أميّة، وعبد الله بن محمد بن داود الهاشمي المعروف بابن أترجة، وكانوا يخوفونه من العلويّين ويشيرون عليه بإبعادهم والإعراض عنهم والإساءة إليهم، ثم حسّنوا له الوقيعة في أسلافهم الذين يعتقد الناس علوّ منزلتهم في الدين. ولم يبرحوا به حتى ظهر منه ما كان، فغطت هذه السيئة جميع حسناته.

وكان من أحسن الناس سيرة، ومنع الناس من القول بخلق القرآن إلى غير ذلك من المحاسن.

(١) طمس في المخطوط.

(٢) طمس في المخطوط.

بالصِّلات[١]، وتكلمت في ذلك الخطباء والشعراء، ففي ذلك يقول ابن المُدبر:

يا بيعة تعدل بيعة الشجرة فيها لكل الخلائق الخِيرة
أكدها جعفر وصيَّرها إلى بنيه الثلاثة البررة

وقال اليشع السُّلمي شاعرهم في ذلك:

لقد شَدَّ عرى الدين بالبيعة الرضى وطائر سعد جعفر بن محمد
بمنتصر بالله مكَّنه وأكرم بالمعتز قبل المؤيد

وكان المعتزّ والمؤيد صبيين لم يحتلما.

ويأتي في دولة أخيهما المنتصر تمام الحديث فيهما إن شاء الله تعالى، وهما من شرط هذا الكتاب.

دولة المنتصر بن المتوكل[٢]

ولما صار الأمر إلى المنتصر محمد بن جعفر المتوكل، أجْبَرَ أخويه المؤيد والمعتزّ على خلع نفسيهما.

(١) قال ابن الأثير في الكامل في أحداث سنة (٢٣٥) في ذكر البيعة لأولاد المتوكل بولاية العهد: في هذه السنة عقد المتوكل البيعة لبنيه الثلاثة بولاية العهد وهم: محمد ولقبه المنتصر بالله. وأبو عبد الله محمد، وقيل طلحة، وقيل الزبير، ولقبه المعتزّ بالله. وإبراهيم ولقبه المؤيد بالله. وعقد لكل واحد منهما لواءين أحدهما أسود وهو لواء العهد، والآخر أبيض وهو لواء العمل، فأعطى كل واحد منهما ما نذكره.

فأما المنتصر فأقطعه إفريقية، والمغرب كله، والعواصم، وقنسرين، والثغور جميعها الشامية، والجزرية، وديار مضر، وديار ربيعة، والموصل، وهيت، وعانة، والأنبار، والخابور، وكور باجرمي، وكور دجلة، وطساسيج، والسواد جميعها، والحرمين، واليمن، وحضرموت، واليمامة، والبحرين، والسند، ومُكْرَان، وقندابيل، وفرج بيت الذهب، وكور الأهواز، والمستغلات بسامرا، وماء الكوفة، وماء البصرة، وماء سبذان، ومهر جانقذق، وشهرزور، والصامغان، وأصبهان، وقُمّ، وقاشان، والجبل جميعه، وصدقات العرب بالبصرة.

وأما المعتزّ فأقطعه: خراسان، وما يضاف إليها، وطبرستان، والري، وأرمينية، وأذربيجان، وكور فارس. ثم أضاف إليه سنة أربعين خزن الأموال في جميع الآفاق، ودور الضرب، وأمر أن يضرب اسمه على الدراهم.

وأما المؤيّد فأقطعه: جند حمص، وجند دمشق، وجند فلسطين.

(٢) مصادر ترجمته: تاريخ بغداد (٢/ ١١٩)، تاريخ الطبري (٩/ ٢٣٤)، تاريخ الخلفاء (٣٥٦)، فوات الوفيات (٣/ ٣١٧)، الوافي بالوفيات (٢/ ٢٨٩)، النجوم الزاهرة (٢/ ٣٢٧)، سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٢)، شذرات الذهب (٢/ ١١٨)، أسماء الخلفاء والولاة (ص ١٢٩)، الكامل من أحداث سنة (٢٤٧: سنة ٢٤٨).

قال الذهبي في ترجمته في السير: أمه رومية اسمها حبشية. وكان أعين، أسمر، أقنى، مليح =

وقد كان أبوهما عهد إليهما بالأمر بعده وهما غلامان صغيران لم يبلغا الاحتلام من مُلوك الإسلام.

قال: فلما أُحضر أبرار الملك قال المعتزّ لأخيه المؤيد: لِمَ ترى أحضرنا؟

قال: يا أخي للخلع.

قال المؤيد: ما كنت لأفعل.

وقال المعتزّ: السمع والطاعة.

= الوجه، مُصَبَّراً، رَبْعَةً، كبير البطن، مليحاً، مهيباً. ولما قُتل أبوه دخل إليه قاضي القضاة جعفر بن عبد الواحد الهاشمي، فقالوا: بايع. فقال: وأين أمير المؤمنين - يعني المتوكل؟ - قال: قتله الفتح بن خاقان. قال: وأين الفتح؟ قال: قتله بغا. قال: فأنت وليّ الدم، وصاحب الثأر، فبايعه وبايع الوزير، والكبار.

ثم صالح المنتصر إخوته عن ميراثهم على أربعة عشر ألف ألف درهم، ونفى عمَّه علياً إلى بغداد، ورَسَّم عليه. وكان المنتصر وافر العقل، راغباً في الخير، قليل الظلم، باراً بالعلويين. قيل: إنه كان يقول: يا بغا، أين أبي؟ من قتل أبي؟!! ويسبّ الأتراك، ويقول: هؤلاء قتلة الخلفاء. فقال بغا الصغير للذين قتلوا المتوكل: ما لكم عند هذا رزق. فعملوا عليه وهمُّوا فعجزوا عنه، لأنه كان شجاعاً مهيباً يقظاً متحرّزاً لا كأبيه، فتحيّلوا إلى أن دسّوا إلى طبيبه ابن طيفور ثلاثين ألف دينار عند مرضه، فأشار بفصده، ثم فصده بريشة مسمومة، فمات منها. ويقال: إن طيفور نسي ومرض، وافتصد بتلك الريشة فهلك. وقال بعض الناس: بل حصر للمنتصر مرض في أنثييه، فمات منه في ثلاث ليال. ويقال: مات بالخوانيق. ويقال: سُمَّ في كمثراة بإبرة.

وورد عنه أنه قال في مرضه: ذهبت يا أماه مني الدنيا والآخرة، عاجلت أبي فعوجلت. وكان يتّهم بأنه واطأ على قتل أبيه، فما أُمهل ووزر له أحمد بن الخصيب أحد الظلمة. وذكر المسعودي: أنه أزال عن الطالبيين ما كانوا فيه من الخوف والمحنة من منعهم من زيارة تربة الحسين الشهيد، ورَدَّ فَدَكَ إلى آل علي... ثم أن المنتصر تمكّن وخلع من العهد أخويه: المعتزّ وإبراهيم.

... قال المسعودي: كان المعتزّ أظهر العدل في الرعية، فمالوا إليه مع شدّة وهيبة. وجلس مرة للهو، فرأى في بعض البسط دائرة فيها فارس عليه تاج، وحوله كتابة فارسية، فطلب من يقرأ، فأُحضر رجل، فنظر، فإذا فيها: ... فقطب وسكت، وقال: لا معنى له. فألح المنتصر عليه، قال: فيها: أنا شيرويه بن كسرى بن هرمز... قتلت أبي، فلم أُمتَّع بالملك سوى ستة أشهر. قال: فتغيّر وجه المعتز، وقام. قال الذهبي: قَلَّ ما وقع في دولته من الحوادث لقصر مدته، وعاش ستاً وعشرين سنة سامحه الله.

ومات في خامس ربيع الآخر سنة ثمان وأربعين ومائتين، وكانت خلافته ستة أشهر وأياماً. وكان قد أبعد وصيفاً في عسكر إلى ثغر الروم، وكان قد ألحّ عليه هو، وبغا، وابن الخصيب في خلع أخويه خوفاً من أن يلي المعتزّ فيستأصلهم. فاعتقلا، وتمنع أولاً المعتز، ثم خاف، وأشهدا على أنفسهما أنهما يعجزان عن الإمامة. فقال المنتصر: أترياني خلعتكما طمعاً في أن أعيش بعدكما حتى يكبُر ابني عبد الوهاب وأعهد إليه؟! والله ما طمعت في ذلك، ولكن هؤلاء ألحوا عليَّ، وخِفْتُ عليكما من القتل، فقبّلا يده، وضمهما إليه. وللمنتصر من الولد: أحمد، وعلي، وعبد الله، وعمر.

فأُغلِم المنتصر، فأُخذ بعنف وأُدخل بيتاً وأغلق عليه الباب.

فلما رأى ذلك المعتز، قال بِجُرْأةٍ واستطالة: ما هذا يا كلاب؟

هكذا تثبون على مولاكم؟! قبحكم الله حتى أكلِّمه.

ثم قام إلى المؤيد، فقال: يا جاهل، تراهم قد نالوا من أبيك ما نالوا وهو خليفة، وتمتنع أنت!! اخلع نفسك.

فقال: أفعل.

فخرج المعتز إليهم، وقد أجاب، وأعلم المنتصر بذلك.

ثم عادوا إلى المعتزّ فجزوه خيراً.

وكتب المؤيد خلعه بيده.

وكذا كتب المعتز، كذلك.

[1/49] / نسخة ما كتب المعتزّ إذ كان له العهد بعد المنتصر

بعد بسم الله الرحمٰن الرحيم: إن أمير المؤمنين المتوكِّل على الله قلّدني هذا الأمر، وبايعني وأنا صغير من غير محبتي ولا إرادتي، فلما فهمت أمري وعلمت أني لا أقوم بما قلّدني من ذلك ولا أصلح لخلافة المسلمين انخلعت عنها.

فمن كانت بيعتي بعنقه، فهو من نقضها في حلّ، وأحللكم وأبرئكم من أيمانكم، فلا عهد لي في رقابكم، وأنتم براء من ذلك إن شاء الله.

وكانت:

نسخة البيعة التي عقدت من كلام سعيد بن حُميد الكاتب

وهي هذه:

تبايعون عبد الله محمد المنتصر بالله أمير المؤمنين، بيعة طوع واعتقاد وإخلاص من سرائركم، وانشراح من صدوركم، وصدق من نيّاتكم، لا مكرهين ولا مضطهدين، بل مقرّين عالمين بما في هذه البيعة وتأكيدها من طاعة الله وتقوي المؤمن إقرار بدين الله، وحقه وصلاح عباده، واجتماع الكلمة ولمّ الشعث...[1] وأمن العواقب، وعزّ الأولياء، وقمع الملحدين الأعداء على... المنتصر بالله أمير المؤمنين عبد الله وخليفته، المفترض عليكم حقه وطاعته ومناصحته والوفاء بعهده، لا تنكثون ولا تداهنون، وعلى السمع والطاعة والمسالمة والنصر والوفاء والاستقامة

---

(١) طمس في المخطوط قدره كلمة.

والنصيحة في السرّ والعلانية، والوقوف عند أوامره، وعلى أنكم أولياء أوليائه وأعداء أعدائه، من خاصٍ وعام وقريب وبعيد، سرائركم في ذلك مثل علانيتكم، وضمائركم مثل ظواهركم، راضون بما يرضاه لكم أمير المؤمنين في عاجلكم وآجلكم، وعلى إعطائكم أمير المؤمنين بيعته في صفقة أيمانكم راغبين طائعين عن سلامة من قلوبكم وأهوائكم، وعلى أن لا تسقطوا شيئاً مما أكّد الله جلّ ذكره عليكم حتى تلقوه تقدست أسماؤه موفين بعهده ومؤدّين حقه، ومتمسكين ببيعته غير ناكثين، إذ كان الذين يبايعون منكم أمير المؤمنين ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: الآية ١٠].

عليكم الوفاء بما تأكدت به هذه البيعة في أعناقكم، وكل ما يملك كل واحد، فما كان/ فيها من مال أو...[1]، أو ضرع، صرفه على المساكين مُحرجاً عليه أن يصرف عليه شيئاً من...[1] عن حيلة يقدمها لنفسه بقية عمره...[1] إلى أن توافيه المنية ويأتيه أجله، وكل مملوك يملك من اليوم إلى ثلاثين سنة أحرار لوجه الله، ونساؤه في يوم يلزمه الحنث، ومن تزوّج بعد هذا إلى ثلاثين سنة طوالق البتة طلاق الحرج لا ثنوية فيها ولا رجعة، وعليه المشي إلى بيت الله الحرام ثلاثين حجّة لا يقبل الله منه إلاّ الوفاء بها ولا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً، والله شهيد عليكم، وكفى بالله شهيداً. [٤٩/ب]

وكان على عهد هذا الإشهاد المعقود لهذين الغلامين من الأعلام الذين لا يُغفل عن إشهادهم بمثل هذه العهود تبرّكاً واستظهاراً للوثوق فيها، فمن القضاة مثل:

إبراهيم بن إسحاق العبسي الصوفي، قاضي مدينة المنصور، سمع من ابن أبي الدنيا، ومثله.

والحسن بن عبد الله بن المرزبان ولي القضاء ببغداد وكان نزيهاً، عفيفاً، جميل الأثر، حسن الأخلاق.

والحسن بن عثمان بن حماد الإيادي، سمع هُشيماً وابن علية، والمعتزّ، وجريراً ووكيعاً، وولي قضاء الشرقية ببغداد، وكان من الفقهاء الفضلاء.

وحماد بن إسحاق بن إسماعيل بن زيد، ولي القضاء ببغداد، وحدّث عن مسلم بن إبراهيم، والعتبي، وكان ثقة فصيحاً، كثير التصنيف في علوم الإسلام.

والحارث بن مسكين بن محمد أبو عمر المصري، سمع سفيان بن عيينة، وكان مأموناً، ثقة، ولي قضاء مصر، وكان ممن امتحن زمن المأمون بسبب القول بخلق القرآن.

(١) موضع النقط كلمات مطموسة في المخطوط.

والزبير بن بكار بن عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير الأسدي العلاّمة، سمع من سفيان بن عيينة، والنضر بن شميل، وروى عنه ثعلب، وابن أبي الدنيا، والمحاملي، ولي القضاء بمكة، وحدّث ببغداد.

وصالح بن أحمد بن محمد بن حنبل، سمع أبا الوليد الطيالسي، وعلي بن المديني، روى عن البغوي، وابن مخلد، وولي القضاء بأصبهان.

وعلي بن محمد بن أبي الشوارب الذي سمع أبا الوليد الطيالسي، وروى عنه ابن صاعد، وأبو بكر الشافعي، وولي القضاء بمدينة المنصور، وسُرَّ مَنْ رَأى.

[٥٠/أ] ومن القرّاء مثل: محمد بن أحمد بن بكير، أبو بكر/ المقرىء، سمع يزيد بن هارون، وسليمان بن حرب، وخلف بن هشام، وأحمد بن حنبل، وكان أحمد يُبَجِّله ويصلي خلفه.

ومن المحدِّثين: أحمد بن إبراهيم بن كثير، روى عن أحمد بن إسماعيل ابن عُلية، ويزيد بن زريع، وهشيماً، وابن مهدي، وروى عنه مسلم بن الحجاج، وابن أبي الدنيا، وأحمد بن أبي خيثمة، وزهير بن حرب، ومنصور بن سلمة الخزاعي، وعفان بن مسلم، وأبا نُعيم في خلق كثير.

وأحمد بن سعيد أبو عبد الله الرياضي، سمع وكيع بن الجراح وغيره، وروى عنه البخاري.

وأحمد بن سعيد بن صخر بن سليمان بن جعفر الدارمي، سمع من النضر بن شميل، وخلق كثير، وكان من الحفّاظ، وحدّث ببغداد.

وأحمد بن سعيد بن إبراهيم الزبيري، سمع علي بن الجعد وخلقاً كثيراً، وروى عن البخاري، وابن صاعد بن أبي الدنيا، والبغوي، والحسن بن عبد العزيز أبو علي. روى عنه ابن أبي الدنيا، والمحاملي.

وسليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني، مصنّف كتاب السنن.

[٥٠/ب] حكى الجوزي/ عنه قال: كتبت من حديث رسول الله ﷺ خمسمائة ألف حديث، انتخبت منها...[١].

وعبد الله بن عبد الرحمٰن بن الفضل، أبو محمد الداودي، ثقة، روى عنه مسلم والبخاري...[١]، البغوي، وابن صاعد المحاملي، وكان من أهل الزهد والصلاح.

وأحمد بن يسار بن أيوب، الفقيه المروزي، سمع من عفان بن مسلم إمام المحدّثين ببلده.

(١) طمس في المخطوط.

وأحمد بن صالح أبو جعفر، وكان من الحفّاظ الكبار، ذاكر أحمد بن حنبل، فأثنى عليه وحدّث عنه...[١] والبخاري وغيرهما.

وأحمد بن عبد الله بن صالح بن مسلم العجلي، حدّث عن سيابة، وعنه أبو حسين الجعفي.

وأحمد بن الفرات بن خالد بن مسعود الضبي، حدّث ببغداد، وكان الإمام أحمد يقدمه.

وأحمد بن منصور بن يسار، كثير السماع، سمع من عبد الرزاق بن هشام بن القاسم، وصنّف المسند، روى عنه إسماعيل القاضي والبغوي، وأحمد بن منيع بن عبد الرحمٰن أبو جعفر الأصم جد أبي القاسم البغوي...[٢] وسفيان بن عيينة وغيرهم، روى عنه البخاري ومسلم.

وإبراهيم بن إسحاق...[١]، كان إماماً ثقة يزوره أحمد بن حنبل، ويفطر عنده.

وإسحاق ابن...[١] ابن حسان بن سنان التنوخي الأنباري، سمع من وكيع وأبي معاوية وابن عُلية، وروى عنه ابن صاعد بن أبي الدنيا، واستدعاه المتوكل، ونصب له منبراً...[١].

والحسن بن الصبّاح بن محمد.

وأبو علي البزار، سمع سفيان وروى عنه...[٣] ابن عبد الله بن عبد الكريم أبو زرعة الرازي إمام من أئمة المحدثين، قال أبو العباس...[١] رأيت أبا زرعة في المنام، فقلت له: ما فعل الله بك...[١]؟

فقال: قال لي: يا أبا زرعة، إني آتي بالطفل فآمر به إلى الجنة، فكنه من حفظك للحديث...[١] تبوّأ من الجنة حيث تشاء.

وعبد الوهاب بن الحكم الوراق، روى عن علي بن عباد، وأنس بن عياض، وروى عنه أبو داود، وابن أبي الدُّنيا، والمحاملي.

وعلي بن عاصم بن صهيب، وسمع من خلق كثير، وروى عنه أحمد بن حنبل وغيره.

قال: دفع إليّ أبي مائة ألف درهم، وقال: اذهب، فلا أرى لك وجهاً إلاّ بمائة

(١) طمس في المخطوط قدره كلمة.
(٢) موضع النقط طمس في المخطوط.
(٣) موضع النقط كلمات مطموسة في المخطوط.

ألف حديث.

والفتح بن إسحاق، وأبو نصر. . .(١) من أئمة المحدّثين الصالحين، قال الإمام أحمد: ما أخرجت خراسان مثله.

ومحمد بن إسماعيل قطني أبو بكر الصاغاني، قال عبد الرزاق قطنيّ ثقة وفوق الثقة.

ومحمد بن إبراهيم أبو جعفر الأنماطي صاحب التاريخ.

ومحمد بن إبراهيم بن مسلم أبو أميّة، من أئمة المحدّثين.

ومحمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة أبو عبد الله البخاري صاحب الجامع الصحيح، جمعه من ستمائة ألف، ومقداره لا يُجْهَل.

ومحمد بن يسار بن عثمان بن كيسان أبو بكر البصري، المعروف ببندار، روى عنه ابن أبي الدنيا والبغوي وغيرهم.

ومحمد بن عبد الرحيم أبو. . .(٢) روى عنه البخاري.

ومحمد بن مسلم بن عثمان الرازي، حدّث عنه البخاري وغيره.

ومحمد بن عبد الله بن يحيى بن عبد الله بن خالد النيسابوري الذهلي مولاهم. سمع ابن مهدي، وكان من الأئمة يقوم إليه أحمد بن حنبل إذا دخل.

ومسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري صاحب المسند الصحيح، صنّف المسند المذكور من ثلاثمائة ألف مسموعة.

ونصر بن علي بن ناصر أبو عمر الجهضمي، روى عن سفيان بن عيينة، وروى عنه مسلم بن الحجاج. وذكر الجوزي قال: . . .(٣) إلى نصر بن علي يُشخصه للقضاء، فقال: ارجع فأستخير الله، فرجع إلى. . .(١) فصلى ركعتين وقال: اللهم إن كان لي عندك خير فاقبضني. . .(١).

[١/٥١] ويعقوب بن إبراهيم بن كثير الدورقي، روى عنه البخاري، ومسلم،/ ويعقوب بن شيبة أبو يوسف السدوسي.

ومن الفقهاء: إبراهيم بن إسحاق أبو إسحاق الجرمي، إمام كبير.

وداود بن علي بن خلف بن سليمان. . .(١)، إمام أهل الظاهر الذي لم يعقد

(١) كلمة مطموسة في المخطوط.
(٢) كلمة مطموسة.
(٣) طمس في المخطوط.

العمل على قياس، إمام معروف القدر.

وأحمد أبو العباس بن يحيى بن يزيد، إمام أهل اللغة في وقته المعروف بثعلب.

وعبد الله بن مسلم بن قتيبة أبو محمد الدينوري.

والعباس بن الفرج أبو الفضل الرياشي.

ومحمد بن يزيد المبرد أبو العباس.

ومن الأولياء: أبو سعيد الخراز رضي الله عنه.

وبدر بن المنذر.

وعلي بن الموفق العابد.

وعمر بن مسلم بن عبد الرحمٰن القنطري رضي الله عنهم أجمعين.

ولم تطل مدة المنتصر إلى أن مات بعد أبيه لستة أشهر.

فولي الأمر بعده المستعين.

دولة المستعين بالله(١)

وهو أحمد بن محمد بن هارون الرشيد. كنيته أبو العباس(٢).

---

(١) من مصادر ترجمته: سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٦)، تاريخ بغداد (٥/ ٨٤)، العبر (٢/ ٢)، فوات الوفيات (١/ ١٤٠)، الوافي بالوفيات (٨/ ٩٣)، البداية والنهاية (١١/ ٢)، النجوم الزاهرة (٢/ ٣١٣)، تاريخ الخلفاء (٣٥٨)، شذرات الذهب (٢/ ١٢٤)، الكامل في التاريخ (أحداث سنة ٤٨ : ٥٢).

(٢) قال السيوطي في تاريخ الخلفاء: ولد سنة إحدى وعشرين ومائتين. وأمه أم ولد اسمها مخارق. وكان مليحاً أبيض بوجهه أثر جدري، ألثغ، ولما مات المنتصر اجتمع القوّاد وتشاوروا وقالوا: متى وليتم أحداً من أولاد المتوكل لا يبقى منا باقية. فقالوا: ما لها إلاّ أحمد بن المعتصم، ولد سنة أستاذنا. فبايعوه وله ثمان وعشرون سنة، واستمر إلى أول سنة إحدى وخمسين، فتنكّر له الأتراك لما قتل وصيفاً وبُغَا، ونفى باغر التركي الذي فتك بالمتوكل، ولم يكن للمستعين من وصيف وبغا أمر. ولما تنكّر له الأتراك خاف وانحدر من سامرا إلى بغداد، فأرسلوا إليه يعتذرون ويخضعون له، ويسألونه الرجوع، فامتنع فقصدوا الحبس، وأخرجوا المعتز بالله، وبايعوه، وخلعوا المستعين.
ثم جهّز المعتز جيشاً لمحاربة المستعين، واستعد أهل بغداد للقتال مع المستعين، فوقعت بينهما وقعات، ودام القتال أشهراً، وكثر القتل، وغلت الأسعار، وعظم البلاء، وانحلّ أمر المستعين، فسعوا في الصلح على خلع المستعين، وقام في ذلك إسماعيل القاضي وغيره، بشروط مؤكدة، فخلع المستعين نفسه في أول سنة اثنتين وخمسين، وأشهد عليه القضاة وغيرهم. فأحدر إلى واسط، فأقام بها تسعة أشهر محبوساً موكلاً به أمينٌ، ثم رُدّ إلى سامرا. وأرسل المعتز إلى أحمد بن طولون أن يذهب إلى المستعين فيقتله... =

وقعت الفتنة في أيامه وشغب عليه الجند، وبايع بعضهم أخاه المعتزّ. وتغلّب على ملكه الأتراك بوصيف، وبغا.

وفيه يقول بعض الشعراء:

خليفة في قفص بين وصيف وبُغا
يقول ما قالا له كما تقول الببغا

وفي أيامه ظهر يحيى بن عمر بن يحيى بن الحُسَين بن زيد بن علي بن الحسين بن علي [بن أبي طالب].

وقيل: في أيام المهدي بعده.

دولة المعتزّ بالله(١)

اسمه الزبير بن جعفر المتوكل. وكان قد خلع نفسه بالمنتصر المذكور قبل. ثم

= فقال: والله لا أقتل أولاد الخلفاء. فندب له سعيد الحاجب فذبحه في ثالث شوال من السنة. وله إحدى وثلاثون سنة، وكان خيّراً فاضلاً، بليغاً أديباً، وهو أول من أحدث لبس الأكمام الواسعة فجعل عرضها نحو ثلاثة أشبار، وصغّر القلانس وكانت قبله طويلة. مات في أيامه من الأعلام: عبد بن حميد، وأبو طاهر بن السرح، والحارث بن مسكين، والبزي المقرىء، وأبو حاتم السجستاني، والجاحظ، وآخرون.

(١) من مصادر ترجمته: تاريخ الخلفاء (٣٥٩)، معجم الشعراء (٤٠٠)، تاريخ بغداد (٢/ ١٢١)، العبر (٢/ ١٠٩)، فوات الوفيات (٣/ ٣١٩)، الوافي بالوفيات (٢/ ٢٩١)، تاريخ القاهرة (٣/ ٢٣)، شذرات الذهب (٢/ ١٣٠)، سير أعلام النبلاء (١٢/ ٥٣٢)، الكامل في التاريخ (من سنة ٥٢: ٥٥)، ورسالة أسماء الخلفاء والولاة (ص ١٣١)، وقال الذهبي في ترجمته في سير أعلام النبلاء: الخليفة أبو عبد الله، محمد، وقيل: الزبير بن المتوكل جعفر بن المعتصم محمد بن الرشيد هارون بن المهدي العباسي. ولد سنة اثنتين وثلاثين ومائتين. واستخلف وهو ابن عشرين سنة أو دونها، وكان أبيض جميلاً وسيماً من ملاّح زمانه... أمه رومية.
بويع وقت خلع المستعين، فلما كان بعد أشهر من ولايته خلع أخاه المؤيد بالله إبراهيم من العهد، فما بقي إبراهيم حتى مات وخاف المعتزّ من أن يتحدث الناس أنه سَمَّهُ، فأحضر القضاة حتى شاهدوه وما به أثر، فالله أعلم. وكانت دولة المعتز مستضعفة مع الأتراك فاتفق القوّاد وقالوا: أعطنا أرزاقنا، ونقتل لك صالح بن وصيف ـ وكان المعتز يخافه ـ فطلب من أُمّه مالاً لينفقه فيهم، فشحت عليه. فتجمّع الأتراك لخلعه، واتفق معهم صالح وبابياك، ومحمد بن بُغا. فتسلحوا وأتوا الدار، وبعثوا إلى المعتز ليخرج إليهم، فقال: قد شربت دواء وأنا ضعيف. فهجم [عليه] جماعة، وجروه، وضربوه، وأقاموه في الحَرّ، فبقي المسكين يتضوّر، وهم يلطمونه، ويقولون: اخلع نفسك، ثم أحضروا القاضي والعدول وخلعوه.
وأقدموا من بغداد محمد بن الواثق ـ وكان المعتزّ قد أبعده ـ فسلم المعتز إليه الخلافة وبايعوه، ولُقّب بالمهتدي بالله. ثم إن رؤوس الأتراك، أخذوا المعتز بعد خمسة أيام، فأدخلوه حماماً، =

ولي ثانية عند خلع المستعين هذا في رمضان من سنة اثنتين وخمسين ومائتين.

وقُتِل المستعين في أيامه.

وأفرط في التبذير مع الحاجة.

فأمر باتخاذ جميع الآلات كلها من الذهب. وخلع أخاه المُلَقَّب بالمؤيد المعهود له بعده.

ثم قتل في لحاف مسحوراً أمسكت أطرافه ولياته عليه حتى مات.

واضطرب أمر المعتزّ وشغب عليه الأتراك وطلبوا أرزاقهم.

وسأل أمه أن تعطيه، فقالت: ما عندي شيء. وبعد أن فات الأمر فيها أخذ لها مالاً . . .[١] من المال، والذخيرة، واجتمع الأتراك فخلعوه، وأهانوه، وعذّبوه حتى خلع نفسه سنة خمس وخمسين ومائتين وولي بعده المهتدي.

/ دولة المهتدي بالله[٢] [٥١/ب]

اسمه محمد بن هارون بن محمد بن هارون.

= وأكربوه حتى عطش، ومنعوه الماء حتى كاد، ثم سقوه ماء ثلج، فسقط ميتاً رحمه الله. وذلك في شعبان سنة خمس وخمسين ومائتين، وعاش ثلاثاً وعشرين سنة. ولما تولى خلع على محمد بن عبد الله بن طاهر خلعة الملك، وقلّده سيفين، فأقام وصيف، وبغا على وجل من ابن طاهر، ثم رضي المعتز عنهما، وأعادهما إلى مرتبتهما، وخلع على أخيه أبي أحمد خلعة الملك أيضاً، وتوّجه ورشّحه وقلّده سيفين، وولي القضاء الحسن بن محمد بن أبي الشوارب الأموي، وحسبت أرزاق جند الإسلام، فكانت في السنة مائتي ألف ألف درهم، ثم قبض المعتز على أخيه أبي أحمد، ثم أطلقه مضطهداً. وغلب على خراسان يعقوب بن الليث الصفار، وأخذ هراة وغيرها وخرج بالكرج الأمير عبد العزيز بن أبي دُلف، فالتقاه موسى بن بُغا وجرت ملحمة كبرى، وقُتل وصيف من كبار الأمراء.

(١) كلمة مطموسة.

(٢) من مصادر ترجمته: سير أعلام النبلاء (١٢/ ٥٣٥)، معجم الشعراء (٤٠١)، وفيات الوفيات (٤/ ٥٠)، الوافي بالوفيات (٥/ ١٤٤)، تاريخ ابن كثير (١١/ ١٧)، النجوم الزاهرة (٣/ ٢٦)، تاريخ الخلفاء (٣٦١)، شذرات الذهب (٢/ ١٣٢)، رسالة أسماء الخلفاء والأمراء (١٣١)، الكامل في التاريخ (في أحداث سنة ٢٥٥: ٢٥٦).

قال السيوطي في تاريخ الخلفاء: أمه أم ولد تسمى وردة، ولد في خلافة جده سنة بضع عشرة ومائتين. وبويع بالخلافة لليلة بقيت من رجب سنة خمس وخمسين ومائتين، وما قَبِلَ بيعته أحد حتى أتي بالمعتز، فقام المهتدي له، وسلّم عليه بالخلافة، وجلس بين يديه، فجيء بالشهود، فشهدوا على المعتز أنه عاجز عن الخلافة.

فاعترف بذلك، ومدّ يده فبايع المهتدي، فارتفع المهتدي حينئذ إلى صدر المجلس. وكان المهتدي أسمر رقيقاً، مليح الوجه، ورعاً، متعبّداً، عادلاً، قويّاً في أمر الله، بطلاً شجاعاً لكنه لم يجد ناصراً =

وأبوه الواثق بن المعتصم.

= ولا معيناً. قال الخطيب: لم يزل صائماً منذ ولي إلى أن قُتِل. وقال هاشم بن القاسم: كنت بحضرة المهتدي عشية من رمضان، فوثبت لأنصرف، فقال لي: اجلس، فجلست، وتقدم فصلى بنا، ثم دعا بالطعام، فأحضر طبق خلاف، وعليه رغيف من الخبز النقي، وفيه آنية فيها ملح، وخلّ وزيت، فدعاني إلى الأكل، فابتدأت آكل ظاناً أنه سيؤتى بطعام، فنظر إليّ، وقال: ألم تك صائماً؟ قلت: بلى، قال: أفلست عازماً على الصوم؟ فقلت: كيف لا وهو رمضان؟ فقال: كل واستوف، فليس ها هنا من الطعام غير ما ترى. فعجبت وقلت: ولِمَ يا أمير المؤمنين، وقد أسبغ الله نعمته عليك؟ فقال: إن الأمر ما وصفت، ولكني فكّرت في أنه كان في بني أمية عمر بن عبد العزيز ـ وكان التقلل والتقشف على ما بلغك ـ فغِرْتُ على بني هاشم، فأخذت نفسي بما رأيت.

وقال جعفر بن عبد الواحد: ذاكرت المهتدي بشيء، فقلت له: كان أحمد بن حنبل يقول به، ولكنه كان يخالف أشير إلى من مضى من آبائه ـ فقال: رحم الله أحمد بن حنبل، والله لو جاز لي أن أتبرّأ من أبي لتبرّأت منه. ثم قال لي: تكلم بالحق وقل به، فإن الرجل ليتكلم بالحق فينبل في عيني.

وقال نفطويه: حدّثني بعض الهاشميين: أنه وجد للمهتدي سفط فيه جبة صوف وكساء كان يلبسه بالليل ويصلي فيه، وكان قد أطرح الملاهي، وحرم الغناء، وحسَمَ أصحاب السلطان عن الظلم، وكان شديد الإشراف على أمر الدواوين يجلس بنفسه ويُجلِسُ الكُتاب بين يديه، فيعملوا الحساب، وكان لا يُخِل بالجلوس الاثنين والخميس، وضرب جماعة من الرؤساء، ونفى جعفر بن محمود إلى بغداد، وكره مكانه لأنه نسب عنده إلى الرفض.

وقدم موسى بن بغا من الري يريد سامرا لقتل صالح بن وصيف بدم المعتز، وأخذ أموال أمه ومعه جيشه، فصاحت العامة على ابن وصيف: يا فرعون قد جاءك موسى فطلب موسى بن بغا الإذن على المهتدي، فلم يأذن له، فهجم بمن معه عليه ـ وهو جالس في دار العدل ـ فأقاموه، وحملوه على فرس ضعيفة، وانتهبوا القصر، وأدخلوا المهتدي إلى دار ناجود، وهو يقول: يا موسى اتق الله، ويحك ما تريد؟ قال: والله ما نريد إلاّ خيراً، فاحلف لنا أن لا تمالىء صالحاً بن وصيف. فحلف لهم، فبايعوه حينئذ، ثم طلبوا صالحاً ليناظروه على أفعاله، فاختفى.

وندبهم المهتدي إلى الصلح فاتهموه أنه يدري مكانه، فجرى في ذلك كلام، ثم تكلموا في خلعه.

فخرج إليهم المهتدي من الغد متقلّداً بسيفه فقال: قد بلغني شأنه، ولست كمن تقدمني مثل المستعين والمعتز، والله ما خرجت إليكم إلاّ وأنا متحنط، وقد أوصيت وهذا سيفي والله لأضربن به ما استمسكت قائمته بيدي، إما دين، إما حياء، إما دعة؟ لم يكون الخلاف على الخلفاء والجرأة على الله؟ ثم قال: ما أعلم علم صالح، فرضوا وانفضّوا. ونادى موسى بن بغا: من جاء بصالح فله عشرة آلاف دينار.

فلم يظفر به أحد، واتفق أن بعض الغلمان دخل زقاقاً وقت الحر فرأى باباً مفتوحاً فدخل، فمشى في دهليز مظلم، فرأى صالحاً نائماً فعرفه ـ وليس عنده أحد ـ فجاء إلى موسى فأخبره، فبعث جماعة، فأخذوه، وقطعت رأسه وطِيفَ به، وتألم المهتدي لذلك في الباطن. ثم رحل موسى ومعه بكيال إلى السن في طلب مساور. فكتب المهتدي إلى بكيال أن يقتل موسى ومفلحاً ـ أحد أمراء الأتراك أيضاً ـ أو يمسكهما، ويكون هو الأمير على الأتراك كلهم.

فأوقف بكيال موسى على كتابه، وقال: إني لست أفرح بهذا وإنما هذا يعمل علينا كلنا، فأجمعوا على قتل المهتدي، وصاروا إليه. فقاتل عن المهتدي المغاربة والفراغنة، والأسروسنية. وقُتل من =

وحجبه صالح بن وصيف، وموسى بن بُغا.

ولم يقبل البيعة حتى أتى بالمعتز، وخلع نفسه بين يديه، واعترف بالعجز.

وقيل: إنه سعى في صالح حال المعتز على الأتراك فلم يقدر، فصرفه إلى حينه.

وطوّلت أم المعتزّ بالمال، فأحضرت. . .[1] ألف ألف من الذهب.

فلما تخلّصت عند صالح بن وصيف قال: فعل الله بها وصنع عرّضت ابنها للقتل في مقدار خمسين ألفاً، وفي خزائنها مثل هذا.

ثم اضطرب أمره، فخلعه الأتراك في رجب من سنة ست وخمسين ومائتين.

وكان الذي تولى قتله وتلا بابك، ضربه بخنجر وبابك سكران، وجعل فَمَهُ في ودجه، وجعل يشرب دمه.

ثم ندموا على قتله إذ كان من أهل العافية، وقدَّموا أحمد بن جعفر المعتمد.

دولة المعتمد على الله[2]

وهو أحمد بن جعفر المتوكل بن محمد بن هارون الرشيد.

= الأتراك في يوم أربعة آلاف، ودام القتال إلى أن هزم جيش الخليفة وأمسك هو، فعصر على خصيتيه، فمات، وذلك في رجب سنة ست وخمسين. فكانت خلافته سنة إلاّ خمسة عشر يوماً.
وكان لما قامت الأتراك عليه ثار العوام وكتبوا رقاعاً، وألقوها في المساجد: يا معشر المسلمين، ادعوا الله لخليفتكم العدل الرضا المضاهي لعمر بن عبد العزيز أن ينصره الله على عدوه.

(١) كلمة مطموسة في المخطوط.

(٢) مصادر ترجمته: تاريخ بغداد (٤/ ٦٠)، الكامل في التاريخ (من أحداث سنة ٢٥٦: ٢٧٩)، تاريخ الطبري (٩/ ٤٧٤)، فوات الوفيات (١/ ٦٤)، سير أعلام النبلاء (١٢/ ٥٤٠)، تاريخ الخلفاء (٣٦٣)، شذرات الذهب (٢/ ١٧٣)، تاريخ ابن كثير (١١/ ٢٣)، رسالة أسماء الخلفاء والولاة (١٣٢).

ومما قال الذهبي في سير أعلام النبلاء في ترجمته: أمه رومية اسمها فتيان، ولد سنة تسع ومائتين، وقال ابن أبي الدنيا: كان أسمر رقيق اللون، أعين جميلاً، خفيف اللحية. قلت: استخلف بعد قتل أخيه المهتدي في سادس عشر من رجب سنة ست وخمسين ومائتين. وقدم موسى بن بُغا بعد أربعة أيام إلى سامراء وخمدت الفتنة، وكان في حبس المهتدي بالجوسق فأخرجوه، وبايعوه، فضيق المعتمد على عيال المهتدي، واستعمل أخاه أبا أحمد الموفق على سائر المشرق وعقد بولاية العهد لابنه جعفر، ولقّبه بالمفوض إلى الله، واستعمله على مصر، والمغرب، وانهمك في اللهو واللعب، واشتغل عن الرعية، فكرهوه وأحبوا أخاه الموفق.

وفي رجب أيضاً استولت الزنج على البصرة والأُبُلة والأهواز، وقتلوا وسبوا وهم عبيد العَوام، وغوغاء الأنذال الملتفين حول الخبيث. . . وقتلت الزنج بالأُبُلة نحو ثلاثين ألفاً، فحاربهم سعيد =

ولقبه المعتمد على الله.

وحذر عاقبة الأمور فأسند التدبير إلى أخيه أبي أحمد المُلَقَّب بالموفق، وبقي كالمحجور تحت نظره.

وفي أيامه قُتِل صاحب الزنج الخلد يحيى الذي اجتمعت إليه الزنج في كل مكان، ولم يبق لأحد منهم مملوك إلاّ لحق به، وعملوا في الإسلام المصائب الشنيعة.

وفي أيامه ابتدى أمر القرامطة[1] الذين استباحوا مكة، وحريمها، وذهبوا بالحجر الأسود حتى افتدى منهم.

وتوفي المعتمد حتف أنفه في سنة تسع وسبعين ومائتين.

وكان مؤثراً للذات معتكفاً على الملاهي، شغوفاً بالطرب، ومات مسموماً.

ولّي المعتمد بعده المعتضد بالله.

= الحاجب، ثم قووا عليه، وقتلوا خلقاً من جنده وتمّت بينهم وبين العسكر وقعات. وفي سنة (٢٥٨) جرت وقعة بين الزنج وبين العسكر، فانهزم العسكر، وقتل قائدهم منصور ثم نهض أبو أحمد الموفق، ومفلح في عسكر عظيم إلى الغاية لحرب الخبيث، فانهزم جيشه، ثم تهيأ وجمع الجيوش، وأقبل فتمّت ملحمة لم يُسمع بمثلها، وظهر المسلمون، ثم قتل مقدمهم مُفلح، فانهزم الناس، واستباحهم الزنج، وفرّ الموفق إلى الأبلة وتراجعت إليه العساكر، ثم التقى الزنج فانتصر، وأسر طاغيتهم يحيى وبعث به إلى سامراء فذُبح، ووقع الوباء فمات خلائق.

(١) قال السيوطي في تاريخ الخلفاء في ترجمته له في أحداث سنة ثمان وسبعين ومائتين: وفيها ظهرت القرامطة بالكوفة، وهم نوع من الملاحدة يدعون أنه لا غُسل من الجنابة، وأن الخمر حلال، ويزيدون في أذانهم: وأن محمد ابن الحنفية رسول الله، وأن الصوم في السنة يومان: يوم النيروز، ويوم المهرجان. وأنَ الحج والقِبلة إلى بيت المقدس، وأشياء أخرى. ونَفَقَ قولهم على الجهال، وأهل البرّ، وتعب الناس بهم.

وفي سنة تسع وسبعين ضعف أمر المعتمد جداً لتمكن أبي العباس بن الموفق من الأمور وطاعة الجيش له. فجلس المعتمد مجلساً عاماً وأشهد فيه على نفسه أنه خلع ولده المفوض من ولاية العهد، وبايع أبا العباس، ولقبه المعتضد، وأمر المعتضد في هذه السنة أن لا يقعد في الطريق منجم ولا قصّاص، واستحلف الورّاقين أن لا يبيعوا كتب الفلاسفة والجدل. ومات المعتمد بعد أشهر من هذه السنة فجأة فقيل إنه سمّ. وقيل: بل نام فغمّ في بساط، وذلك ليلة الاثنين لإحدى عشرة بقيت من رجب. وكانت خلافته ثلاثاً وعشرين سنة إلاّ أنه كان مقهوراً مع أخيه الموفق لاستيلائه على الأمور ومات وهو كالمحجور عليه من بعض الوجوه من جهة المعتضد أيضاً.

... ومن شعر المعتمد لما حجر عليه:

أصبحت لا أملك دفعاً لما ... أسامُ من خَسْفٍ ومن ذلة
تمضي أمور الناس دوني ولا ... يشعرني في ذكرها قلتي
إذا اشتهيت الشيء وَلّوْا به ... عني وقالوا: ها هنا علّتي

قال الصولي: كان له ورّاق يكتب شعره بماء الذهب.

دولة المعتضد بالله(١)

وهو أحمد بن طلحة بن جعفر بن محمد بن هارون الرشيد.

وهو الذي صاهر أبا الحسن خمارويه على بنته قطر الندى، وكان شغوفاً بها ظهير الجلالة إلى أن توفيت سنة سبع وثمانين ومائتين.

وفي سنة تسع وثمانين ومائتين توفي المعتضد.

وذكر أنه توفي مسموماً، وأنهم شكّوا في موته، فتقدم المطبِّب يجسُّ ذراعه فأنف من ذلك، فركله برجله ورماه، فمات الطبيب من ركلته، ومات المعتضد.

قلت: ولا خفاء بحال/ هذه النفس الفظّة بين يدي القدوم على الله، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله. [١/٥٢]

ووَلِيَ بعده ابنه المكتفي بالله.

دولة المكتفي بالله(٢)

وهو علي بن أحمد بن طلحة بن جعفر بن محمد بن هارون الرشيد.

---

(١) من مصادر ترجمته: تاريخ الخلفاء (٣٦٨)، تاريخ بغداد (٤/٤٠٣)، تاريخ ابن ماجه (٤٩)، تاريخ الطبري (١٠/ ٢٠)، مروج الذهب (٢/ ٤٦٢)، شذرات الذهب (٢/ ١٩٩)، المنتظم (٥/ ١٢٣)، النجوم الزاهرة (٣/ ١٢٦)، العبر (٢/ ٨٢)، الوافي بالوفيات (٦/ ٤٢٨)، فوات الوفيات (١/ ٧٢)، البداية والنهاية (١١/ ٦٦)، رسالة أسماء الخلفاء (ص ١٣٣)، الكامل في التاريخ (من سنة ٢٧٩: ٢٨٧).

ومما قال الذهبي في سير أعلام النبلاء في ترجمته (١٣/ ٤٦٣): الخليفة أبو العباس أحمد بن الموفق بالله، ولي العهد أبي أحمد طلحة بن المتوكل جعفر بن المعتصم محمد بن الرشيد الهاشمي العباسي، ولد في أيام جده سنة اثنتين وأربعين ومائتين. وكان ملكاً مهيباً، شجاعاً، جبّاراً، شديد الوطأة، من رجال العالم، يُقدِمُ على الأسد وحده. وكان أسمر، نحيفاً، معتدل الخلق، كامل العقل.

قال المسعودي: كان قليل الرّحمة، إذا غضب على أمير حفر له حفيرة، وألقاه حيّاً وطمّ عليه. وكان ذا سياسة عظيمة، قيل: إنه تصيّد فنزل إلى جانب مقثأة، فصاح الناطور، فطلبه. فقال: إن ثلاثة غلمان دخلوا المقثأة، وأخذوا، فجيء بهم، فاعتقلوا، ومن الغد ضربت أعناقهم. فقال لابن حمدون: اصدقني عني، فذكرت الثلاثة. فقال: والله ما سفكت دماً حراماً منذ وليت الخلافة وإنما قتلت خَرَامِيَّة قد قتلوا، أوهمت أنهم الثلاثة. قلت: فأحمد بن الطيب؟ قال: دعاني إلى الإلحاد... وكان في المعتضد حرص وجمع للمال، حارب الزنج، وله مواقف مشهودة، وفي دولته سكنت الفتن... وأسقط المكس، ونشر العدل، وقلّل من الظلم، وكان يسمى السفّاح الثاني. أحيا رميم الخلافة التي ضعفت من مقتل المتوكل، وأنشأ قصراً غرم عليه أربعمائة ألف دينار، وكان دماغه قد تغيّر من فرط الجماع.

(٢) من مصادر ترجمته: سير أعلام النبلاء (١٣/ ٤٧٩)، تاريخ ابن ماجه (٥٠)، تاريخ بغداد (١١/ =

في أيامه ظهر يحيى بن زكرويه الخارجي[١] وكان يتغلّب على البلاد، فيقتل حتى الأطفال، والبهائم، وسيق إلى بغداد بعد هزيمته أسيراً.

وقُتِلَ القرمطي صاحب الشامة مُخلي البلاد ومفتي الضلال.

وكان المكتفي مغرماً بالأحداث من المماليك، ذكر ذلك المسعودي صاحب المروج.

وتوفي في ذي القعدة سنة خمس وتسعين ومائتين[٢].

وولي الأمر بعده أخوه المقتدر.

= ٣١٦)، تاريخ الخلفاء (٣٧٦)، شذرات الذهب (٢/ ٢١٩)، المنتظم (٦/ ٣١)، العبر (٢/ ١٠٢)، فوات الوفيات (٣/ ٥)، البداية والنهاية (١١/ ٩٤)، النجوم الزاهرة (٣/ ١٨٣)، الكامل في التاريخ من سنة (٢٨٩ : ٢٩٤)، رسالة أسماء الخلفاء والولاة (ص ١٣٣).
ومما قال السيوطي في تاريخ الخلفاء في ترجمته: ولد في غرة ربيع الآخر سنة أربع وستين ومائتين، وأمه تركية اسمها جيجك، وكان يضرب بحسنها المثل. وعهد إليه أبوه فبويع في مرضه يوم الجمعة بعد العصر لإحدى عشرة بقيت من ربيع الآخر سنة تسع وثمانين. ومما قال الذهبي في سير أعلام النبلاء في ترجمته: كان يضرب بحسنه المثل في زمانه، كان معتدل القامة، دُرِّي اللون، أسود الشعر، حسن اللحية.

(١) ومما قال ابن الأثير في الكامل في ذكره قتل زكرويه لعنه الله بعد أن كان سرد كثيراً من أخباره وشنائع صنائعه في البلاد والعباد: لما فعل زكرويه بالحجاج ما ذكرناه، عظم ذلك على الخليفة خاصة وعلى كافة المسلمين عامة، فجهّز المكتفي الجيوش، فلما كان أول ربيع الأول صيّر وصيف بن صوار تكين مع جماعة من القوّاد والعساكر إلى القرامطة، فساروا على طريق خفان فلقيهم زكرويه ومن معه من القرامطة ثامن ربيع الأول، فاقتتلوا يومهم، ثم حجز بينهم الليل، وباتوا يتحارسون. ثم بكّروا إلى القتال، فاقتتلوا قتالاً شديداً فقُتِل من القرامطة مقتلة عظيمة، ووصل عسكر الخليفة إلى زكرويه، فضربه بعض الجند وهو مُوَلٍّ بالسيف على رأسه، فبلغت الضربة دماغه، وأخذه أسيراً، وأخذ خليفته، وجماعة من خواصه وأقربائه، وفيهم: ابنه وكاتبه وزوجته، واحتوى على ما في العسكر. وعاش زكرويه خمسة أيام ومات. فسُيِّرت جيفته والأسرى إلى بغداد. وانهزم جماعة من أصحابه إلى الشام، فأوقع بهم الحسين بن حمدان فقتلوهم جميعاً، وأخذوا جماعة من النساء والصبيان، وحُمِلَ رأس زكرويه إلى خراسان لئلا ينقطع الحُجاج، وأخذ الأعراب رجلين من أصحاب زكرويه، يعرف أحدهما بالحداد، والآخر بالمنتقم - وهو أخو امرأة زكرويه - كانا قد سارا إليهم يدعوانهم إلى الخروج معهم، فلما أخذوهما سيّروهما إلى بغداد. وتتبع الخليفة القرامطة بالعراق، فقتل بعضهم، وحبس بعضهم، ومات بعضهم في الحبس.

(٢) قال ابن الأثير في الكامل في وفاة المكتفي في سنة (٢٩٥): في هذه السنة في ذي القعدة توفي أمير المؤمنين المكتفي بالله أبو محمد علي بن المعتضد بالله أبي العباس أحمد بن الموفق بن المتوكل. وكانت خلافته ست سنين وستة أشهر وتسعة عشر يوماً. وكان عمره ثلاثاً وثلاثين سنة، وقيل: اثنتين وثلاثين سنة. وكان ربعة جملاً، رقيق البشرة، حسن الشعر، وافر اللحية. وكنيته أبو محمد، وأمه أم ولد تركية اسمها جيجك. وطال عليه المرض عدّة شهور. ولما مات دفن بدار محمد بن طاهر، رحمه الله.

دولة المقتدر بالله (١)

وهو جعفر بن أحمد بن طلحة بن محمد بن هارون الرشيد.

بُويع في اليوم الذي توفي فيه أبوه المكتفي، يوم الأحد لثلاث عشرة ليلة من ذي القعدة سنة خمس وتسعين ومائتين وهو صبي صغير لم يبلغ الاحتلام.

زعم المكثر في سنه أنه كان ابن ثلاث عشرة سنة. وكان الخاصة قد تآمروا على إقعاد عبد الله بن المعتز للخلافة بعد المكتفي.

فخالفهم الوزير العباس بن الحسن، ورأى تقديمه على خاله من صغر السن، إذ كان أخوه المكتفي قد عهد له بالأمر فولي بعد أخيه، وقام بأمره العباس بن الحسن الوزير.

وقد عرف المقتدر قدره، فأرخى إليه الحق الذي يجب لمثله، وزاد في منزلته، وفوّض إليه الأمور وفَرَّغَ له منها.

ونافسه الأتراك والقوّاد، ورجع أمرهم إلى وصيف بن سوار، فخلعوا المقتدر، وبايعوا عبد الله بن المعتز، ولقّبوه المنتصف لله.

وهلك في هذه الطائفة العباس بن الحسين الوزير.

ثم تقاتل الغلمان ووقع الحرب في دار الخلافة وانقسموا فرقتين، فرقة تتعصب إلى عبد الله بن المعتز. وأخرى تتعصّب إلى المقتدر.

---

(١) ومن مصادر ترجمته: تاريخ بغداد (٧/ ٢١٣)، النجوم الزاهرة (٣/ ٢٣٣)، سير أعلام النبلاء (١٥/ ٤٣)، تاريخ الخلفاء (٢٧٨)، شذرات الذهب (٢/ ٢٨٤)، مروج الذهب (٢/ ٥٠١)، المنتظم (٦/ ٢٤٣)، العبر (٢/ ١٨١)، البداية والنهاية (١١/ ١٦٩)، أسماء الخلفاء والولاة (ص ١٣٣)، الكامل في التاريخ (من سنة ٢٩٥ : ٣٢٠)، وقال الذهبي في سير أعلام النبلاء: ما ولي أحد قبله أصغر منه، وانخرم نظام الإمامة في أيامه، وصغر منصب الخلافة. وقد خُلع في أوائل دولته، وبايعوا ابن المعتز، ثم لم يتم ذلك.

وقتل ابن المعتز وجماعة، ثم إنه خُلع ثانياً في سنة سبع عشرة. وبذل خطة بعزل نفسه، وبايعوا أخاه القاهر، ثم بعد ثلاث أُعيد المقتدر، ثم في المرة الثالثة قُتل. وكان ربعة، مليح الوجه، أبيض بحمرة نزل الشيب بعارضيه، وعاش ثمانياً وثلاثين سنة. وقال أبو علي التنوخي: كان جيد العقل، صحيح الرأي، ولكنه كان مؤثراً للشهوات، لقد سمعت علي بن عيسى الوزير يقول: ما هو إلاّ أن يترك هذا الرَّجل - يعني المقتدر - النبيذ خمسة أيام، فكان ربما يكون في أصالة الرأي كالمأمون والمعتضد. قلت: كان منهوماً باللعب، والجواري، ولا يلتفت إلى أعباء الأمور، فدخل عليه الداخل ووهن دَسْتُه، وفارقه مؤنس الخادم مغاضباً إلى الموصل، وتملكها، وهزم عسكرها في صفر سنة عشرين... وكان سمحاً متلافاً للأموال، مَحَقَ ما لا يُعدُّ ولا يُحْصَى، ومات صافي [صاحب دار الخلافة] وتفرّد مؤنس بأعباء الأمور.

وأجلت الطائفة عن قتل عبد الله بن المعتز وأعادت المقتدر . . .[(١)].

لك صاحب البهجة ولم ير أعجب من أمر المقتدر وابن المعتز، فإن الخاصة والعامة اتفقت على الرضى بابن المعتز وتقديمه، وخلعوا المقتدر إذ توقعوا من ضعفه/ وأشفقوا من صغر سنه، وأبى الله إلاّ بقاءه وطول دولته ولتطول أيامه، فبلغت ما يبلغ خمساً وعشرين سنة، ليعلم أهل الاعتبار أن الأمر لله وما شاء فعل. [٥٢/ب]

وكان على عهد . . .[(٢)] البيعة للمقتدر بعهد أخيه، ثم تجديدها عند موته، ثم إعادتها مجددة أعلام الإسلام على احتفال ببغداد لأيامه.

فمنهم من القضاة الأكابر: أحمد بن إسحاق بن البهلول بن حسان بن سنان، تقلّد القضاء بالأنبار، ثم بمدينة المنصور.

والحسن بن أحمد بن يزيد الأصطخري، روى عنه ابن المظفر، والدارقطني، وصنّف كتاب القضاء، الذي لا نظير له.

والحسن بن عبد الله بن المرزبان، ولي قضاء القضاة ببغداد.

وعمر بن أبي محمد بن يوسف بن يعقوب بن إسماعيل بن حماد، ولي القضاء بمدينة السلام[(٣)] حياة أبيه، ثم بعده، ولم يزل قاضياً، وكان مالكي المذهب، صنّف مسنداً حسناً.

وعلي بن أبي الفهم التنوخي، ولي القضاء بالأهواز وكورها، مشهور الفضل والجلالة.

وعبد الله بن عبد الله بن موسى بن السائل الهمداني، ولي القضاء بمدينة المنصور، ثم قضاء القضاة أيام المطيع.

ومحمد بن عبد الرحمٰن أبو بكر بن قريعة، نادرة، وجيه في الظرف[(٤)] وسرعة الجواب المطبوع بالكلام المسجوع، وهو القائل، وقد مشى بين يديّ القاضي ابن معروف فقال: إن تقدمت فحاجب، وإن تأخّرت فواجب.

ومحمد بن عمر بن محمد بن مسلم أبو بكر بن الجعادي، وكان يحفظ مائة ألف حديث، ويذاكر بستمائة ألف.

ومحمد بن يوسف بن يعقوب بن إسماعيل بن حماد بن زيد أبو عمر القاضي،

---

(١) طمس في المخطوط.
(٢) طمس في المخطوط.
(٣) أي ببغداد، وكانت تسمى بمدينة السلام قديماً.
(٤) أي الطرافة وخفّة الدم المصحوب بالأدب الجمّ والوقار الكامل.

مولى آل جرير، نظر قضاء القضاة، وكان لا نظير له.

وعمر بن أبي عمر أبو نصر القاضي، ولي القضاء ببغداد.

ومن المحدّثين والفقهاء(١): أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد، شيخ القرّاء في وقته.

ومحمد بن جعفر بن محمد أبو بكر الآدمي أطيب الناس صوتاً بالقرآن.

حدّث أبو الفرج بسنده لأبي موسى القاضي قال: سمعت أبا جعفر بن برية يقول: رأيت أبا بكر الآدمي في النوم بعد موته بمدة، فقلت: ما فعل الله بك؟

فقال: أوقفني بين يديه وقاسيت شدائد وأموراً صعبة.

فقلت له: وقيامك الليالي والمواقف؟

قال: ما كان أشدّ عليّ منها لأنها كانت للدنيا.

[١/٥٣] فقلت له:/ فإلى أي شيء انتهى أمرك؟

فقال: قال لي تعالى: آليت على نفسي أن لا أعذّب أهل القرآن.

ومحمد بن الحسن بن محمد بن زياد أبو بكر النقاش، روى عنه أبو بكر بن مجاهد، والدارقطني.

ومحمد بن الحسن بن يعقوب أبو بكر بن مقسم، له كتاب في القراءات ومعاني القرآن سمّاه كتاب الأنوار، بديع في معناه.

وأحمد بن جعفر بن محمد بن عبد الله أبو الحسن المنادي. سمع أبا داود السجستاني وخلقاً كثيراً، وصنّف في علوم جمّة.

وأحمد بن جعفر بن محمد بن سلم الختلي، روى عنه الدارقطني، وابن أبي الفوارس وغيرهما.

وأحمد بن سليمان بن الحسن بن إسرائيل مع أبي داود، وأبي بكر بن أبي الدنيا، وكان يصوم الدهر.

وأحمد بن ناج بن عبد الله أبو الحسين الورّاق. روى عنه الدارقطني وأمثاله.

وأحمد بن محمد بن سعيد بن عبد الرحمٰن أبو العباس الكوفي الحافظ، المكثر، لم يُرَ أحفظ منه.

---

(١) أي الذين جمعوا بين الحديث والفقه وغلب عليهم التحديث أو كثرة الرواية، ولهم في الفقه وأصوله ومسائله باع طولى غير أنهم كانوا في الحديث أكثر اهتماماً بأسانيدها ومتونها، وعكفوا على دراسة وتدريس ذلك الفن من العلوم حتى اشتهروا به وذاع صيتهم فيه.

قال أبو الفرج الجوزي: نقلت كتبه من مكان إلى مكان فكانت خمسمائة حمل، وكان يقول: أحفظ مائة ألف حديث بالإسناد والمتن، وأذاكر بثلاثمائة ألف حديث.

وأحمد بن نصر بن طالب الحافظ، سمع عباساً الدراوردي، وروى عنه الدارقطني وقال أُسْتَاذ.

وإبراهيم بن حماد بن إسماعيل بن حماد بن ذرّ، روى عنه الدارقطني، والنيسابوري وقال: ما رأيت أعبد منه.

وإبراهيم بن محمد بن شحمويه، وكان من جُلّة الحفّاظ المكثرين، سمع من إسحاق بن خزيمة، وانتخب عليه ببغداد آداباً أبو الحسن الدارقطني.

وإسماعيل بن محمد أبو بكر الصفّار، وكان متعصّباً للسُّنة، معروف الفضل، إماماً في الحديث.

وإسماعيل بن علي بن إسماعيل الخطبي، روى عنه الدارقطني، وابن شاذان.

والحسن بن علي بن زيد أبو علي الحافظ النيسابوري، أوحد دهره في الحفظ والاتقان والورع.

ودعلج بن أحمد بن دعلج السجستاني، ذو الصدقات، والمجاورة بمكة، صنّف له الدارقطني المسند الكبير، وقال: لم أرَ في...[1] أثبت منه.

وعبد الله بن جعفر بن يوسف أبو القاسم الريحاني، يعرف بالأباوردي، من جلّة المحدّثين.

وعبد الله بن إسماعيل بن إبراهيم بن أبي عيسى بن أبي جعفر المنصور...[2]، إمام جامع مدينة المنصور، حدّث عن العطاردي وابن أبي الدنيا.

وعبد الله بن محمد بن زياد بن واصل أبو بكر النيسابوري، روى عنه ابن
[٥٣/ب] حسنونه بن المبارك، والدارقطني، وغيرهما/ وأفتى فيما ذُكر أربعين سنة، وكان يصلي الغداة بوضوء العشاء.

وعبد الله بن محمد بن محمد، ...[3] سافر البلاد، وحدّث ببغداد، وكان من أتقى المسلمين.

وعثمان بن أحمد بن عبد الله بن يزيد أبو عمر البغدادي المعروف بابن السماك، روى عنه الدارقطني، وابن شاه، وعلي بن الحسين.

---

(١) موضع النقط كلمة مطموسة بالمخطوط.
(٢) موضع النقط كلمة مطموسة بالمخطوط.
(٣) موضع النقط كلمة مطموسة بالمخطوط.

وأبو الفرج الأصفهاني الإمام المتعدِّد الدواوين، الشهير، صاحب الجامع.

ومحمد بن محمد بن الحسين بن إسحاق أبو علي الصواف، روى عنه الدارقطني . . .[١].

ومحمد بن أحمد بن يعقوب بن شيبة أبو بكر السدوسي، كان ثقة، سمع جده، وأحمد بن منصور . . .[١].

وأحمد بن جعفر الجريري المعروف بزوج الحرية، سمع محمد بن جرير الطبري، والبغوي، وغيرهما.

ومحمد بن الحسن بن عبد الله أبو بكر الآجُري، حدّث ببغداد، وله تصانيف جليلة.

ومحمد بن عبد الله بن إبراهيم بن عبد ربه أبو بكر الشافعي، روى عنه الدارقطني وابن بشّار وخلق كثير.

ومحمد بن العباس بن أحمد بن محمد بن عاصم أبو عبد الله بن أبي ذهل الضبي. حدّث ببغداد، سمع منه الدارقطني وغيره، وكان رئيساً جليلاً.

ومحمد بن مخلد بن حفص أبو عبد الله الدوري العطار، وكان على متسع الرواية مشهوراً بالعبادة.

ويوسف بن يعقوب بن البهلول أبو بكر الأزدي التنوخي، سمع الزبير بن بكار، وثعلب والحسن بن عرفة وغيرهم، وروى عنه محمد بن المظفر، والدارقطني وابن شاهين وجماعة.

ومن الفقهاء: أحمد بن علي أبو بكر الرازي، إمام الرأي في وقته، وإليه انتهت الرئاسة، وله تصانيف كثيرة.

والحسين بن القاسم أبو علي الطبري، صنّف كتاب المحرر، وكتاب الإيضاح.

وعبد الله بن الحسين بن دلال أبو الحسن الكوفي الذي انتهت إليه رئاسة الحنفية.

وعبد العزيز بن أحمد بن جعفر بن داود، أبو بكر الفقيه البغدادي، عُرف بغلام الخلال[٢]. حدّث عن خلق كثير أحدهم البغوي، وله مصنفات حسنة.

---

(١) موضع النقط كلمة مطموسة بالمخطوط.

(٢) في المخطوط: الحلل. وهو تحريف، وقد حدث في اسمه تقديم وتأخير وتحريف حيث إن صوابه: عبد العزيز بن جعفر بن أحمد بن يزداد، أبو بكر البغدادي، (راجع سير أعلام النبلاء ١٦/ ١٤٣).

وعمر بن الحسين بن عبد الله أبو القاسم الخِرَقي[(١)] صاحب الكتاب في الفقه على مذهب الإمام أحمد، خرج من بغداد لما ظهر سبّ الصحابة.

ومن علماء اللسان: إبراهيم بن محمد بن عرفة...[(٢)]

والحسن بن عبد الغفار أبو الحسن الفارسي النحوي.

وعبد الله بن جعفر بن درستويه[(٣)].

والفتح بن عثمان بن جِنّي.

وأبو عمر الزاهد غلام ثعلب.

وأبو بكر الأنباري.

ومن الصوفية: بنان بن محمد بن حمدان.

وجعفر بن محمد بن نُصير.

[1/54] وأبو بكر/ الشبلي رضي الله عنهم أجمعين.

وهؤلاء هم المستدعون لبيعة...[(٤)] عُدل عنهم إلى غيرهم لما احتفل للبيعة وجمع كل مشهوري الناس...[(١)] المرجوح الخفي الوضوح، غفر الله لنا أجمعين.

رجع التاريخ والحديث إلى أيام المقتدر بالله وفيها كان عاد الحجر الأسود بعد غيبة عند القرامطة اثنتين وعشرين سنة.

وذكر الإمام أبو الفرج رحمه الله مشيداً ببذخ دولته: أنه قدم عليه رسول ملك الروم في المهادنة والفداء سنة خمس وثلاثمائة، وكان الرسول غلاماً حدث السن، ومعه شيخ، فأُقيمت لهما الأنزال الواسعة، وزين قصر[(٥)] الخلافة، وصفّ لهما العساكر بالأبارقة التامة، وكان عدد العساكر مائة وستين ألفاً بين فارس وراجل،

(١) في المخطوط: الجُرمي، وهو تحريف. قال الذهبي في ترجمته (١٥/ ٣٦٣): العلاّمة شيخ الحنابلة، أبو القاسم عمر بن الحسين بن عبد الله، البغدادي، الخِرَقيّ، الحنبلي، صاحب المختصر المشهور (وهو ما شرحه ابن قدامة باسم: «المغني» المطبوع المشهور) في مذهب الإمام أحمد، كان من كبار العلماء، تفقه بوالده الحسين صاحب المروذي، وصنّف التصانيف.
قال القاضي أبو يعلى: كانت لأبي القاسم مصنفات كثيرة لم تظهر لأنه خرج من بغداد لما ظهر بها سبّ الصحابة فأودع كتبه في دار، فاحترقت الدار. قلت: وقدم دمشق، وبها توفي، وقبره ظاهر يزار بمقبرة باب الصغير. قال أبو بكر الخطيب: زُرتُ قبره. وتوفي سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة.

(٢) طمس في المخطوط. وهو ابن سليمان أبو عبد الله العتكي.

(٣) وهو أبو محمد، الفارسي النحوي.

(٤) طمس في المخطوط.

(٥) زيادة يتطلبها السياق.

وبعدهم الغلمان الحجرية، والخدم الخواص ذوو المناطق المحلاة والبزّة الظاهرة وعددهم سبعة آلاف، فنادم أربعة آلاف منهم بيض، وسائرهم سود، وكان عدد الحجّاب سبعمائة حاجب.

وقد صُفتّ الزوارق والطيارات في دجلة بأكمل زينة.

ومَرَّ الرسول على دار نصر القصوري فهاله أمرها حتى ظنه [قصر] الخليفة، فقيل له: هو الحاجب.

ومَرَّ بدار الوزير فشاهد ما هاله، وكانت الستور ثمانية وثلاثين ألف ستراً، الديباجة المذهبة فيها اثنا عشر ألفاً وخمسمائة، وكان في الدار من الوحش قطعان تأنس الناس، وتأكل من أيديهم، ومن السباع مائة، ومن الطير اثنان وعشرون ألفاً. ثم أخرج إلى دار الشجرة، وكانت شجرة في وسط بركة فيها ماء صافٍ، والشجرة ثمانية عشر غصناً لكل غصن منها أفنان كثيرة عليها الطير، والعصافير المنوّعة مُفضَّضة ومذهّبة، وهي تتمايل، ولها ورق مختلف الألوان، وكل طير من الطيور يصفِّر.

ثم أُدخل إلى الفردوس، وكانت فيه من الفرش والأثاث ما لا يحصى.

قال المخبر: ويطول شرح ما شاهده الرسول من العجائب إلى أن وصل [إلى][(١)] المقتدر، وهو جالس على سرير أبنوس قد فُرش بالوشي المطرّز على كنبة السرير تسعة عقود معلّقة وعلى كسيرته تسعة أخرى من أفخر الجواهر يغلب ضوؤها على ضوء النهار.

فلما نظر الرسولان إلى الخليفة وقفا منه على نحو مائة ذراع.

وابن الفرات قائم بين يديه، والترجمان قائم يخاطبه، وهو يخاطب الخليفة.

ثم أُخرجا وطيف بهما في الدار حتى أُخرجا إلى دجلة، وقد/ أُقيمت على الخطوط بها الصلة مزينة والزرافات والسباع والفهود. [٥٤/ب]

ثم خلع عليهما وحمل إليهما خمسون بدرة في كل بدرة خمسة آلاف درهم.

قلت: أذكرتني هذه الحكاية...[(٢)] بايع السلطان أبي الحجاج مصطفى بالأندلس رحمة الله عليه وقد استخرج...[(٢)] وتوقفني على ذلك تأنيساً منه وفضلاً وإطرافاً، فرأيت والله بما سألته وأكل...[(٢)] مقال، وكل على قدره فَبُهِتُّ وأظهرت الاغتمام بما رأيت، وكان ذلك...[(٢)] الجارية على المسلمين بطريق التي مُحِّصَ بها أهل العُدوتين، فقال لي: أراك مطرقاً مفكِّراً؟

---

(١) زيادة يتطلبها السياق.

(٢) طمس في المخطوط.

فقلت: أيدك الله، تعارض عندي جلالة هذه الذخائر مع الخوف عليها، فإنها محتاجة إلى جيش وقوّة تحرسها من نسبتها، تحرسها ولو دعى ذلك إلى إنفاق ثمن شطرها، رأيت على حفظ. . .[١] كان صواباً من العمل.

فخجل ووافق على ذلك بعض الموافقة، فوالله ما مرَّ من الزمان بعد هذا المجلس كثير حتى توفي، وصار الأمر إلى ولده واتصلت الغفلة والدّعة إلى أن وقع التدبير على الدولة من بعض صعاليك القرافة لإضاعة الحزم. . .[١] وآل الأمر بمعظم تلك الذخيرة إلى استقرارها بيد طاغية الروم، انتزعها من يد المتغلب وقد لحق به فارّاً فقتله، وكان قد فوّت منها بالبيع كثيراً، ولم أنصرف من الأندلس حتى حِيزت منها جملة بالحِيَل عليها وكنت أقول: رحمة الله على السلطان وددت أن أُريه مصداق قولي.

والدول الغالبة المقتبلة الشبيبة والقوّة، فلما اعتدت. . .[٢] ذات ولا عوّلت عليه، إنما ينفع الدول الاقتصاد في النفقة، والعدل في الرعية. . .[١] العقد مع الله والسريرة، ولم يمر إلاّ قليل وتنافس مؤنس المظفر من الأتراك وغيره من قوّاد المقتدر، ونابذه، وخرج عن الحضرة، وبذل المال في الجند، فتلاحق به الرجال، وانضاف إليه يلبق التركي، وتاروك، وأمثالهما، وكتب إلى المقتدر يطلب منه التخلي عن. . .[٣] في خبر طويل. فخرج إليه المقتدر كارهاً، وقال له رجاله: . . .[١] إن خرجت معنا إلى. . .[١] وإلا تقرّبنا به الليلة.

فخرج وكان البقاء بباب بغداد، وأسلم المقتدر قومه، وقتل وحمل رأسه إلى مؤنس[٤] يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من شوّال سنة عشرين وثلاثمائة.

---

(١) طمس في المخطوط.

(٢) طمس في المخطوط.

(٣) طمس في المخطوط.

(٤) قال ابن الأثير في الكامل في أحداث سنة (٣٢٠) في ذكره لقتل المقتدر: كان مؤنس في الراشدية لم يشهد الحرب فلما حُمل رأس المقتدر إليه بكى ولَطَمَ وجهه ورأسه وقال: يا مفسدون ما هكذا أوصيتكم. وقال: قتلتموه، وكان هذا آخر أمره، والله لنقتلنّ كلنا، وأقلّ ما في الأمر أنكم تظهرون أنكم قتلتموه خطأ، ولم تعرفوه. وتقدم مؤنس إلى الشماسية، وأنفذ إلى دار الخليفة من يمنعها من النهب. ومضى عبد الواحد بن المقتدر، وهارون بن غريب، ومحمد بن ياقوت، وابنا رائق إلى المدائن، وكان ما فعله مؤنس سبباً لجرأة أصحاب الأطراف على الخلفاء، وطمعهم فيما لم يكن يخطر لهم على بال.

وانخرقت الهيبة، وضعف أمر الخلافة حتى صار الأمر إلى ما نحكيه على أن المقتدر أهمل من أحوال الخلافة كثيراً، وحكم فيها النساء والخدم.

وفرط في الأموال، وعزل من الوزراء وولّى ما أوجب طمع أصحاب الأطراف، والنواب، =

وبقيت جثته مطروحة إلى أن أمر مؤنس بمواراته.

وقيل: طُرِح في دجلة، وبقي/ مؤنس في مضاربه بباب الشماسية من بغداد حتى أقام القاهر الخلافة. [1/٥٥]

وكان المقتدر مع انفساح مدَّته وبذخ حالته مضعفاً مغلوباً، ذود الأتراك التي. . .(١).

وذكر الطبري أن السيدة أم المقتدر أمرت قهرمانة. . .(١) بالرعاية للمظالم، وتنظر في كتب الناس.

فجلست أياماً، وأنكر الناس ذلك، وكثر عيبهم لها وطعنهم على هذا الأمر إلى أن أمرت القاضي أبا الحسين، فجلس معها. . .(٢) وتركه الناس إلى ما كانوا ناجزوه من قعودها ونظرها.

وخُلع المقتدر ثانية سنة سبع عشرة وثلاثمائة.

ودعى محمد بن المعتضد، فحضر وسمى القاهر بالله ودخل. . .(١) إلى داخل القصر مُسَلماً في نفسه، وأبى من الإشهاد بالخلع(٣). ثم أن الجند من الرَّجالة، وكانوا عشرين ألفاً، لم تعتبرهم المماليك، ولا عملت حسابهم، فطلبوا الزيادة، فلم يُعطوا شيئاً.

فدخلوا إلى دهليز القصر وشتموا تاروط مدبّر الأمر، وقتلوه، وقتلوا عجيباً الخادم وسواهما، ومزّقوا أشلاءهم، وأوقعوا النهب ببغداد، وهرب القاهر.

= وخروجهم عن الطاعة. وكان جملة ما أخرجه من الأموال تبذيراً وتضييعاً في غير وجه نيفاً وسبعين ألف ألف دينار سوى ما أنفقه في الوجوه الواجبة، وإذا اعتبرت أحوال الخلافة في أيامه وأيام أخيه المكتفي، ووالده المعتضد، رأيت بينهم تفاوتاً بعيداً. وكانت مدة خلافته أربعاً وعشرين سنة، وأحد عشر شهراً، وستة عشر يوماً. وكان عمره ثمانية وثلاثين سنة ونحواً من شهرين.

(١) طمس في المخطوط.

(٢) طمس في المخطوط.

(٣) في تاريخ الخلفاء (ص ٣٨٣) قال السيوطي: وأشهد عليه بالخلع، وأحضر محمد بن المعتضد، وبايعه مؤنس والأمراء، ولقّبوه القاهر بالله، وفوّضت الوزارة إلى أبي علي بن مُقْلَة، وذلك يوم السبت، وجلس القاهر يوم الأحد، وكتب الوزير عنه إلى البلاد، وعمل الموكب يوم الاثنين. فجاء العسكر يطلبون رزق البيعة، ورزق السنة ولم يكن مؤنس حاضراً، فارتفعت الأصوات فقتلوا الحاجب، ومالوا إلى دار مؤنس يطلبون المقتدر ليردّوه إلى الخلافة، فحملوه على أعناقهم من دار مؤنس إلى قصر الخلافة. وأُخذ القاهر، فجيء به وهو يبكي، ويقول: الله الله في نفسي.
فاستدناه، وقبّله، وقال له: يا أخي أنت والله لا ذنب لك، والله لا يجري عليك مني سوء أبداً، فطب نفساً. وسكن الناس، وعاد الوزير فكتب إلى الأقاليم بعود الخليفة إلى خلافته، وبذل المقتدر الأموال للجند.

وأخرج المقتدر فبايعه الناس بيعة مجددة، واستولى الرجال ومقدموهم على الأمر إلى أن وقع التدبير على قتلهم وتفريق جماعاتهم، فانقرضوا، وتمادى أمر المقتدر إلى حيث وقت الله.

وفي أيامه دخل القرمطي مكة، فأوقع بالناس في المسجد الحرام، فقتلهم متعلقين بأستار الكعبة(١).

وقلع الحجر، وأبواب الكعبة، وأخذ ما كان فيها من ذخائر الخلفاء، وكان منها الدُّرة اليتيمة، وتزن أربعة وعشرين مثقالاً، وقُرط مارية، وقرن كبش إبراهيم، وعصا موسى ملبسين بالذهب مُرَصَّعِين بالجوهر، وطبق، ومَكَبَّة من الذهب، وسبعة عشر قنديلاً، وثلاث محاريب من الفضة كانت تنصب للناس في صدر البيت.

دولة القاهر بالله(٢)

وهو محمد بن أحمد بن طلحة بن جعفر بن محمد بن هارون الرشيد.

---

(١) وأضاف السيوطي أيضاً في تاريخ الخلفاء فقال: وفي هذه السنة المقتدر ركب الحاج مع منصور الديلمي، فوصلوا إلى مكة سالمين فوافاهم يوم التروية عدوّ الله أبو طاهر القرمطي، فقتل الحجيج في المسجد الحرام قتلاً ذريعاً، وطرح القتلى في بئر زمزم، وضرب الحجر الأسود بدبوس فكسره، ثم اقتلعه، وأقام بها أحد عشر يوماً، ثم رحلوا وبقي الحجر الأسود عندهم أكثر من عشرين سنة، ودفع لهم فيه خمسون ألف دينار، فأبوا حتى أُعيد في خلافة المطيع.
قيل: إنهم لما أخذوه هلك تحته أربعون جملاً من مكة إلى هجر، فلما أُعيد حمل على قعود هزيل فسمن. قال محمد بن الربيع بن سليمان: كنت بمكة سنة القرامطة، فصعد رجل لقلع الميزاب وأنا أراه، فعيل صبري، وقلت: يا رب ما أحلمك، فسقط الرجل على دماغه فمات، وصعد القرمطي على باب الكعبة وهو يقول:

أنا بالله وبالله أنا ... يخلق الخلق وأفنيهم أنا

ولم يفلح أبو طاهر القرمطي بعدها، وتقطّع جسده بالجُدري.

(٢) من مصادر ترجمته: تاريخ بغداد (١/ ٣٣٩)، أسماء الخلفاء والولاة (ص ١٣٤: ١٣٥)، الكامل في التاريخ من سنة (٣٢٠: ٣٢٢)، سير أعلام النبلاء (١٥/ ٩٨)، مروج الذهب (٢/ ٥١٣)، المنتظم (٦/ ٢٤١)، النبراس (١١٣)، العبر (٢٥٠)، الوافي بالوفيات (٢/ ٣٤)، نكت الهيمان (٢٣٦)، البداية والنهاية (١١/ ١٧٠)، النجوم الزاهرة (٣/ ٢٠٣)، تاريخ الخلفاء (٣٨٦)، شذرات الذهب (٢/ ٣٤٩).
قال الذهبي في سير أعلام النبلاء: الخليفة أبو منصور محمد... كان أسمر مربوعاً، أصهب الشعر، طويل الأنف، فيه شرٌّ، وجبروت، وطيش. وقد كان المُقتدر خلع في سنة سبع عشرة وثلاثمائة فبايعوا القاهر هذا، وحُكِمَ ثم تعصّب أصحاب المقتدر له، وأعيد بعد قتل جماعة منهم أبو الهيجاء بن حمدان، وعفا المقتدر عن أخيه وحضر بين يديه باكياً، فقال: يا أخي، أنت لا ذنب لك، ثم بايعوه بعد المقتدر، فصادر حاشية أخيه، وعذّبهم، وضرب أم المقتدر بيده، وهي عليلة، ثم ماتت معلقة بحبل، وعذّب أم موسى القهرمانة، وبالغ في الإساءة، فنفرت منه القلوب، وطلب =

ولي بعد أخيه المقتدر، والتزم البيعة إلاّ أنه استثنى نفقة الجند فاعتذر بعُدمة المال.

ولم يكن له يوم بويع غير قميص ورداء، وكان حازماً مقداماً، جريء النفس على البغاة.

واشتد خوفه على نفسه من الأتراك، واتخذ حربة حملها دائماً.

ثم رصد القوم. . ./ . . .(١) عيناه بالنار. [٥٥/ب]

وقيل: سُمِلَ، ومعنا: فجّرت عيناه.

ولم يكن يُغمل. . .(١) وخلع لخمس بقين من جمادى الأولى سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة.

= ابن مُقْلَة من الأهواز واستوزره، وكان قد نُفي.

ولم يكن القاهر متمكّناً من الأمور، وحكم عليه علي بن يلبق الرافضي الذي عزم على سَبّ معاوية رضي الله عنه على المنابر، فارتجّت العراق، وقبض على شيخ الحنابلة البربهاري، ثم قوي القاهر، ونهب دور مخالفيه، وطيّن على ولد أخيه المكتفي بين حيطين، وضرب ابن يلبق، وسجنه، ثم أمر بذبحه، وبذبح أبيه، وذبح بعدهما مؤنساً الكبير ويُمناً، وابن زيرك.

وبذل للجند العطاء، وعظم شأنه، ونادى بتحريم الغناء والخمر وكسّر الملاهي، وهو مع ذلك يشرب المطبوخ والسُّلاف، ويسكر ويسمع القينات. واستوزر غير واحد، وقتل أبا السرايا بن حمدان، وإسحاق النوبختي ألقاهما في بئر، طُمّت لكونهما زايداه في جارية قبل الخلافة. وبقي ابن مُقْلَة في اختفائه يراسل الجند ويُشغّبهم على القاهر، ويخرج متنكّراً في زي عجمي، وفي زي شحاذ، وأعطى منجماً ذهباً ليقول للقوّاد عليكم قطع من القاهر، ويعطي دنانير لمعبري الأحلام، فإذا قصّ سيما مناماً خَوّفوه من القاهر جداً ـ وكان رأس الساجية ـ فأضمر الشر وانتدب طائفة لاغتياله وبكروا، وكان نائماً به سُكر، وهرب وزيره، وحاجبه، فهجموا عليه بالسيوف، فهرب إلى سطح، فاستتر ثم ظفروا به، وبيده سيف مسلول، فقالوا: انزل، فامتنع، فقالوا: نحن عبيدك، ثم فوّق واحد إليه سهماً وقال: انزل وإلاّ قتلتك. فنزل، فأمسكوه في سادس جمادى الآخرة.

وبايعوا الراضي بالله بن محمد بن المقتدر، ثم خُلع وأُكحل بمسمار لسوء سيرته وسفكه الدماء.

وكانت خلافته سنة ونصفاً وأسبوعاً. قال الصولي: كان أهوج سفاكاً للدماء، كثير التلوّن، قبيح السيرة، مُدْمِن الخمر، ولولا جودة حاجبه سلامة لأهلك الحرث والنسل. وكان قد صنع حربة يحملها فلا يطرحها حتى يقتل إنساناً. قال محمد بن علي: أحضرني القاهر يوماً وبيده حربة، فقلت: الأمان. قال: على الصدق. قلت: نعم. قال: أسألك عن خلفاء بني العباس؟ فذكرت له من أحوالهم، وهو يسأل عنهم واحداً واحداً. فقال: قد سمعت قولك وكأني مشاهد القوم. وقام وبيده الحربة، فاستسلمت للقتل، فعطف إلى دار الحُرم. . .

قال محمود الأصبهاني: كان سبب خلعهم للقاهر سوء سيرته، وسفكه للدماء، فامتنع عليهم من الخلع، فسملوه حتى سالت عيناه. وفي أيامه ظهر محمد بن علي بن أبي العزاقر الشلمغاني، وادعى الإلهية ببغداد، وأنه يحيي الموتى، وتعصّب له ابن مُقْلَة، وأنكر ما قيل عنه، ثم قُتِلَ، وقُتِل بسببه الحسين بن القاسم، وأبو إسحاق إبراهيم بن أبي الشلمغاني.

(١) موضع النقط طمس بالمخطوط.

وولي الأمر بعده الراضي بالله.

دولة الراضي بالله(١)

وهو محمد بن أحمد بن طلحة بن جعفر بن محمد بن هارون الرشيد.

وكان أديباً، ظريفاً كثير المجالسة للأدباء والمغنين.

---

(١) من مصادر ترجمته: تاريخ بغداد (٢/ ١٤٢)، أخبار الرضي والمنقي للصولي (١/ ١٨٥)، مروج الذهب (٢/ ٥١٩)، سير أعلام النبلاء (١٥/ ١٠٣)، معجم الشعراء (٤٣٠)، المنتظم (٦/ ٢٦٥)، النبراس (١١٤)، الكامل في التاريخ (من سنة ٣٢٢: ٣٢٩)، العبر (٢/ ٢١٨)، فوات الوفيات (٢/ ٣٧٥)، الوافي بالوفيات (٢/ ٢٩٧)، مرآة الجنان (٢/ ٢٩٦)، البداية والنهاية (١١/ ١٧٨)، النجوم الزاهرة (٣/ ٢٧١)، تاريخ الخلفاء (٣٩٠)، شذرات الذهب (٢/ ٣٢٤)، رسالة أسماء الخلفاء والولاة (ص ١٣٥).

قال الخطيب في تاريخ بغداد في ترجمة الراضي: أمه أم ولد رومية تسمى: ظلوم، أدركت خلافته. ومولده في رجب سنة سبع وتسعين ومائتين. وتوفي ليلة السبت لست عشرة ليلة خلت من ربيع الأول من تسع وعشرين وثلاثمائة. ودفن ليلة الأحد في الرصافة. وكانت خلافته ست سنين، وعشرة أيام. وتوفي وهو ابن إحدى وثلاثين سنة، وثمانية أشهر. وكان قصير القامة، نحيف الجسم، أسمر رقيق السمرة، دريّ اللون، أسود الشعر سبطه، في وجهه طول، وفي مقدم لحيته تمام، وفي شعرها رقّة، هكذا رأيته.

قال لنا الحسن بن أبي بكر: كانت مدّة خلافة الراضي ست سنين وعشرة أشهر، ومات بمدينة السلام... قال الشيخ أبو بكر: كان للراضي فضائل كثيرة، وختم الخلفاء في أمور عدّة، فمنها أنه آخر خليفة له شعر مدوّن، وآخر خليفة انفرد بتدبير الجيش والأموال... قال: سمعت أبا بكر محمد بن يحيى الصولي يقول: سمعت أمير المؤمنين الراضي بالله يقول: لله أقوام هم مفاتيح الخير، وأقوام مفاتيح الشر، من أراد به خيراً قصد به أهل الخير وجعله الوسيلة إلينا فتقضى حاجته، فهو الشريك في الثواب، والشكر، ومن أراد الله به سوءاً عدل به إلى غيرنا، فهو الشريك في الوزر والإثم، والله المستعان على كل حال.

... حدثنا أبو طاهر محمد بن علي البيع قال: أنبأنا أحمد بن محمد بن موسى القرشي قال: قرىء على أبي بكر محمد بن يحيى الصولي وأنا أسمع للراضي بالله:

كل صفو إلى كدر ... كل أمن إلى حذر
ومصير الشباب للمو ... ت فيه أو الكبر
درَّ درُّ المشيب من ... واعظ ينذر البشر
أيها الأمل الذي ... تاه في لجّة الغرر
أين من كان قبلنا ... دَرَسَ الشخص والأثر
سيرد المُعَار من ... عمره كله خطر
رب إني ذخرت عنـ ... ـدك أرجوك مدَّخر
إنني مؤمن بما ... بَيَّنَ الوحي في السور
واعترافي بتركي نفـ ... ـعي وإيثاري الضرر
رب فاغفر لي الخطيـ ... ـئة يا خير من غفر

ومات حتف أنفه ببغداد سنة تسع وعشرين وثلاثمائة.

وولي الأمر بعده أخوه المتقي(١).

والراضي آخر خليفة خطب على المنبر يوم الجمعة.

وآخر خليفة انفرد بتدبير الجيوش.

والكلام في حروب الأعداء كثير.

وآخر خليفة له شعر مُدَوَّن.

وآخر خليفة كانت نفقته قصداً. رحمة الله عليه.

دولة المتقي بالله(٢)

وهو إبراهيم بن جعفر بن أحمد بن طلحة. وكان القَيِّم بأمره توزون التركي، وابن تكلا النصراني.

---

(١) في المخطوط: المقتفي. وهو تحريف، والصواب ما أثبته.

(٢) من مصادر ترجمته: سير أعلام النبلاء (١٥/ ١٠٤)، أخبار الصولي (١٨٦)، مروج الذهب (٢/ ٥٣٠)، تاريخ بغداد (٦/ ٥١)، المنتظم (٦/ ٣١٦)، الكامل في التاريخ من سنة (٣٢٩: ٣٥٧)، النبراس (١١٩)، العبر (٢/ ٣٠٧)، الوافي بالوفيات (٥/ ٣٤١)، نكت الهيمان (٨٧)، تاريخ الخلفاء (٣٩٤)، شذرات الذهب (٣/ ٢٢)، أسماء الخلفاء والولاة (ص ١٣٦).
قال السيوطي في تاريخ الخلفاء في ترجمته: بويع له بالخلافة بعد موت أخيه الراضي وهو ابن أربع وثلاثين سنة. وأمه أمة اسمها خلوب، وقيل: زهرة. ولم يغير شيئاً قط، ولا تَسَرَّى على جاريته التي كانت له. وكان كثير الصوم والتعبّد، ولم يشرب نبيذاً قط، وكان يقول: لا أريد نديماً غير المصحف. ولم يكن له سوى الاسم والتدبير لأبي عبد الله أحمد بن علي الكوفي كاتب يَحْكُم...
وفي سنة ثلاثين... خرج أبو الحسن علي بن محمد اليزيدي، فخرج لقتاله الخليفة، وابن رائق فهزما، وهرب إلى الموصل، ونهبت بغداد، ودار الخلافة، فلما وصل الخليفة إلى تكريت وجد هناك سيف الدولة أبا الحسن علي بن عبد الله بن حمدان، وأخاه الحسن، وقُتِلَ ابن رائق غيلة، فولّى الخليفة مكانه الحسن بن حمدان ولقّبه ناصر الدولة، وخلع على أخيه، ولقّبه سيف الدولة، وعاد إلى بغداد وهما معه، فهرب اليزيدي إلى واسط.
ثم ورد الخبر في ذي القعدة أن اليزيدي يريد بغداد فاضطرب الناس، وهرب وجوه أهل بغداد، وهرب الخليفة ليكون مع ناصر الدولة، وسار سيف الدولة لقتال اليزيدي، فكانت بينهما وقعة هائلة بقرب المدائن، وهزم اليزيدي، فعاد بالويل إلى واسط، فساق سيف الدولة إلى واسط، فانهزم اليزيدي إلى البصرة.
وفي سنة إحدى وثلاثين وصلت الروم إلى أرزن، وميافارقين، ونصيبين، فقتلوا وسبوا ثم طلبوا منديلاً في كنيسة الرها، يزعمون أن المسيح مسح به وجهه، فارتسمت صورته فيه، على أنهم يطلقون جميع من سبوا، فأرسل إليهم، فأطلقوا الأسرى. وفيها هاج الأمراء بواسط على سيف الدولة فهرب في البريد يريد بغداد، ثم سار إلى الموصل أخوه ناصر الدولة خائفاً لهرب أخيه، =

وغلب عليه، فلم يكن في يده من الأمر شيء.

وخاطب لما خاف على نفسه في السِّر أبا محمد ناصر الدولة، وأبا الحسن سيف الدولة ابن حمدان في أن يجيراه، ويعوّض لهما المُلك، ثم لحق بالموصل، والتقى بجيش توزون التركي، وكانت الهزيمة على جيش توزون.

وعاد المتقي إلى بغداد مهادناً إيّاه، واستخلف توزون، واطمأن إلى عهده فخانه، وخلعه، وكحل عينه بالقارّ في صفر من سنة تسع وعشرين وثلاثمائة[1].

وقدم بغداد المستكفي بالله.

دولة المستكفي بالله[2]

وهو عبد الله بن المكتفي بالله علي بن أحمد بن طلحة بن جعفر المتوكل.

= وسار من واسط توزون، فقصد بغداد، وقد هرب منه سيف الدولة إلى الموصل. فدخل توزون بغداد في رمضان، فخلع عليه المتقي، وولاّه أمير الأمراء.

ثم وقعت الوحشة بين المتقي وتوزون، فأرسل توزون أبا جعفر بن شيرزاد من واسط إلى بغداد فحكم عليها، وأمر ونهى. فكاتب المتقي بن حمدان بالقدوم عليه، فقدم في جيش عظيم، واستتر ابن شيرزاد. فسار المتقي بأهله إلى تكريت، وخرج ناصر الدولة بجيش كثير من الأعراب، والأكراد، إلى قتال توزون، فالتقيا بعكبرا، فانهزم ابن حمدان والمتقي إلى الموصل، ثم تلاقوا مرة أخرى، فانهزم ابن حمدان والخليفة إلى نصيبين. فكتب الخليفة إلى الاخشيد صاحب مصر أن يحضر إليه، ثم بان له من بني حمدان الملل والضجر، فراسل الخليفة توزون في الصلح، فأجاب، وبالغ في الإيمان.

ثم حضر الاخشيد إلى المتقي، وهو بالرقة، وقد بلغه مصالحة توزون، فقال: يا أمير المؤمنين أنا عبدك، وابن عبدك، وقد عرفت الأتراك فجورهم وغدرهم، فالله الله في نفسك، سِرْ معي إلى مصر فهي لك وتأمن على نفسك. فلم يقبل، فرجع الاخشيد إلى بلاده، وخرج المتقي من الرقة إلى بغداد في رابع المحرم سنة ثلاث وثلاثين، وخرج للقائه توزون، فالتقيا بين الأنبار وهيت، فترجّل توزون، وقبّل الأرض، فأمره المتقي بالركوب، فلم يفعل، ومشى بين يديه إلى المخيم الذي ضرب له، فلما نزل قبض عليه وعلى ابن مُقْلَة ومن معه. ثم كحّل الخليفة، وأدخل بغداد مسمول العينين، وقد أخذ منه الخاتم والبردة والقضيب.

وأحضر توزون عبد الله بن المكتفي، وبايعه بالخلافة، ولقّب المستكفي بالله. ثم بايعه المتقي المسمول وأشهد على نفسه بالخلع على ذلك لعشر بقين من المحرم. وقيل: من صفر، ولما كحل قال القاهر:

صرت وإبراهيم شيخي عمي لا بد للشيخين من مصدرِ
ما دام توزون له إمرة مطاعة، فالميل في المجمرِ

ولم يَحُلْ على توزون الحول حتى مات. وأما المتقي، فإنه أُخرج إلى جزيرة مقابلة للسندية فسجن بها، فأقام بالسجن خمساً وعشرين سنة إلى أن مات في شعبان سنة سبع وخمسين.

(١) كذا في المخطوط، وفي غيره من المصادر سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة.

(٢) من مصادر ترجمته: تاريخ بغداد (١٠/ ١٠)، تاريخ الخلفاء (٣٩٧)، سير أعلام النبلاء (١٥/ =

وكان مضعفاً بعيداً عن النجابة، وهو الذي بلغ من الإخلال بالرسوم، وإبعاد الأمد في التخلّف والإضاعة أن أمر حسناء الشيرازية العجوز قيمة الجواري في قصره بالركوب متعمّمة مُتقلّدة سيفاً، والقعود للنظر في المظالم، والحكم بين الناس وبين القضاة والفقهاء.

وقيل: إن بطره العنيف مقرون بالضعف وقلّة النجابة. وكان بينه وبين الفضل بن المقتدر المسمّى المطيع بالله منافرة، ومنافسة، وعداوة، ومشاحة على اللعب/ [١/٥٦] بالحمام، والكباش، والديوك.

= ١١١)، مروج الذهب (٢/ ٥٤٠)، المنتظم (٦/ ٣٣٩)، الكامل في التاريخ (من سنة ٣٣: ٣٤)، النبراس (١٢٠)، العبر (٢/ ٢٤٥)، أسماء الخلفاء والولاة (ص ١٣٦)، نكت الهيمان (١٨٢)، البداية والنهاية (١١/ ٢١٠)، النجوم الزاهرة (٣/ ٢٩٩)، شذرات الذهب (٢/ ٣٤٥).
قال الذهبي في سير أعلام النبلاء في ترجمته: كان ربع القامة، مليحاً، معتدل البدن، أبيض بحمرة، خفيف العارضين. أمه أم ولد. بُويع وقت خُلع المتقي لله، وله يومئذ إحدى وأربعين سنة. قام ببيعته توزون، فأقبل أحمد بن بويه، واستولى على الأهواز والبصرة وواسط، فبرز لمحاربته جيش بغداد مع توزون، فدام الحرب بينهما أشهراً، وانهزم فيها توزون ولازمه الصرع، وضاق بأحمد الحال والقحط، فردّ إلى الأهواز، وقطع توزون الجسر وراءه وعاد إلى بغداد مشغولاً بنفسه. ووزر أبو الفرج السامري، ثم عزله توزون بعد أربعين يوماً، وأغرمه ثلاثمائة ألف دينار، وردُّ إلى الوزارة أبا جعفر بن شيرزاد. واشتد بالعراق القحط، ومات الناس جوعاً، وهلك ملك الأمراء توزون في أول سنة أربع، فطمع في منصبه ابن شيرزاد، وحلّفَ العساكر، ونزل بظاهر بغداد.
وبعث المستكفي إليه الخِلَع والإقامات، فصادر التجّار والكتّاب، وسلّط جنده على العوام. فهرب الناس، وانقطع الجلب، ووهن أمن بغداد. وأما أحمد بن بُويه فقصد بغداد، ونزل باجسراي، وهرب الأتراك إلى الموصل، واستتر المستكفي، وابن شيرزاد، فنزل معزّ الدولة أحمد بن بويه الشماسية، وبعث إليه الخليفة التُّحَف والخِلَع، ثم حضر وبايع، فلقّبه الخليفة بمعز الدولة، ولقّب أخاه عليّاً عماد الدولة، وأخاه الآخر حسن رُكن الدولة. وضُرِبَت أسماؤهم على السِّكّة، ثم ظهر ابن شيرزاد، وقرر مع معزّ الدولة أموراً منها: في الشهر للخليفة مائة وخمسون ألف درهم ليس إلاّ.
وكانت عَلم القهرمانة معظمة عند المستكفي تأمر وتنهي، فعَلِمَتْ دعوة للأمراء ناتهمها معز الدولة، وكان أصفهبذ قد شفع إلى الخليفة في شيعي مغبن فردّه، فحقد.
وقال لمعزّ الدولة: الخليفة يراسلني فيك، فتخيل منه. ثم دخل على الخليفة اثنان من الديلم نطلبا منه الرزق، فمدَّ يده للتقبيل، فجبذاه من سرير الخلافة، وجرّاه بعمامته، ونهبت داره، وأمسكوا القهرمانة، وجماعة، وساقوا المستكفي ماشياً إلى منزل معزّ الدولة، فخلع المستكفي وسَمَله.
وكانت خلافته ستة عشر شهراً. وبايعوا في الحال الفضل بن المقتدر، ولقبوه المطيع لله.
وبقي المستكفي مسجوناً إلى أن مات في سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة، وله ست وأربعون سنة.
واستقل بمُلك العراق معزّ الدولة وضعف دَسْت الخلافة جداً، وظهر الرفض والاعتزال ببني بويه، نسأل الله العفو. وكان إكحال المستكفي بعد أن خلع نفسه ذليلاً مقهوراً في جمادى الآخرة سنة أربع وثلاثين، فعاش بعد العزل والكحل أربعة أعوام.

فلما شرع في . . .[١] هرب المطيع منه، وطلب المطيع فلم يوجد.

وانهمك المستكفي في الشراب واللهو . . .[١]، معزّ الدولة أبو الحسن أحمد بن بويه الديلمي ومن معه من الأتراك، فسملوا عينيه، ثم قتلوه.

وقدّم ابن بويه والأتراك المطيع لله.

دولة المطيع لله[٢]

هو محمد بن جعفر بن أحمد بن طلحة بن جعفر المتوكل.

ولم يكن له من الأمر شيء.

ثم خلع نفسه، ونقل الأمر إلى ابنه أبي بكر الطائع لله.

ومات بعد ذلك سنة أربع وستين وثلاثمائة.

وقيل: إنه سُمل إثر خلعه.

دولة الطائع لله[٣]

وهو عبد الكريم بن المطيع لله، واستمرت أيامه ثمانية عشر سنة.

---

(١) طمس في المخطوط.

(٢) من مصادر ترجمته: تاريخ بغداد (١٢/ ٣٧٩)، سير أعلام النبلاء (١٥/ ١١٣)، مروج الذهب (٢/ ٥٥٢)، شذرات الذهب (٣/ ٤٨)، تاريخ الخلفاء (٣٩٨)، المنتظم (٦/ ٣٤٣)، العبر (٢/ ٣٣٤)، البداية والنهاية (١١/ ٢١٢)، رسالة أسماء الخلفاء والولاة (ص ١٣٦)، الكامل في التاريخ من سنة (٣٣٤: ٣٦٣).

قال الذهبي في سير أعلام النبلاء في ترجمته: ولد سنة إحدى وثلاثمائة. وأمه اسمها مَشْغَلة أم ولد. كان كالمقهورين مع نائب العراق ابن بويه، قرر له في اليوم مائة دينار فقط. واستفحل البلاء باللصوص ببغداد وركبوا الخيل وتسمّوا بالقوّاد. ثم أن المطيع خرج وولده الخليفة الطائع لله إلى واسط فمات هناك في المحرم سنة أربع وستين وثلاثمائة بعد ثلاث أشهر من عزله، وعمره ثلاث وستون سنة سوى أشهر.

وفي أيامه تلقب صاحب الأندلس الناصر المرواني بأمير المؤمنين، وقال: أنا أحق بهذا اللقب من خليفة تحت يد بني بويه. وصدق الناصر، فإنه كان بطلاً شجاعاً سائساً مهيباً، له غزوات مشهورة، وكان خليقاً للخلافة، ولكن كان أعظم منه بكثير المعز العُبَيْدي الإسماعيلي النِّحلة، وأوسع ممالك، حكم على الحرمين، ومصر، والشام، والمغرب.

(٣) من مصادر ترجمته: تاريخ بغداد (١١/ ١٢٧)، المنتظم (٧/ ٦٦)، سير أعلام النبلاء (١٥/ ١١٨)، الكامل في التاريخ (من سنة ٣٦٣: ٣٨١)، رسالة أسماء الخلفاء والولاة (ص ١٣٧).

قال السيوطي في تاريخ الخلفاء: أمه أم ولد اسمها هزار. نزل له أبوه عن الخلافة وعمره ثلاث وأربعون سنة، فركب وعليه البُرْدة ومعه الجيش، وبين يديه سبكتكين، وخلع من الغد على =

وكان القائم بدولته أبو نصر بهاء الدولة.

= سبكتكين خلع السلطنة، وعقد له اللواء، ولقبه نصر الدولة. ثم وقع بين عز الدولة وسبكتكين، فدعا سبكتكين الأتراك لنفسه فأجابوه، وجرى بينه وبين عزل الدولة حروب. . . وفي سنة ثمان وستين أمر الطائع بأن تضرب الدبابات على باب عضد الدولة في وقت الصبح والمغرب والعشاء، وأن يخطب له على منابر الحضرة.

قال ابن الجوزي: وهذان أمران لم يكونا من قبله، ولا أطلقا لِوُلاَةِ العهود، وقد كان معز الدولة أحب أن تضرب له الدبادب بمدينة السلام. فسأل المطيع في ذلك، فلم يأذن له، وما حظي عضد الدولة بذلك إلاّ لضعف أمر الخلافة. وفي سنة تسع وستين وَرَدَ رسول العزيز صاحب مصر إلى بغداد، وسأل عضد الدولة الطائع أن يزيد في ألقابه: تاج الملّة، ويجدِّد الخلع عليه ويلبسه التاج، فأجابه وجلس الطائع على السرير وحوله مائة بالسيوف والزينة، وبين يديه مصحف عثمان، وعلى كتفه البردة، وبيده القضيب وهو متقلّد بسيف رسول الله ﷺ. وضربت ستارة بعثها عضد الدولة، وسأل أن تكون حجاباً للطائع حتى لا يقع عليه عين أحد من الجند قبله. ودخل الأتراك والديلم وليس مع أحد منهم حديد. ووقف الأشراف، وأصحاب المراتب من الجانبين. ثم أذن لعضد الدولة فدخل، ثم رفعت الستارة، وقبّل عضد الدولة الأرض. فارتاع زياد القائد لذلك، وقال لعضد الدولة: ما هذا أيها الملك؟! أهذا هو الله؟! فالتفت إليه وقال: هذا خليفة الله في الأرض. ثم استمر يمشي ويقبّل الأرض سبع مرات. فالتفت الطائع لله إلى خالص الخادم، وقال: استدنِهِ. فصعد عضد الدولة، فقبّل الأرض مرتين. فقال له: ادن إليّ. فدنا. وقبّل رجله، وثنى الطائع يمينه عليه وأمره، فجلس على الكرسي بعد أن كرّر عليه: اجلس، وهو يستعفي. فقال له: أقسمت عليك لتجلسن. فقبّل الكرسي وجلس.

فقال له الطائع: قد رأيت أن أفوّض إليك ما وكلّ الله إليّ من أمور الرعية في شرق الأرض وغربها، وتدبيرها، في جميع جهاتها سوى خاصتي وأسبابي، فتولى ذلك. فقال: يعينني الله على طاعة مولانا أمير المؤمنين وخدمته، ثم أفاض عليه الخلع وانصرف. قلت: انظر إلى هذا الأمر، وهو الخليفة المستضعف الذي لم تضعف الخلافة في زمن أحد ما ضعفت في زمنه، ولا قوي أمر سلطان ما قوي أمر عضد الدولة. وقد صار الأمر في زماننا إلى أن الخليفة يأتي السلطان يهنئه برأس الشهر، فأكثر ما يقع من السلطان في حقه أن ينزل عن مرتبته، ويجلسا معاً خارج المرتبة، ثم يقوم الخليفة يذهب كأحد الناس، ويجلس السلطان في دست مملكته.

وقد حُدِّثت: أن السلطان الأشرف برسباس لما سافر إلى آمد لقتال العدو وصحب الخليفة معه كان الخليفة راكباً أمامه يحجبه، والهيبة والعظمة للسلطان، والخليفة كآحاد الأمراء الذين في خدمة السلطان الأشرف برسباس لما سافر إلى آمد لقتال العدو، وصحب الخليفة معه كان الخليفة راكباً أمامه يحجبه، والهيبة والعظمة للسلطان، والخليفة كآحاد الأمراء الذين في خدمة السلطان. وفي سنة إحدى وثمانين قبض على الطائع، وسببه أنه حبس رجلاً من خواص بهاء الدولة، فجاء بهاء الدولة وقد جلس الطائع في الرواق متقلّداً سيفاً، فلما قرب بهاء الدولة قبّل الأرض وجلس على كرسي، وتقدم أصحاب بهاء الدولة فجذبوا الطائع من سريره، وتكاثر الديلم، فلفوه في كساء وأصعد إلى دار السلطنة، وارتجّ البلد، ورجع بهاء الدولة، وكتب على الطائع إيماناً بخلع نفسه، وأنه سلّم الأمر إلى القادر بالله، وشهد عليه الأكابر، والأشراف، وذلك في تاسع عشر شهر شعبان، ونفذ إلى القادر بالله ليحضر وهو بالبطيحة.

=

ثم خلع سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة. وولي الأمر ابن عمه القادر بالله.

دولة القادر بالله(١)

هو أحمد بن إسحاق بن جعفر المقتدر بالله.

قام بأمر دولته أبو نصر صمصام الدولة ابن فناخسروا.

وكان خَيِّراً، فاضلاً، صنَّف كتاباً في الأصول كفَّرَ فيه القائلين بخلق القرآن.

وكان يخرج بزيِّ العوام.

وأقام في الأمر إحدى وأربعين سنة وأشهراً.

وتوفي وهو ابن ثلاث وتسعين سنة.

ولي بعده ابنه القائم بأمر الله.

= واستمر الطائع في دار القادر بالله مكرماً محترماً في أحسن حال، حتى إنه حمل إليه ليلة شمعة قد أوقد نصفها، فأنكر ذلك فحملوا إليه غيرها إلى أن مات ليلة عيد الفطر سنة ثلاث وتسعين. وصلّى عليه القادر بالله في داره وشيّعه الأكابر والخدم.

(١) من مصادر ترجمته: سير أعلام النبلاء (١٥/ ١٢٧)، تاريخ بغداد (٤/ ٣٧)، المنتظم (٧/ ١٦٠)، النبراس (١٢٧)، العبر (٣/ ١٤٨)، الوافي بالوفيات (٦/ ٢٣٩)، النجوم الزاهرة (٤/ ١٦٠)، تاريخ الخلفاء (٤١١)، شذرات الذهب (٣/ ٢٢١)، رسالة أسماء الخلفاء (ص ١٣٨)، الكامل في التاريخ من سنة (٣٨٠: ٤٢٣).

ومما قاله الذهبي في ترجمته في سير أعلام النبلاء: أمه اسمها تمني. مولده سنة ست وثلاثين وثلاثمائة، وماتت أمه في دولته، وقد عجزت سنة تسع وتسعين وثلاثمائة. وكان أبيض كث اللحية، ديِّناً، عالماً، متعبِّداً، وقوراً، من جُلَّة الخلفاء وأمثلهم. عدّه ابن الصلاح في الشافعية، تفقّه على أبي بشر أحمد بن محمد الهروي. قال الخطيب: كان من الدين وإدامة التهجد وكثرة الصدقات على صفة اشتهرت عنه، وصنّف كتاباً في الأصول ذكر فيه فضل الصحابة، وإكفار من قال بخلق القرآن، وكان ذلك الكتاب يُقرأ في كل جمعة في حلقة أصحاب الحديث، ويحضره الناس مدة خلافته، وهي إحدى وأربعون سنة، وثلاثة أشهر.

قلت: قام بخلافته بهاء الدولة في سنة إحدى وثمانين، واستقدموه من البطائح فجهزه أميرها مهذّب الدولة علي بن نصر، وحمّله من الآلات والرخت بما أمكن، وأعطاه طيَّاراً، فلما قَدِمَ واسط، أتاه الأجناد وطلبوا رسم البيعة، وهاشوا، فوعدهم بالجميل، فرضوا، فكان مقامه بالبطيحة أزيد من سنتين، فقدم، واستكتب أبا الفضل محمد بن أحمد عارض الديلم، وجعل أستاذ داره عبد الواحد الشيرازي، وحلف هو وبهاء الدولة كل منهما لصاحبه ثم سلطنه... وعملت الرافضة عيد الغدير يعني: يوم المؤاخاة، فثارت السُّنَّة، وقووا، وخرقوا عَلَمَ السلطان، وقُتِلَ جماعة، وصُلِب آخرون فكفّوا.

... وفي ذي الحجة من سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة مات القادر بالله في أول أيام التشريق، وصلّى عليه ابنه القائم بأمر الله وكبَّر عليه أربعاً، ودفن في الدار.

دولة القائم بأمر الله(١)

وهو عبد الله بن أحمد.

واستمرت أيامه أربعاً وأربعين سنة.

وتوفي في شعبان سنة سبع وستين وأربعمائة.

وولي بعده ابن ابنه المقتدي بأمر الله.

---

(١) من مصادر ترجمته: تاريخ بغداد (٩/ ٣٩٩)، المنتظم (٨/ ٥٧)، سير أعلام النبلاء (١٥/ ١٣٨)، رسالة أسماء الخلفاء (ص ١٣٨)، العبر (٣/ ٢٦٤)، تاريخ الخلفاء (ص ٤١٧)، شذرات الذهب (٣/ ٣٢٦)، النبراس (١٣٦)، الكامل في التاريخ من أحداث سنة (٤٢٢ : ٤٦٧).
ومما قال السيوطي في تاريخ الخلفاء في ترجمته: ولد في نصف ذي القعدة سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة. وأمه أم ولد أرمينية اسمها بدر الدُجى، وقيل: قطر الندى. وَلِيَ الخلافة عند موت أبيه في يوم الاثنين الحادي عشر من ذي الحجة سنة اثنتين وعشرين، وكان ولي عهده في الحياة، وهو الذي لقّبه القائم بأمر الله.
قال ابن الأثير: كان جميلاً مليح الوجه، أبيض مشرباً بحمرة، حسن الجسم، ورعاً، ديّناً، زاهداً، عالماً، قوي اليقين بالله تعالى، كثير الصدقة والبرّ، له عناية بالأدب، ومعرفة حسنة بالكتابة، مؤثراً للعدل والإحسان وقضاء الحوائج، لا يرى المنع من شيء طُلب منه.
قال الخطيب: ولم يزل أمر القائم بأمر الله مستقيماً إلى أن قُبض عليه في سنة خمسين وأربعمائة. وكان سبب ذلك أن أرسلان التركي المعروف بالبساسيري كان قد عَظُمَ أمره، واستفحل شأنه لعدم نظرائه، وانتشر ذكره، وتهيبته أمراء العرب والعجم، ودعى له على المنابر، وجبى الأموال، وخرّب القرى، ولم يكن القائم يقطع أمراً دونه، ثم صح عنده سوء عقيدته، وبلغه أنه عزم على نهب دار الخلافة، والقبض على الخليفة، فكاتب الخليفة أبا طالب محمد بن مكيال سلطان الغز المعروف بطغرلبك ـ وهو بالري ـ يستنهضه في القدوم، ثم أُحرقت دار البساسيري. وقدم طغرلبك في سنة سبع وأربعين، فذهب البساسيري إلى الرَّحبة، وتلاحق به خلق من الأتراك، وكاتب صاحب مصر، فأمده بالأموال وكاتب تبال أخا طغرلبك وأطمعه بمنصب أخيه، فخرج تبال، واشتغل به طغرلبك.
ثم قدم البساسيري بغداد في سنة خمسين ومعه الرايات المصرية، ووقع القتال بينه وبين الخليفة، ودعى لصاحب مصر المستنصر بجامع المنصور وزيد في الأذان: حيّ على خير العمل، ثم خطب له في كل الجوامع إلاّ جامع الخليفة، ودام القتال شهراً. ثم قبض البساسيري على الخليفة في ذي الحجة وسيره إلى غابة وحبسه بها. وأما طغرلبك فظفر بأخيه وقتله، ثم كاتب متولي غابة في ردّ الخليفة إلى داره مكرّماً، فحصل الخليفة في مقرّ عِزّه في الخامس والعشرين من ذي القعدة سنة إحدى وخمسين، ودخل بأبهة عظيمة، والأمراء والحجّاب بين يديه. وجهز طغرلبك جيشاً فحاربوا البساسيري فظفروا به، فقتل، وحمل رأسه إلى بغداد.
ولما رجع الخليفة إلى داره لم ينم بعدها إلاّ على فراش مُصَلاّه، ولزم الصيام والقيام، وعفا عن كل من آذاه، ولم يستردّ شيئاً مما نهب من قصره إلاّ بالثمن، وقال: هذه أشياء احتسبناها عند الله، ولم يضع رأسه بعدها على مخدّةٍ. ولما نهب قصره، لم يوجد فيه شيء من آلات الملاهي.

دولة المقتدي بأمر الله(١)

وهو عبد الله بن محمد القائم بأمر الله. يكنى أبا القاسم.

وتوفي في محرم سنة سبع وثمانين وأربعمائة.

[٥٦/ب] واضطرب الأمر ببغداد، وصُرفت الدعوة من العباسيين/ إلى. . .(٢) الشيعة بمصر والشام أياماً ثم عاد الأمر إلى بقايا العباسية.

[وتوفي في المحرّم سنة سبع وثمانين وأربعمائة](٣).

دولة المستظهر بالله(٤)

وهو أبو العباس أحمد بن المقتدي بالله، وهو الذي خاطبه علي بن يوسف

---

(١) قال السيوطي في ترجمته في تاريخ الخلفاء (٤٢٣): مات أبوه في حياة القائم ـ وهو حمل ـ فولد بعد وفاة أبيه بستة أشهر. وأمه أم ولد اسمها أجوان. وبويع له بالخلافة عند موت جده، وله تسع عشرة سنة وثلاثة أشهر، وكانت البيعة بحضرة الشيخ أبي إسحاق الشيرازي، وابن الصباغ، والدامغاني، وظهر في أيامه خيرات كثيرة، وآثار حسنة في البلدان.
وكانت قواعد الخلافة في أيامه باهرة وافرة الحرمة بخلاف من تقدمه. ومن محاسنه أنه نفى المغنيات والخواطي ببغداد، وأمر أن لا يدخل أحد الحمام إلا بمئزر. وخرّب أبراج الحمام صيانة لِحُرَم الناس. وكان ديناً، خيِّراً، قوي النفس، عالي الهمة، من نجباء بني العباس. . . وفي سنة تسع وسبعين أرسل يوسف بن تاشفين صاحب سبتة ومراكش إلى المقتدي يطلب أن يسطلنه، وأن يقلّده ما بيده من البلاد، فبعث إليه الخلع، والأعلام، والتقليد، ولقبه بأمير المسلمين، ففرح بذلك، وسُرَّ به فقهاء المغرب، وهو الذي أنشأ مدينة مراكش. . . وفي سنة أربع وثمانين. . . قدم السلطان ملكشاه بغداد وأمر بعمل جامع كبير بها، وعمل الأمراء حوله دوراً ينزلونها، ثم رجع إلى أصبهان، وعاد إلى بغداد في سنة خمس وثمانين عازماً على الشر، وأرسل إلى الخليفة يقول: لا بد أن تترك بغداد، وتذهب إلى أي بلد شئت. فانزعج الخليفة وقال: أمهلني ولو شهراً. قال: ولا ساعة واحدة، فأرسل الخليفة إلى وزير السلطان يطلب المهلة إلى عشرة أيام. فاتفق مرض السلطان وموته، وعُدّ ذلك كرامة للخليفة.
وقيل: إن الخليفة جعل يصوم، فإذا أفطر جلس على الرماد ودعا على ملكشاه، فاستجاب الله دعاءه، وذهب إلى حيث ألقت. ولما مات كتمت زوجته تركان خاتون موته، وأرسلت إلى الأمراء سِرّاً، فاستحلفتهم لولده محمود ـ وهو ابن خمس سنين ـ فحلفوا له. وأرسلت إلى المقتدي في أن يسلطنه، فأجاب ولقّبه: ناصر الدنيا والدين. ثم خرج عليه أخوه بركياروق بن ملكشاه، فقلّده الخليفة ولقبه ركن الدين، وذلك في المحرم سنة سبع وثمانين وأربعمائة. وعلّم الخليفة على تقليده، ثم مات الخليفة من الغد فجأة فقيل: إن جاريته شمس النهار سَمّتهُ، وبويع لولده المستظهر.

(٢) موضع النقط طمس بالمخطوط.

(٣) ما بين المعقوفين جاء متراكب الحروف، فأخذت معناه من تاريخ الخلفاء وغيره.

(٤) ومما ترجم له به السيوطي في تاريخ الخلفاء (٤٢٦) قال: ولد في شوال سنة سبعين وأربعمائة، =

أمير . . . . . .[١] فقرأ عنده بكتاب مشهور عند الناس يأمره فيه بالمعروف ويَنهاه عن المنكر .

ولعمري أن علي بن يوسف يرحمه الله كان أولى منه بذلك ، لاستبداده وجهاده ، ولكنه من تدبير ملكه وبلاده ومعرفته بأمر دنياه ومعاده .

ومات المستظهر بالله سنة اثنتي عشرة وخمسمائة .

وولي بعده ابنه المسترشد بالله .

دولة المسترشد بالله[٢]

وهو أبو منصور بن أحمد المستظهر .

وعلى عهده كان ظهور دعوة المهدي القائم بدولة الموحِّدين بالمغرب .

وكانت له فيما زعموا هِمَّة وشجاعة .

وعظمت في أيامه فتنة الباطنية ، وخرج لقتال المذكورين من الأعاجم فوقعت عليه الهزيمة وأُسِرَ وقتله الباطنية[٣] .

= وبويع له عند موت أبيه وله ست عشرة سنة وشهران . قال ابن الأثير : كان ليِّن الجانب ، كريم الأخلاق ، يحب اصطناع المعروف للناس ويفعل الخير ، ويسارع في أعمال البر ، حسن الخط ، جيد التوقيعات ، لا يقاربه فيها أحد يدل على فضل غزير ، وعلم واسع ، سمحاً ، جوّاداً ، محباً للعلماء والصلحاء ، ولم تصفُ له الخلافة بل اضطربت أيامه فكانت كثيرة الحروب .

. . . وفي سنة اثنتي عشرة مات الخليفة المستظهر بالله في يوم الأربعاء الثالث والعشرين من ربيع الأول ، فكانت مدته خمساً وعشرين سنة ، وغسَّلَهُ ابن عقيل شيخ الحنابلة ، وصلى عليه ابنه المسترشد . وماتت بعده بقليل جدّته أرجوان والدة المقتدي . قال الذهبي : ولا يعرف خليفة عاشت جدته بعده إلاّ هذه ، رأت ابنها خليفة ، ثم ابن ابنها ، ثم ابن ابن ابنها . وقال السلفي : قال لي أبو الخطاب بن الجراح : صلّيت بالمستظهر في رمضان ، فقرأت : «إن ابنَكَ سُرِّقَ» رواية رويناها عن الكسائي فلما سلمت قال : هذه قراءة حسنة فيها تنزيه أولاد الأنبياء عن الكذب .

(١) موضع النقط طمس بالمخطوط .

(٢) من مصادر ترجمته : المنتظم (١٠/ ٤٥)، خريدة القصر (١/ ٢٩)، النبراس (١٤٥)، سير أعلام النبلاء (١٩/ ٥٦١)، دول الإسلام (٢/ ٥٠)، العبر (٤/ ٧٥)، فوات الوفيات (٣/ ١٧٩)، مرآة الزمان (٨/ ٩٥)، طبقات السبكي (٧/ ٢٥٧)، البداية والنهاية (١٢/ ٢٠٧)، النجوم الزاهرة (٥/ ٢٥٦)، تاريخ الخلفاء (٤٣١)، شذرات الذهب (٤/ ٨٦)، وقال في ترجمته الذهبي في سيره : مولده في شعبان سنة ست وثمانين وأربعمائة في أيام جده المقتدي ، وخطب له بولاية العهد وهو يرضع ، وضربت السكة باسمه . . . وله خط بديع ، ونثر صنيع ، ونظم جيد ، مع دين ورأي وشهامة وشجاعة ، وكان خليقاً بالإمامة ، قليل النظير .

(٣) قال الذهبي في السير أيضاً في المصدر السابق : بويع عند موت أبيه في ربيع الآخر سنة اثنتي عشرة =

قال أبو الفرج: وصل الخبر بذلك إلى بغداد سنة تسع وعشرين وخمسمائة.
وبويع بعده ولده الراشد بالله.

دولة الراشد بالله[1]

يكنى أبا جعفر.
بويع له في ذي القعدة، واستقام له الأمر. ثم خُلِعَ بعد سنتين.
وولي بعده المقتفي لأمر الله.

دولة المقتفي لأمر الله[2]

واسمه محمد بن المستظهر بالله.

= وخمسمائة، فكانت دولته سبع عشرة سنة، وسبعة أشهر، وعاش ستاً وأربعين سنة، فقيل: إن الذين فتكوا به جهزهم مسعود، وكانوا سبعة عشر نفساً، فأمسكوا، وقتلهم السلطان، وأظهر الحزن والجزع.

(١) من مصادر ترجمته: سير أعلام النبلاء (١٩/ ٥٦٨)، تاريخ الإسلام (٤/ ١٥٠)، العبر (٤/ ٨٩)، دول الإسلام (٥٢)، فوات الوفيات (٤/ ١٦٨)، مرآة الزمان (٨/ ١٠١)، البداية والنهاية (١٢/ ٢١٣)، النجوم الزاهرة (٢٦٣)، تاريخ الخلفاء (٤٣٦)، تاريخ الخميس (٢/ ٣٦٢)، شذرات الذهب (٤/ ١٠٠)، الكامل في التاريخ من أحداث سنة (٥٢٩: ٥٣٢).
ومما قال ابن الأثير في الكامل في ترجمته في ذكره لقتل المسترشد وخلافة الراشد في أحداث سنة (٥٣٢): ولما قتل المسترشد بالله بويع ابنه الراشد بالله أبو جعفر المنصور، ولقب بالراشد بالله، وكان أبوه قد بايع له بولاية العهد في حياته وجدد له البيعة بعد قتله يوم الاثنين السابع والعشرين من ذي القعدة، وكتب السلطان مسعود إلى بك آبه الشحنة ببغداد يبايع له، وحضر الناس البيعة وحضر بيعته أحد وعشرون رجلاً من أولاد الخلفاء، وبايع له الشيخ أبو النجيب ووعظه وبالغ في الموعظة.
وقال في ذكره لقتل الراشد في سنة (٥٣٢): ولما وصل الراشد بالله إلى همذان وبها الملك داود بوزابه ومن معهما من الأمراء والعساكر ـ على ما تقدم ذكره (أي في الكامل) ـ ثم سار إلى خوزستان مع الملك داود ومعهما خوارزم شاه، فقاربا الجزيرة، فسار السلطان مسعود ليمنعهم عن العراق، فعاد الملك داود إلى فارس، وعاد خوارزم شاه إلى بلاده، وبقي الراشد وحده، فلما أيس من عساكر العجم، سار إلى أصفهان، فلما كان الخامس والعشرون من رمضان، وثب عليه نفر من الخراسانية الذين كانوا في خدمته فقتلوه وهو يريد القيلولة. وكان في أعقاب مرض برىء منه، ودفن بظاهر أصفهان بشهرستان، فركب من معه فقتلوا الباطنية، ولما وصل الخبر إلى بغداد جلسوا للعزاء به يوماً واحداً. وكان أبيض أشقر، حسن اللون، مليح الصورة، مهيباً، شديد القوة والبطش.

(٢) من مصادر ترجمته: سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٣٩٩)، المنتظم (١٠/ ١٩٧)، النبراس (١٥٦)، مرآة الزمان (٨/ ١٤٤)، الروضتين (١/ ١٢٤)، مفرّج الكروب (١/ ١٣١)، الفخري (٣١٠)، المختصر (٣/ ٣٧)، العبر (٤/ ١٥٨)، دول الإسلام (٢/ ٧١)، تتمة المختصر (٢/ ٩٧)، الوافي بالوفيات (٢/ ٩٤)، البداية والنهاية (١٢/ ٢٤١)، تاريخ ابن خلدون (٣/ ٥٢٢)، معالم الأناقة في مآثر الخلافة (٢/ ٣٥)، النجوم الزاهرة (٥/ ٣٣٢)، تاريخ الخلفاء (٤٣٧)، تاريخ الخميس (٢/ ٣٦٢)، شذرات الذهب (٤/ ١٧٢). =

وتوفي في أيامه أمير الجيوش سنجر التركي، وكان يستبد بأمره بعده، وأظهر العدل، وذُكر في مناقب بغداد.

وتوفي سنة خمس وخمسين وخمسمائة.

وكانت خلافته أربعاً وعشرين سنة وثلاثة أشهر وأياماً.

قلت: وإنما انفسحت أيام دولة الغصبة الأخيرة لاشتغال الأتراك بأنفسهم في حرب بعضهم مع بعض حسبما تقع إليه الإشارة.

ثم ولي بعد المقتفي ولده المستنجد بالله.

دولة المستنجد بالله(١)

واسمه يوسف. ويُكنى المظفر.

بويع له عند وفاة أبيه المقتفي.

وكان قال. . .(٢) رأيت رسول الله ﷺ قبل موت والدي بأربعة أشهر، فدخل بي

= قال الذهبي في سير أعلام النبلاء: مولده في ربيع الأول سنة تسع وثمانين وأربعمائة. . . وبويع بالإمامة في سادس عشر ذي القعدة سنة ثلاثين وخمسمائة. . . كان المقتفي عاقلاً لبيباً، عاملاً مهيباً، صارماً، جوّاداً، مُحِبّاً للحديث والعلم، مُكرماً لأهله، وكان حميد السيرة، يرجع إلى تديّن وحسن سياسة، جدّد معالم الخلافة، وباشر المهمات بنفسه، وغزا في جيوشه.

قال أبو طالب بن عبد السميع: كانت أيامه نضرة بالعدل، زهرة بالخير، وكان على قدم من العبادة قبل الخلافة ومعها، ولم يُرَ مَعَ لينه بعد المعتصم في شهامته مع الزهد والورع، ولم تزل جيوشه منصورة. وكان أسمر آدم، مجدور الوجه، مليح الشيبة، أقام حشمة الخلافة، وقطع عنها أطماع السلاطين السلجوقية وغيرهم، وكان من سلاطين خلافته صاحب خراسان سنجر بن ملكشاه، والملك نور الدين صاحب الشام، وأبوه قسيم الدولة.

. . . قال ابن الجوزي: مرض المقتفي بعلّة التراقي. وقيل: بدمل في عنقه، فتوفي في ثاني ربيع الأول سنة خمس وخمسين وخمسمائة، وله ست وستون سوى ثمانية وعشرين يوماً. وكذا مات أبوه بعلّة التراقي.

(١) من مصادر ترجمته: سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٤١٢)، المنتظم (١٠/ ١٩٢)، مرآة الزمان (٨/ ١٧٧)، العبر (٤/ ١٩٤)، دول الإسلام (٢/ ٨٩)، فوات الوفيات (٤/ ٣٥٨)، البداية والنهاية (١٢/ ٢٦٢)، معالم الأناقة (٢/ ٤٤)، الضوء اللامع (١٠/ ٣٢٩)، حسن المحاضرة (٢/ ٩١)، تاريخ الخلفاء (٤٤٢)، شذرات الذهب (٤/ ٢١٨).

قال الذهبي في سيره: عقد له أبوه بولاية العهد في سنة سبع وأربعين وعمره يومئذ تسع وعشرون سنة. . . وقيل: إن المستنجد كان فيه عدل ورفق، أبطل مُكوساً كثيرة.

قال ابن النجار: كان موصوفاً بالفهم الثاقب، والرأي الصائب، والذكاء الغالب، والفضل الباهر، له نظم ونثر، ومعرفة بالأسطرلاب، توفي في ثامن ربيع الآخر سنة ست وستين وخمسمائة.

(٢) موضع النقط كلمات غير مقروءة لطمس.

من باب كبير ثم ارتقينا إلى رأس جبل، وصلّى بي ركعتين، وألبسني قميصاً، ثم قال: قل: اللهم اهدني فيمن هديت، وتولني فيمن توليت، وبارك لي فيما أعطيت.

وتوفي المستنجد في ربيع الآخر سنة ست وستين وخمسمائة، وكانت ولايته إحدى عشرة سنة وشهراً.

وولي بعده المستضيء بالله ابنه.

دولة المستضيء بالله(١)

واسمه: الحسن بن المستنجد.

ويكنى: أبا محمد.

وكان كثير الخِلع كريماً محتقراً للمال.

وكان الناس في زمانه في أرغد عيش.

قال عماد الدين محمود في البر الشامي: وعلى عهده ـ يعني المستضيء بالله ـ كانت وفاة العاضد آخر ملوك العُبيديين، وذلك في يوم عاشوراء سنة سبع وستين وخمسمائة، وانقرضت بوفاته أيام ملوك الشيعة، وصارت الدعوة في جميع بلاد الشام والحجاز والعراق عباسية على يدي صلاح الدين بن أيوب حسبما يلي التعرّف بذلك في دولة بني عُبيد الشيعة إن شاء الله(٢).

وتوفي المستضيء بالله في ذي القعدة سنة خمس وسبعين وخمسمائة.

فكانت مدته عشر سنين إلاّ شهراً

وولي بعده ولده: الناصر لدين الله.

---

(١) من مصادر ترجمته: سير أعلام النبلاء (٢١/ ٦٨)، العبر (٤/ ٢٢٣)، والسبط في المرآة (٨/ ٣٥٦)، المنتظم (١٠/ ٢٣٣)، تاريخ الخلفاء (٤٤٤)، وفيه: ولد سنة ست وثلاثين وخمسمائة. وأمه أم ولد أرمينية اسمها: غضة... قال ابن الجوزي: احتجب المستضيء عن أكثر الناس، فلم يركب إلاّ مع الخدم، ولا يدخل عليه غيرهم.

(٢) قال السيوطي في تاريخ الخلفاء أيضاً: قال ابن الأثير: السبب في إقامة الخطبة العباسية بمصر أن صلاح الدين يوسف بن أيوب لما ثبت قدمه، وضعف أمر العاضد كتب إليه نور الدين محمود بن زنكي يأمره بذلك فاعتذر بالخوف من وثوب المصريين، فلم يُصغ إلى قوله، وأرسل إليه يلزمه بذلك، واتفق أن العاضد مرض، فاستشار صلاح الدين أمراءه فمنهم من وافق، ومنهم من خاف. وكان قد دخل مصر أعجمي يعرف بالأمير العالم، فلما رأى ما هم فيه من الإحجام قال: أنا أبتدىء بها. فلما كان أول جمعة من المحرم، صعد المنبر قبل الخطيب ودعا للمستضيء، فلم ينكر ذلك أحد. فلما كانت الجمعة الثانية أمر صلاح الدين الخطباء بقطع خطبة العاضد، ففعل ذلك، ولم تنتطح فيها عنزان ـ والعاضد شديد المرض ـ فتوفي في يوم عاشوراء.

دولة الناصر لدين الله(١)

واسمه: أحمد بن المستضيء الحسن بن المستنجد بالله يُوسف.

يكنى: أبا العباس.

بُويع يوم الأحد ثاني ذي القعدة سنة خمس وسبعين وخمسمائة.

وكانت أيامه سبعة وأربعين سنة غير يوم واحد.

فتغيرت في دولته خمسة ملوك من بني عبد المؤمن بالمغرب، أولهم: يعقوب المنصور، وآخرهم الملقب بالعادل.

وكان ببغداد عند حلول أبي الحسن بن جُبير بها، فقال في رحلته: أبصرنا هذا الخليفة، وهو أبو العباس أحمد الناصر بدين الله بن المستضيء بالله، بالجانب الغربي بإزاء منظرته به، وقد انحدر عنها قاعداً في الزورق إلى قصره بأعلى الجانب الشرقي على الشط، وهو في قباء من سِنِّهِ.

[وكان](٢) أشقر اللحية صغيرها، كما اجتمع [في](٢) وجهه حسن الشكل، جميل المنظر، أبيض اللون، معتدل القامة... (٣)/ سِنُّهُ نحو الخمسة والعشرين سنة، [٥٧/ب]
لابساً ثوباً أبيض شبيه القبة برسوم ذهب.

وعلى رأسه قلنسوة مذهّبة مطوّقة بوبر أسود من الأوبار الغالية القيمة المتخذة للباس... (٤) متعهداً بذلك زي الأتراك تعمية لشأنه، لكن... (٤) لا تخفى... (٤).

وكانت وفاته يوم الاثنين سلخ شوال سنة ثنتين وعشرين وستمائة وذكر... (٤) أبو الحسن بن سعيد الرحّال، لكن لم يُعين اليوم.

ثم تولى الأمر الظاهر بالله ولده.

---

(١) من مصادر ترجمته: سير أعلام النبلاء (٢/ ١٩٢)، رحلة ابن جبير (٢٠٦)، النبراس (١٦٤)، مرآة الزمان (٨/ ٦٣٠)، مفرج الكروب (٤/ ١٦٣)، مختصر أبي الفداء (٣/ ١٤٢)، العبر (٥/ ٨٧)، دول الإسلام (٢/ ٩٥)، فوات الوفيات (١/ ٦٢)، البداية والنهاية (١٣/ ١٠٦)، السلوك للمقريزي (١/ ١/ ٢١٧)، النجوم الزاهرة (٦/ ٢٦١)، المنهل الصافي (١/ ٢٦٤)، شذرات الذهب (٥/ ٩٧)، تاريخ الخلفاء (٤٤٨).
قال الذهبي في سيره: ولد في عاشر رجب سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة... كان أبيض معتدل القامة تركي الوجه، مليح العينين، أنور الجبهة، أقنى الأنف، خفيف العارضين، أشقر، رقيق المحاسن. نقش خاتمه: رجائي من الله عفوه.
... ولم يل الخلافة أحد أطول دولة منه لكن صاحب مصر المستنصر العبيدي، ولي ستين سنة. وكذا ولي الأندلس الناصر المرواني خمسين سنة.

(٢) ما بين المعقوفين يتطلبه السياق.

(٣) موضع النقط كلمة مطموسة.

(٤) موضع النقط كلمات مطموسة.

دولة الظاهر بالله(١)

واسمه: محمد.

وكنيته: أبو نصر.

وتوفي في رجب سنة ثلاث وعشرين وستمائة.

وكانت أيامه تسعة أشهر.

وولي بعده ابنه المستنصر بالله.

دولة المستنصر بالله(٢)

وهو: أبو جعفر منصور بن محمد الظاهر.

وهو الذي خاطبه الأمير أبو عبد الله محمد بن يوسف أمير الأندلس، ودعا له ووصله جوابه صحبة الراية السوداء، وتقليد الولاية وخِلْعَه، ذكر أنها لمست البردة النبوية، وذلك في حدود عام ست وعشرين وستمائة وتقليده إياه.

وجواب المتغلب على الأمر ببغداد المدعو...(٣) بما نذكره في...(٣) ابن هود إن شاء الله.

---

(١) من مصادر ترجمته: تاريخ الإسلام (١٤٥٨)، مرآة الزمان (٨/ ٦٤٢)، مختصر أبي الفداء (٣/ ١٢٣)، سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٦٤)، دول الإسلام (٢/٩٦)، الوافي بالوفيات (٢/ ٩٥)، نكت الهيمان (٢٣٨)، البداية والنهاية (٢٣٨)، النجوم الزاهرة (٦/ ٢٦٥)، شذرات الذهب (٥/ ١٠٩).
قال السيوطي في تاريخ الخلفاء: ولد سنة إحدى وسبعين وخمسمائة، وبايع له أبوه بولاية العهد، واستخلف عند موت والده، وهو ابن اثنين وخمسين سنة، فقيل له: ألا تتفسح؟ قال: لقد يبس الزرع. فقيل: يبارك الله في عمرك. قال: من فتح دكاناً بعد العصر إيش يكسب؟! ثم أنه أحسن إلى الرعية، وأبطل المكوس، وأزال المظالم، وفرّق الأموال.
قال ابن الأثير: لما وَلِيَ الظاهر الخلافة أظهر من العدل والإحسان ما أعاد به سنة العُمرين. فلو قيل: إنه ما ولي الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز مثله لكان صادقاً.

(٢) من مصادر ترجمته: سير أعلام النبلاء (٢٣/ ١٥٥)، مرآة الزمان (٨/ ٧٣٩)، ذيل الروضتين (١٧٢)، تاريخ الخلفاء (٤٦٠)، المختصر لأخبار البشر (٣/١٧٩)، دول الإسلام (٢/ ١١٠)، العبر (٥/ ١٦٦)، البداية والنهاية ١٣/ ١٥٩)، النجوم الزاهرة (٦/ ٣٤٥)، شذرات الذهب (٥/ ٢٠٩).
ومما قال الذهبي في سيره في ترجمته: مولده سنة ثمان وثمانين وخمسمائة، وأمه تركية. وكان أبيض أشقر، سميناً، ربعة، مليح الصورة، عاقلاً، حازماً، سائساً، ذا رأي ودهاء ونهوض بأعباء المُلك، وكان جده الناصر يحبه، ويسميه القاضي لحبه للحق وعقله.

(٣) موضع النقط طمس بالمخطوط.

وكان قصد ابن هود بذلك الاستظهار على الموحدين بمراكش الذين نابذهم، وخالف عليهم بالأندلس.

وكان اللقب الذي لقّبه المستنصر بالله المذكور: مجاهد الدين سيف أمير المؤمنين، وتمثّل الناس يومئذ بقول الشاعر:

من بالعراق لقد أبعدت من ملك ... سهم أصاب وراميه بذي سلم

بل والله لم يصير لأصدق الوهم.

ولله درّ المثل: العجل يضم نفسه.

وتوفي المستنصر عاشر جمادى الأولى سنة أربعين وستمائة. حكاه ابن سعد وغيره[1].

ثم ولّي بعده ابنه المستعصم بالله.

دولة المستعصم بالله[2]

وهو: أبو أحمد عبد الله بن المستنصر.

---

(١) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء: أنبأني ابن البزوري: أن المستنصر توفي يوم الجمعة، بكرة عاشر جمادى الآخرة. وقال المنذري: جمادى الأولى، فوهم. عاش إحدى وخمسين سنة، وأشهراً، وخُطِبَ يوم موته له، كتموا ذلك. فأتى إقبال الشرابي والخدم إلى ولده المستعصم فسلّموا عليه بإمرة المؤمنين، وأقعدوه في سُدَّة الخلافة وأعلم الوزير وأستاذ الدار في الليل... وكانت دولته سبع عشرة سنة رحمه الله وسامحه.

(٢) من مصادر ترجمته: تاريخ الخلفاء (٤٦٤)، سير أعلام النبلاء (٢٣/ ١٧٤)، شذرات الذهب (٥/ ٢٧٠)، النجوم الزاهرة (٧/ ٦٣)، العقد الثمين (٥/ ٢٩٠)، دول الإسلام (٢/ ١٢١)، العبر (٥/ ٢٣٠)، البداية والنهاية (١٣/ ٢٠٤)، تاريخ ابن خلدون (٣/ ٥٣٦)، مختصر التاريخ لابن الكازروني (٢٦٦)، خلاصة الذهب المسبوك (٢٨٩)، فوات الوفيات (٢/ ٢٣٠).
قال الذهبي في ترجمته: ولد سنة تسع وستمائة، واستخلف سنة أربعين يوم موت أبيه في عاشر جمادى الآخرة. وكان فاضلاً تالياً لكتاب الله، مليح الكتابة، ختم على ابن النيّار، فأكرمه يوم الختم ستة آلاف دينار، وبلغت الخِلَعُ يومَ بيعته أزيد من ثلاثة عشر ألف خِلْعة. وكان كريماً حليماً ديناً، سليم الباطن، حسن الهيئة.... وفي سنة خمس وخمسين وستمائة... جرت فتنة مهولة ببغداد بين الناس وبين الرافضة، وقتل عدة من الفريقين، وعظم البلاء، ونهب الكرخ، فحنق ابن العلقمي الوزير الرافضي، وكاتب هولاكو، وطمعه في العراق، فجاءت رسل هولاكو إلى بغداد وفي الباطن معهم فرمانات لغير واحد، والخليفة لا يدري ما يتم، وأيامه قد ولّت، وصاحب دمشق شاب غِرٌّ جبان، فبعث ولده الطفل مع الحافظي بتقادم ونحف إلى هولاكو فخضع له ومصر في اضطراب بعد قتل المعز، وصاحب الروم قد هرب إلى بلاد الأشكري، فتمرّد هولاكو وتجبر، واستولى على الممالك، وعاث جنده الكفرة يقتلون ويأسرون ويحرقون.

[1/58] فكانت أيامه خمس عشرة سنة، وتسعة أشهر/ وعشرين يوماً.

وقصد ملك التتر، المسمى هولاكو، مدينة بغداد بعد أن ظهروا على العراق واستباحوا بلاد الإسلام.

وخادعه وزيره، وفرّق بينه وبين. . .[1] هولاكو ملك التتر، وقصد منه أن يُبقي عليه رُتبة الوزارة إذا صار له الأمر، فأشار عليه بالخروج إليه، ففعل، فلما تحصّل بيده قبض عليه وعلى أهل بيته وولده، فقتله، ودخل بغداد عنوة وألحم السيف في أهلها أياماً حتى عجز العدو عن قتل المسلم، وكَلَّ السلاح وضعفت عن حمله الأيدي، وكانت الوقيعة الكبيرة، والحادثة الشنيعة من دخول التتر مدينة بغداد يوم السبت سلخ ربيع الآخر سنة ست وخمسين وستمائة.

وانقرضت دولة الإسلام من العراق، واستولى عليها التتر، وصارت قاعدة ملك المسلمين بالمشرق. . .[2] مضى إلى هذا العهد، والبقاء لله وحده.

وهاتان الدولتان المنسوبتان إلى بني أميّة وبني العباس أكبر دول الإسلام من جهة الزمان والمكان ورفعة الشأن وفضل الزمان. وما الظن بدول ابتزت كسرى العراق، وهرقل الشام، وخاقان الترك، ومقوقس مصر، وجرجير إفريقية، ولذريق الأندلس، حسبت الأموال، واستولدت الحريم، واسترّقت الأولاد، واقتطعت البلاد، واستخدمت العباد؟ كيف يكون ريها وشبعها، واحتفال نواديها وغنى أيديها؟.

إلاَّ أن الكمال في الوجود متعذر الوجود لينفرد بوصفه جلال المعبود المتوجه لوجهه الكريم بالسجود، فوصمها. . .[3] استباحت الحِمَى ولم ترع المنتمي من الانتقام من آل بيت الرسول وولده. . .[3] جوهرية فيها من استهتار، وأمور في الدين كبار، منها نبش اللحود، ومطاوعة الحقود، والفتك بالعلوية، وانتحال المذاهب الرديّة، إلى أن اتّسع نطاق العوام، وخرج الأمر من الجَرَب إلى الجذام، حتى استولى التتر على ملوك الإسلام، واستأثروا بمدينة السلام، فلولا أن هذه العصابة الصالحة التركية ثبتت صبراً. . . وانصرف إلى خدمة الحرمين الشريفين اهتمامها لاستردت الروم ما يليها واسترجعت القياصر محل دولها، والأرض لله يورثها ويُعقِبُ فيها.

وحسبنا الله ونعم الوكيل.

---

(١) طمس بالمخطوط.
(٢) طمس بالمخطوط.
(٣) طمس بالمخطوط.

[٥٨/ب]

/ ابتداء المماليك الذين غلبوا على دولة المغرب من بني العباس

ظهر في عهد هذه الدولة العباسية لما تفطّرت عصاها وصارت أفزازاً، ولم يبق بيت إلا مال. . .[١] البنان أو سير بالبنان بأقطار تلك الإيالة المشرقية ملوك نازعوا. . .[١] وانتحلوا دونها الشهرة من الترك، والدّيالمة، والأعجام، والقليل من غيرهم.

وكان لهم ملك كبير، أمره شهير، فجلب منه ما تيسر ليتسع نطاق الاطلاع على ملوك البقاع وأمراء الأصقاع.

ومن المنقول في محاورات شاحي لأبي معشر البلخي الشهير في الأحكام النجومية:

أنه قال له: هل تفنى دولة العرب؟

فقال: لا، ولكن يغلب الترك على أكثر من ثلثيها.

فنقول:

كان الذي فتح على العباسيين هذا الباب المعتصم بن الرشيد العباسي، استكثاراً بالمماليك على أهل الأخطار من العرب، وقد جرّب ما نزل بأخيه الأمين عند الفتنة، فكان كمن أراد الاستضاءة بالنار والاستدفاء بها، فأحرق بيته بها، والله غالب على أمره.

فاستكثر من المماليك يختارهم من أبناء الملوك وأشراف الأعاجم من الترك والديالمة والغز والتتر فتحملهم وأجناسهم وأتباعهم على التراب إلى الغابات البعيدة، وأوصافهم تدل على أرهاطهم، فالإخشيد يُسَمَّى به كل ملك من فرغانة، كما يُدعى ملك الروم قيصر، وشاه كل ملك من ملوك خوارزم، وصول كل ملك من جرجان، واصيهتن كل ملك من أذربيجان، وسلان كل ملك من طبرستان.

وكان. . .[٢] منهم الأفشين، وايتاخ، وعجيف، وبُغا، ومازيار، وبابك.

---

(١) طمس بالمخطوط.

(٢) كلمة مطموسة.

واجتمع ببابه منهم من سمرقند، وفرغانة، وسائر ثغور خراسان أزيد من أربعة آلاف، ألبستهم أنواع الديباج والملابس المذهّبة، والحلي. وتوّج الأفشين تاج ذهب مُرصع بالجوهر، ثم تاج ذهب ليس به إلاّ الياقوت الأحمر والزمرد الأخضر.

وألبسه وشاحين، وقلّده سيفين، وزوَّج ابنه الحسين من ابنة اشناس التركي، واسمها أُتْرُجَّة، وزُفَّت إليه، وأقيم لها عُرس لم يُرَ له نظير في الدنيا، وكانت ذات حُسن بارع، وفي ذلك يقول المعتصم يصف حسنها وجمالها ـ وكان الحسين بن الأشفين أجمل الناس صورة ـ:

زفت عروسٌ إلى عروسٍ بنت رئيس إلى رئيس

[٥٩/أ] / أيهما كان ليت شعري أجلّ في الصدر والنفوس

أصاحب المرهف المحلي أم ذو الوشاحين الشموس

ويظهر أن الشموس كانت تطلق في زمانهم على آلة من آلات...[١].

...[١] المعتصم، حتى شقي بالمماليك، وخالف عليه منهم الأفشين، وباجاه، ومازيار، وفي ذلك يقول حبيب الطائي في قصيدته التي أولها:

الحق أبلج والسيوف عوار فحذار من أسد العروق حذار

...[٢] ثم تفاحش الأمر واستولوا على ولده من بعده يقتلون الناس ويسملون أعينهم متى شاؤوا، ولم يبق رسم للعبودية على حال...[٣] إلا لتشاغل بعض هؤلاء الملوك الأعاجم ببعض واستيلائهم على بقية الملك، وامتنع الخليفة بزعمهم بدار على ما عليه الحال اليوم بتونس مع أمراء العرب، وكان منهم أمراء عظماء استضافوا العربية إلى الجزء الأوفر...[٤] لما ملكوا جبال العراق وجاوروا معادنهم من الترك ممن استأمن إليهم أو أسلم من كفارهم أو تملّكوه بسيوفهم، أو ابتاعوه بأموالهم، فأطاعهم العرب والعجم، وجاءت الأيام منهم بدول جحاجحة من بني بُوَيْهٍ، وبني أيوب، والسلجوقية.

[٥٩/ب] / ابتداء دولة الديلم من بني بويه وغيرهم:

وكان ظهور الديالمة في دولتهم سنة عشر وثلاثمائة، فكان أول من غلب منهم على الرّي لنكي بن النعمان، ثم لنكي بن كاكي.

---

(١) طمس بالمخطوط.
(٢) موضع النقط ذكر عدة أبيات تركتها لما أصابها من طمس جعل الأبيات لا تؤدي المعنى المراد.
(٣) موضع النقط كلمة مطموسة.
(٤) طمس قدره كلمة.

ثم غلب بعدهم أسفار بنو شرويه، وكان. . .[١] من المماليك اسمه منداويج بن زيلد اغنَاله[٢]، وملك مكانه، وارتفع أمره.

وتحدّث الناس أنه يريد تشعيث الدولة، وقصد بغداد، وكان يروم أن يعيد دولة الأعاجم، ويبطل ملك العرب.

ثم أساء السيرة في الأتراك، فاغتالوه، ورأس القوم: يَحْكُم غلامه. [٦٠/أ]

وبلغ من قهر الخليفة وإخراج الأمر من يده أن كتب على الدينار:

إنما أنا العزّ فاعلم، الأمير المعتصم سيد الناس يحكم.

واستوطن بعد حرب كبيره واسط، وكان وقوراً، عاقلاً، يفهم اللسان العربي، ولا يتكلم، ويقول: أخاف أن أخطىء والخطأ من الرئيس قبيح.

وبنى دار ضيافة للفقراء، وكان يقول: إن كنت لا أحسن العلم والأدب، ولكن أُحب أن لا يكون في الأرض عالم ولا فاضل إلاّ تحت اصطناعي.

وهو الذي ابتدأ المارستان ببغداد، وجدده عضد الدولة. وكانت أمواله كثيرة، وكان يدفنها في الصحارى، ويأخذ رجالاً في صناديق يقفلها ويحملهم مع الأموال، فإذا دفنوها ليلاً أعادهم إليها خوفاً منه أن يطرق حادث يحول بينه وبين دياره وخزائنه.

فذكروا أنه ضاع ماله لما هلك.

وكان مهلكه وقد خرج يتصيّد فلقيه قوم من الأكراد فحمل عليهم، فطعنه أحدهم فقتله.

ونقل من حماره ما يزيد عن ألف ألف من العين ما عدا الذخيرة والمتاع ثم ألفى بالدار ستة عشر قُمْقُماً مملوءة من الذهب العين.

وأخبار يحكم كثيرة غريبة.

ثم ظهر على الدولة علي بن بويه الديلمي أحد قوّاد مرداويج.

وكان مرداويج قد بعثه إلى الكرخ يستحث له حمل مال، فلما حَصَل له أخذه لنفسه، وسار إلى همذان فأغلقت أبوابها، فقاتلها وفتحها عنوة، وقتل من أهلها خلقاً كثيراً.

ثم سار منها إلى أصبهان، فملكها، وخرج إلى أرجان فعثر فيها على كنز كبير،

(١) كلمة مطموسة.

(٢) كذا في المخطوط، وفي الكامل: مرداويج بن زيار.

[٦٠/ب] وقويت شوكته.......................[1]/ فضة، وصندوقين فيهما جوهر، وستين صندوقاً، منها خمس وأربعون فيها آنية الزينة.

وخمسة عشر قُمْقُماً من البلور المحكم.

ومائة وثلاث وثلاثون مركباً من الذهب.

وستمائة مركب من الفضة.

وأربعة آلاف ثوب ديباج.

وعشرة آلاف ثوب.......[2].

قال الشيخ عماد الدين بن كثير في تاريخه الكبير في سنة ثماني عشرة وأربعمائة:

ورد كتاب من السلطان محمود بن سبكتكين إلى الخليفة يذكر فيه: أن ما افتتحه من البلاد الهندية، وأنه كسر الصنم المشمس بسومنات، وأن صنمهم هذا افتتوا به، وكانوا يعتقدون أنه يحيي ويميت، ويقصدونه للحج من كل فج عميق، ويتقرّبون إليه بالأموال حتى بلغت أوقافه عشرة آلاف قرليّة مشهورة، وامتلأت خزائنه بالأموال. وربط له الرباط للخدمة ثلاثمائة يخلفون رؤوس حجيجه عند القدوم، وثلاثمائة رجل، وخمسمائة امرأة يغنون ويرقصون عند بابه.

ولقد كان العبد ـ يقول الأمير محمود في كتابه ـ: يتمنى قلع هذا الصنم، ويتعرّف الأحوال فتوصف له المفاوز إليه وكثرة الرجال، فاستخار العبد الله تعالى في الانتداب لهذا الواجب طلباً للأجر، ونهض في شعبان سنة ست عشرة في ثلاثين ألف فارس سوى المطوعة ففرّق في المطوعة خمسين ألف دينار معونة.

وقضى الله بالوصول إلى بلد الصنم، وأعان حتى ملك البلد، وقلع الصنم، وأوقدت عليه النار حتى تقطع.

وقتل خمسون ألفاً من أهل البلد.

وقال الشيخ شمس الدين الذهبي في تاريخه[3]:

كانت حوله أصنام كثيرة من الذهب والفضة، مرصّعة بالجواهر محيطة بِعَرْشِهِ يزعمون أنها الملائكة.

ووجدوا في أذنه نيفاً وثلاثين حلقة، فسألهم محمود عن ذلك.

---

(١) الصفحة [٦٠/أ] جاءت مهتزة التصوير من أصل المخطوط فلم يتيسر قراءتها.

(٢) موضع النقط كلمات غير مقروءة.

(٣) ونحو ما يذكر هنا أيضاً في سير أعلام النبلاء (١٧/ ٤٨٣ : ٤٩٥).

فقالوا: كل حلقة عبادة ألف سنة(١).

قال: وورد منه كتاب آخر فيه:

أنه وافى مدينة لم يعاين مثلها فيها زُهاء ألف قصر مشيد، وألف بيت للأصنام، ومبلغ ما في الصنم ثمانية وتسعون ألف مثقال، وقلع من أصنام الفضة ما يزيد على ألف صنم.

/ ولهم صنم معظم يؤرخون مدته بجهالتهم بثلاثمائة ألف عام. [١/٦١]

حول تلك الأصنام المنصوبة زهاء عشرة آلاف بيت.

فَعُني العبد(٢) بتخريب تلك المدينة وإفنائها، وأعانه المجاهدون بالإحراق، فلم يبق منها إلاّ الرسوم.

وأفرد خُمس الرقيق فيهم... (٣) واستعرض خمسون فيلاً.

وحكى الشيخ الحافظ شمس الدين الذهبي في كتابه تاريخ الإسلام:

أنه ورد كتاب من القاهرة إلى السلطان محمود بن سبكتكين في سنة أربع عشرة وأربعمائة يذكر فيه:

أنه أوغل في بلاد الهند حتى [وصل](٤) إلى قلعة فيها بيت صنم.

قال: ورأيت قلعة، ليس لها في الدنيا نظير، والظن أنها تسع خمسمائة فيل، وعشرين ألف دابة، وتقوم لها بالعلوفة. وأعان الله تعالى حتى طلبوا الأمان. فأمَّنْت ملكهم، وأقررته على ولايته بخراج ضرب عليه، وأنفذ هدايا كثيرة، من جملتها طائر

---

(١) قال الذهبي بعد هذا في (ص ٤٩١) في ذكره لفتح سومنات في هذا الصنم: ثم نزلوا سومنات في رابع عشر ذي القعدة، ولها قلعة منيعة على البحر، فوقع الحصار، فنصبت السلالم عليها فهرب المقاتلة إلى الصنم، وتضرعوا له، واشتدت الحال، وهم يظنون أن الصنم قد غضب عليهم، وكان في بيت عظيم منيع، على أبوابه الستور والديباج، وعلى الصنم من الحلي والجواهر ما لا يوصف، والقناديل تضيء ليلاً ونهاراً، على رأسه تاج لا يُقَوَّم يندهش منه الناظر ويجتمع عنده في عيدهم نحو مائة ألف كافر، وهو على عرش بديع الزخرفة علو خمسة أذرع وطول الصنم عشرة أذرع، وله بيت مال، فيه من النفائس والذهب ما لا يحصى. ففرّق محمود في الجند معظم ذلك، وزعزع الصنم بالمعاول فخرّ صريعاً.

وكانت فرقة تعتقد أنه: «مَنَات»، وأنه تحوّل بنفسه في أيام النبوّة من ساحل جِدّة، وحصل بهذا المكان ليُقْصَد ويحج معارضة للكعبة. فلما رآه الكفار صريعاً مهيناً تحسروا وسقط من أيدهم. ثم أحرق حتى صار كلساً. وألقيت النيران في قصور القلعة، وقتل بها خمسون ألفاً.

(٢) يعني محمود بن سبكتكين.

(٣) موضع النقط كلمات مطموسة.

(٤) زيادة يتطلبها السياق.

على شكل القمري إذا حضر على الخوان وكان فيه شيء من السّمّ دمعت عيناه وجرى منها ماء وتحجّر، فيحك ويطلى بما تحلل منه الجراحات فيلحمها على الفور(١).

ومن حجّابهم والشواهد لجلالة ملكهم:

شاشي الحاجب ابن طاهر المتطبب مولى أبي الفوارس بهاء الدولة ابن عضد الدولة، وكان مراعي أمور الأتراك، وكان كثير الصدقة، فائض المعروف.

وهو الذي بنى قنطرة اليارسية.

ووقّف الرباع العظيمة على المارستان وغيره.

وله بطريق الحجاز آثار عديدة.

وكان...(٢) قد أخرجوا بوم الجنائب بمراكب الذهب، وأظهروا الزينة.

فقال له بعض أصحابه: لو كان لنا شيء...(٣)؟

فقال: إنه في جنابهم قنطرة اليارسية، والخندق.

وأوصى عند موته أن يدفن بمقبرة أحمد بن حنبل، وأن لا يبنى عليه قبّة.

فخالفوه وبنوا عليه قبة فسقطت.

وكانت وفاته في شوال سنة ثمان وأربعين وأربعمائة.

ومن ذلك ما ذكره الجوزي عن...(٤):

منهم أو من ديار بكر وميافارقين ولقبه نصر الدولة، كانت له من...(٤) ما ثمنه أربعة عشر ألفاً.

وملك خمسمائة سرية، ووافى ألفين وخمسمائة خادم.

وكان يحضر في محله من الآلات والجواهر ما يزيد على مائتي ألف دينار.

وتزوج من بنات الملوك جملة.

[٦١/ب] وأنفذ إلى طغلبك هدايا عظيمة منها حجر الياقوت المشهور/ المسمى بالجبل، وأنفذ معه مائة ألف دينار عيناً.

---

(١) ذكر نحو هذا كثيراً وصيف شاه في كتابه مختصر عجائب الدنيا، والذي أعانني الله على تحقيقه ونشره في دار الكتب العلمية أيضاً، فذكر فيه من العجائب والغرائب من مثل هذه الأشياء الكثير جداً وأنا أظن أن مثل هذه الأشياء كانت تحدث نتيجة معرفة صانعوها معرفة جيدة بعلوم الكيمياء وتأثيراتها في الأشياء وتأثيرات الأشياء فيها والله أعلم.

(٢) كلمة هذا رسمها: الاسبعصلاريه.

(٣) طمس بالمخطوط قدر ثلاث كلمات.

(٤) موضع النقط كلمات مطموسة.

ووزّر له أبو القاسم المغربي صاحب شذور الذهب. . .[١].

ووفد إليه الشعراء، وسكن في ظله العلماء، والزهّاد، والصلحاء. . .[١].

وتوفي وله بضع وسبعين سنة.

وإنما كانت هذه حال من كتاب. . .[١].

يذكر عند ذكر المماليك الأندلسيين من ملوكهم.

وكان ركن الدولة أبو علي قد قسّم المماليك بين أولاده.

فجعل لعضد الدولة أبي شُجاع: فارس وكرمان.

ولمؤيد الدولة: الرّي، وأصبهان.

ولعجز الدولة: همدان و. . .[٢].

وفي الموالي. . .[١] في البلاد وتغلّب بعضهم على بعض.

وتوفي ركن الدولة سنة ست وستين وثلاثمائة.

وقدم عضد الدولة بغداد سنة سبع وستين.

وخرج الطائع للقائه، ثم. . .[٣] المركب إقبال بختيار بن الحسين.

وتقدم المطيع الناس أن تقيم الخطبة لعضد الدولة على منابر بغداد، وأن تضرب فيها في الغداة والمغرب والعشاء.

وهذا الرسم اليوم بالمشرق قائم يسمونه الطبلغانة، ولم يكن قبل خلافة الطائع.

وسأل عضد الدولة بعد القفول من لقاء بختيار بن الحسين والفراغ من أمره: أن يزاد في ألقابه تاج الملك، وأن تجري عليه خِلع الخليفة.

ومن هذا العهد أيضاً:

حدث هذل التخطيط وتفخيم الأوصاف بالمشرق.

فجلس الطائع في صحن داره مجلساً مشهوراً وحوله من خدم الحول أُولى المكاطي نحو مائة، وبين يديه مصحف عثمان، وعلى كتفه البردة، وبيده القضيب وهو متقلّد سيف رسول الله ﷺ.

ثم حضر عضد الدولة، فاستدناه، وأقسم عليه ليجلسن في. . .[٤].

---

(١) طمس في المخطوط.

(٢) موضع النقط كلمات مطموسة.

(٣) كلمة مطموسة.

(٤) كلمات مطموسة.

فقال له: . . .[١].

فقال: عذري معلوم.

فقال الطائع: . . .[١] يرغبون فيها، وعقيدتك مسكون إليها، وقد رأيت أن أفوّض إليك ما وكّل الله إليَّ من أمر الرعيّة في مشرق الأرض ومغربها، وما وراء بابي، فتولى ذلك مستخيراً الله تعالى.

فقال عضد الدولة: يعين الله على خدمة مولانا وطاعته.

ثم أمر بخلع عليه بحضرة القضاة، والقوّاد، وتوّج.

ثم قدم لواءان بعد أن استخار الطائع لله وصلى على رسوله، وعقدها بيده، ثم [١/٦٢] أمره بقراءة من سورة، ولما فرغ قال له الطائع: خار الله لي ولك،/ وللمسلمين، آمرك بما أمرك الله، وأنهاك عما نهاك، وأبرأ إلى الله مما فوق ذلك.

وجيء بثلاثمائة صانع حتى هيىء الفرش، ثم ابتعد الطائع مدة.

وكان له الموصل، والعراق، وديار بكر، وحران، ومنيح، وكرمان، وفارس.

وكان مع هذا ينافس في القيراط.

فلما نزل به الموت جعل يقول: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡ ۝٢٨ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ۝٢٩﴾ [الحَاقَّة: الآيتان ٢٨، ٢٩]، إلى أن توفي يوم الاثنين ثامن شوال، سنة ثنتين وسبعين وثلاثمائة، عن سبع وأربعين سنة وأحد عشر شهراً.

ودفن بدار الملوك، وأُخفي قبره إلى أن صيّر الملك لولده. فحمل إلى مشهد على عليّة السلاح وكتب على قبره: هذا قبر عضد الدولة، وتاج الملوك، أبي شجاع بن ركن الدولة، أحب مجاورة هذا . . .[١] لطمعه في الخلاص، ﴿يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا﴾ [النّحل: الآية ١١١].

وجلس ابنه صمصام الدولة المعزّ وجه وجاه، الطائع صغرياً، وقد لطم عليه بداره وبالأهواز.

وتوّج ولده وجدّد له البيعة.

ولم تزل الأحوال تتقلّب بالديالمة إلى أن تمكّن أبو طالب محمود بن ميكائيل، المعروف بطغرلبك، أمير الغُز من بلاد خُراسان.

فكاتبه القائم بأمر الله.

فأقبل إلى بغداد، وأجلس له الخليفة كما تقدم، وخطب له ولَقَّبه بملك المشرق والمغرب.

---

(١) طمس بالمخطوط.

وهو أول من ملك من السلجوقية.

ثم خطب من بعده لأبي نصر الملك الرحيم آخر ملوك الديالمة، فقبض طغرلبك عليه وحمله إلى القلعة... [١] على الدولة.

ولما توفي طغرلبك ولّي ابن أخيه سليمان بن داود.

ثم عظم أمر محمد بن داود، واتصل به خروج ملك الروم إلى الشام، وعزمه على استئصال المسلمين.

فنظر إلى القائد، وكان في قلّ من العسكر إذ كان معظم جيشه وصل إلى خراسان ولم ير أن يرجع إلى بلاده لجمع عساكره فيكون ذلك هزيمة على المسلمين.

فصرف خاتون السعبرية، ووزيره نظام الملك بأثقاله إلى همدان، وأمره بإنقاذ العسكر، وقال: أنا صابر في هذه الغزاة صبر المحسنين، وصائر إليها مصير المخاطرين، فإن سلمت فذاك ظني بالله، وإن تكن الأخرى، فأنا أعهد إليكم أن تقيموا ولدي معاذ، فقد رددت الأمر إليه.

فأجابوه بالسمع والطاعة.

قال المؤرخ:

وكان عسكر السلطان يناهز عشرين ألفاً.

وأما ملك الروم:

فلم يكن يأخذ عدده الحصر.

وقيل: كان معه من الإفرنج ثلاثون ألفاً من غيرهم الذين وراء القسطنطينية خمسة عشر ألفاً/... [٢]، ما فعل ببلاد النصارى، فجمع الناس واستغفر وقال: ما [٦٢/ب] منا اليوم سلطان... إني بعت نفسي لله، وأنا أريد أن تفرح نفسي بالنصر على العدو، فمن أحب أن يتبعني إلى الجنة، وإلا فقد أذنت له في الانصراف.

ثم لبس لأمته، وحمل القوم، فهزمهم وركب المسلمون أكتافهم، وقد بعدت المراحل بينهم وبين... [٣] واستأصل أموالهم، وأتي إليه بملك الروم أسيراً، فوبخه، وقال له: ألم أسألك المثوبة، فما حملك على البغي؟

فقال: أيها السلطان، جمعت فاستكثرت، وكان لك النصر، فافعل ما شئت ودعنا من التوبيخ.

---

(١) كلمة مختلطة المداد.

(٢) موضع النقط كلمات غير مقروءة لتراكب بعض الحروف، واختلاط المداد، والطمس.

(٣) موضع النقط طمس.

فقال: لو وقعت لك ما كنت تفعل بي؟

فقال: . . .[١].

فقال: . . .[١] أنت رجل عاقل.

ثم قال: وما تظن أني فاعل بك الآن؟

قال: أنت وثلاث أقسام:

الأول: قتلي.

والثاني: إشهاري في بلادك التي تجرّدت بقصدها.

والثالث: لا فائدة لي في ذكره، فإنك لا تفعله.

قال: فاذكره.

قال: العفو، وقبول الأموال واصطناعي، وردي إلى مُلكي مملوكاً لك نائباً عنك في مُلك الروم.

فقال: ما اعتزمت منك إلاَّ هذا الذي وقع يأسك منه.

واستقرّ الأمر على مال وهدية في أمتعة. . .[٢] المسلمين في بلاده، وصرف، فألفى النصارى قد قدمت ملكاً غيره، فوجّه إليه ما قدر عليه وعزّزه.

ثم إنه عبر نهر جيحون على. . . وضم ما وراءه من كفار العجم وأتي به يستحفظ ببعض القلاع الشهيرة بالعجم تعرف بـ. . .[٣] الخوارزمي، جاء به إليه غلامان، فلما وصله شتمه السلطان، وقرّره على أعمال قبيحة، وأمر أن تضرب له أوتاد أربعة، وتشدّ أطرافه إليها.

فقال للسلطان بلسانه: يا مخنث، مثلي يقتل بهذه القتلة؟

فأخذ السلطان القوس والنشابة، وقال للغلامين: خليا عنه.

فرماه بسهم، فأخطأه، فنهض إليه المذكور والسلطان على كرسي، فنهض أمامه فعثر، فوقع على وجهه، فأكبَّ على السلطان، وضربه بسكين خفية كانت في خاصرته.

ولحقه الجند، فقتلوه، وشُدَّت جراح السلطان، ثم مات رحمه الله.

وأُقعد ولده ملكشاه.

---

(١) طمس بالمخطوط.

(٢) طمس بالمخطوط.

(٣) تراكبت حروف اسم تلك القلعة أو الحصن.

ثم وصله نظام الملك وزير أبيه، ورد إليه الأمور.

وكان مولعاً بالصيد راكناً إلى الملذات بخلاف أبيه.

وأخبار الملك شاه مشهورة/ حفر الأنهار، وعَمَّر الخرابات، وكانت السُّبُل [٦٢/أ] أيامه مأمونة، ويفرض للمرأة والضعيف.

وخطب له في...[(١)].

وحكى الهمداني: أن...[(١)] لقي السلطان ملكشاه وهو يبكي فسأله عن سبب بكائه، فقال: ابتعت بطيخاً بدريهمات لا أملك غيرها، ولقيني ثلاثة من الأتراك...[(١)] حيلة سواه.

فقال:...[(٢)] وكان ذلك في أول قدوم البطيخ، وقال له: إن نفسي قد تاقت إلى البطيخ، فطف في العسكر، فانظر من عنده شيء يبيعه...[(١)] بطيخ.

فقال: عند من رأيته؟

فقال: عند الأمير فلان.

فأحضره، وقال: من أين لك بهذا البطيخ؟

فقال: جاء به الغلمان.

فقال: أوتينيهم الساعة.

فمضى، وقد عرف نيّته السلطان فيهم، فهربهم وعاد، فقال: لم أجدهم.

فالتفت السلطان إلى صاحب البطيخ وقال: هذا مملوكي وقد وهبته لك حيث لم يحضر القوم الذين أخذوا متاعك، ووالله لئن خلّيته لأضربن عنقك.

فأخذ بيده وخرج من بين يديّ السلطان. فاشترى الأمير نفسه بثلاثمائة دينار. وعاد صاحب البطيخ، وقال: يا سلطان، قد بعت المملوك بثلاثمائة دينار.

فقال: أو قد رضيت؟

قال: نعم.

قال: فامضي في السلامة.

قال المؤرخ:

قال أبو العباس في كتاب...[(٣)] السلطان:

---

(١) طمس في المخطوط.

(٢) طمس بالمخطوط.

(٣) كلمة غير مقروءة هذا رسمها: مسكردان.

وكان هذا السلطان رحمه الله مولعاً بالصيد حتى أنه ضبط ما اصطاده بيده، فكان عشرة آلاف، فتصدّق بعشرة آلاف دينار، وقال: أخاف الله سبحانه وتعالى من إزهاق الأرواح لغير مأكلة.

وصار بعد ذلك كلما قتل صيداً تصدّق بدينار.

وخرج من الكوفة لتوديع الحاج وشيّعهم بالقرب من واسط وصادف في طريقه وحشاً كثيراً، فَبُني هنالك من حوافر الحمر الوحشية، وفروة الظباء التي صادها في تلك الطريق منارة[1]، والمنارة باقية إلى اليوم تعرف بمنارة القرود.

وذكر هبة الله بن المبارك السقطي في تاريخه قال:

حدّثني عبد السميع بن داود قال: قصد ملكشاه رجلان من أهل البلاد السفلى من العراق، فقالا: نحن من قرية مقطعها حمارتكين المحلياني صادرنا على ألف وستمائة دينار، وكسر ثنيتي أحدنا، والثنيتان في يده، وقد قصدناك أيها الملك لتقتص [٦٣/ب] لنا، وقد شاع من عدلك ما حملنا على قصدك، فإن أخذت بحقنا كما/ أوجب الله عليك وإلاَّ فالله الحاكم العدل بيننا.

فقال عبد السميع: فشاهدت السلطان، وقف ونزل من فوق فرسه، وقال: ليمسك كل منكما بطرف كمي.

فاستحيا فقال: ...[2] فأقسم عليهما إلاَّ فعلا، فأخذا بكُمّيه، وسارا به إلى دار نظام الملك...[2] الخبر، فخرج مسرعاً إليه، وقَبّل الأرض بين يديه، وقال: أيها السلطان المعظم، ما حملك على هذا؟

فقال له: كيف حالي هذا عند الله إذا طُلبت بحقوق المظلومين، وقد قلّدتك هذا الأمر لتكفيني مثل هذا، فإن تطرّق إلى الرّعية ثُلْمٌ فما تطرّق، وأنت المطالب فانظر ما بين يديك.

فقبّل الأرض، وسار في خدمته، وعاد من وقته، فأمر بعزل خمارتكين، وحلّ أقطاعه ورد المال عليهما، ووعد بقلع ثنيتيه إن قامت عليه البيّنة، ووصلهما بمائة دينار، رحمة الله ورضوانه عليه.

ولله درّ القائل:

وإنما المرء حديث بعده   فكن حديثاً حسناً لمن وعى

وفي مثل ذلك قلت من أبيات في الحكم والأمثال:

---

(١) في المخطوط: قال، وهو تحريف.

(٢) طمس بالمخطوط.

والـلّـه مـا جـار عـلـى مـالـه   أو جـاهـه مـن حـاط مـن عـرضـه
والـنـاس فـي خـيـر ومـن ضـده   هـم شـهـداء الـلّـه فـي أرضـه

وتزوّج المقتدي بأمر الله بنت ملكشاه هذا.

وكان عُرسه بها مما يتحدث به أهل القصص والأحاديث الطويلة، زعموا أن خزانتها المنقولة كان منها اثنا عشر صندوقاً من الفضة إلى غير ذلك. ثم دخل الوزير أبو شجاع ثم قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: الآية ٥٨].

وقد أذن في نقل الوديعة إلى الدار العزيزة. فقالت: السمع والطاعة للمراسم البريئة.

فنقلت في مَحَفَّةٍ مرصّعة بالجوهر، وأحاط بها مائتا جارية بالمراكب العجيبة، وبين يديها نظام الملك والأمراء.

وأحضر الخليفة صبيحة البناء عسكر السلطان على...[1] استعمل فيه أربعون ألفاً من الشكر، ولولا أن يطول الكتاب ويخرج عن غرضه لاستقصينا ذلك.

وتمادت أيامه جليلة موصوفة بالعدل وإقامة رسوم الخير إلى أن توفي سنة خمس وأربعين وأربعمائة.

وكان عمره سبعاً وثلاثين سنة. واختلف أولاده وتنازعوا إلى أن صارت الأمور إلى ولديه محمد وسنجر.

/ ودخلا على المستظهر بالله، ففوّض السلطنة إلى محمد منهما، وجعل سنجر وليّ العهد بعده، وتوفي محمد. [٦٤/أ]

وبقي سنجر[2] في السلطنة إلى أن توفي سنة اثنتين وخمسمائة.

---

(١) طمس بالمخطوط.

(٢) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء: (٢٠/ ٣٦٢) في ترجمته: السلطان، ملك خراسان، معز الدين، سنجر ابن السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان بن جغريبك بن ميكائيل بن سلجوق الغزي التركي السلجوقي، صاحب خراسان وغزنة وبعض ما وراء النهر.
وخطب له بالعراق وأذربيجان والشام والجزيرة، وديار بكر، وأرّان، والحرمين. واسمه بالعربي أبو الحارث أحمد بن حسن بن محمد بن داود.. ولد بسنجار من الجزيرة في رجب سنة تسع وسبعين وأربعمائة إذ توجّه أبوه لغزو الروم، ونشأ ببلاد الخوز، ثم سكن خراسان، وتدير مرو... قال السمعاني: كان في أيام أخيه يلقب بالملك المظفر إلى أن توفي أخوه محمد بالعراق في آخر سنة إحدى عشرة، فتسلطن، وَرِثَ الملك عن آبائه، وزاد عليهم، وملك البلاد، وقهر العباد، وخطب له على أكثر منابر الإسلام. وكان وقوراً حيياً كريماً سخياً مشفقاً، ناصحاً لرعيته كثير الصّفح، جلس على سرير الملك قريباً من ستين سنة.

وكان سنجر مهيباً كريماً رفيقاً بالرعية.

وأقام على سرير الملك مستقلاً به إحدى وأربعين سنة إلى عشرين قبلها والبقاء لله.

واتصل بعده ملك هذه الطائفة من الأعاجم حتى أيوب وغيرهم إلى زماننا هذا حسبما يأتي الإلماع به عند ذكر ملوك الترك بمصر . . . من تقرير الدولة العبيدية.

ولولا أننا اشترطنا الاختصار وذكر هذه الدول بحكم الاضطرار لما سُئلنا عنه لأشبعنا القول فيه.

ذكر شيء من دولة بني حمدان

وكان هذا البيت من بني حمدان بيتاً كبيراً معروفاً في القديم سامي التليل، وأصلهم عرب من تغلب، وقد نظم أبو الطيّب المتنبي نسب سيف الدولة في قصيدته التي أولها:

* عَـوَازِلُ ذَاتِ الـخَـالِ فـيَّ حـواسِـدُ *

بما يدل على شرف قديم ومحل من الأصالة كريم، إذ يقول:

فأنت حسام الدين واللّه ضاربٌ　　وأنت لواء الدين واللّه عاقدُ
وأنت ابن حمدان بن حمدون بابنه　　تشابه مولود كريم ووالدُ
وحمدان حمدون وحمدون حارث　　وحارث لقمان ولقمان راشدُ
أولئك أنياب الخلافة كلها　　وسائر أملاك البلاد الزّوائدُ

وكان لهم بمحل العرب بلد العواصم، وديار بكر، وثغور الشام شهرة.

وكان أشرافهم قد اعتقلوا ببعض ما يجرّه الخروج عن السلطان، فلما أهمّ الخليفة أمر الخارج، وخربت بسببهم البلاد، واستولى منهم الشاري على الأقطار، انتدب إلى الخليفة من أعلام هذا البيت عبد الله بن حمدان، وتبرّع في الإتيان بالخارجي أو الإراحة منه، وشرط على السلطان في ذلك شروطاً منها:

أن يتركه واختيار من يظهر له من الفرسان في جيش السلطان.

ومنها أن يسرّح من في اعتقال السلطان من قومه.

فمكّن مما طلبه، وساعده الجدّ في تيسير ما تبرّع به.

فاتبع الخارجي حتى كسره، ثم اقتحم وراءه الأنهار والبحار والفيافي والقفار، إلى أن دخل به وأصحابه/ مأسورين مشهورين على الجمال في يوم مذكور ببغداد، [٦٤/ب] تضمنت ذلك كتب التواريخ.

وازداد ذكر بني حمدان وعلا شأنهم، واستعانت بهم الدولة العباسية على من كان يعارضهم من الخوارج والروم المجاورين لمحل سكنى بني حمدان، فعظم أثرهم واشتهرت أخبارهم، وكانت دولتهم تنيف على سبعين سنة.

قال الطبري:

في سنة ثلاث وثلاثين شخص المعتضد إلى ناحية الموصل بسبب هارون الشاري الخارجي[١].

وقدم عليه الحسن بن حمدان بن حمدون في جماعة من أهل بيته، واشترط إيصال الشاري إليه على أن يُطلق أباه، وقرابته من اعتقالهم عنده.

وأن ينتخب الحسن من شاء من الجيش، ففعل.

واتبعه، وأجاز في طلبه أنهار العراق، واقتحم مفاوزها حتى أخذه وساقه إلى المعتضد من غير عهد، فبلغ منه كل مبلغ. واتصلت الرياسة فيهم إلى سيف الدولة وقومه.

ومما يشهد بأصالة بني حمدان وعلوّ مقدارهم وانخراطهم في سلك الملوك الكبار:

قول أبي مروان الثعالبي، قال:

كان بنو حمدان ملوكاً وأمراء، ووجههم للصباحة، وألسنتهم للفصاحة، وأكفّهم للسماحة، وعقولهم للرجاحة، وسيف الدولة[٢] مشهور بسادتهم وواسطة قلادتهم، وكانوا عدّة الزمن البهيم، وعماد الإسلام ومن به سداد الثغور وسداد الأمور، وكانت وقائعه في عصاة العرب تكُفُ بأسها، وتنزع لباسها، وتُعل أنيابها، وتذلّ صعابها، وغزواته تدرك من طاغية الروم الثأر، وتحسم شرهم المثار، وتحسن في الأيام الآثار.

وحضرته مقصود الوفود، ومطلع الجود، وقبلة الآمال، ومحط الرحال، وموسم الأدباء، وحلبة الشعراء.

---

(١) قال ابن العماد في شذرات الذهب (٢/ ١٨٢) في أحداث سنة ثلاث وثمانين ومائتين: فيها ظفر المعتضد بهارون الشاري رأس الخوارج بالجزيرة، وأُدخل راكباً فيلاً، وزينت بغداد.

(٢) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٦/ ١٨٧) في ترجمته: أبو الحسن علي بن عبد الله بن حمدان، صاحب حلب، مقصد الوفود، وكعبة الجود، وفارس الإسلام، وحامل لواء الجهاد، كان أديباً مليح النظم، فيه تشيع... يقال: تمّ له من الروم أربعون وقعة أكثرها ينصره الله عليهم. مولده في سنة إحدى وثلاثمائة، وله غزو ما اتفق لملك غيره، وكان يضرب بشجاعته المثل، وله وقع في النفوس، فالله يرحمه. مات بالفالج، وقيل: بعسر البول في صفر سنة ست وخمسين. وكانت دولته نيفاً وعشرين سنة، وبقي بعده ابنه سعد الدولة في ولاية حلب خمساً وعشرين سنة. وقد أسر ابن عمهم الأمير شاعر زمانه أبو فراس الحارث بن سعيد بن حمدان، فبقي في قسطنطينية سنوات. ثم نداه سيف الدولة. وكان بديع الحسن، وكان صاحب منبج، ثم تملّك حمص، فقتل عن سبع وثلاثين سنة، سنة سبع وخمسين.

قلت:

استأثر بنو حمدان من الدولة العباسية بحظ رحيب، واستوطنوا حلب العواصم وملكوا بما اتصل بها من ديار بكر، وكان أشهرهم ملكاً، وأعظمهم شأناً الأمير سيف الدولة، أبو الحسن علي بن عبد الله بن حمدان.

حسبما يشهد لذلك ديوان أبي الطيب المتنبي شاعره، وسواه، إذ يقول في قصيدته التي أوّلها:

لكل امرىءٍ من دهره ما تعوّدَ ... وعادة سيف الدولة الضرب في العِدَا

/ ومن الضرغام للصيد بازه ... تصيده الضرغام فيما تصيدا [١/٦٥]

يشير إلى ما يسمى إليه سيف الدولة من الاستبداد والتأهل لما فوق طوره.

ولما انتهى أمرهم إلى سيف الدولة اكتمل بَدْرُهم وبلغ النهاية أمرهم . . .[١] لم يجتمع بباب أحد من الملوك ما اجتمع ببابه من فحول الشعراء، ونجوم النثر . . .[١] كتابه مختار الشعر فيه، فبلغ عشرة آلاف بيت، كقول السري الموصلي[٢]:

أعزمتك الشهاب أم النهار ... وراحتك السحاب أم البحارُ

خلقت سنية وسنى فأضحت ... تمور بك البسيطة أو تمارُ

تُخلى الدير أو تحمي حماه ... فأنت عليه سوراً وسِوَارُ

وكقول أبي الفرج الوأواء فيه:

من قاس جدواك بالغمام فما ... نصف في الحكم بين شكلين

أنت إذا جدت ضاحكاً أبداً ... وهو إذا جاد دامع العين[٣]

أو كقول أبي نصر بن نباتة فيه:

حاشاك أن تدّعيك العُربُ واحدها ... يا من ندى قدميه طينة العَرب

---

(١) طمس بالمخطوط.

(٢) هو: السري بن أحمد أبو الحسن الكندي الموصلي الشاعر الرّفاء. مدح سيف الدولة، وببغداد المهلبي. وكان بينه وبين الخالديين هجاء وشر فآذاه حتى احتاج إلى النسخ، فبقي ينسخ ديوانه ويبيعه. مات سنة نيف وستين وثلاثمائة ببغداد. وهو القائل:

وكانت الإبرة فيما مضى ... صائنة وجهي وأشعاري

فأصبح الرزق منها ضيقاً ... كأنها من خُرمها جاري

(٣) أرى في هذين البيتين مبالغة شديدة وجمال بديع رفيع حيث وصفه بالجود مع النفع الخالص الذي لا مَنّ فيه ولا كدر، وسعة فيه بلا ضرر، ورضى نفس من المعطي وبساطة وجه وبشاشة. ووصف الغمام بالجود مع وجود بعض الكدر أو المصاحب لبعض المتاعب، ثم وصفه أنه لا يجوز إلاّ إذا سح مضطراً.

فإن يك لك وجه مثل أوجههم عند العيان فليس الصفر كالذهب
وإن يك لكَ نطق مثل نُطقهم فليس مثل كلام اللّه في الكتب

وكقول أبي الطيّب المتنبي[(١)]:

وإن دماً أجريته بك فاخِرٌ وإن فؤاداً رعته لك حاسدُ
نهبت من الأعمار ما لو حَوَيْتَهُ لهُنئت الدنيا بأنك خالدُ
فأنت حسام الدين واللّه ضارب وأنت لواء الدين واللّه عاقدُ

ويقال: إن سيف الدولة غزا الروم أربعين غزوة، فمنها: أنه أغار على ربطتها، وغزنة، وملطية ونواحيها، فقتَل وأحرق وسبى، وانثنى قافلاً إلى درب هوازن فرصد عليه قسطنطين بن فردوس الدمستي فأرصد له فأوقع به وقتل صناديد رجاله، وعقب إلى بلدانه وقد تراجع من هرب منها، فأعظم القتل، وأكثر الغنائم، وعبر/ الفرات [٦٥/ب] إلى بلاد الروم، ولم يفعله أحد قبله. ولما رأى قسطنطين بعد مغزاة بلاد. . .[(٢)] غزا نواحي أنطاكية. . .[(٣)] سيف الدولة. ولما بلغه الخبر أخذ يقول: الراحل لا ينظر إلى متأخر ولا يلوي على متقدم، حتى عارضه. . .[(٤)] فأوقع به وهزمه، وقتل رؤوس البطارقة.

وأمر قسطنطين بن الدمستي وأصابت الدمستي ضربة في وجهه، وفي ذلك يقول المتنبي:

سريت إلى جيهان من أرض آمد ثلاثاً لقد أدناك ركض وأبعد
فوَلى وأعطاك ابنه وجيوشه جميعاً ولم يُعط الجميع لتحيرا

---

(١) هو الشاعر المشهور الذائع الصيت في الشعر والأدب وهو أبو الطيب أحمد بن حسين بن حسن الجعفي، الكوفي، المتنبي. قال عنه الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٦/ ١٩٩): ولد سنة ثلاث وثلاثمائة، وأقام بالبادية يقتبس اللغة والأخبار، وكان من أذكياء عصره. بلغ الذروة في النظم، وأربى على المتقدمين وسار ديوانه في الآفاق. ومدح سيف الدولة ملك الشام، والخادم كافوراً صاحب مصر، وعضد الدولة ملك فارس والعراق. وكان يركب الخيل بزي العرب، وله شارة وغلمان وهيئة. وكان أبوه سقّاء بالكوفة، يعرف بـ: عبدان. . .
قال التنوخي: خرج المتنبي إلى بني كلب، وأقام فيهم، وزعم أنه علويّ، ثم تنبأ فانتضح وحبس دهراً، وأشرف على القتل، ثم تاب. وقيل: تنبأ ببادية السَّمَاوة، فأَسَرَهُ لؤلؤ أمير حمص بعد أن حارب. وقد نال بالشعر مالاً جليلاً، يقال: وصل إليه من ابن العميد ثلاثون ألف دينار، وناله من عضد الدولة مثلها. أُخذ عند النعمانية، فقاتل، فقتل هو وولده مُحَسِّد، وفتاه في رمضان سنة أربع وخمسين وثلاثمائة.

(٢) طمس في المخطوط. (٣) كلمة غير مقروءة.

(٤) طمس في المخطوط قدره كلمة.

وما طلبت ذوي إلاّ سِنّة غيره ولكن قسطنطين كان له فدا

وقال أبو فراس[(١)] من قصيدة يخاطبه:

وولّى على الرسم الدمستي هارباً وفي وجه عذر من السيف عاذرُ
فدا نفسه بابن عَلَيْهِ كنفسه وللشدة الصمّاء تقنى الذخائرُ
وقد يقطع العضو النفيس لغيره وتُدفع بالأمر الكبير الكبائرُ

ولما توجّه سيف الدولة لبناء الحسدة ـ وهي قلعة عظيمة الشأن أخذت بمخنق بلاد الروم ـ اشتد على ملك الروم، فجمع عظماء أهل مملكته، وجهزهم بالصليب الأعظم، وقدم عليهم فردوس الدُمُستي طالباً لثأر ابنه قسطنطين، في عدد لا يحصى حتى أحاطوا بعسكر سيف الدولة.

والتهبت الحرب، واشتدّ الخطب، وساءت ظنون المسلمين، ثم أنزل الله نصره، فحمل سيف الدولة يخرق الصفوف طلباً للدمستي، فولّى هارباً، وأسر سيف الدولة صِهره، وابن بنته، وقتل من الروم خلقاً لا يحصى، وأكثر الشعراء في هذه الوقيعة، ففيها يقول أبو الطيب:

وكان بها مثل الجنون فأصبحت ومن جنبها القتلى عليها تمائمُ
لبيت الله كل شيء أخذته وهو لما يأخذه منك غوارمُ
وقد فجعته بابنه وابن بنته وبالصهر حملات الأمير الغواشمُ
مضى يشكر الأصحاب في فوتهم الظباء لما شغلتها هامهم والمعاصمُ
/ يغترّ بما أعطاه لا عن جماله ولكن...[(٢)] بمن منك مغانمُ [١/٦٦]
وقفت وما بها الموت تشك لواقف كأنك في...............[(٢)]
تمر بك الأبطال كلمى هزيمة ووجهك وضّاح.....[(٣)]

---

(١) قال الذهبي في ترجمته في سير أعلام النبلاء (١٦/ ١٩٦): الأمير أبو فراس الحارث بن سعيد بن حمدان التغلبي الشاعر المفلق. وكان رأساً في الفروسية والجود، وبراعة الأدب. وكان الصاحب بن عباد يقول: بديء الشعر بملك وهو امرؤ القيس، وخُتم بملك وهو أبو فراس. أسرته الروم جريحاً، فبقي بقسطنطينية أعواماً ثم فداه سيف الدولة منهم بأموال، وأعطاه أموالاً جزيلة، وخيلاً، ومماليك. وكانت له منبج، ثم تملّك حمص. ثم قتل بناحية تدمر، وكان سار ليتملك حلب. وديوانه مشهور. قتل سنة سبع وخمسين وثلاثمائة. وكان عمره سبع وثلاثون سنة.
ومن مصادر ترجمته الكثيرة نذكر: يتيمة الدهر (١/ ٣٥)، المنتظم (٧/ ٦٨)، زبدة الحلب (١/ ١٥٧)، وفيات الأعيان (٢/ ٥٨)، الوافي بالوفيات (١١/ ٢٦١)، البداية والنهاية (١١/ ٢٧٨)، النجوم الزاهرة (٤/ ١٩)، شذرات الذهب (٣/ ٢٤).

(٢) كلمات مطموسة. (٣) طمس بالمخطوط.

وكان سيف الدولة[(١)] رحمه الله شاعراً مفلقاً، فمما ينسب إليه:

وساق صبيح الصبوح دعوته فقام وفي أجفانه سِنة الغمض
يطوف بكاسات العقار كأنجم فمن بين منقضٍ علينا ومنفض
وقد نشرت أيدي الجفون مطارفاً على الجود كنا والجواد على الأرض
يطرق منها قوس الحجاب بأصفر على أحمر في أخضر فوق مُبَيّض
كأذيال خود أقبلت في غلائل مصبغة والبعض أقصر من بعض

قال أبو مروان: وهذا من التشبيهات اللوكية التي لا يحضر مثلها السوقة.

ومن أمراء بني حمدان:

ناصر الدولة[(٢)] يخاصبه بقوله:

رضيت لك العليا وقد كنت أهلها وقلت لهم بيني وبين أخي فرق
فلا بد لي من أن أكون مصلّياً إذا كنت أرضى أن يكون لك السبق

ومن أمراء بني حمدان:

الأمير أبو المعالي، وأبو المكارم، ابنا سيف الدولة علي بن حمدان.

ونهما كتب الأمير أبو فراس من أسره:

يا سيديّ أولكما لا تذكران أخاكما
من ذا يعاب بما لقيت من الورى إلاّكما

(١) سبق ذكر ترجمته قبل قليل، ومن مصادر ترجمته: تجارب الأمم (٦/ ١٤٦)، المنتظم (٧/ ٣٨)، وفيات الأعيان (١/ ١٧٤)، المختصر في أخبار البشر (٢/ ١٠٦)، العبر (٢/ ٣٠٣)، الوافي بالوفيات (٦/ ٢٧٨)، البداية والنهاية (١١/ ٢٦٣)، النجوم الزاهرة (٤/ ١٤)، شذرات الذهب (٣/ ١٨)، سير أعلام النبلاء (١٦/ ١٨٧).

(٢) قال الذهبي في ترجمته في سير أعلام النبلاء (١٦/ ١٨٦): صاحب الموصل ناصر الدولة الحسن بن عبد الله بن حمدان بن حمدون بن الحارث بن لقمان التغلبي، أخو الملك سيف الدولة، ابنا الأمير أبي الهيجاء. وكان أكبر من أخيه سِناً وقدراً، وهو الذي قتل محمد بن رائق الذي تملّك. ولما مات أخوه تأسّف عليه، وساء مزاجه، وتسودن، فحجر عليه بنوه. وتملّك ابنه أبو تغلب الغضنفر، وجعله في قلعة مُرَفّهاً مُعزّزاً. وله حروب ومواقف مشهورة.
قال ابن خلكان: مات في سنة ثمان وخمسين. وأما علي بن محمد الشمشاطي فقال: مات يوم الجمعة ثاني عشر ربيع الأول سنة سبع، مات بالقولنج، ثم بذَرَبٍ، وكان أخوه يتأذّب معه.
[وزاد بين البيتين بيتاً هو]:

ولم يك بي عنها نكول وإنما تجافيت عن حقي فتمّ لك الحق

أوجدتما بدلاً بمسته يبني سماء علاكما
لا تقعدوني بعدها وسلا الأمير أباكما[١]

ومن أمراء بني حمدان:

الأمير أبو فراس الحارث بن حمدان ابن عم سيف الدولة، كما قال فيه أبو مروان: فَرْدُ دَهْرِهِ، وشمس عصره أدباً، وفضلاً، وكَرَماً، وجوداً، وبراعة، وفروسية، وشجاعة.

وهو أحد من قيل فيهما: بدىء الشعر بأمير وخُتم بأمير.

وكان سيف الدولة هو الذي وقّاه وخرجه.

حكى ابن خالويه قال:

كتب أبو فراس/ إلى سيف الدولة وقد...[٢] مضرّته إلى منزله بمنبج كتاباً [٦٦/ب] صدره كتابي: أطال بقاء مولاي من التبرّك ومن...[٣] السالم الغانم، مُثقل الظهر...[٢] وشكر أبا شمس سيف الدولة...[٢] فكتب إليه:...[٤]

قلت:...[٢] ومن أبياته الجارية مجرى الحِكَم والأمثال قوله:

ونحن أناس لا نر... لنا القدرُ دون العالمين أو القبرُ
تهون علينا في المعالي نفوسنا وفي خَطَب الحسناء لم يُغْلِهِ المهرُ

وقوله يعزي سيف الدولة:

لا بد من فقد ومن فاقد هيهات ما في الناس من خالد
كن المُعَزّى لا المُعَزَّى به إن كان لا بد من الواحد

وقوله:

المرء رهن مصائب لا تنقضي فعش يواري جسمه في رمسه
فمؤجل يلقى الردى في غيره ومعجّل يلقى الردى في نفسه

وامتحن بالأسر شأن الكثير من أهل بيته المجاهدين، وحمّال الدين، وأسرته الروم رحمه الله وهو جريح، قد أبلى في العدو حتى أثخن في الجراح.

واستقرّ بقسطنطينية، وطالت مُدّة أسره لتعذر المفاداة، فصدرت عنه في وصف أسره ومرضه أشعار تفتّت الأكباد، وتصدّع الفؤاد.

---

(١) وله من مأسره إليهما رسائل كثيرة جداً غاية في الحسن والعُتب والتشكي واللّوم.
(٢) كلمة مطموسة.
(٣) طمس في المخطوط.
(٤) طمس في المخطوط في كلمات كثيرة من شعر قدره ثلاثة أبيات فتركتها.

فمن قصائده يهزّ سيف الدولة الأمير إلى مفاداته، قوله:

دعوتك للجفن القريح المُسَهّدِ لديَّ وللنوم القليل المُشرّدِ
[١/٦٧] / وما ذاك بخلاً بالحياة وإنما لأول مبذول الأول...[١]
وما زال عني أن شخصاً معرصاً لنيل............[١]
ولكنني أختار موت بني أبي على صهوات الخيل......
وتأبى وإياي أن أموت موسَّداً بأيدي النصارى
نضدت على الأيام ثوب جلادتي ولكنني لم أنض ثوب التجلّد
فمن حسن صبر بالسلامة واعد ومن ريب دهر بالردى متوعد
فمثلك من يدعي لكل عظيمة ومثلي من يفدي بكل مسود
تشبث بها لكرومة قبل فوتها وقم في خلاص ثابت العزم واقعد
فإن تفتدوني تفتدوا شرف العدا وأسرع عوّاد إليه المعوّدِ
يدافع عن أعراضكم بلسانه ويضرب عنكم بالحسام المهندِ
متى تخلف الأيام مثلي لكم فتى طويل نجاد السيف رحب المقلّدِ
ولا وأبي ما ساعدان كساعدٍ ولا وأبي ما سيدان كسيدِ
وإنك للمولى الذي به أفتدي وإنك للنجم الذي به أهتدي
وأنت الذي عرّفتني طرق العُلى وأنت الذي هديتني كل مقصدِ
فيا ملبسي النعمى التي جل قدرها لقد أخلقت تلك الثياب فجدّدِ
ألم تر أني فيك صافحت حَدَّها وفيك شربت الموت غير مَصَرَّدِ
وفيك لقيت......[٢] عيونهم بسبعين فيها كل......[١]
يقولون جَنِّب عادة ما عرفتها شديدٌ على الإنسان ما لم يُعَوّدِ
فقلت: أما واللّه لا قال قائل شهدت له في الحرب السهم مشهدِ
ولكن سألقاها فإما منية هي الظن أو بنيان عِزّ مؤبدِ
ولم أدر أن الدهر من عدد العِدا وأن المنايا السُّود يرمين عن يدي

وأحفظ أبو فراس يوماً الدمستي ـ وهو كبير النصارى الذي أسره ـ في مناظرة جرت بينهما.

---

(١) طمس في المخطوط.
(٢) موضع النقط طمس بالمخطوط.

فقال له الدمستي: إنما أنت ـ يعني بني حمدان ـ كُتَّابٌ لا تعرفون الحَرْبَ.

/ فقال له أبو نوّاس: نحن نطاردك منذ سبعين سنة بالسيوف أم بالأقلام؟ [٦٧/ب]

ثم قال:

أتزعم يا . . . .(١) أننا ... ونحن أسود الحرب لا نعرف الحربا
. . . .(١) ... ومن ذا الذي يضحي ويُمْسي لها تِربا
. . . .(١) ... وجلل ضرباً وجه والدك العضبا
لقد جمعتنا الحرب من قبل هذه ... فكنا بها أسداً وكنت بها كلبا
بأقلامنا جُرِحْت أم بسيوفنا؟ ... وأسد الشّرى قدنا إليك أم الكتبا؟
تفاخرنا بالضرب والطعن و. . . .(٢) ... لقد أوسعتك النفس يا ابن استها كذبا
رعى اللّه أوفانا إذا نال ذمة ... وأنفذنا طعناً وأثبتنا ضربا

قالوا: ولم تطل حياة أبي فراس بعد فكاكه. وكان آخر شعر قاله عند وفاته، قوله يخاطب ابنته:

أبُنَيَّتي لا تجزعي ... كل الأنام إلى الذهاب
نوحي علَيّ بحسرةٍ ... من خلف سترك والحجاب(٣)
قولي إذا كلمتني ... فعييتُ عن رَدِّ الجواب
زين الشباب أبا فِراس ... ما تمتّع بالشباب

ومنهم: أخوه الأمير أبو الهيجاء سعيد بن حمدان. وهو الذي خاطبه بقوله:

حللت من المجد اسمى مكان ... وبلّغك اللّه أقصى الأمان
فإنك لا عدمتك العلى ... أخ لا كإخوةِ هذا الزمان
كسونا إخوتنا بالصّفا ... كما كُسِيَتْ بالكلام المعان

ومنهم: الأمير أبو العشائر بن حمدان، الذي كتب له وهو أسير بأرض الروم قوله من قصيدة:

فمن مبلغ عني الحسين الوكه ... تضمنها دُرّ الكلام المنظم

---

(١) طمس في المخطوط.

(٢) كلمة مطموسة بالمخطوط.

(٣) هذا البيت جميل جداً حيث لامس فطرة المحب وطبيعة النفس مع النصح بالتمسك والتجلّد والتصبر والمحافظة الكاملة على التحشم والوقار وصون النفس والبدن عن التعري الباطن والظاهر، فرحم الله أبا فراس.

لـذيـذ الـكـرا حـتـى أراك مُـحَـرّمٌ ونـار الأسـى بـين الحشا تـضـرم
واتـرك أن أبـكـي عـلـيـك تـطـيراً وقـلـبـي يـبـكـي والجوانـح تـلـطـم

[٦٨/أ] / قالوا: لم يسمع أحسن من هذا في التفجع المنكوب.

وأظـهـر لـلأعـداء عـنـك جـلادة وأكـتـم مـا فـي القلب واللَّه أعلم
ومـا أغـربـت فـيـك الـلـيـالـي فـإنـهـا لـتـصـد............... (١)
طـوارق خـطـب مـا تُـغِـبُّ وفـودهـا .... (١)
فـمـا عَـرَّفـتـنـي غـيـر مـا أنـا عـارف ومـا عـلَّـمـتـنـي غـيـر مـا كـنـت أعـلـم
وتـدعـوا كـريـمـاً مـن يـجـود بـمـالـه ومـن يـبـذل الـنـفـس الـكـريـمـة أكـرم
إذا لم يكن ينجي الفرار من الردى على حاله فالصبر أوفى وأحزم
لعمري لقد أعذرت لو أني معذراً وأقـدمـت لـو أن الـكـتـاب تـقـدم
وما عابك أن السابقين إلى العلى تـأخـر أقـوام وأنـت الـمـقـدم
وما لك لا تلقى بمهجتك القنا وأنـت مـن الـقـوم الـذيـن هُـمُ هُـمُ
لعاً يا أخي لا مسك السُّوء إنه هو الدهر في حاليه بؤسي وأنعُمُ

ومنهم: الأمير أبو وائل ثعلب بن داود بن حمدان.

وكان ظهر في العرب رجل يعرف بالمرقّع، يدعو الناس لنفسه، والتفّت عليه القبائل، وافتتح مدائن أطراف الشام، وأسَرَ أبا وائل تغلب المذكور.

وكان أبو وائل هذا خليفة سيف الدولة على حمص.

فألزمهم المرقّع شراء نفسه منه بعدد من الخيل، وجملة من المال.

فأسرى سيف الدولة من حلب يجدّ السير حتى لحقه في اليوم الثالث بنواحي دمشق، فقتله، ووضع السيف في أصحابه، فلم ينج منهم إلاَّ من سبق به فرسه.

وعاد سيف الدولة ومعه أبو وائل وقد استخلصه ومعه رأس الخارجي.

وفي ذلك يقول أبو الطيّب المتنبي من قصيدته المشهورة:

لـو كـنـت بـأسْـرٍ غـيـر الـهـوى ضـمـنـت ضـمـان أبـي وائـلِ
فـدا نـفـسـه بـضـمـان الـنـضـار وأعـطـى صـدور الـقـنـا الـذائِـل
ومـنـاهـم الـخـيـل عـبـوبـه فـجـيء بـكـل فـتـى بـاسِـلِ
دعـا سـمـعـت وكـم سـاكـت عـلـى الـبـعـد عـنـدك قـائـل

(١) شطران مطموسان بالمخطوط.

/ وعـدت إلـى حـلـبٍ ظـافـراً كـعـود الـحُـلـي إلـى الـعـاطـل [٦٨/ب]

وإنما لم نمعن القول في دولة آل حمدان لأن أيامهم خلية من المعنى الذي جلبنا إليه هذا القصص، ولم نر إخلالاً بالكتاب من إلمام محاسنهم، فعرجنا على نبذة من ذكرهم بحسب الانجرار في أذيال الدولة العباسية.

وكان انقراض أمر بني حمدان من الشام بعد موت سيف الدولة لتغلّب الدولة السلجوقية الأعجمية على ملك العرب، واستيلائهم على الشام.

ولذلك يقول الحاج أبو الحسين بن جبير رحمه الله في رحلته:

وقدم منصرفاً من الحجّ واجتاز بدار ملكهم حلب في أيام صلاح الدين بن أيوب في ثالث عشر من ربيع الأول من عام تسعة وسبعين وخمسمائة:

بلدة قدرها خطير، وذكرها في كل زمن، يطير خطابها من الملوك كثير، ومحلها في نفوسهم أثير، فكم أهاجت من كفاح، وتلت عليها من بيض الصِّفَاح.

لها قلعة شهيرة الامتناع، نابية الارتفاع، معدومة الشبيه والنظير في القلاع، تنزّهت حصانة أن تُرام أو تُستطاع، قاعدة كبيرة، ومائدة من الأرض مستديرة، منحولة الأرجاء، موضوعة عن نسبة اعتدال، واستواء، فسبحان من أحكم تدبيرها، وأبدع كيف شاء تصويرها، عتيقة في الأزل، حديثة وإن لم تزل، قد طاولت الأعوام والأيام، وشيّعت الخواص والعوام، هذه منازلها وديارها، فأين سكّانها وعمّارها؟

وتلك سُدّة ملكها وبناؤها أمراؤها والحمدانيون وشعراؤها، أجل فنى الجميع ولم يأن بعد فناؤها.

فيا عجباً للبلاد تبقى وتذهب أملاكها، ويهلكون، ولا يقضي هلاكها، وتخطب بعدهم فلا يتعذّر إملاكها، وترام فيتيّسر بأيسر شيء إدراكها.

هذه حلب قد أدخلت ملوكها في خبر كان، ونسخت ظرف الزمان بالمكان، أنّثَ اسمها فتحلّت بسمت الغوان، ودانت بالغدر فيمن دان، وتجلّت عروساً بعد سيف دولتها ابن حمدان.

فهيهات هيهات سيهزم شبابها، ويعدم خطابُها، ويسرع منها بعد حِسينٍ خرابها، وتتطرّق مخبأت الحوادث إليها، حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

ومن أمراء الدولة العباسية الجارين مجرى الملوك العظماء في الصولة وعظم /الدولة والاستبداد والعزّ البعيدة الآماد، الأمراء من بني طولون [١/٦٩]

قال الطبري: في سنة اثنتين وستين فيها ولي أحمد بن طولون الثغور الشامية زائداً إلى ما كان يلي مصر وأعمالها:

دولة أبي العباس أحمد بن طولون(١)

قال أبو الفرج:

ولد أحمد ببغداد سنة عشرين ومائتين، ونشأ بعيد الهبة، كثير الخير والصلاح، وحفظ القرآن، وطلب الحديث، ثم سأل الوزير عبد الله بن يحيى بن خاقان أن يوقّع له برزقه على الثغر ليكون في جهاد، فكانت ولايته ما بين رحبة طوق إلى طريق المغرب. ثم تولى مصر والشام، وكان كثير البرّ والصدقات.

قال له وكيله يوماً: ربما امتدت إلى الكتب المطرفة والمعصم فيه السوار أفأمنع هذه الطبقة؟

فقال له: ويحك، هؤلاء المستورون والذين يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف، احذر أن تردّ يَداً امتدت إليك.

وكان خراج مصر في أيامه أربعة آلاف ألف، وثلاثمائة ألف دينار.

وأنفق أموالاً على المصالح منها على الجامع المنسوب طولون مائة وعشرون ألف دينار، وكان يتصدّق في كل شهر بثلاثة آلاف، وكان راتب مطبخته كل يوم ألف دينار، ويجري على أهل المساجد كل شهر ألف دينار، وعلى فقراء الثغور كذلك.

وحمل ما فرّق على العلماء والصالحين فكان ألف ألف دينار، وعلى فقراء ذهباً.

ومرض، فخرج المسلمون بالمصاحف واليهود بالتوراة والنصارى بالإنجيل، والمعلون بالصبيان، وكثر الدُّعاء له في الصحراء والمساجد.

---

(١) من مصادر ترجمته: تاريخ الطبري (٩/ ٣٦٣)، المنتظم (٥/ ٧١)، وفيات الأعيان (١/ ١٧٣)، العبر (٢/ ٤٣)، الوافي بالوفيات (٦/ ٤٣٠)، سير أعلام النبلاء (١٣/ ٩٤)، البداية والنهاية (١١/ ٤٥)، النجوم الزاهرة (٣/ ١)، شذرات الذهب (٢/ ١٥٧).

فلما أحسَّ بالموت رفع يده وقال: يا رب، احمل من جهل مقدار نفسه، وأبطره حلمك عنه، ثم تشهّد.

وقضى في ذي القعدة سنة سبعين ومائتين. فكان عمره سبعين سنة.

وخلّف ثلاثة وثلاثين ولداً منهم سبعة عشر ذكراً.

وترك عشرة آلاف ألف دينار.

وكان له من المماليك سبعة آلاف، ومن الخيل على مربطه سبعة آلاف، ومن الجمال والبغال ستة آلاف رأس، ومن الدواب الخاصة ثلاثمائة، ومن المراكب الحربية ثلاثمائة مركب، ومن الغلمان أربعة وعشرون ألفاً. وله أخبار/ غريبة. [٦٩/ب]

ومما نقله الناس في فضله:

أنه دخل على أبيه يوماً وهو صغير فقال: بالباب قوم ضعفاء، فلو كتبت لهم بشيء؟

فقال: ائتني بدواة، فذهب، فرأى في الزهائر حظيّة من حظايا أبيه...[1] خادم، فأخذ الدواة ولم يكلم بشيء، وخشيته الجارية أن يسبقها إلى طولون، فجاءت إليه وقالت: أحمد راودني الساعة في الزهائر. فصدقها، وكتب كتاباً إلى بعض خدمه يأمره بقتل حامل الكتاب من غير مشورة.

وقال لأحمد: اذهب بهذا الكتاب إلى فلان. فأخذه ومَرَّ على الجارية.

فقالت: إلى أين؟

فقال: في حاجة مهمة للأمير. ولم يعلم ما في الكتاب.

فقالت: أنا أرسله إليه ولي بك حاجة. فدفعته إلى الخادم الذي كان معها، وقالت: اذهب به.

وإنما أرادت أن يزداد طولون على أحمد حنقاً.

فلما وقع المأمور على الكتاب قطع رأس الخادم وبعث به إلى طولون.

فلما رآه تعجّب واستدعى أحمد، وقال له: أصدقني ما الذي رأيت، وإلاّ قتلتك؟

فأخبره قصة الجارية.

فطلب الجارية وقال: أصدقيني، فحدّثته بقصة الخادم، فقتلها.

وحظي أحمد عنده.

(١) طمس في المخطوط قدره ثلاث كلمات تقريباً.

ونشأ على سيرة حسنة وطلب العلم وسمع الحديث، وتنقلت به الأموال حتى ولي مصر والشام، وكان حكمه من الفرات إلى المغرب.

وأنفق على الجامع المنسوب إليه مائة ألف دينار، وعشرين ألف دينار، كما قلته ـ. ورتّب للعلماء، والقرّاء، وأرباب البيوت في كل شهر عشرة آلاف دينار. وللصدقة في كل يوم مائة دينار.

وكانت فيه خصال جميلة إلاّ أنه كان سَفَّاكاً للدماء.

ومات وفي جيشه ثمانية عشر ألفاً.

وتوفي سنة ثمان وستين ومائتين.

وقيل له في المنام: ما فعل الله بك؟

فقال: إنما البلاء على من ظلم من لا ناصر له إلاّ الله تعالى، وما على رؤساء الدنيا أشدّ من الحجاب لطالب الإنصاف.

وقال بعضهم:

كنت أرى شيخاً يقرأ على قبره، ثم تركه، فسألته فقال: كان له علينا بعض العدل، فأحببت أن أصله بالقرآن، ثم رأيته في المنام، فقال: لا تقرأ عليّ شيئاً، فإنه ما تمر بي آية إلا قيل لي: أما سمعت هذه؟

وخالف عليه ولده العباس بن أحمد، وقد استخلفه بمصر لما توجّه إلى الشام، وانصرف ببيوت أمواله إلى برقة، وجرت بينهما حروب أجلت عن تغلبه على ولده، وتمكّنه منه.

[٧٠/أ] وتوفي لاثنتي عشرة بقيت/ من ذي القعدة سنة سبعين ومائتين.

دولة خمارويه بن أحمد بن طولون

وولي أمره ولده خمارويه وغزا طرسوس، وغيرها. . .[1].

وصاهر المعتضد بالله على بنته قطر الندى ابنة خمارويه[2]. . .[1] الأعراس نبأ عظيماً.

(١) طمس بالمخطوط.

(٢) قال الأستاذ عمر رضا كحالة في كتابه أعلام النساء (٤/ ٢١٢) في ترجمتها: من ربّات الحسن والجمال والرأي والعقل، خطبها المعتضد بالله لما اصطلح مع خمارويه صاحب مصر الحسن بن عبد الله المعروف بابن الجصاص رسولاً لخمارويه بن أحمد بن طولون ومعه هدايا كثيرة وأموال عظيمة، وسأل المعتضد أن يزوج ابنه المكتفي بالله بقطر الندى، وهو إذ ذاك ولي العهد. فقال =

قال الطبري:

وفيها قدم على المعتضد الحسن بن عبد الله المعروف بابن الجصاص من مصر رسولاً لخمارويه بن أحمد بن طولون بقطر الندى ومعه من الهدايا:

عشرون حملاً من دنانير على بغال.

وعشرة من الخدم والفتيان.

وصندوقان فيهما طراز.

وعشرون وصيفاً على عشرين نجيّباً مسرجة، محلاّة بفضة كثيرة، ومع كل واحد منهم جراب فضة، وعليهم أقبية الديباج والمناطق المحلاة.

وسبع عشرة دابة بجلال مشهورة.

وتسعة أبغل بسروج ولجم محلاّة، منها خمس دواب بذهب والباقية بفضة.

وسبع وثلاثون دابة بجلال مشهورة.

وتسعة أبغل بسروجها ولجمها.

وزرافة.

فوصل بالهدية إلى المعتضد، فخلع عليه وعلى سبعة نفر ممن معه.

وأنزلت قطر الندى بدار صاعد ببغداد.

وكان المعتضد غائباً في الموصل، ثم نقلت إلى المعتضد ليلة الاثنين لأربع خلون من شهر ربيع الآخر.

ونودي في جميع بغداد: أن لا يعبر أحد دجلة. وغلّقت أبواب الدور والسوارح، ونقلت في الحراقات والمراكب البحرية ليلاً في هول عظيم لم يزل يتمثل به.

وأعرس بها المعتضد ليلة الثلاثاء.

وفي ذي الحجة من هذه السنة طرق البريد من مصر في سبعة أيام، فأعلم المعتضد بوفاة أبي الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون، ذُبح على فراشه بيد بعض خدمه بقصره لثلاث خلون من ذي الحجة المذكورة.

= المعتضد بالله: أنا أتزوجها. فزوجها على مهر يبلغ ألف ألف درهم. وجهزها أبوها بجهاز عظيم، فقيل: إنه كان في جهازها عشرون صينية ذهب في عشرة منها مشام صندل، وزنها أربعة وثمانون رطلاً. وعشرون صينية فضة في عشرة منها مشام الصندل زنتها نيف وثلاثون رطلاً. وخمس خِلع قيمتها خمسة آلاف دينار. وفيه أيضاً ألف هاون ذهباً، ودكة أربع قطع من ذهب عليها قبة من ذهب مشبك في كل عين من التشبيك قرط معلق فيه حبة من جوهر لا يعرف لها قيمة.
ثم ساق خبراً طويلاً في زفافها وسيرها إلى قصر الخليفة، وما فعل بها في الطريق وذكر طرفاً من أدبها مع الخليفة وحبه إياها.

وقيل: إن الذي ذبحه المزيّن......[1] في إصلاح شعره.

وعليه اعتمد أبو محمد بن حزم.

قالوا: صونع عليه المزيّن لعنه الله، فلما شرع في إزالة ما بحلقه من الشعر أجهز عليه وجئاً. وقبض عليه خمارويه، وقد أنفذ المذكور مقاتله، فلم يغن.

قلت: فتمكين الملك نفسه مزيّناً بحلق حلقه بعد سماع هذه الحكاية من أعجب أخبار الغفلة، ولا أقل من أن يتوقع فساد فكر المزيّن بمرض يطرق نفسه.

وقد كان المعتضد بعث إلى خمارويه بهدية جليلة مع ابن الجصاص، وأودعه إليه رسالة. فلما بلغ هذا الخبر، وجّه البريد لردّه، فردّ من سُرَّ من رأى إلى بغداد.

[٧٠/ب]

/ دولة جيش بن خمارويه بن أحمد بن طولون[2]

وولي الأمر بمصر بعد مهلك خمارويه، ولده جيش بن خمارويه.

وعن قرب من ولايته شغب عليهم أمراء الأتراك الذين لهم نظرة من بني طغج وغيرهم، وهمّوا بقتله فسعى يهم إليه...[3] كبيرة وجهد عظيم.

ثم ثار به الجند من المغاربة، وقالوا: لا نرضى بك أميراً علينا فتنحى حتى نُولي مكانك عمك.

فكلّمهم كاتبه علي بن أحمد بن المادراني وقال لهم: انصرفوا يومكم هذا لينظر السلطان فيما طلبتم.

---

(١) موضع النقط طمس بالمخطوط يقدر بكلمتين.

(٢) قال ابن الأثير في الكامل في التاريخ في أحداث سنة ثلاث وثمانين ومائتين في ذكر عصيان دمشق على جيش خمارويه وخلاف جنده عليه وقتله: وفي هذه السنة خرج جماعة من قواد جيش ابن خمارويه عليه، وجاهروا بالمخالفة، وقالوا: لا نرضى بك أميراً فاعتزلنا حتى نولّي عمك الإمارة. وكان سبب ذلك أنه لما وُلّي كان صبياً فقرب الأحداث والسفل، وأخلد إلى استماع أقوالهم فغيروا نيّته على قوّاده، وأصحابه. وصار يقع فيهم ويذمهم ويظهر العزم على الاستبدال بهم، وأخذ نعمهم وأموالهم. فاتفقوا عليه ليقتلوه ويقيموا عمه. فبلغه ذلك، فلم يكتمه، بل أطلق لسانه فيهم، ففارقه بعضهم وخلعه طغج بن جف أمير دمشق. وسار القوّاد الذين فارقوه إلى بغداد وهم محمد بن إسحاق بن كنداجيق، وخاقان المفلحي وبدر بن جف أخو طغج، وغيرهم من قواد مصر. فسلكوا البرية وتركوا أهاليهم وأموالهم فتاهوا أياماً، ومات من أصحابهم جماعة من العطش، وخرجوا فرق الكوفة بمرحلتين، وقدموا على المعتضد، فخلع عليهم وأحسن إليهم. وبقي سائر الجنود بمصر على خلافهم ابن خمارويه فسألهم كاتبه علي بن أحمد الماردائي أن ينصرفوا يومهم ذلك، فرجعوا. ونهبوا داره، ونهبوا مصر، وأحرقوها، وأقعدوا أخاه هارون في الإمرة بعده فكانت ولايته تسعة أشهر.

(٣) طمس بالمخطوط قدره سبع كلمات تقريباً.

فانصرفوا وبادر جيش إلى عمه المذكور فقتله وعمّاً آخر ثانياً، ورمى برأسيهما. ثم نهبوا مصر، وأحرقوا كثيراً منها.

دولة هارون بن خمارويه بن طولون[(١)]

ثم أُقعد أخوه هارون بن خمارويه مكانه في سنة ست وثمانين ومائتين.

وظنّ المعتضد أن هارون بن خمارويه مخالف بمصر إلى أن وصله في جمادى الأولى من السنة بآمد رسوله يُعَرِّفه ببذل الطاعة، وأنه سلم إليه قنسرين والعواصم يقبضها خدامه، وشرط أن يحمل له في كل سنة أربعمائة ألف وخمسين ألفاً من الدنانير المصرية. وسأل تجديد ولاية مصر والشام، وأن يوجّه المعتضد بذلك مع خادم من خدمه. فسُرَّ المعتضد بذلك، وأنفذ إليه بدراً القدامي وعبد الله بن الفتح بالولاية، والخلع.

ثم ضعف هارون عن مصر والشام وأتت حروب القرامطة على جيشه، وأبادت أكثر رجاله.

وفي سنة إحدى وتسعين ومائتين خلع المكتفي بالله على محمد بن سليمان كاتب الجيش وعلى وجوه القواد، وأمرهم بالسمع والطاعة لمحمد بن سليمان، وبرز إلى مضربه بباب الشماسية، وعسكر هناك في رجب منها وخرج بالجيوش إلى جهة دمشق لقبض ما بيد هارون بن خمارويه من الأعمال إذ تبيّن ضعفه.

فرحل محمد بن سليمان في زهاء عشرة آلاف فارس، وجدَّ في السير.

وفي سنة اثنتين وسبعين بعدما وصل إلى أحواز هارون بن خمارويه، وبرز إليه هارون ـ وكانت بينهما حروب/ أصيب فيها هارون بسهم ـ فقضى عليه ودخل [٧١/أ] محمد بن سليمان الفسطاط من مصر وهو محل الملك قبل بناء القاهرة المعزية مسكن سلطان الشيعة الباقي إلى اليوم[(٢)]، فاحتوى على دور آل طولون وأموالهم، وتقبض

---

(١) من مصادر ترجمته: تاريخ الطبري (١٠/ ١١٨)، صلة تاريخ الطبري (١٦، ولاة مصر للكندي (٢٦٦)، العبر (٢/ ٩١)، دول الإسلام (١/ ١٧٦)، مرآة الجنان (٢/ ٢٢٠)، البداية والنهاية (١١/ ٩٩)، النجوم الزاهرة (٣/ ٩٣)، حسن المحاضرة (١/ ٥٩٦)، تاريخ مصر (١/ ٤٢)، سير أعلام النبلاء (١٤/ ١٧)، شذرات الذهب (٢/ ٢٠٩).
قال الذهبي في سير أعلام النبلاء في ترجمته: التركي، الملك صاحب مصر أبو موسى... وكانت دولته ثمانية أعوام وأشهراً وقُتل شاباً. وتملك عمُّه شيبان أبو المقانب. ثم تلاشى أمره بعد أيام، وزالت دولة آل طولون، وطُرد من بقي منهم بمصر نحو من عشرين نفراً.

(٢) أي أيام أن وضع المؤلف هذا الكتاب.

على جميعهم وهم سبعة عشر رجلاً، واعتصب أموالهم، وكتب بالفتح إلى المكتفي بالله، وذلك في صفر من السنة يأمر المكتفي بالله محمد بن سليمان بإشخاص آل طولون إلى بغداد وأن لا يبقي منهم أحداً بها.

ففعل ذلك، وانقرض آل طولون إلى هذا الحد من بَعْدِ مُلك كبير هو الذي بأيدي ملوك الترك اليوم.

والبقاء لله سبحانه، ووال بعدهم الملك من آل طغج.

ذكر أيام بني طغج الاخشيدية
وأول أيام الأمير طغج

ثم قَدَّم المكتفي بالله على أعمال ابن طولون الأمير طغجا، وكان قبل ذلك يتولى دمشق لنظر أحمد بن طولون.

وظهر بالشام أيام المكتفي زكرويه الخارجي من القرامطة، وجمع إلى نفسه جماعة من الأعراب وغيرهم، وأتى بهم إلى دمشق وبها طغج.

فكانت بينهم حروب كثيرة ووقعات في العام بعد العام.

وأرسل زكرويه أولاده إلى الطرق وأعراض البوادي، فبايعوه، وضيّق بالبلاد، ثم توفي زكرويه[1]. وقدَّم أصحابه ولده المسمى بيحيى المُكنى بأبي القاسم ولقّبوه بالمسيح، ودعوه بأمير المؤمنين، وهم ينسبون أهل هذا البيت إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وعهد إلى أخيه الحسن بن زكرويه، ولقّبه بالمدثّر، وزعم أنه أبو عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر، وأنه المعني في سورة المدثر، ولقّب غلاماً من ولده

---

(١) قال ابن الأثير في الكامل في أحداث سنة أربع وتسعين ومائتين في ذكر قتل زكرويه لعنه الله: لما فعل زكرويه بالحجاج ـ ما ذكرناه ـ عظم على الخليفة خاصة وعلى كافة المسلمين عامة، فجهز المكتفي الجيوش. فلما كان أول ربيع الأول سير وصيف بن صوارتكين مع جماعة من القواد والعساكر إلى القرامطة، فساروا على طريق خفان، فلقيهم زكرويه ومن معه من القرامطة ثامن ربيع الأول فاقتتلوا يومهم، ثم حجر بينهم الليل، وباتوا يتحارسون، ثم بكّروا إلى القتال فاقتتلوا قتالاً شديداً، فقتل من القرامطة مقتلة عظيمة. ووصل عسكر الخليفة إلى عدو الله زكرويه، فضربه بعض الجند وهو مولّ بالسيف على رأسه فبلغت الضربة دماغه، وأخذه أسيراً، وأخذ خليفته، وجماعة من خواصه، وأقربائه وفيهم ابنه وكاتبه وزوجته، واحتوى الجند على ما في العسكر. وعاش زكرويه خمسة أيام ومات، فسُيِّرت جيفة والأسرى إلى بغداد.
وانهزم جماعة من أصحابه إلى الشام فأوقع بهم الحسين بن حمدان فقتلوهم جميعاً، وأخذوا جماعة من النساء والصبيان، وحُمل رأس زكرويه إلى خراسان لئلا ينقطع الحجاج، وأخذ الأعراب رجلين من أصحاب زكرويه يعرف أحدهما بالحداد، والآخر بالمنتقم وهو أخو امرأة زكرويه، كانا قد سارا إليهم يدعوانهم إلى الخروج معهم. فلما أخذوهما سيّروهما إلى بغداد. وتتبع الخليفة القرامطة بالعراق، فقتل بعضهم، وحبس بعضهم، ومات بعضهم في الحبس.

بالمطوّق، وقلّده قتل أسرى المسلمين إلى أن قتله المصريون بباب دمشق، بعد أن كانت على طغج وقائع كاد يظهر بها على دمشق.

وكان شأن هذا الخارجي غريباً، يركب جملاً واحداً لا يركب غيره، ويتعمم عمَّة أعرابي، ويتلثّم، وكان يأمر أصحابه أن لا يقاتلوا أحداً حتى ينبعث الجمل من تلقاء نفسه، ويقول لهم: ما دمتم تفعلون ذلك لم تهزموا.

وكان يزعم أنه إذا أشار إلى ناحية من النواحي التي فيها محاربوه انهزم أهل تلك الناحية، فاستغرى بذلك الأعراب إلى أن لم يُغن عنه ذلك شيئاً، فقُتِل، وتفرّق أصحابه.

ثم اجتمعوا على أخيه الحسن المذكور، ودعا إلى مثل ما دعا إليه أخوه،
[٧١/ب] واشتدت شوكته وقصد دمشق/ فصالحه أهلها على خراج.

وتغلّب على حمص، وحلب، وسلهبة، وحماه، لا يرفع السيف حتى عن صبيان المكَاتِب والبهائم، إلى أن وقع بهم جيش السلطان في خبر يطول.

وأتي بالقرمطي صاحب الشامة، والمدثر، والمطوّق يوم الاثنين لأربع بقين من المحرم سنة إحدى وتسعين ومائتين على الجمال وألبسوا برانس الحرير، وطوّق المطوق منهم بطوق ذهب، وسوارين من ذهب، فضربت أعناقهم بعد قطع أيديهم.

ولما توفي طغج اتصل استعمال ولده بدمشق، ثم بمصر، فولي منهم محمد بن عبد الله بن طغج بعد أن تخللت ولايتهم مداولات لتكين التركي وغيره.

دولة محمد بن طغج(١)

قال الطبري:

(١) من مصادر ترجمته: سير أعلام النبلاء (١٥/ ٣٦٥)، ولاة مصر (٢٩٩)، تاريخ ابن عساكر (١٥/ ٢٤٣ب)، المنتظم (٦/ ٣٤٧)، وفيات الأعيان (٥/ ٥٦)، العبر (٢/ ٢٣٩)، الوافي بالوفيات (٣/ ١٧١)، مرآة الجنان (٢/ ٣١٤)، البداية والنهاية (١١/ ٢١٥)، النجوم الزاهرة (٣/ ٢٣٥)، شذرات الذهب (٢/ ٣٣٧).
قال الذهبي في سير أعلام النبلاء في ترجمته: صاحب مصر الملك أبو بكر محمد بن طغج بن جف بن خاقان، الفرغاني التركي. روى عن عمه بدر. وولي مصر سنة إحدى وعشرين، ثم دمشق مضافاً إلى مصر من قبل الراضي، والإخشيد بالتركي ملك الملوك. وتوفي جده سنة سبع وأربعين ومائتين. ثم صار طغج من كبار قواد خمارويه، ثم سار إلى بغداد فعظموه، فبدا منه كِبْر وتيه في حق الوزير، فسجن هو وابنه هذا، فمات في السجن ثم أطلق محمد، وجرت له أمور طويلة إلى أن تملك. وكان بطلاً، شجاعاً، حازماً، يقظاً، مهيباً، سعيداً في حروبه، مكرماً لأجناده، شديد الأيد، لا يكاد أن يجر أحد قوسه. بلغ عدّة مماليكه ثمانية آلاف، وقيل: بلغ جيشه أربعمائة ألف راكب. وهذا بعيد. وله جماعة أولاد تملكوا بعده.

وفي جمادى الآخرة من سنة تسع عشرة وثلاثمائة:

قُلّد أبو بكر محمد بن طغج مدينة دمشق. فلما وصل كتاب الخليفة إلى ابن طغج سار من وقته إلى دمشق، فسُرَّ أهل دمشق بقدوم ابن طغج ودخلها أحسن دخول. وأقام محمد بن طغج بدمشق، ثم بمصر، إلى أن توفي سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة.

قال الإمام أبو الفرج في تاريخ بغداد:

كان محمد بن طغج شجاعاً شديد التيقظ في حروبه.

وكان جيشه يحتوي على أربعمائة ألف رجل وكان له ثمانية آلاف مملوك يحفظونه بالنوبة كل يوم ألف مملوك.

ويوكل بجانب خيمته الخدم، ثم لا يبقى حتى يمضي إلى خِيم الفراشين فينام فيها.

ولقبه الراضي بالله بالإخشيد لأنه كان فرغانياً.

دولة الأستاذ كافور الإخشيد بمصر والشام(١)

وخلفه كافور أبو المسك مولى الإخشيد وكفل ولداً من ذريته صغيراً ومن شرط كتابنا فيمن بويع قبل الاحتلام.

وكانت وفاة كافور يوم الجمعة لثلاث بقين من جمادى الآخرة من سنة أربع وخمسين وثلاثمائة بعد أن أسند النظر على الولد إلى أبي الفضل بن خيران الوزير.

وقدمه على التدبير، وسمولاً الرومي على العساكر والجيوش.

وكان يدعي لكافور بالمنابر(٢)، وينفذ حكمه بالشام والثغور: طرسوس، وحلب، والمصيصة.

= توفي بدمشق في ذي الحجة سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة عن ست وستين سنة. ثم نقل فدفن ببيت المقدس غفر الله له. وقد حاربه ابن رائق فهزمه الإخشيد، ثم سار أخو الإخشيد، فالتقى ابن رائق فقتل. فندم ابن رائق، وبعث ابنه مزاحماً إلى الإخشيد ليقتله بأخيه، فعفا، وخلع على مزاحم، ورده إلى أبيه.

(١) من مصادر ترجمته: المنتظم (٧/ ٥٠)، وفيات الأعيان (٤/ ٩٩)، المختصر في أخبار البشر (٢/ ١٠٧)، العبر (٢/ ٣٠٦)، دول الإسلام (١١/ ٢٢١)، البداية والنهاية (١١/ ٢٦٤)، سير أعلام النبلاء (١٦/ ١٩٠)، النجوم الزاهرة (٤/ ١)، حسن المحاضرة (١/ ٥٩٧)، شذرات الذهب (٣/ ٢١).

(٢) جاء في محاذات هذه الكلمة في هامش المخطوط هذه العبارة: «على الحرمين مكة والمدينة»، وقد فرح بعدها سهم يشير إلى العبارة. وهو ما يشير إلى سقوط بعض العبارات من السياق أو اضطراب فيها لتتمّ بها هذه العبارة.

[١/٧٢] وكان موت كافور ثقة الإخشيد بن طغج من أسباب استيلاء/ الشيعة على مصر. إذ كان ملكاً حازماً جليلاً . . .[1] السكردان.

قال: كانت وظيفة كافور كل يوم من اللحم ألفي رطل وسبعماية رطل، ومائتي طائر دجاج، وثلاثمائة فرخ حمام.

وثلاثمائة فروج.

وعشر أوزات. وعشرين خروفاً. عشرة بطراخ سمكة. وثلاثمائة صحن حلوى. وألف كماجة.

وسبع . . .[1] تفرق في خاصته.

وكان يعطي العطاء الجزيل.

اتفق في أيامه زلزلة، فدخل عليه محمد بن عاصم الشاعر، فأنشده قصيدة منها:

ما زلزلت مصر من سوء يراد بها ... وإنما رقصت من عدله فرحا

فأجازه كافور بألف دينار.

قال: وهذه الجائزة هي التي حثت المتنبي على المجيء إلى كافور، فكان يقف بين يديه بخفين ومنطقة وعمامة خضراء ويحضر سماطه، وفيه يقول قصيدته التي أولها:

كفى بك داءً أن ترى الموت شافيا ... وحسب المنايا أن يكن أمانيا

يقول فيها من الحكم والأمثال:

أقل اشتياقاً أيها القلب ربما ... رأيتك تصفي الوُدّ من ليس جازيا

خلقت ألوفاً لو رجعت إلى الصبا ... لفارقت شيبي موجع القلب باكيا

يقول فيها في وصف الركائب والمطايا:

قواصد كافور توارك غيره ... ومن قصد البحر استقل السواقيا

قصدت بنا إنسان عين زمانه ... وخَلّتْ بياضاً خلفها ومآقيها

وهذا من أروع ما تنتهي إليه خواطر الشعراء في تفضيل أسود على أبيض، فيجعل الأسود في العزة بمنزلة سواد العين والأبيض بمنزلة البياض منها.

ثم ساء ما بينه وبين كافور، ومنعه من الرحيل عن مصر تقية منه على عرضه،

---

(١) عبارة مطموسة في المخطوط.

فقال يهجوه من قصيدة:

إني نزلت بكذابين ضيفهم ... عن القِرى وعن الترحال محدُودُ
جود الرجال من الأيدي وجودهم ... من اللسان فلا كانوا ولا الجُودُ
ما يقبض الموت نفساً من نفوسهم ... إلاّ وفي يده من نتنها عُودُ

/ ويقول فيها: [٧٢/ب]

العبد ليس كحر صالح بأخ ... لو أنه في بيوت الحر مولُودُ
لا تشتري العبد إلاّ والعصا معه ... إنّ العبيد لأنجاس مناكيد
من عَلّم الأسود المختص...[(١)] ... ...[(١)] البيض أم آباؤه السود
أم أذنه في يد النخاس دامية ... أم قدره وهو بالعلسين مردُودُ

وأسند أمر مصر والشام بعده إلى تِكين[(٢)] التركي.

فلما استولى الشيعة على مصر امتسك بالشام، وكانت بينه وبين ملوك الشيعة وقعات، ثم دخل في أمرهم.

---

(١) طمس بالمخطوط.

(٢) من مصادر ترجمته: ولاة مصر (٢٨٦)، العبر (٢/ ١٨٦)، الوافي بالوفيات (١٠/ ٣٨٦)، سير أعلام النبلاء (١٤/ ٢٢٣)، (١٥/ ٩٥)، خطط المقريزي (١/ ٣٢٧)، النجوم الزاهرة (٣/ ١٧١)، حسن المحاضرة (٢/ ١٣)، شذرات الذهب (٢/ ٢٨٩)، وفيات الأعيان (٥/ ٦٢)، دول الإسلام (١/ ١٩٥)، تاريخ مصر (١/ ٤٢)، تهذيب تاريخ ابن عساكر (٣/ ٣٤٠).

قال الذهبي في ترجمته في الموضع الأول من سير أعلام النبلاء: تِكِين الأمير أبو منصور التركي الخزري. ولي إمرة ديار مصر للمقتدر بعد عيسى النُوشري وكان ملكاً سائساً مهيباً كبير الشأن، قدم على مصر في شوال سنة سبع وتسعين ومائتين، وتهيأ لأمر المغرب وظهور دعاة الشيعة هناك واهتم لذلك، وعقد لأبي النَمِر على برقة في جيش كثيف، ثم عزله بالأمير خَيْر، فالتقوا، فانهزم المصريون، ثم كتب تكين إلى عامل إفريقية يدعوه إلى الطاعة سنة ثلاثمائة. ثم أقبل حَبَاسَة في مائة ألف، فأخذ الإسكندرية سنة اثنتين وثلاثمائة.

وأقبل من العراق القاسم بن سِيْماه مدداً لتكين. وقدم أحمد بن كيغلغ وأمراء. ثم التقى الجمعان، واستحرّ القتل بالمغاربة، وانهزم حَبَاسَة، وكان المصاف بالجيزة. ثم خرج كمين لحَبَاسَة، ومالوا على المصريين، فقتل نحو عشرة آلاف. ثم أصبحوا على المصاف، والسيف يعمل، وقاتلت العوام قتال الحريم، وكانت وقعة مشهودة. ثم أقبل مؤنس الخادم في جيوشه من بغداد إلى مصر، فعزل تكين في ذي القعدة سنة اثنتين وثلاثمائة. ثم في صفر سنة ثلاث ولي إمرة مصر ذه الرومي الأعور، ورجعت المغاربة إلى إفريقية. ثم عاد تكين إلى ولاية مصر سنة سبع. ثم عزل سنة تسع. ثم أعيد مرات، وقلّ أن سمع بمثل هذا. ثم بقي تكين على إمرة مصر أعواماً إلى أن مات في ربيع الأول سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة.

ذكر دولة العبيديين الملوك بمصر، وإفريقية، والشام

وخرج من أيدي العباسية عندما ضعف أمرهم المغرب بجملته من حدود الشام، ومصر، وبرقة، إلى البحر المحيط، والسوس الأقصى إلى تخوم الروم، وأفرانسة من بلاد الأندلس، فابتذهم المغرب إلى عبيد الله من الشيعة، المنتسبين إلى علي بن أبي طالب، واتفق لهم بإفريقية ملك كبير، ودوّخوا ملوك البربر إلى البحر المحيط.

ثم ترامَوا إلى ملك المشرق، فاستولوا على مصر، والشام، والحجاز، ثم العراق أياماً يسيرة، وكان ابتداء أمرهم أن الشيعة كانت تزعم أن الإمام المهدي القائم هو الحسن بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن أبي طالب.

ثم بطل ذلك بأيديهم، وكان من رجال الكمال من حيث الدنيا والسياسة، وما يحتاج إليه أرباب الدول وغير ذلك من صحة. . .[1] أو غيره، فالله أعلم به.

وكان داعيته بالمغرب أبو عبد الله الشيعي الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا[2] المعروف بابن المحتسب.

وكان ذا عقل وأمانة ومعرفة برأي الشيعة، وتعرب وقت الحج، وقفل عن اليمن بطائفة من كُتامة الغرب فيمن حج تلك السنة فيهم قوم من الشيعة سرى إليهم ذلك من

(١) طمس بالمخطوط.

(٢) من مصادر ترجمته: وفيات الأعيان (٢/ ١٩٢)، البيان المغرب (١/ ١٦٠)، العبر (٢/ ١١٠)، الوافي بالوفيات (١٢/ ٣٢٨)، البداية والنهاية (١١/ ١٦)، شذرات الذهب (٢/ ٢٢٧)، سير أعلام النبلاء (١٤/ ٥٨) وفيه: الشيعي الداعي الخبيث أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا الصنعاني. من دهاة الرجال الخبيرين بالجدل، والحيل، وإغواء بني آدم.
قام بالدعوة العُبيدية، وحجّ وصحب قوماً من كُتَامَة، وربطهم، وتألّه، وتَزَهَّدَ، وشوّق إلى إمام الوقت، فاستجاب له خلق من البربر. وعسكر، وحارب أمير المغرب ابن الأغلب، وهزمه غير مرة، إلى أن جاء عبيد الله المهدي، فتسلم الملك، ولم يجعل لهذا الداعي ولا لأخيه أبي العباس كبير ولاية. فغضبا وأفسدا عليه القلوب، وحارباه، وجرت أمور إلى أن ظفر بهما المهدي فقتلهما في ساعة سنة ثمان وتسعين ومائتين.

داع قبله يُعرف بالحلواني.

فجلس إليهم وقد سمعهم يذكرون فضل علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فحدثهم ففتنوا به، وجعلوا يستفتونه ويسألونه، ثم عرضوا عليه التوجه معهم إلى المغرب، فلان لهم، ثم جعل يسألهم عن بلادهم، وعن طاعتهم/ للسلطان. [أ/٧٢]

فقالوا: ليس له علينا حكم أكثر من ذكره، وبلادنا...[1] ومياه ومكرمه من حدود إفريقية وعندنا الخيل والسلاح ـ وهو يعي ذلك كله لما يؤمله ـ.

ثم رَحَلَ معهم إلى بلادهم...[1].

وكان وصوله كتامة للنصف من ربيع الأول سنة ثمانين ومائتين إلى أن تفاقم أمره، وقلق السلطان بمكانه، وجرت بينه وبين صاحب إفريقية من الأغالبة مخاطبات شعر منها أنه صاحبه وناصح دولته لحدثان كان يتحمله.

ثم اتسع الخرق، وظهرت الدعوة، ودخل في أمره القبائل والبلاد، ووقعت له على السلطان الهزائم، ثم فتح البلاد، واشتهر أمره، وأعى ملك إفريقية علاجه، وهو يومئذ أبو نصر زيادة الله بن عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب وكان هؤلاء الملوك بإفريقية أولى ذكر وعز ومنقبة.

وكانت دعوتهم إلى بني العباس من بعد بني أمية حسبما تقدم، ويأتي التعريف بهم إن شاء الله تعالى.

فقوض عنها، وأجلى إلى المشرق بجملته. ولما رأى عبيد الله الدعوة له إن لم تثبت من قدر دعوته إلا ما بدر بالمغرب، وأن قد استوثق له الأمر على المغرب له ولده أبو القاسم، ولم يخلص إلى حدود المغرب إلاّ عن شقة لجعل الإرصاد على رجال بينهم بكل جهة.

واتصل بسجلماسة يروم لقاء الشيعي، واستريب به فيها، وسجن وهو يخفي أمره، وينتسب إلى المغرب بالتجارة، وينتفي مما يظن به من طلب الأمر.

فلما بلغ الشيعي خبره نزع من إفريقية وقد استخلصها، وشرع في قصد سجلماسة فتحرك إليها في جيوش عظيمة، ولما دنا من المدينة برز إليه أميرها أليسع بن مُدْرَار وناشبه القتال.

فرآه لا يطيقه، ولما جنّه الليل أعمل الفرار عنها هو وأهله، ولحقوا بالصحراء.
ومن...[2] خرج إليه وجوه أهل البلد، ومكّنوه منه، ولم يقدم شيئاً على قصد

---

(١) طمس بالمخطوط.

(٢) كلمة مطموسة. وفي الكامل في التاريخ في أحداث سنة ست وتسعين ومائتين في ذكر مسير أبي عبد =

الموضع الذي كان به عبيد الله مسجوناً فاستخرجه وابنه القاسم وبادر بهما لما يليق بهما من المراتب، وحفت بهما العساكر وتقدم الشيعي ودعاته بين يدي عبيد الله يقولون: هذا مولانا ومولاكم حتى انتهى به، والطبول خلفه إلى فسطاطٍ ضرب له. وجدَّدَ له بيعة الناس، وتمَّ له الأمر وأمر باتباع أليسع بن مدرار بسجلماسة الفار عنها.

فأُتي به، فقتله، وسكن المدينة واستعمل عليها.

[٧٣/ب] / دولة عبيد الله أول ملوك الشيعة

وهو مما يزعم قومه والمثبتون لنسبه: أبو محمد عبيد الله بن جعفر بن إسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد بن علي بن زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب.

ويدفع ذلك أضداده، والله أعلم بصحته. فبويع برقادة[١] يوم الجمعة الحادي والعشرين لربيع الأول سنة سبع وتسعين ومائتين. وكان نقش خاتمه: ﴿أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ﴾ [يونس: الآية ٣٥] الآية.

= الله إلى سجلماسة وظهور المهدي. فلما جنّهم الليل هرب اليسع وأصحابه من أهله وبني عمه، وبات أبو عبد الله ومن معه في غم عظيم لا يعلمون ما صُنع بالمهدي وولده. فلما أصبح خرج إليه أهل البلاد وأعلموه بهرب اليسَع، فدخل هو وأصحابه البلد وأتوا المكان الذي فيه المهدي، فاستخرجه، واستخرج ولده فكانت في الناس مسرّة عظيمة كادت تذهب بعقولهم، فأركبوهما، ومشى هو ورؤساء القبائل بين أيديهما، وأبو عبد الله يقول للناس: هذا مولاكم، وهو يبكي من شدّة الفرح حتى وصل إلى فسطاط قد خرب له فنزل فيه. وأمر بطلب اليسع، فطلب فأدرك، فأخذ وضرب بالسياط، ثم قُتل.

(١) رَقّادة: بلدة كانت بإفريقية بينها وبين القيروان أربعة أيام، وكان دورها أربعة وعشرين ألف ذراع وأربعين ذراعاً، وأكثرها بساتين. ولم يكن بإفريقية أطيب هواء ولا أعدل نسيماً وأرق تربة منها. ويقال: إن من دخلها لا يزال مستبشراً من غير سبب. وذكروا أن أحد بني الأغلب أرِق وشرد عنه النوم أياماً، فعالجه إسحاق المتطبّب الذي ينسب إليه اطريغل وإسحاق، فلم ينم فأمره بالخروج والمشي، فلما وصل إلى موضع رقادة نام، فسميت رَقّادة يومئذ، واتخذها داراً ومسكناً وموضع فرجة للملوك... والمعروف أن الذي بنى رقادة إبراهيم بن أحمد بن الأغلب، وانتقل إليها من مدينة القصر القديم، وبنى بها قصوراً عجيبة وجامعاً، وعمرت الأسواق والحمامات، والفنادق فلم تزل بعد ذلك دار ملك لبني الأغلب إلى أن هرب عنها زيادة الله من أبي عبد الله الشيعي وسكنها عبيد الله إلى أن انتقل إلى المهدية سنة (٣٠٨) وكان ابتداء تأسيس إبراهيم بن أحمد لها سنة (٢٦٣)، فلما انتقل عنها عبيد الله إلى المهدية دخلها الوهن، وانتقل عنها ساكنوها، فلم تزل تخرب شيئاً بعد شيء إلى أن ولّي معد بن إسماعيل فخرب ما بقي من آثارها، ولم يبق منها شيء غير بساتينها، ولما بناها إبراهيم وجعلها دار مملكته منع بيع النبيذ بمدينة القيروان وأباحه بمدينة رقّادة. (معجم البلدان).

وتأتى له بالمغرب ملك كبير، فبنى القصور، ورتب السياسة، وأحكم التدبير، وعمل حساب تغلّب الزمان، وتعلق بالخوف فيه والأمان، فشرع في بناء المهدية المنسوبة إليه، واتخذها عُدّة للسدّة، واستكثر بها من العُدّة، والخزائن، إذ كان عنده علم من الحدثان بالاضطرار إليها.

وكان سنه يوم استقلاله بالأمر سبعاً وثلاثين سنة.

وولده أبو القاسم لمَّا طَرَّ شاربه جمع الفقهاء ثاني يوم دخوله إلى رقادة، وأمر أن يدعى له في المنابر، وخطب الأعياد بمرسوم يقال فيه بعد الصلاة على النبي ﷺ، وعلى أمير المؤمنين علي، وفاطمة الزهراء، والحسن، والحسين رضي الله عنهم وعن الأئمة من أولادهم:

«اللهم صل على عبدك ووليك وخليفتك القائم بأمر عبادك في بلادك أبي محمد عبد الله الإمام المهدي بالله أمير المؤمنين، كما صليت على آبائه خلفائك الراشدين المهديين الذين قضوا بالحق وكانوا به يعدلون، اللهم وكما اصطفيته لولايتك، واخترته وجعلته لدنياك عصمة وعماداً، ولبريّتك موئلاً وملاذاً، فانصره على أعدائك المارقين، وافتح له مشارق الأرض ومغاربها كما وعدته، وأيده على العصاة الظالمين إنك أنت الحق المبين».

واتخذ من العبيد اثني عشر ألف مملوك بين رومي وحبشي.

ثم أعاد على الشيعي الداعي إليه فقتله وأخاه في خبر طويل.

وأوقع بزنانة وقعة كبيرة.

وتملك برقة، وهدم قصبتها.

وصرف وجهه إلى البلاد المصرية، وفتح الإسكندرية.

وكانت بينه وبين عمل المقتدر من بني العباس حروب جمّة إلى أن تملك المشرق وولده من بعده.

وتوفي منتصف ربيع الأول سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة.

وقام بالأمر بعده القائم بأمر الله أبو القاسم.

/ دولة القائم بن المهدي(١) [١/٧٤]

اقتفى آثار أبيه، والتزم من الحزن عليه ما لم يلتزمه ابن لأب، فلم يرق سريراً،

(١) من مصادر ترجمته: سير أعلام النبلاء (١٥/ ١٥٢)، الحلة السيراء (١/ ٢٨٥)، وفيات الأعيان (٥/ ١٩)، المختصر (٢/ ٨٠)، العبر (٢/ ٢٤٠)، الوافي بالوفيات (٤/ ٤)، مرآة الجنان (٢/ ٣١٧)، =

ولا ركب دابة بقصره إلى أن مات.

وافتتحت في أيامه فتوحات عظيمة، ومدن من مدن الروم بصقلية كثيرة. ووجه جيوشه إلى المغرب فاستولت على أكثره.

ووجه جوهراً مولاه بأسطوله إلى جنوة فاستباحها في خبر شهير.

وخرج عليه أبو يزيد مخلد بن كيداد الخارجي وكان نكارياً يستحل الدماء والأموال، ويسبّ علياً رضي الله عنه، وكان مصنوعاً له في ضلاله، واستولى على البلاد واستباحها وفتح القيروان وسواها.

واعتصم منه أبو القاسم بن عبيد الله بالمهدية ولجأ إلى ما أعدّ له أبوه إذ كان ينذر بذلك، إلى أن توفي في ريعان فتنة أبي يزيد لثلاث عشرة خلت من شوال سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة، وقام ولده بعده إسماعيل الملقب بالمنصور.

دولة إسماعيل بن القائم(١)

وكان إسماعيل ملكاً جليلاً عالي الهِمّة.

= البداية والنهاية (١١/ ٢١٠)، تاريخ ابن خلدون (٤/ ٤٠)، خطط المقريزي (١/ ٣٥١)، النجوم الزاهرة (٣/ ٢٨٧)، شذرات الذهب (٢/ ٣٣٧).

قال الذهبي في ترجمة له في سير أعلام النبلاء: صاحب المغرب أبو القاسم محمد بن المهدي عبيد الله. مولده بسَلَمِيَّة في سنة ثمان وسبعين ومائتين. دخل المغرب مع أبيه، فبويع عند موت أبيه في سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة. كان مهيباً شجاعاً، قليل الخير، فاسد العقيدة... وحصره مخلد بالمهدية، وضيّق عليه، واستولى على بلاده، ثم وسوس القائم، واختلط وزال عقله، وكان شيطاناً مريداً يتزندق.

ذكر القاضي عبد الجبار المتكلّم: أن القائم أظهر سبّ الأنبياء، وكان مناديه يصيح: العنوا الغار، وما حوى، وأباد عِدّة من العلماء، وكان يراسل قرامطة البحرين ويأمرهم بإحراق المساجد والمصاحف... وقد أجمع علماء المغرب على محاربة آل عبيد لما شهروه من الكفر الصراح الذي لا حيلة فيه. وقد رأيت في ذلك تواريخ عِدّة يُصدق بعضها بعضاً.

وعوتب بعض العلماء في الخروج مع أبي يزيد الخارجي، فقال: وكيف لا أخرج وقد سمعت الكفر بأذني؟ حضرت عقداً فيه جمع من سُنّة ومشارقة، وفيهم أبو قضاعة الدّاعي، فجاء رئيس، فقال كبير منهم: إلى هنا يا سيدي ارتفع إلى جانب رسول الله - يعني أبا قضاعة - فما نطق أحد... وتسارع الفقهاء والعبّاد في أهبةٍ كاملة بالطبول والبنود، وخطبهم في الجمعة أحمد بن أبي الوليد وحرّضهم وقال: جاهدوا من كفر بالله، وزعم أنه ربّ من دون الله تعالى، وغيّر أحكام الله، وسبّ نبيّه، وأصحاب نبيه. فبكى الناس بكاءً شديداً.

وقال: اللّهم إن هذا القرمطي الكافر المعروف بابن عبيد الله، المدعي الربوبية، جاحد لنعمتك، كافر بربوبيتك، طاعن على رُسُلِكَ، مكذّب بمحمد نبيّك، سافك للدماء، فالعنه لعناً وبيلاً، واخزه خزياً طويلاً، واغضب عليه بكرةً وأصيلاً، ثم نزل فصلى بهم الجمعة.

(١) من مصادر ترجمته: سير أعلام النبلاء (١٥/ ١٥٦)، البيان المغرب (١/ ٢١٨)، وفيات الأعيان (١/ =

وقصده النكّار، وهو ثابت لم يبق معه إلاّ رافع المظلة على رأسه، فسَلَّ سيفه، وأقدم على عدوه فتهيبه العدو وأدبر عنه.

وكرّ إليه خالصة المنهزمة، فلم يردهم فتح وقال: ادخلوا هنا، وهو يبتسم.

ثم شمَّر إلى أتباعه واقتحم عليه الشعاب، والمفاوز، والجبال، حتى قبض عليه بأحواز قلعة شاكر من عمل الهيضة، وقد تردى النكّار من الجبل، وسيق إليه وهو مهيض، فجعله في قفص من الحديد، وجرى بينهما كلام كثير يبث في محله.

وإسماعيل أول من استعمل بني أبي الحسن على ملك صقلية، فاتصلت أيامهم بها بعده.

وتوفي رحمه الله آخر يوم من شوال سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة.

وولي بعده رحمه الله ولده أبو تميم معد الملقب بالمُعزّ.

دولة المعز لدين الله(١)

وهو أعظم ملوكهم قدراً وأجلّهم فخراً، وكان بعيد الصيت، عظيم الجبروتيه/ [٧٤/ب] وقوراً كثير التأديب.

= ٢٣٤)، العبر (٢/ ٢٥٧)، مرآة الجنان (٤/ ٣٣٣)، البداية والنهاية (١١/ ٢٢٥)، تاريخ ابن خلدون (٤/ ٤٣)، خطط المقريزي (١/ ٣٥١)، النجوم الزاهرة (٣/ ٣٠٨)، شذرات الذهب (٢/ ٣٥٩).

وقال الذهبي في سير الأعلام في ترجمته: المنصور أبو طاهر إسماعيل بن القائم... ولي بعد أبيه، وحارب رأس الأباضية أبا يزيد مخلد بن كيداد الزاهد، والتقى الجمعان مرات، وظهر مخلد على أكثر المغرب ولم يبق لبني عبيد سوى المهدية. فنهض المنصور، وأخفى موت أبيه، وصابر الإباضية حتى ترحلوا عنه، ونازلوا مدينة شوسة، فبرز المنصور من المهدية والتقوا فانكسر جيش مخلد على كثرتهم، وأُسِرَ هو سنة (٣٣٦)، فمات بعد الأسر بأربعة أيام من الجراح، فسُلِخَ وحشي قطناً وصُلِب.

وبنوا مدينة المنصور مكان الوقعة، فنزلها المنصور وكان بطلاً شجاعاً رابط الجأش فصيحاً، مُفوّهاً يرتجل الخطب، وفيه إسلام في الجملة، وعقل بخلاف أبيه الزنديق... ومن محاسنه أنه ولّى محمد بن أبي المنظور قضاء القيروان، وكان من كبار أصحاب الحديث... خرج في رمضان سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة إلى مكان يتنزّه، فأصابه برد وريح عظيمة فأثر ذلك فيه، ومرض، ومات عدد كثير ممن معه. ثم مات هو في سلخ شوال من السنة، وله تسع وثلاثون سنة... وذكر المشايخ أنهم ما رأوا فتحاً مثله قط. وكان المنصور محبباً إلى الرعية مقتصراً على إظهار التشيّع.

(١) من مصادر ترجمته: المنتظم (٧/ ٨٢)، البيان المغرب (١/ ٢٢١)، وفيات الأعيان (٥/ ٢٤)، العبر (٢/ ٣٣٩)، البداية والنهاية (١١/ ٢٨٣)، تاريخ ابن خلدون (٤/ ٤٥)، خطط المقريزي (١/ ٣٥١)، إتعاظ الحنفا (١٣٤)، النجوم الزاهرة (٤/ ٦٩)، تاريخ ابن إياس (١/ ٤٥)، شذرات الذهب (٣/ ٥٢)، سير أعلام النبلاء (١٥/ ١٥٩)، وفيه في ترجمته:

هو المعزّ لدين الله أبو تميم معد بن المنصور إسماعيل بن القائم العبيدي، المهدوي، المغربي، =

ذهب بنفسه كل مذهب حتى زعموا أنه أمر المؤذن أن يقول بعد: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله».

ومما يشهد لذلك قول شاعره أبي القاسم محمد ابن. . .[(١)] في قصيدته الشهيرة التي أولها:

....[(٢)]

يقول فيها من أبيات:

امد يدها من حيث دار لطالما زاحمت تحت لوائه جبريلا
وورثته البُرهان والتبيان والفرقان والتوراة والإنجيلا
وعلمت من مكنون الله ما لم يؤت في الملكوت ميكائيلا
لو كنت أوته مُبشراً أمة نشرت لمبعثك القرون الأولى
لو كنت نوحاً منذراً في قومه ما زادهم بدعائه تضليلا
لله فيك خفية لو أعلمت أحيا بذكرك قاتلٌ مقتولا
لو كان آتى الخلق ما أوتيته لم يخلق التشبيه والتمثيلا
والكتب لولا أنها لك شهد ما فُصِّلت آياتها تفصيلا
لولا حجاب دون علمك حَاجِرٌ وجدوا إلى علم الغيوب سبيلا

= الذي بنيت القاهرة المُعِزِّيَة له. . . قال القفطي: عزم المُعز على بعث جيشه إلى مصر، فسألته أمه أن يؤخر ذلك لتحجّ خُفية فأجابها، وحجّت، فأحس بقدومها الأستاذ كافور ـ يعني صاحب مصر ـ فحضر إليها وخدمها وحمل إليها تُحفاً، وبعث في خدمتها أجناداً. فلما رجعت منعت ابنها من قصد مصر. فلما مات كافور، بعث المعز جيشه، فأخذوا مصر.

قلت: قدم عليهم جوهراً فجنى ما على البربر من الضرائب، فكان ذلك خمسمائة ألف دينار. وعمد المعز إلى خزائن آبائه، فبذل منها خمسمائة حمل من المال، وساروا في أول سنة ثمان وخمسين في أهبة عظيمة. . . وكان عاقلاً لبيباً حازماً ذا أدب وعلم ومعرفة وجلالة وكرم، يرجع في الجملة إلى عدل وإنصاف، ولولا بدعته ورفضه، لكان من خيار الملوك.

. . . قيل: ما عُرِفَ عن المعز غير التشيع، وكان يطيل الصلاة، ومات قبله بسنةٍ ابنه عبد الله وليّ العهد، وصبر، وغلقت مصر لعزائه ثلاثة أيام، وشيّعوه بلا عمائم بل مناديل صوف، فأمّهم المعزّ بأتم صلاة وأحسنها. . . وثارت عليه القرامطة، واستولوا على كثير من الشام، وساروا حتى أتوا مصر فحاربهم جوهر، وجرت أمور مهولة. . . ووقع المصاف بين جوهر والقرامطة، وقتل خلف بظاهر القاهرة، واستمر ذلك ثلاثة أيام، ثم ترحل الأعسم القرمطي منهزماً، وذلوا، واتهم الأعسم أمراءه بالمخامرة، فقبض عليهم.

(١) طمس في المخطوط.

(٢) بيت شعر غير مقروء للطمس.

لولاك لم يكن التفكر واعظا ... والعقل عِلماً والقياس دليلا

لو لم تعرفنا بذات نفوسنا ... كانت لدينا عالما مجهولا

وملك بلاد المغرب بأسرها إلى البحر المحيط وبرقه والإسكندرية، ثم مصر، والشام، والحجاز، على يدي قائده الكاتب جوهر فكان أمره ينفذ من أقصى الشام، والحجاز إلى السوس الأقصى، إلى أن دخل مصر يوم الثلاثاء سابع عشر شعبان سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة.

وأذن مؤذن بإذنه المخصوص بقومه بمسجد طولون سنة ستين وثلاثمائة وتوجه إلى مصر في احتفال لم يسمع بمثله بعد أن أمر باتخاذ قصر من كل ثلاثين ميلاً ما بين داره بإفريقية وبين داره بمصر وكان من جملة ما استظهر به على وجهته المشرق بعد إزاحة علل الجيوش وأنصابها إلى السفر البعيد/ أنه حمل من الذهب واستقر بمصر [٧٥/أ] قراره.

وملك الشام والحجاز بعد أن استخلف على ملك المغرب بلقين الصنهاجي، وجعل خاتمه في يده.

وجرى بينه وبين ولاة العباسية بالشام قبل تملكه حروب عظيمة.

ذكروا أنه أخرج جوهراً إلى لقاء لتكثير التركي بجيش فيه خمسمائة طبل، وخمسة آلاف بند.

وتوفي بالمعزية التي بنى بمصر يوم الأحد السادس من ذي الحجة سنة أربع وستين وثلاثمائة.

وسبحان الحي الذي لا يموت.

وولي الأمر بعده نزاو بن [المعز][1].

دولة العزيز بالله[2]

وتمّ له الأمر حسبما كان لأبيه.

---

(١) زيادة يتطلبها السياق.

(٢) من مصادر ترجمته: المنتظم (٧/ ١٩٠)، البيان المغرب (١/ ٢٢٩)، وفيات الأعيان (٥/ ٣٧١)، العبر (٣/ ٣٤)، البداية والنهاية (١١/ ٣٢١)، تاريخ ابن خلدون (٤/ ٥١)، خطط المقريزي (١/ ٣٥٤)، النجوم الزاهرة (٤/ ١١٢)، تاريخ ابن إياس (١/ ٤٨)، شذرات الذهب (٣/ ١٢١)، سير أعلام النبلاء (١٥/ ١٦٧) وفيه:

صاحب مصر أبو منصور نزار بن المعز معد بن إسماعيل، العبيدي، المهدوي، المغربي. ولد سنة أربع وأربعين وثلاثمائة. قام بعد أبيه في ربيع الأول سنة خمس وستين وكان كريماً شجاعاً، =

وكان العزيز بالله ملكاً كبيراً، وجرت بينه وبين عضد الدولة مُدَبِّر ملك العراق حروب وكان له على القرامطة هزائم عظيمة، ووقائع شهيرة.

ومن الحكايات عنه

أنه ركب في ليلة مقمرة، ومرّ ببعض الطاقات المشرفة على النيل، فإذا جارية من أندى الناس صوتاً تغني بهذين البيتين، وهما:

أما ونزار حلفة حلفتها على الماء أثوبه وهو نمير
لقد خبت من معروفة ونواله هواه فيّ إلى معروفه لفقير

ومولاها يستعيدها.

فلما فرغت قال لمملوك من صقالبة خذ بدرة فيها ألف دينار، واصعد إلى صاحب هذا الطاق فادفعه إليه، ومثله عن قائل هذا الشعر، ففعل.

فعرف أن قائله المقداد بن الحسين الشاعر، فأمر في الوقت أن يحمل له خمسة آلاف دينار، وأن يلحق بالندماء.

وتوفي العزيز بالله بمدينة بلبيس من بلاد مصر لليلتين بقيتا من رمضان المعظم سنة ست وثمانين وثلاثمائة.

وكانت مدته إحدى وعشرين سنة وعشرة أشهر.

وقام بالأمر بعده ولده أبو علي منصور الحاكم بأمر الله بن نزار.

دولة المنصور الحاكم بأمر الله[١]

وكان سن الحاكم يوم ولي إحدى عشرة سنة.

= صفوحاً، أسمر، أصهب الشعر، أعين، أشهل، بعيد ما بين المنكبين، حسن الأخلاق، قريباً من الرعية، مُغرى بالصيد، يكثر من صيد السباع، ولا يؤثر سفك الدماء، وله نظم ومعرفة. توفي في العيد ولد له فقال:

نحن بنو المصطفى ذوو محن أوَّلُنا مبتلى وخاتِمُنا
عجيبة في الأيام محنتنا يجرعها في الحياة كاظمنا
يفرح هذا الورى بعيدهم طُراً وأعيادنا مآتمنا

قال أبو منصور الثعالبي في اليتيمة: سمعت الشيخ أبا الطيب يحكي أن الأموي صاحب الأندلس كتب إليه نزار صاحب مصر كتاباً سبّه فيه وهجاه، فكتب إليه الأموي: «أما بعد، فإنك عرفتنا فهجوتنا ولو عرفناك لأجبناك». فاشتد ذلك على العزيز، وأفحمه عن الجواب، يشير أنك دعي لا نعرف قبيلتك... وفي سنة ست وثمانين في رمضان مات العزيز ببلبيس في الحمام من القولنج وعمره اثنان وأربعون سنة وأشهر. وقام ابنه الحاكم الزنديق.

(١) من مصادر ترجمته: المنتظم (٧/ ٢٩٧)، البيان المغرب (١/ ٢٨٦)، وفيات الأعيان (٥/ ٢٩٢)، =

وهو ممن جلبنا التاريخ بسببه ممن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، ولم يختلف عليه بسبب ذلك أحد.

وكان العزيز بالله قد جعله لنظر أبي الحسن بن علي، وعمار المسمى بأمين الدولة وهو الذي/ دَبَّرَ أمره وأحكم حربه وسلّمه إلى أن استقل، وليته لم يستقل. [٧٥/ب]

فقد كان بلغ من الخرف وسيء السيرة المبالغ التي لا شيء فوقها، إذ فسد فكره، وساء ظنه، فقتل الخدام، والظهراء، والعلماء والقضاة، وجاء بشاعات من التصاريف الغريبة.

قال صاحب سُكره: إن السلطان كان متقلّباً لأنه كان عنده شجاعة وإقدام وجبن وإحجام، ومحبة للعلم، وانتقام من العلماء، وميل إلى الصلاح وقتل الصلحاء، والغالب عليه السخاء، ويبخل بالقليل... [(١)] سبع سنين، وأقام سنين يوقد عليه الشمع ليلاً ونهاراً، ثم جلس في الظلام مدة.

وقتل من العلماء ما لا يحصى.

وأمر بسبّ الصحابة وكتب ذلك على أبواب المساجد والشوارع ثم محاه بعد مدة.

وأمر بقتل الكلاب، ثم نهى عنه.

ونهى عن النجوم، وكان مع ذلك يرصدها.

وبنى جامع القاهرة، وجامع راشدة.

ومنع صلاة التراويح عشر سنين، ثم أباحها وهدَّ قمامة، ثم بنى مكانها، ثم

= العبر (٣/ ١٠٤)، البداية والنهاية (١٢/ ٩)، تاريخ ابن خلدون (٤/ ٥٦)، خطط المقريزي (١/ ٣٥٤)، النجوم الزاهرة (٤/ ١٧٦)، تاريخ ابن إياس (١/ ٥٠)، شذرات الذهب (٣/ ١٩٢)، سير أعلام النبلاء (١٥/ ١٧٣)، وفي ترجمته قال: المهدي، العبيدي، المصري الرافض، بل الإسماعيلي الزنديق المدعي الربوبية. مولده في سنة خمس وسبعين وثلاثمائة. وأقاموه في الملك بعد أبيه، وله إحدى عشرة سنة، فحكى هو قال: ضمني أبي وقبلني وهو عريان، وقال: امضي فالعب، فأنا في عافية، قال: ثم توفي. فأتاني بَرْجَوَان وأنا على جُمَّيْزَةٍ في الدار، فقال: انزل ويحك، الله الله فينا. فنزلت، فوضع العمامة بالجوهر على رأسي، وقبّل الأرض ثم قال: السلام عليك يا أمير المؤمنين، وخرج بي إلى الناس، فقبّلوا الأرض، وسلّموا عليّ بالخلافة. قلت: وكان شيطاناً مريداً جباراً عنيداً، كثير التلوّن، سفاكاً للدماء خبيث النحلة، عظيم المكر، جوّاداً ممدحاً، له شأن عجيب ونبأ غريب، كان فرعون زمانه، يخترع كل وقت أحكاماً يلزم الرعية بها... وفي الأربعمائة وبعدها كانت الأندلس تغلي بالحروب والقتال على الملك. وأنشأ داراً كبيرة ملأها قيوداً وأغلالاً، وجعل لها سبعة أبواب، وسمّاها جهنم فكان من سخط عليه أسكنه فيها.

(١) طمس في المخطوط.

أعادها كما كانت وبنى المدارس وجعل فيها العلماء والمشايخ ثم قتلهم، وهدمها.

وكانت أحكامه كلها من هذه النسبة، ومنها أنه منع النساء من الخروج إلى الطرقات ليلاً ونهاراً.

قال القاضي شمس الدين بن خلكان: وكانت مدة منعهن سبع سنين، وسبعة أشهر.

ومنها: أنه أمر الناس بغلق الأسواق نهاراً وفتحها ليلاً، فامتثلوا ذلك دهراً طويلاً، حتى اجتاز مرة بشيخ يعمل النجارة، بعد العصر، فوقف عليه وقال: ألم ننهكم عن هذا؟

فقال: يا سيدي أما كان الناس يسهرون لما كانوا يتعيشون بالنهار؟ فهذا من جملة السهر.

فتبسم وتركه، وعاد الناس إلى أمرهم الأول.

قال الشيخ عماد الدين بن كثير: هذا من أحكامه الشنيعة، وأوامره المخالفة للشريعة، وكل هذا تغيير للرسوم، واختبار لطاعة العامة ليرتقي إلى ما هو أطم من ذلك لعنه الله.

ومنها: أنه نهى عن أكل الملوخية، والجرير، وعلل تحريم الملوخية بميل معاوية إليها، وعلل تحريم الجرير بكونه منسوباً إلى عائشة.

وعذره عَسَّرَهُ الله أنحس من ذنبه. ثم أنه اطلع على جماعة أكلوا الملوخية فضربهم بالسياط، وطاف بهم القاهرة، ثم ضرب رقابهم في باب زويلة.

ونهى عن بيع الرطب، ثم جمع منه شيئاً كثيراً وأحرقه، وكان مقدار النفقة على/ إحراقه خمسمائة دينار. [١/٧٦]

ونهى عن بيع العنب، وأنفذ شهوداً إلى الجند حتى قطعوا شيئاً كثيراً من كرومها وردها إلى الأرض.

. . .(١) وجمع ما كان في مخازنه من جرار العسل وحملت إلى شاطىء النيل، وقلبت في البحر، وكانت خمسة آلاف جرة.

ونهى عن بيع الزبيب قليله وكثيره على اختلاف أنواعه، ونهى التجار عن حمله، ثم جمع بعد ذلك منه جملة كبيرة وأحرقها. ونهى عن بيع السمك الذي لا قشر له، وظفر بمن باعه فقتله.

ومنها: أنه أمر النصارى أن تعلق في أعناقها الصلبان، وأن يكون طول الصليب ذراعاً، ووزنه خمسة أرطال.

---

(١) موضع النقط طمس بالمخطوط.

وأمر اليهود أن يحملوا في أعناقهم قرامى خشب في زنة الصلبان، وأن يلبسوا العمائم، ولا يكتروا من مسلم بهيمة.

ثم أفرد لهم حمامات، وأمرهم أن يدخلوا إليها بالصلبان في أعناقهم.

وأمرهم في وقت بالدخول في الإسلام كرهاً، ثم أذن لهم في العود إلى أديانهم. فارتدّ منهم في سبعة أيام ستة آلاف. وخرّب كنائسهم، ثم أعادها.

ومنها: أنه كان يعاقب بسلب الألقاب حتى أنه يبقي الإنسان إذا غضب مدة طويلة لا يدعى باسمه وهو مع ذلك في حزب حتى يرد عليه لقبه، فيكون عنده البشارة العظيمة.

ومنها: أنه ادعى الربوبية، وكتب له: باسم الحاكم الرحمٰن الرحيم.

واجتمع له كثير من الجهّال، وبذل لهم المال ونادوه باسم الإلاه.

قلت: وكأن هذه الخاصية، مما انفردت به مصر، قبل[١] ذلك فرعون، وتبعه هذا المحروم الآخر كأنهم شربوا هذا.

قال ابن الجوزي: فصار قوم من الجُهَّال إذ رأوه يقولون: يا واحد، يا أحد، يا محيي، يا مميت.

وصنّف له بعض الباطنية كتاباً ذكر فيه: أن روح آدم انتقلت إلى علي، وأن روح علي انتقلت إلى الحاكم.

وقرىء هذا الكتاب بجامع القاهرة، فقصد الناس قتل مصنّفه، فسَيَّره الحاكم إلى جبال الشام، فنزل بوادي التيم، وناحية بانياس، فاستمال الناس وأعطاهم المال وأباح لهم الخمر، والزنى، وأقام عندهم مدّة يدعوهم إلى معتقد الحاكم، فأضلّ منهم خلقاً كثيراً.

وفي وادي التيم إلى يومنا هذا[٢] قرى كثيرة يعتقدون رجوع الحاكم، وأنه لا بد أن يعود، ويمهّد الأرض.

وتلك خيالات فاسدة، وظنون كاذبة، نعوذ بالله منها.

وكانت/ الإسماعيلية يعتقدون أفعاله لأغراض صحيحة استأثر بعلمها، وتفرّد [٧٦/ب]

---

(١) في المخطوط: بعد. وهو سهو. وصدق المثل القائل في مصر: قالوا: يا فرعون إيش فرعنك، قال: ما لقيت حدّ يردني.

(٢) كان هذا في أيام المؤلف رحمنا الله وإياه، أما اليوم فقد أذهب الله تعالى تلك الغمة وكشف تلك الفتنة، نسأل الله تعالى أن يرزقنا وإياكم حسن الاعتقاد وحسن الختام بالموت على دين الله الإسلام الذي جاء به خير الأنام محمد عليه الصلاة والسلام، آمين.

بباب الجامع بمصر، ونزل عن حماره، وأخذ بيد ركابيته، وأرفده، ورشق بطنه بيده، وأخرج مصارينه، وغسل يديه، وتركه ومضى.

وأكثر في وقتٍ من قتل الركبدارية حتى رغبوا أن يخرج لهم من الخزانة سيف ماض فإن السيوف النابية تعذّبهم. وأحرق جماعة من خواصه بالنار.

وكان يأمر بتكفين من يقتله ودفنه، ويلزم أهله بملازمة قبره، والمبيت عنده، وهو مع هذا القتل العظيم والأذى الكثير يركب حماراً وحده، ويمشي في القاهرة تارة، وفي البرية تارة عند جبل المقطم وغيره، والجند على اختلاف طبقاتهم، وتباين أجناسهم ومنهم أتراك، وديلم، ومصامدة، وسودان، وخُدّام، وصقالبة، وروم، وغير ذلك.

وهو فيهم الأسد الضاري بين البقر.

وأقام على ذلك مدة إلى أن ادعى الألوهية، وصرح بالحلول والتناسخ وعَنَّ له أن يحمل الناس على ذلك.

وكان أهل بيته من قبله يعتقدون ذلك ويكتمونه خوفاً من تفرّق الكلمة.

وكان السبب في هلاك الحاكم: أنه أراد قتل أخته سِت الملك وهَمَّ أن يرسل إليها القوابل ليتحقق بكارتها، وقال لبعض قرابتها: سمعت أنكم تجمعون الجموع، ويدخل إليكم الرجال ولا بد لي من قتلكم أجمعين.

وتكرر هذا القول منه، وعلمت أخته أنه [يريد أن](١) يقتلها لا محالة لِمَا تحققت من خُبْثِ طويته ومؤاخذته بالصغائر، وإصراره على الكبائر، وصاحب البيت أدرى بالذي فيه.

وكانت من النساء المدبرات، فأخذت في تدبير الحيلة والعمل على قتل أخيها الحاكم، وخرجت ليلاً، وأتت إلى دار الأمير سيف الدولة ابن دوَّاس.

وكان الحاكم قد أقبل على قتله، فدخلت عليه خفية، واختلت به، وعرّفته أنها أخت الحاكم، فعظمها وأكرمها.

فقالت له: أنت تعلم ما يجري من أخي في سفك الدماء وخراب البلاد، وقتل وجوه الدولة، وقد هَمَّ على قتلك وقتلي.

فقال لها: كيف الحيلة في أمره؟

قالت: الرأي عندي أن نجهز له رجالاً يقتلونه عند خروجه إلى حلوان، فإنه ينفرد بنفسه، وأنت تكون المدبّر لدولة ولده، والوزير له.

---

(١) زيادة يتطلبها السياق.

واتفقا على ذلك، ومضت إلى قصرها(١).

---

(١) قال الأستاذ عمر رضا كحالة في أعلام النساء (٢/ ١٦٦) في ترجمة ست الملك بنت العزيز بالله الفاطمي: سيدة جليلة ذات نفوذ وسلطان وسياسة وإدارة ورأي وعقل، أخذت في تدبير الحيلة على قتل أخيها الحاكم بأمر الله لما تمادى في بغيه وتقتيله الأبرياء، ونهبه الدور، واستحيائه النساء الخ . . . فكانت تنهي الحاكم وتقول: يا أخي احذر أن يكون خراب هذا البيت على يديك. فكان يسمعها غليظ الكلام ويتهددها بالقتل، فبعث إليها يقول: رفع إليّ أصحاب الأخبار أنك تدخلين الرجال إليك، وتمكنينهم من نفسك. وعمل على إنفاذ القوابل لاستبرائها، فعلمت أنها هالكة معه.
وكان بمصر سيف الدولة ابن دَوّاس، وكان شديد الحذر من الحاكم، فراسلت ست الملك ابن دوّاس مع بعض خدمها وخواصها، وهي تقول: لي إليك أمر لا بد لي فيه من الاجتماع بك، فإما تنكرت وجئتني ليلاً، أو فعلت أنا ذلك. فقال: أنا عبدك، والأمر لكِ. فتوجهت إليه ليلاً في داره متنكرة، ولم تصحب معها أحداً، فلما دخلت عليه قام إليها، وقبّل الأرض بين يديها دفعات، ووقف في الخدمة، فأمرته بالجلوس داخل المكان.
فقالت: يا سيف الدولة قد جئت في أمر أحرس به نفسي ونفسك والمسلمين ولك فيه الحظ الأوفر، وأريد مساعدتك فيه. فقال: أنا عبدك، فاستحلفته واستوثقت منه. فقالت له: أنت تعلم ما يقصده أخي فيك، وأنه متى تمكن منك لم يبق عليك وكذا أنا، ونحن على خطر عظيم، وقد انضاف إلى ذلك تظاهره، وبادعائه الإلهية، وهتك ناموس الشريعة، وناموس آبائه، وقد زاد جنونه، وأنا خائفة أن يثور المسلمون عليه فيقتلوه ويقتلونا معه، وتنقضي هذه الدولة أقبح انقضاء.
فقال سيف الدولة: صدقت يا مولاتنا، فما الرأي؟ قالت: قتله، ونستريح منه، فإذا تم لنا ذلك أقمنا ولده موضعه، وبذلنا الأموال، وكنت أنت صاحب جيشه، ومدبّره، وشيخ الدولة القائم بأمره، وأنا امرأة من وراء حجاب، وليس غرضي إلاّ السلامة منه وأن أعيش بينكم آمنة من الفضيحة. ثم أقطعته إقطاعات كثيرة، ووعدته بالأموال والخِلَع والمراكب السنية. فقال لها عند ذلك: مري بأمرك.
قالت: أريد عبدين من عبيدك تثق بهما في سِرّك، وتعتمد عليهما في مهمتك. فأحضر عبدين ووصفهما بالشهامة، فاستحلفتهما ووهبت لهما ألف دينار، ودفعت لهما بثياب وإقطاعات وخيل وغير ذلك. وقالت لهما: أريد منكما أن تصعدا غداً إلى الجبل فإنها نوبة الحاكم في الركوب، وهو ينفرد، ولا يبقى معه غير القرافي والرّكابي، وربما ردّهُ، ويدخل الشِّعْب، وينفرد بنفسه، فاخرجا عليه فاقتلاه، واقتلا القرافي والصبي إن كانا معه. وأعطتهما سكينين من عمل المغاربة، ورجعت إلى القصر، وقد أحكمت الأمر وأتقنته.
فسار الحاكم إلى الشِّعب الذي جرت عادته بدخوله وقد كمن العبدان الأسودان له، وقد قرب الصباح، فوثبا عليه وطرحاه أرضاً، فصاح: ويلكما، ما تريدان؟ فقطعا يديه من رأس كتفيه، وشقا جوفه وأخرجا ما فيه، ولفاه في كيس، وحملاه إلى ابن دَوّاس. فحمله ابن دَوّاس والعبدين إلى أخته ست الملك. فدفنته في مجلسها، وكتمت أمره، وأطلقت لابن دوّاس والعبدين مالاً كثيراً وثياباً. وأحضرت خطير الملك الوزير، وعرّفته الحال، واستكتمته، واستحلفته على الطاعة والوفاء ورسمت له بمكاتبة ولي العهد، وكان مقيماً بدمشق نيابة عن الحاكم بأن يحضر إلى الباب، فكتب إليه بذلك.
وأنفذت علي بن داود ـ أحد القواد ـ إلى الفَرَما، فقالت له: إذا دخل ولي العهد فاقبض عليه واحمله إلى تنيس. ثم كتبت إلى عامل تنيس عن الحاكم بإنفاذ ما عنده من المال، فأنفذه وهو ألف ألف

=

[١/٧٧] ولما كانت صبيحة النهار، خرج الحاكم على عادته وانفرد بنفسه/ في المقطم، وكان ابن دوّاس قد أحضر عشرة من العبيد فأعطى كل واحد منهم خمسمائة دينار، وعرّفهم كيف يقتلونه، فسبقوا إلى الجبل. فلما انفرد، خرجوا عليه وقتلوه.

وخرج الناس بعد ذلك لانتظاره على عادتهم ومعهم دواب المركب والنجائب، ففعلوا ذلك سبعة أيام.

ثم خرج مظفر صاحب المظلة ومعه جماعة فبلغوا دير القصير، ثم أمعنوا في

= دينار، وألف ألف درهم خراج ثلاث سنوات. وجاء ولي العهد إلى الفَرَما، فَقُبِضَ عليه وحُمل إلى تنيس. وفقد الناس الحاكم في اليوم الثاني، ومنع أبو عروس من فتح أبواب القاهرة انتظاراً للحاكم على حسب ما أمره به. ثم خرج الناس في اليوم الثالث إلى الصحراء، وقصدوا الجبل، ولم يقفوا له على أثر. وأرسل القواد إلى أخته وسألوها عنه، فقالت: ذكر لي أنه يغيب سبعة أيام، وما هنا إلاّ الخير. فانصرفوا على سكون وطمأنينة.

ولم تزل أخته ست الملك في هذه الأيام ترتب الأمور، وتفرّق الأموال، وتستحلف الجند. ثم بعثت إلى ابن دوّاس المذكور، وأمرته أن يستحلف الناس لابن الحاكم كتامة وغيرها، ففعل ذلك. فلما كان في اليوم السابع ألبست أبا الحسن علي بن الحاكم أفخر الملابس، واستدعت ابن دوّاس، وقالت له: المعول في قيام هذه الدولة عليك، وتدبيرها موكل إليك، وهذا الصبي ولدك، فابذل في خدمته وسعك. فَقَبَّل الأرض، ووعدها بالطاعة.

ووضعت التاج على رأس الصبي، وهو تاج عظيم فيه من الجواهر ما لا يوجد في خزانة خليفة، وهو تاج المعزّ جد أبيه، وأركبته مركباً من مراكب الخليفة، وخرج بين يديه الوزير، وأرباب الدولة. فلما صار إلى باب القصر صاح خطير الملك الوزير: يا عبيد الدولة، مولاتنا السيدة تقول لكم: هذا مولاكم فسلموا عليه، فقبّلوا الأرض بأجمعهم، وارتفعت الأصوات بالتكبير والتهليل، ولقّبوه الظاهر لإعزاز دين الله. وأقبل الناس أفواجاً فبايعوه وأطلق المال وفرح الناس، وأُقيم العزاء على الحاكم ثلاثة أيام.

وفي رواية للقضاعي أنه قال بعدما ساق سبب قتله: ثم أمرت ست الملك بخلع عظيمة ومال كثير ومراكب ذهب وفضة للأعيان، وأمرت ابن دوّاس أن يشاهدها في الخزانة، وقالت: غداً نخلع عليك. فقبّل ابن طولون الأرض، وفرح، وأصبح من الغد، فجلس عند الستر ينتظر الإذن حتى يأمر وينهي. وكان للحاكم مائة عبد يختصون بركابه ويحملون السيوف بين يديه، ويقتلون من يأمر بقتله. فبعثت بهم ست الملك إلى ابن دوّاس، ليكونوا في خدمته.

فجاؤوا في هذا اليوم ووقفوا بين يديه. فقالت ست الملك لنسيم صاحب الستر: اخرج وقف بين يدي ابن دوّاس، وقل للعبيد: يا عبيد، مولاتنا تقول لكم: هذا قاتل مولانا الحاكم فاقتلوه. فخرج نسيم فقال لهم ذلك، فمالوا على ابن دوّاس بالسيوف فقطعوه وقتلوا العبدين الذين قتلا الحاكم، وكل من اطلع على سرها قتلته، فقامت لها الهيبة في قلوب الناس. وقال ابن الصابىء: لما قتلت ست الملك ابن دواس قتلت الوزير الخطير، ومن كانت تخاف منه ممن عرف بأمرها. وملك الظاهر لإعزاز دين الله سائر ممالك والده مثل: الشام، والثغور، وإفريقية، وقامت عمته ست الملك بتدبير مملكته أحسن قيام، وبذلت العطاء في الجند، وساست الناس أحسن سياسة. وتوفيت ست الملك سنة (٤١٥هـ).

الدخول في الجبل، فبينما هم كذلك إذ بصروا حماره الأشهب المدعو بالقَمر، وقد قطعت يداه وعليه سَرْجُهُ ولجامه فتبعوا أثر الحمار إلى أن انتهوا إلى المقصبة التي في شرق حلوان فنزل رجل إليه فوجد فيها ثيابه، وهي سبع جبات مروزية لم تحل أزرارها وفيها آثار السكاكين، فلم يشكّوا في قتله.

وذلك في شوال سنة إحدى عشرة وأربعمائة.

وفي جبل الشام خلق كثير من المتغالين في حُبّه، الحمقى يعتقدون حياته، وأنه لا بد أن يظهر، ويحلفون بغيبة الحاكم.

وولي بعده ولده أبو الحسن الظاهر.

وكان على عهد ولاية الحاكم بإفريقية، ومصر، والحجاز جملة من الأعلام وأصحاب مالك الإمام، وصدور الإسلام، منهم:

الإمام أبو محمد بن أبي زيد صاحب كتاب الرسالة والنوادر الفقهية الشهير.

وعبد الحي بن أبي سعيد المفتي بعده، صاحب الوثائق.

وميسرة بن مسلم بن ربيعة الحضرمي، رَحَلَ الناس إليه من الأقطار، وسمع من النسائي والبغوي.

وابن عبد الله بن الرشي أخذ عن البغوي، والطبري، وابن شعبان، وأخذ عنه أبو عمران العباسي، وهو الذي حبس مع السباع فلم تضره ولا عدت عليه.

ورجاء بن عيسى بن محمد الأنصاري، أخذ عن حمزة الحافظ، وأبي العباس الرّازي، وابن رشيق.

وأبو الحسن علي بن محمد بن خلف أبو الحسن القابسي المعروف الفضل والعلم، صاحب الملخص.

وأبو جعفر بن نصر الداودي من المالكية.

وأبو علي بن خلدون من أصحاب أبي الحسن القابسي.

وخلف بن مسعود الرعيني من أهل الدراية والعلم.

والقاضي عبد الوهاب إمام المذهب عند المشارقة، لقي الأبهري، وتفقّه على أصحابه، وله الكتب التي من جملتها التلقين والمعونة.

وأبو بكر بن عبد الرحمن الخولاني.

وأبو عمر الفاسي الفقيه المشهور.

وأبو القاسم بن عبد الرحمن الليدي.

والولي أبو إسحاق الحينياني صاحب الكرامات والولاية.

وأبو القاسم البرادعي صاحب كتاب التهذيب.

[٧٧/ب] ومحمد بن العابد الشهير من أهل/ إفريقية.

دولة الظاهر بن الحاكم(١)

واسمه: علي بن منصور.

وكنيته: أبو الحسن. وقيل: أبو الأشبال. ولقّب أول أمره: الملك القاهر. فقال له الصاحب زين الدين: ما لُقّب أحد بهذا اللقب فأفلح.

لقّب به القاهر بن المعتصم فلم تطل أيامه، وخلع ثم سمل.

ولقب به القاهر صاحب الموصل فسُمّ ولم تطل أيامه.

فترك اللقب المذكور، وتلقّب بالظاهر.

وحَطّ المظالم يوم ولايته، وسَرَّح من بالسجون ليطمس على سيرة أبيه.

وهُزِمَ في أيامه أبو زكوي الخارجي، وأدخل القاهرة على جمل، فقُتِلَ بها.

وتوفي الظاهر يوم الجمعة الرابع لشعبان سنة سبع وعشرين وأربعمائة.

وولي بعده ولده معد أبو تميم المستنصر.

دولة المستنصر بن الظاهر(٢)

استوثق له الأمر، وعَلا صيته، وطال عمره.

---

(١) من مصادر ترجمته: المنتظم (٨/ ٩٠)، وفيات الأعيان (٣/ ٤٠٧)، العبر (٣/ ١٦٣)، البداية والنهاية (١٢/ ٣٩)، تاريخ ابن خلدون (٤/ ٦١)، خطط المقريزي (١/ ٣٥٤)، النجوم الزاهرة (٤/ ٢٤٧)، تاريخ ابن إياس (١/ ٥٨)، شذرات الذهب (٣/ ٢٣١)، سير أعلام النبلاء (١٥/ ١٨٤)، وقال في ترجمته فيها:
صاحب مصر الظاهر لإعزاز دين الله أبو الحسن علي بن الحاكم منصور بن العزيز نزار بن المعز، العبيدي المصري، ولا أستحلّ أن أقول: العلوي الفاطمي، لما وقر في نفسي أنه دعيّ. وقيل: يكنى أبا هاشم. بويع وهو صبي لما قتل أبوه في شوال سنة إحدى عشرة وأربعمائة. وكانت دولته على مصر والشام والمغرب، ولكن طمع في أطراف بلاده، طوائف، فتقلّب حسان بن مفرج الطائي صاحب الرملة على كثير من الشام وضَعُفَت الإمارة العبيدية قليلاً... ومات الظاهر في سنة سبع وعشرين وأربعمائة، ولم يبلغني كثير شيء من أخباره... وقيل: كان غارقاً في اللهو والمُسكر والسراري.

(٢) من مصادر ترجمته: العبر (٣/ ٣١٨)، سير أعلام النبلاء (١٥/ ١٨٦)، الكامل في التاريخ من أحداث سنة (٤٢٧ : ٥٠٠)، وفيات الأعيان (٥/ ٢٢٩)، البداية والنهاية (١٢/ ١٤٨)، تاريخ ابن خلدون (٤/ ٦٢)، خطط المقريزي (١/ ٣٥٥)، النجوم الزاهرة (٥/ ١)، تاريخ ابن إياس (١/ ٥٩)، شذرات الذهب (٣/ ٣٨٢).

=

وعلى عهده خلع أبو تميم المُعز من ملوك صنهاجة طاعته دولة العبيديين، وخطب للقائم العباسي، ولعن العبيدية بالمساجد. ولما بلغه ذلك عظم عليه وأحزنه.

فدخل عليه وزيره الجرجرائي، وكان من أهل الدهاء، فقال له: ما أهمك يا أمير المؤمنين؟

وكيف لا أهتم، وقد خسف ملكنا بإفريقية، والمغرب، وقتل المسلمون بالقيروان وخطب لعدونا على منابرنا!

فقال: لا عليك، جوّز لهم العرب الجائعة من هلال، وزغبة، ورباح ـ وكانوا ما بين النيل والبحر ـ.

فكتب إليهم المستنصر، وخاطبهم وخلع على وجوههم، وقال لهم: قد أعطيتكم إفريقية والمغرب بأسره، وجميع ما تملك المعز بن باديس الصنهاجي العبد الآبق، فلا تفتقرون أبداً.

فطمعت العرب، وخرجوا قاصدين إلى القيروان كالجراد، لا يمرون بشيء إلاّ أهلكوه.

ولقيهم المعز بن باديس، فكانت عليه الهزيمة ولم يستقل بهم العثرة ذلك الوطن إلى الآن.

وتوفي المستنصر منسلخ ذي الحجة من عام خمسمائة. فكانت خلافته ثلاثاً وسبعين سنة وأشهر.

وكان يُدْعى ذو العمرين، وبلغ عمره نيفاً وتسعين سنة، وهو من الغريب في أعمار الملوك.

وولي بعده ولده المستعلي بأمر الله.

دولة المستعلي بأمر الله(١)

/وهو أحمد. وقيل: نزار بن المستنصر معد بن الظاهر بن الحاكم. [١/٧٨]

= قال ابن الأثير في الكامل في التاريخ في أحداث سنة سبع وعشرين وأربعمائة في ذكر وفاة الظاهر وولاية ابنه المستنصر: مولده بالقاهرة سنة عشر وأربعمائة، وفي أيامه كانت قصة البساسيري. وخطب له ببغداد سنة خمسين وأربعمائة، وكان الحاكم في دولته بدر بن عبد الله الجمال الملقب بالأفضل أمير الجيوش. وكان عادلاً حسن السيرة.

وفي سنة (٤٧٩) وصل الحسن بن الصباح الإسماعيلي في زيّ تاجر إلى المستنصر بالله وخاطبه في إقامته الدعوة له بخراسان وبلاد العجم، فأذن له في ذلك، فعاد ودعا إليه سِرّاً وقال للمستنصر: من إمامي بعدك؟ قال: ابني نزار. والإسماعيلية يعتقدون إمامة نزار، وسيرد كيف صُرف الأمر عنه سنة (٤٨٧) إن شاء الله تعالى (أي في الكامل).

(١) من مصادر ترجمته: الكامل في التاريخ سنة (٤٨٧ : ٥٠٨)، وفيات الأعيان (١/ ١٧٨)، العبر (٣/ =

بويع في اليوم الذي توفي فيه أبوه.

وكان سيىء التدبير.

وخملت الدعوة على عهده، وضعُف أمر العُبيدية واشتد كلب النصارى على الشام، فاستولوا على بيت المقدس، وسواحل الشام، والجزائر.

وتوفي المستعلي في السادس والعشرين لذي الحجة سنة ثمان وخمسمائة.

وولي بعده ابنه الآمر.

دولة الآمر بن المستعلي(١)

واسمه: حسان. وقيل: نزار.

= ٣٤١)، البداية والنهاية (١٢/ ١٦٢)، تاريخ ابن خلدون (٤/ ١٦٢)، خطط المقريزي (١/ ٣٥٦)، النجوم الزاهرة (٥/ ١٤٢)، تاريخ ابن إياس (١/ ٦٢)، شذرات الذهب (٣/ ٤٠٢)، سير أعلام النبلاء (١٥/ ١٩٦). وقال في ترجمته:

قام بعد أبيه سنة (٤٨٧)، وله إحدى وعشرون سنة. وفي أيامه وهت الدولة العبيدية، واختلّت قواعدها، وانقطعت الدعوة لهم من أكثر مدائن الشام، واستولى عليها الفرنج وغيرهم من الغُزّ. فأخذت الفرنج إنطاكية من المسلمين في سنة إحدى وتسعين، وكانت لها في يد المسلمين نحو عشرين سنة، وأخذوا بيت المقدس، واستباحوه، وأخذوا أيضاً المعرّة في سنة اثنتين وتسعين، ثم استولوا على مدائن وقلاع. وما كان للمستعلي مع أمير الجيوش حلّ ولا ربط.

وهرب في دولته أخوه نزار المنسوب إليه الدعوة النزارية الإسماعيلية بالألموت وبقلاع الإسماعيلية، فوصل نزار إلى الإسكندرية وقام بأمره الأمير أفتكين، وقاضي البلد ابن عمار، وبايعوه، وأقام سنة، فأقبل الأفضل أمير الجيوش في سنة ثمان وثمانين، وحاصرهم، فبرز إليه أفتكين فبيّته وهزمه. ثم أقبل ونازله ثانية، وافتتح البلد عنوة، فقتل القاضي وجماعة، وقبض على نزار وأفتكين، ثم ذبح أفتكين، وبنى المستعلي على أخيه نزار حائطاً فهلك.

وفي دولته كثرت الباطنية الملاحدة الذين هم الإسماعيلية، وأخذوا القفول، وتملّكوا قلعة أصبهان، وفتكوا بعدد كثير من الكبار والعلماء. وشرعوا في شغل السكين، وجرت لهم خطوب وعجائب.

(١) من مصادر ترجمته: سير أعلام النبلاء (١٥/ ١٩٧)، وفيات الأعيان (٥/ ٢٩٩)، العبر (٤/ ٦٢)، البداية والنهاية (١٢/ ٢٠٠)، تاريخ ابن خلدون (٤/ ٦٨)، خطط المقريزي (١/ ٣٥٧)، النجوم الزاهرة (٥/ ١٧٠)، تاريخ ابن إياس (١/ ٦٢)، شذرات الذهب (٤/ ٧٢).

قال الذهبي في ترجمته في سير الأعلام: الآمر بأحكام الله، صاحب مصر، أبو علي منصور بن المستعلي أحمد بن المستنصر معد بن الظاهر بن الحاكم العبيدي، المصري، الرافضي، الظَّلُوم.

كان متظاهراً بالمكر، واللهو، والجبروت. ولي وهو صغير، فلما كبر قتل الأفضل أمير الجيوش، واصطفى أمواله، وكانت تفوت الإحصاء، ويضرب بها المثل، فاستوزر بعده المأمون محمد بن مختار البطائحي، فَعَسَفَ الرعية، وتمرّد، فاستأصله الآمر بعد أربع سنين، ثم صلبه، وقتل معه خمسة من إخوته. وفي دولته أخذ الفرنج طرابلس الشام، وصيدا، ثم قصد الملك بردويل الفرنجي ديار مصر، فأخذ الفَرَما ـ وهي قريبة من العريش ـ فأحرق جامعها ومساجدها، وقتل وأسر.

وقتله طائفة من الحشيشية بمصر وثبوا عليه في بعض الأزقة، فكمنوا في فرن بطريقه، وتعلقوا به واستعلى أحدهم على كفل دابته وقتلوه، وقتلوا جميعاً في الحال.

وولي بعده الحافظ عبد المجيد.

وكانت وفاته سنة أربع وعشرين وخمسمائة.

دولة الحافظ بأحكام الله(١)

واسمه عبد المجيد.

= وقيل: بل هي غربي قطيا. ثم رجع فهلك في سبخة بردويل فشقوه ورموا حُشوته وصَبّروه، فحشوته ترجم هناك إلى اليوم. ودفنوه بقمامة، وكان قد أخذ القدس، وعكا، والحصون. وفي أيامه ظهر ابن تُومَرْت بالمغرب وكثرت أتباعه، وعسكروا وقاتلوا، وملكوا البلاد. وبقي الآمر في الملك تسعاً وعشرين سنة، وتسعة أشهر إلى أن خرج يوماً إلى ظاهر القاهرة، وعدى على الجسر إلى الجيزة، فكمن له رجال في السلاح، ثم نزلوا عليه بأسيافهم، وكان في طائفة ليست بكثيرة، فرُدَّ إلى القصر مثخناً بالجراح، وهلك من غير عَقِب.

وكان العاشر من الخلفاء الباطنية، فبايعوا ابن عمٍّ له هو الحافظ لدين الله. وكان الآمر ربعة شديد الأُدمة، جاحظ العينين، وكان حسن الخط جيد العقل والمعرفة، لكنه خبيث المعتقد، سفاكاً للدماء، متمرّداً جبّاراً، فاحشاً فاسقاً، صادر الخلق، عاش خمساً وثلاثين سنة. وانقلع في ذي القعدة سنة أربع وعشرين وخمسمائة، وبويع وله خمسة أعوام.

(١) من مصادر ترجمته: الكامل في التاريخ من سنة (٥٢٤ : ٥٢٦)، سير أعلام النبلاء (١٥/ ١٩٩)، وفيات الأعيان (٣/ ٢٣٥)، العبر (٤/ ١٢٢)، البداية والنهاية (١٢/ ٢٢٦)، تاريخ ابن خلدون (٤/ ٧١)، خطط المقريزي (١/ ٣٥٧)، النجوم الزاهرة (٥/ ٢٣٧)، تاريخ ابن إياس (١/ ٦٤)، شذرات الذهب (٤/ ١٣٨)، وقال الذهبي في السير في ترجمته:

الحافظ لدين الله صاحب مصر أبو الميمون عبد المجيد ابن الأمير محمد بن المستنصر بالله، معد بن الظاهر علي بن الحاكم بن العزيز بن المعز العبيدي الإسماعيلي المصري. بايعوه يوم مصرع ابن عمه الآمر ليدبّر المملكة إلى أن يولد حَمْلٌ للآمر إن ولد. وغلب على الأمور أمير الجيوش أبو علي بن الأفضل بن بدر الجمال. وكان الآمر قد سجنه عندما قتل أباه، فأخرجت الأمراء أبا علي وقدّموه عليهم، فأتى إلى القصر، وأمر ونهى، وبقي الحافظ معه منقهراً، فقام أبو علي بالملك أتمّ قيام، وعَدَلَ في الرعية، وردَّ أموالاً كثيرة على المصادرين، ووقف عند مذهب الشيعة، وتمسك بالاثني عشر، وترك ما تقوله الإسماعيلية، وأعرض عن الحافظ وآل بيته، ودعا على منابر مصر للمنتصر صاحب السرداب على زعمهم، وكتب اسمه على السُّكّة، واستمر على ذلك، وقلقت الدولة إلى أن شدَّ عليه فارس من الخاصة فقتله بظاهر القاهرة في المحرّم سنة ست وعشرين وخمسمائة وذلك بتدبير الحافظ.

فبادره الأمراء إلى خدمة الحافظ، وأخرجوه من الضيق والاعتقال وجددوا بيعته، واستقل بالمُلك. وكان مولده في الغربة بسبب القحط سنة سبع وستين وأربعمائة بعسقلان. وعندما مات الآمر قبله قال الجُهال: هذا بيت لا يموت إمام منهم حتى يخلف ابناً ينص على إمامته، فخلف الآمر حملاً فكان بنتاً. وكان الحافظ يعتريه القولنج، فعمل له شيرمان الديلمي طبلاً مركباً من سبعة معادن في =

من بيت القوم، ولم يكن أبوه بخليفة، وإنما قُدِّمَ ليحفظ الأمر على من في بطن جواري الآمر.

ولما لم يظهر الحمل استقل بالمُلك. وفي أيامه ابتدأت أيام المُوحدين بالمغرب وأخذت دولة العُبيديين في الانتقاض.

وولي بعده الظافر ولده.

دولة الظافر ابن الحافظ[1]

واسمه يوسف بن عبد المجيد الحافظ.

= شرف الكواكب السبعة، فكان من ضربه وبه قولنج أنفس منه ريح كثير، فوجد راحة. فوجده السلطان صلاح الدين في خزائنه فضرب به أمير كردي فضرط، فغضب وشقه ولم يعلم منفعته.
وكان الحافظ كلما أقام وزيراً تمكن وحكم عليه، فيتألم ويتحيّل عليه، ويعمل على هلاكه، منهم: رضوان فسجنه سبع سنين، وكان قد قدم الشام، وجمع جموعاً وقاتل المصريين وقاتلهم على باب القاهرة، وانتصر، ثم دخلها، فاعتقله الحافظ عنده معززاً في القصر، ثم نقب الحبس، وراح إلى الصعيد، وأقبل بجمع عظيم، وحارب، فكان الملتقى عند جامع ابن طولون، فانتصر وتملّك فبعث إليه الحافظ بعشرين ألف دينار ورسم الوزارة، فما رضي حتى كَمُلَ له ستين ألفاً، ثم بعث إليه عدّة من المماليك، فقاتلهم غلمانه وهو. فقتل، وبقي الحافظ بلا وزير عشر سنين، ولما قُتل الأكمل أقام في الوزارة يأنس مولاه فكبر يأنس وتعدى طوره فسقي.
ثم وزر له ولده الحسن، فكان شرّ وزير، تمرّد وطغى، وقتل أربعين أميراً إلا أنه كان فيه تسنن، فخافه أبوه وجهّز له عسكراً فتحاربوا أياماً، ثم سقاه أبوه. وقد امتدت أيامه، ومات في خامس جمادى الأولى سنة أربع وأربعين وخمسمائة، فكانت دولته عشرين سنة سوى خمسة أشهر. وعاش سبعاً وسبعين سنة. قلّما بلغ أحد هذا السن من العبيدية.

(١) من مصادر ترجمته: الكامل في التاريخ من أحداث سنة (٥٢٤ : ٥٤٩)، سير أعلام النبلاء (١٥/ ٢٠٢)، وفيات الأعيان (١/ ٢٣٧)، العبر (٤/ ١٣٦)، البداية والنهاية (١٢/ ٢٣١)، تاريخ ابن خلدون (٤/ ٧٣)، خطط المقريزي (٢/ ٣٠)، النجوم الزاهرة (٥/ ٢٨٨)، تاريخ ابن إياس (١/ ٦٥)، شذرات الذهب (٤/ ١٥٢).
قال الذهبي في سير الأعلام في ترجمته: صاحب مصر الظافر بالله أبو منصور إسماعيل... العبيدي، المصري، الإسماعيلي من العبيدية الخارجين على بني العباس. ولي الأمر بعد أبيه خمسة أعوام، وكان شاباً جميلاً وسيماً، لعّاباً، عاكفاً على الأغاني والسّراري. استوزر الأفضل سليم بن مصال، فساس الإقليم. وانقطعت دعوته ودعوة أبيه من سائر الشام والمغرب والحرمين، وبقي لهم إقليم مصر.
ثم خرج على ابن مَصَال العادل بن السلار وحاربه وظفر به، واستأصله، واستبدّ بالأمر. وكان ابن مصال من أجلّ الأمراء، هزمه عسكر ابن السلار بدَلاص، وأتوا برأسه على قناة، وكان علي بن السّلار من أمراء الأكراد، ومن الأبطال المشهورين سُنّيّاً مسلماً حسن المعتقد شافعياً. خَمَدَ بولايته نائرة الرفض، وقد ولّي أولاً الثغر مدة، واحترم السلفي، وأنشأ له المدرسة العادلية. إلا أنه ذا سطوة وغسف، وأخذ على التهمة. ضرب مرة دُفّاً ومسماراً على دماغ الموفق متولي الديوان لكونه في =

وكنيته أبو المنصور، وقيل: أبو تميم.

بُويع سنة أربع وعشرين وخمسمائة. وقتل في قصره غِيلة، أصبح به مقتولاً بفراشه.

وقيل: قتل في سبيل لعب مجافة.

والله أعلم بذلك.

وكان سنّه يوم بويع سِنَ الصغير، وهو من المشترط ذكره فيمن لم يبلغ الاحتلام.

وولي بعده الفائز ابنه.

دولة الفائز بن الظافر(١)

واسمه محمد بن الظافر ابن الحافظ.

= أوائل عمره شكى إليه غرامة لزمته في ولايته فقال: كلامك ما يدخل في أذني. فبقي كلما دخل المسمار في أذنه يستغيث. فيقول: أدخل كلامي بعد في أذنك.

وقدم من إفريقية عباس بن أبي الفتوح ابن الملك يحيى بن تميم بن المعز بن باديس مع أمه صبياً، فتزوج العادل بها قبل الوزارة، فتزوج عباس وولد له نصر، فأحبه العادل، ثم جهز أباه للغزو، فلما نزل بلبيس ذاكره ابن منقذ، وكرها البيكار، فاتفقا على قتل العادل، وأن يأخذ عباس منصبه، فذبح نصر العادل في المحرم سنة خمسمائة وثمان وأربعين فتملك عباس وتمكّن.

وكان ابن نصر من الملاح، فمال إليه الظافر وأحبه، واتفق هو وأبوه عباس على الفتك بالظافر، ودعاه نصر إلى دارهم ليأتي متخفياً، فجاء إلى الدار التي هي اليوم المدرسة السيوفية، فشد نصر عليه فقتله وطمره في الدار، وذلك في المحرم سنة تسع وأربعين وخمسمائة. فقيل: كان في نصفه، وعاش الظافر اثنتين وعشرين سنة. ثم ركب عباس من الغد، وأتى القصر، وقال: أين مولانا؟ فطلبوه، ففقدوه، وخرج جبريل ويوسف أخوا الظافر، فقالا: أين مولانا؟ قالا: سلْ ابنك. فغضب وقال: أنتما قتلتماه، وضرب رقابهما في الحال.

(١) من مصادر ترجمته: الكامل في التاريخ من أحداث سنة (٥٤٩: ٥٥٠)، سير أعلام النبلاء (١٥/ ٢٠٥)، وفيات الأعيان (٣/ ٤٩١)، العبر (٤/ ١٥٦)، البداية والنهاية (١٢/ ٢٤٢)، تاريخ ابن خلدون (٤/ ٧٥)، خطط المقريزي (١/ ٣٥٧)، النجوم الزاهرة (٥/ ٣٠٦)، تاريخ ابن إياس (١/ ٦٦)، شذرات الذهب (٤/ ١٧٥).

وقال الذهبي في سير أعلام النبلاء: أن اسمه عيسى، فقال: الفائز بالله صاحب مصر أبو القاسم عيسى بن الظافر إسماعيل ابن الحافظ عبد المجيد بن محمد بن المستنصر بالله، العبيدي، المصري، لما اغتال عباس الوزير الظافر أظهر القلق ولم يكن علم أهل القصر بمقتله فطلبوه في دور الحُرَم فما وجدوه، وفتشوا عليه وأيسوا منه. وقال عباس لأخويه: أنتما اللذان قتلتما خليفتنا. فأصرا على الإنكار، فقتلهما نفياً للتهمة عنه واستدعى في الحال عيسى هذا ـ وهو طفل له خمس سنين ـ وقيل: بل سنتان. فحمله على كتفه، ووقف باكياً كئيباً، وأمر بأن تدخل الأمراء، فدخلوا. فقال: هذا ولد مولاكم، وقد قُتل عمّاه مولاكم، فقتلتهما به كما ترون، والواجب إخلاص النيّة =

وكنيته أبو الحسن.

وتوفي في السابع عشر جمادى الآخرة سنة خمسين وخمسمائة.

وولي بعده أخوه إسماعيل بن الظافر، الملقب بالعاضد.

دولة العاضد بن الظافر(١)

وكنيته أبو نزار.

= والطاعة لهذا الولد. فقالوا كلهم: سمعاً وطاعة، وضجوا ضجة قوية بذلك ففزع الطفل، وبال على كتف الملك عباس. ولقّبوه الفائز.

وبعثوا إلى أمه، واختلّ عقله من حينئذ، وسار يتحرك ويصرع، ودانت الممالك لعباس. وأما أهل القصر، فاطلعوا على باطن القضية وأقاموا المآتم على الثلاثة، وتحيلوا، وكاتبوا طلائع بن رُزَّيك الأرمني الرافضي والي المنية، وكان ذا شهامة وإقدام، فسألوه الغوث، وقطعوا شعور النساء والأولاد، وسيّروها في طيّ الكتاب سَخَّمُوه، فلما تأمله اطلع من حوله من الجند عليه وبكوا. ولبس الحداد، واستمال عرب الصعيد وجمع وحشد، وكاتب أمراء القاهرة وهيّجهم على طلب الثأر، فأجابوه. فسار إلى القاهرة، فبادر إلى ركابه جمهور الجيش وبقي عباس في عسكر قليل، فخارت قواه وهرب هو وابنه نصر، ومماليكه، والأمير ابن منقذ.

ونقل ابن الأثير: أن أسامة هو الذي حسّن لعباس وابنه اغتيال الظافر وقتل العادل. وقيل: إن الظافر أقطع نصر بن عباس قليوب. فقال أسامة: ما هي في مهرك كثير. ثم قصد عباس الشام من ناحية أيلة في ربيع الأول، فما كانت أيامه بعد قتل الظافر إلا يسيرة. واستولى الصالح طلائع بن رُزيك على ديار مصر بلا ضربة، ولا طعنة، فنزل إلى دار عباس، وطلب الخادم الصغير الذي كان مع الظاهر، وسأله عن المكان الذي دفن فيه أستاذه، فأعلمه، فقلع بلاطه، وأخرج الظافر، ومن معه من القتلى، وحملوا ناحوا عليهم، وتكفل طلائع بالفائز، ودبّر الدولة.

وجهّزت أخت الظافر رسلاً إلى الفرنج بعسقلان، وبذلت لهم مالاً عظيماً إن أسروا لها عباساً وابنه. فخرجوا عليه، فالتقاهم، فقُتِلَ في الوقعة، وأُخذت خزائنه، وأسروا ابنه نصراً، وبعثوه إليها في قفص حديد، فلما وصل، قبض رسولهم المال. وذلك في ربيع الأول سنة خمسين. فقطعت يد نصر، وضرب بالمقارع كثيراً، وقُصّ لحمه، ثم صلب، فمات، فبقي معلقاً شهوراً، ثم أُحرق. وقيل: تسلمه نساء الظافر، فضربنه بالقباقيب وأطعمنه لحمه. مات الفائز في رجب سنة خمس وخمسين وخمسمائة، وله نحو من عشرين سنة، وبايعوا العاضد.

(١) من مصادر ترجمته: سير أعلام النبلاء (١٥/ ٢٠٧)، الكامل في التاريخ من حوادث سنة (٥٥٥هـ)، وفيات الأعيان (٣/ ١٠٩)، العبر (٤/ ١٩٧)، البداية والنهاية (١٢/ ٢٦٤)، تاريخ ابن خلدون (٤/ ٧٦)، خطط المقريزي (١/ ٣٥٧)، شذرات الذهب (٤/ ٢١٩)، النجوم الزاهرة (٥/ ٣٣٤)، تاريخ ابن إياس (١/ ٦٧).

قال الذهبي في سير أعلام النبلاء: صاحب مصر العاضد لدين الله خاتم الدولة العبيدية أبو محمد عبد الله ابن الأمير يوسف ابن الحافظ لدين الله عبد المجيد بن محمد بن المستنصر، العبيدي، الحاكمي، المصري، الإسماعيلي، المدّعي هو وأجداده أنهم فاطميون. مولده سنة ست وأربعين وخمسمائة. أقامه طلائع بن رُزّيك بعد الفائز، فكان من تحت حَجْرِهِ لا حل لديه ولا ربط. وكان =

وهو آخر ملوك بني عبيد بالشام، ومصر، والحجاز في أيام/ العاضد هذا. [٧٨/ب]

وفي سنة أربع وخمسين وخمسمائة في جمادى الآخرة منها ظهرت النار بأرض الحجاز.

قال الشيخ الإمام الحافظ شيخ الحديث وإمام المؤرخين في زمانه شهاب الدين الملقب بأبي شامة في تاريخه: ظهرت في التاريخ المذكور، واستمرت شهراً وأزيد منه، وذكر كُتباً متوافرة عن أهل المدينة من ناحية...[1] تلقاء أُحُدٍ وإنها ملأت تلك الأودية، وكان يخرج منها شرر يأكل الحجارة. وذكر أن المدينة زلزلت بسببها، وأنهم سمعوا أصواتاً مزعجة قبل ظهورها بخمسة أيام، ثم انبجست تلك الأرض عن نار عظيمة صارت مثل الوادي العظيم طولها أربعة فراسخ في عرض أربعة أميال، والعمق قامة ونصف، تُسِيل الصخر حتى يبقى مثل الأُنُكِ، ثم يصير كالفحم الأسود.

وذكر أن من الناس من كتب لضوئها في الليل.

وكأن في كل بيت منها مصباحاً.

ورأى الناس سنامها من مكة.

قال شهاب الدين: وإن أهل المدينة لجؤوا في هذه الأيام إلى المسجد النبوي، وتابوا إلى الله تعالى، واستغفروا عند قبر النبي ﷺ مما سلف من ذنوبهم، وأعتقوا عبيدهم وتصدّقوا على فقرائهم.

وكانت وفاة العاضد يوم السبت العاشر من محرم سنة ست وسبعين وخمسمائة.

ومن غرائب أخبار الألقاب والكنى أن ملوك العبيدية بمصر أول دولتهم طلبوا من بعض الفضلاء أن يرسم لهم ألقاباً يلقّبون بها الملوك، فكتب لهم ألقاباً كثيرة، كان آخر ما كتب منها العاضد، فكان آخر ملوكهم العاضد.

= العاضد سَبَاباً خبيثاً مُتخلِّفاً... قال أبو شامة: ... أن نسبهم غير صحيح بل المعروف أنهم بنو عبيد من نسل القدّاح المجوسي الملحد. قال: وقيل: والده يهودي من أهل سَلَمِيّة. وعُبيد كان اسمه سعيداً، فغيّره بعُبيد الله لما دخل إلى المغرب، وادعى نسباً ذكر بطلانه جماعة من علماء الأنساب. ثم ترقّى وتملّك، وبنى المهدية.

قال: وكان زنديقاً خبيثاً، ونشأت ذريته على ذلك. وبقي هذا البلاء على الإسلام من أول دولتهم إلى آخرها. قلت: وكانت دولتهم مائتي عام وثمانياً وستين سنة، وقد صنّف القاضي أبو بكر الباقلاني كتاب (كشف الأسرار الباطنية) فافتتحه ببطلان نسبهم إلى الإمام علي.

(١) طمس بالمخطوط.

ذكر المماليك من الغز والأتراك الذين اتصلت أيامهم من بعد الشيعة إلى عهدنا

ولما ضعف أمر العبيديين من ملوك الشيعة بمصر والشام إلى عهدنا، وعجزوا عن ضبط الأطراف، وتملّكت الروم البلاد الشامية، وعظم احتياجهم إلى المال، فأجحفوا بالناس في الضرائب والمكوس والمظالم، خرج ملك ما بقي من الشام من أيديهم.

فكان أول من ملك مدن الشام من الأعاجم بعد ملوك الدولة السلجوقية وبني [١/٧٩] طولون، وبني طغج الملك العادل نور الدين أبو القاسم محمد بن زنكي. وقد/ كانت الروم استولت على كثير من بلاد الشام.

أما الساحل فبجملته أو أكثره من عكا، وصور، وبيروت، وعسقلان، وما اتصل بذلك.

وأما البر فكثير من جُملته بيت المقدس.

ولم يبق بين دمشق وبين بلاد الروم إلا مسيرة يوم.

وبدل النصارى في. . .[١] بالناس والاقتناع بالمغانم اليسيرة، وإفساد العدل في الأحكام ما عظمت له الفتنة، وانقطعت الطريق من مصر إلى بلاد الشام، فكانت على بعض طريق الحجاز من عقبة أيلة. . .[١] وذلك على عهد الفائز، والظافر من العبيدية وعلى عهد المستنجد وابنه من العباسية. فضبط البلاد الشامية لهذا العهد هؤلاء المماليك من أمراء الغز والأتراك. وكان أظهرهم في عنفوان كلب العدو على الشام، وطلبه في الاستيلاء على بلاد المسلمين الملك العادل نور الدين أبو القاسم محمود بن زنكي.

دولة الملك العادل محمود[٢]

كان هذا الملك العادل ذا جد في الجهاد وحماية الثغور.

---

(١) كلمة مطموسة في المخطوط.

(٢) من مصادر ترجمته: المنتظم (١٠/ ٢٤٨)، الكامل في التاريخ من سنة (٥٤٢: ٥٦٩)، سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٥٣١)، وفيات الأعيان (٥/ ١٨٤)، مفرج الكروب (١/ ١٠٩)، العبر (٤/ ٢٠٨)، دول =

وكان دار ملكه بدمشق.

وهو الذي خدمه العماد الأصفهاني قبل اتصاله بصلاح الدين يوسف بن أيوب. وفيه يقول يمدحه بقصيدته التي أولها:

لو حُفظت يوم النوى عُهُودها ما مُطلت بوصلكم وُعُودُها
ماذا جنت قلوبها حتى غدا في الناس من شوقكم خُلودُها
وما يراد من ردايا أنفسٍ يَدُ الهوى إلى الجوى تقودها
أما كفاها الوجد حتى حملت أعباء شوق بعدكم تؤدها
أما اشتفى منها الفراق واكتفى بما بها علام يستزيدها

ومنها في ذكر السلطان نور الدين:

وإنما يُحمد عيش بلدةٍ مالكها بعدله محمودها
معطي المذاكي ضمرت بطونها مع السبايا نهدت نهودها
مؤيد أموره بعزمةٍ من السماوات العُلى تأييدها
آثاره حميدة وإنما آراؤه بنصره عقيدها
/إن الورى بحبه وبغضه يعرف من شقيُّها سعيدها [٧٩/ب]
قد جاءكم نور من اللّه فمن به اهتدى فإنه رشيدها

وقوله وقد افتتح بلاداً وقلاعاً من جملتها الرّها:

أدركت في نيل الزمان المشتهى وبلغت من قبل الأماني المنتهى
وبقيت في كنف السلامة آمناً مُتكرّماً بالطبع لا مُتكرها
لا زلت فوق الدين في كنف العلى ذا عزة للعالمين بها البها
يا محيي العدل الذي في ظلّه في عدله رعت الأسود مع المها

= الإسلام (٢/ ٨٣)، تتمة المختصر (٢/ ١٢١)، أمراء دمشق (١٤٧)، البداية والنهاية (١٢/ ٢٧٧)، الجواهر المضية (٢/ ١٥٨)، تاريخ ابن خلدون (٥/ ٢٥٣)، النجوم الزاهرة (٦/ ٧١)، شذرات الذهب (٤/ ٢٢٨).

وقال الذهبي في سير أعلام النبلاء في ترجمته: نور الدين صاحب الشام، الملك العادل، ناصر أمير المؤمنين تقي الملوك، ليث الإسلام، أبو القاسم محمود بن الأتابك قسيم الدولة أبي سعيد زنكي ابن الأمير الكبير آقسُنقُر، التركي السلطاني الملكشاهي. مولده في شوال سنة إحدى عشرة وخمسمائة... كان بطلاً شجاعاً، وافر الهيبة، حسن الرمي، مليح الشكل، ذا تعبد وخوف وورع، وكان يتعرّض للشهادة، سمعه كاتبه أبو اليسر يسأل الله أن يحشره من بطون السباع وحواصل الطير.

محمود المحمود من أيامه ... لبهائك ضحك الزمان... [1]
مولى الورى مولى الندى محيي الهدى ... مُردي العدا............ [1]
آراؤه بصوابه معروفة ... وبمقتضاها دائر فلك النهى
كم زلّ في الحلم البصير وإنه ... ما زلّ يوماً في الأمور ولا سهى
يا من أطاع اللّه في أيامه ... متأوّباً من خوفه متأوّها
إن الملوك لهوا وإنك مَنْ غَدَا ... وبها للّه والملك يوماً ما لهى
صيّرت مدحك في البلاد قوافيا ... صار الغبى بما بليت...... [2]
يُهدى الثناء لك لا للطغاة وإنما ... في شكره فتحت لنا ولها اللها
فاسلم بتاج كرامة متتوجاً ... مستظهراً في ظلّه متنزها

وكانت أمور المسلمين تجري بينهم وبين عدو الدين في مجراها عندنا بالأندلس غالباً في الحرب تارة والسلم تارة أخرى، حسبما حكاه أبو الحسن بن جبير في رحلته عندما رحل من دمشق إلى عكا مجتازاً بالبلاد المتصيّرة إلى الإفرنج، وسيّرهم مع من يجاورهم من المسلمين.

وكان نجم الدين أيوب التركماني أبو الملك الناصر من كبار أمراء الملك العادل الذين يجالسونه ويظاهرونه، وكان محل إمارته تكريت.

وكان أخوه أسد الدين شيركوه من لباد الدولة وبينهم وافر وعصبيتهم جليلة، وبينهم ظاهرة، تجمعهم الأصول وتنفقهم النصول.

[٨٠/أ] وكان صلاح الدين بن نجم الدين أيوب خفيفاً على نفس الملك/ العادل وقريب المحل منه، يقف على رأسه في المجلس وقَلَّ أن يفارقه في حال من الأحوال ازدياناً لشيمه، واستحساناً لأغراضه، وافتقاراً إلى نجدته.

وكان مرشحاً للمراتب العالية، راقياً في درجات السعادة، موصوفاً بالأوصاف الجميلة.

وكان الملك نور الدين قد عين أسد الدين شيركوه أخا نجم الدين أيوب، وعم صلاح الدين، ووجهه بالجيوش إلى...[3] صاحب مصر والمتضى[4] عليها، فقد خنقها واضطر وزير العبيدي بمصر الذي يرجع إليه تدبير مُلكه ويُسمى شاور إلى الاستظهار على أسد الدين شيركوه بالإفرنج المجاورين لحدود أرضه بإيلياء،

---

(١) كلمات مطموسة بالمخطوط. (٢) طمس بالمخطوط.
(٣) كلمة غير مقروءة هذا رسمها: «مُاربه».
(٤) كذا ورد في الأصل «والمتضى».

وسواحل الشام، وكانت بينهما حروب عظيمة ومواقف شهيرة إلى أن وقعت بين السلطان الملك العادل صاحب الشام وبين شاور وزير الطائع صاحب مصر المهادنة على مال وهدايا التزمها شاور للملك العادل وانصرف عنه أسد الدين إلى حمص محل ولايته.

وكان الإفرنج أيام استعانة شاور بهم على الجيوش الشامية قد كشفوا البلاد المصرية، وتطلعوا على عوراتها، وعرفوا طرق مكائدها، فقوي فيها طمعهم، واحتشدوا واستكثروا، براً وبحراً، ورأوا أن لا صاد لهم عنها ولا مانع لهم من الاستيلاء عليها.

فتحركوا لمنازلة القاهرة المعزّية عاشر شهر صفر سنة أربع وستين وخمسمائة. ولما عجز شاور عن مدافعتهم، ورأى أن لا طاقة له بهم، داخل طاغية الروم ولاطفه، والتزم له ضرائب مُعجّلة ومؤجلة ودسّ له الوعد بما أطمعه وحرّك أمله، وطلبه بالتوقف والتنحي عن حوزته، وتفتير مخفته بخلال ما ينظر في أمره. وألحّ بالكتب على نور الدين، وهو يومئذ بحلب مستصرخاً مستنفراً مذكراً بحُرْمَةِ الإسلام، يناشده الله، ويسأله المبادرة إلى نصره، ويعرّفه ضيق العرصة، وأنه يعلّل الروم بالمطال، وترديد الأرسال، ولم يبق له جهد في الاحتيال، ولم تبق إلاّ الفضيحة بعظم ذلك على نور الدين. وأهمه وأقلقه ذلك فاستدعى أسد الدين شيركوه بن أيوب من حمص فوطئه من ليلته إلى...[1]، وخرج له عما أهمّه وشغل باله من أمر المسلمين بمصر، وخوّفه من فوات الأمر فيها، وعرّفه باضطراره إلى غنائه ووقوف نظر [٨٠/ب] عليه. فاعتذر بما يفتقر إليه ضمّ العساكر والاستعداد للعدو/ من الزمان.

فأطلق يده في الخزائن، وحكّمه في المال، واستلحاق الرجال، وعجّل له مائتي ألف. وخرج أسد الدين إلى الرحمية[2] فجمع التركمان وبذل المال، ولم تأت إلاّ أيام قليلة فعرض ممن اختاره وانتقاه خمسة آلاف فارس من أنجاد انتقاؤه، وأضاف إليه نور الدين من أمرائه، ومفرديه، ومجرّديه ألفي فارس، وتحرّك في رمضان من سنة أربع وستين.

فوصل مصر يوم الأربعاء السابع من شهر ربيع الآخر.

والتفت إليه جيوش مصر، فتظاهر العدد وبعد الأمد في العزيمة، ورأى العدو ما لا قِبل له به، فأحجم ورجع أدراجه إلى بلاده، وجيوش المسلمين تنال من أعقابه، وتأخذ عليه ثنايا شعابه. ولما وصل أسد الدين إلى مصر ومعه ابن أخيه

---

(١) كلمة غير مقروءة في المخطوط هذا رسمها: «ملد».

(٢) كذا في المتن، وفي هامش المخطوط: الرحبة.

صلاح الدين بن أيوب دخلا ومن معهما من كبار المماليك إلى الديوان، وخُلعت عليهم من خزائن العاضد الخِلع وتردد شاور الوزير إلى أسد الدين شاكراً يَدَه، وجرت على العساكر الضيافات، والأطعمة، والميرة، وفي أثناء مقام العساكر الشامية بظاهر مصر وقعت بين العاضد وبين أسد الدين شيركوه المراسلة الخفية أو بينه وبين صلاح الدين في إزاحة شاور المتغلب على أمره، وردّ الأمر إلى أسد الدين وتقليده الوزارة بمصر، وقال له كما قال الأول:

فإن كنت مأكولاً فكن خير آكل وإلاّ فادركني ولمّا أُمَزَّق

ولما تمّ العمل على ذلك والتوثق منه، نمى الخبر إلى شاور، فلم يحفل به شأن المغرورين، وركب إلى المحلة على عادته وليس معه إلاّ الصبية الوزارية، فاعترضه صلاح الدين بن أيوب ابن أخي أسد الدين في الأمراء النورية، فقبض عليه ووكّل به في خيمةٍ من خيامه بالعسكر.

ولما فشى الخبر واتصل بالعاضد في قصره عجّل من يقتضي قتل شاور وإنفاذ رأسه إليه.

ولم يوسع صلاح الدين عذراً في ذلك ففعل.

وكان قتل شاور يوم السبت السابع عشر من شهر ربيع الآخر سنة أربع وستين وخمسمائة.

وتقلّد أسد الدين وزارة العاضد، واستقلّ بأعباء أمره.

وصدر عن العاضد لأسد الدين منشور شهير عند الأدباء، ورواة الأنباء، تطرّز به المجالس وتزين به المحافل، وكتب العاضد بخطه في طُرَّته ما نصه:

[١/٨١] «هذا عهد لا عهد لوزير مثله/ وتقليد أمر رآك أمير المؤمنين أهلاً لحمله، والحجة عليك عند الله بها، أوضحت لك من مراشده، فخذ كتاب أمير المؤمنين بقوّة، واسحب ذيل الفخار بأن اعتزمت خدمتك إلى بُنُوّة النبوءة، واتخذت للعون سبيلاً، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها توكيدا، وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً»[١].

---

(١) ومما ترجم له الذهبي لمحمود بن زنكي في وصفه في سير الأعلام أن قال في وصفه نقلاً عن ابن الأثير في الكامل: كان أسمر له لحية في حنكه، وكان واسع الجبهة، حسن الصورة، حُلو العينين، طالعت السير، فلم أر فيها بعد الخلفاء الراشدين، وعمر بن عبد العزيز أحسن سيرة منه، ولا أكثر تحرياً منه للعدل، وكان لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرف إلاّ من ملك له قد اشتراه من سهمه من الغنيمة، ولقد طلبت زوجته منه، فأعطاها ثلاثة دكاكين، فاستقلتها، فقال لها: ليس لي إلاّ هذا، وجميع ما بيدي أنا فيه خازن للمسلمين.

وكان يتهجد كثيراً، وكان عارفاً بمذهب أبي حنيفة، لم يترك في بلاده على سعتها مَكْساً، وسمعت =

دولة أسد الدين شيركوه[١] بمصر

استقرّت ولاية شيركوه بالبلاد المصرية، وتحوّل من المحلة إلى سكنى دار الوزارة بالقاهرة المعزيّة.

وتلقّب أسد الدين بالملك المنصور، وهو أول ملوك بني أيوب من الغز بمصر.

كذا نسبه أبو العباس بن أبي حجلة فيما كتب إليّ به.

وفي ذلك يقول العماد محمد ابن. . .[٢] يُهنىء أسد الدين بما تصيّر إليه:

= أن حاصل أوقاته في البر في كل شهر تسعة آلاف دينار صورية. ثم قال الذهبي: كان دَيِّناً تقياً، لا يرى بذل الأموال إلاّ في نفع، وما للشُعَراء عنده نفاق، وفيه يقول أسامة:

سُلطاننا زاهد والناس قد زهدوا ... له، فكل على الخيرات منكمش

أيامه مثل شهر الصوم طاهرة ... من المعاصي وفيها الجوع والعطش

قال مجد الدين بن الأثير في نقل سبط الجوزي عنه: لم يلبس نور الدين حريراً ولا ذهباً، ومنع من بيع الخمر في بلاده.

ـ قلت: قد لبس خِلعة الخليفة والطوق الذهب ـ. قال: وكان كثير الصوم، وله أوراد في الليل والنهار، ويكثر اللعب بالكرة، فأنكر عليه فقير، فكتب إليه: والله ما أقصد اللعب، وإنما نحن في ثغر، فربما وقع الصوت فتكون الخيل قد أدمنت على الانعطاف والكرّ والفرّ. . .

قال العماد في «البرق الشامي»: أكثر نور الدين عام موته من البر والأوقاف وعمارة المساجد، وأسقط ما فيه حرام، فما أبقى سوى الجزية والخراج والعشر، وكتب بذلك إلى جميع البلاد، فكتب له أكثر من ألف منشور.

(١) من مصادر ترجمته: الكامل في التاريخ في سنة (٥٦٤)، سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٥٨٧)، مرآة الزمان (٨/ ١٧٣)، الروضتين (١/ ٢٥٤)، وفيات الأعيان (٢/ ٤٧٩)، مفرج الكروب (١/ ١٤٨)، المختصر (٢/ ٤٥)، دول الإسلام (٢/ ٧٧)، العبر (٤/ ١٨٦)، تتمة المختصر (٣/ ١١٥)، طبقات السبكي (٧/ ٣٥٢)، البداية والنهاية (١٢/ ٢٥٢)، تاريخ ابن خلدون (٥/ ٢٨١)، النجوم الزاهرة (٥/ ٣٨١)، حسن المحاضرة (٢/ ٣)، شذرات الذهب (٤/ ٢١١).

قال الذهبي في سير الأعلام في ترجمته: شيركوه الملك المنصور. فاتح الديار المصرية، أسد الدين شيركوه بن شاذي بن مروان بن يعقوب الدويني الكردي، أخو الأمير نجم الدين أيوب. مولده بدوين: بليدة بطرف أذربيجان مما يلي بلاد الكُرْج، ويقال في النسبة إليها: دُوَيْنِيّ. . . وكان أحد الأبطال المذكورين، والشجعان الموصوفين، تُرعب الفرنج من ذكره.

ثم جهّز نور الدين في جيش إلى مصر لاختلال أمرها وطمع الفرنج فيها، فسار إليها غير مرة، فسلك أولاً على طريق وادي الغزلان وخرج من عند إطفيح، وجهّز ولد أخيه صلاح الدين إلى الإسكندرية وجرت له أمور يطول شرحها، وحروب وحصار، وأقبلت الفرنج، وأحاطوا ببلبيس، واستباحوها في سنة أربع وستين، فاستغاث المصريون بنور الدين، فبعث إليهم أسد الدين، فطرد عنهم العدو، ودخل القاهرة وتمكّن، فعزم شاور وزير مصر على الفتك به، فبادر وبَتّه، واستقلّ بوزارة العاضد، ودان له الإقليم فبقي شهرين، وبغته الأجل بالخوانيق شهيداً في جمادى الآخرة سنة أربع وستين. فقام في الدَّست بعده صلاح الدين.

(٢) كلمة غير مقروءة في المخطوط هذا رسمها: «اله».

والحمد لله الذي صيّر مشارق الأرض ومغاربها التي ذكرها الله تعالى في كتابه العزيز من بعض ممالك المولى وولاياته، وأعلى بالظفر والتأييد راياته، وجعله من الذين أنزل فيهم آياته، وبلغه في أمله أقصى غاياته.

بالجد أدركت ما أدركت لا اللعب ... كم راحة ثبتت في راحة التعبِ
يا شيركوه ابن شاه الملك دعوة من ... نادى فَعَرَّفَ خير ابن بخير أبِ

ومنها بعد كثير:

عليك في مصر إذ دوت الخطوب بها ... أثبت منابرها بالشكر في الخطب
وحين صرت إلى الكفار فانهزموا ... نصرت نصر رسول اللّه بالرُّعُبِ
بالعزم والحزم قد أصبحت مرتقياً ... ملكاً يدوم مدى الأيام والحُقُبِ
أعدت نقمة مصر نعمة وغدت ... تقول كم نعمة للّه في النكبِ
اركبت رأس سنان رأس ظالمها ... عدلاً وكنت لوزرٍ غير مُرتكبِ
هو الذي أطمع الإفرنج في بلدِ ... الإسلام حتى سعوا للقصد والطلبِ

ولما تسنى أمر أسد الدين وعلا سلطانه وشمل إحسانه وركنت الدولة منه إلى جبل رست أركانه. لم يمنعه الدهر بما ناله، ولا هنّأه بما تأتى له، فطرقه الأجل [٨١/ب] يوم/ الاثنين الثاني والعشرين من جمادى الآخرة سنة أربع وستين وخمسمائة.

وتولى الأمر بعده ابن أخيه السلطان صلاح الدين.

دولة السلطان صلاح الدين(١)

وبعد ثلاث أيام من تعزية الأمراء بالعسكر لصلاح الدين عقدوا له الرأي والراية

---

(١) هو علم من أشهر أعلام الدنيا، طبقت شهرته الآفاق في العدل والإنصاف والجهاد والصبر والنصر، فلا يجهل قدره عدو ولا صاحب، مسلم ولا كافر، سائلاً الله أن يجعل ذلك في ميزان حسناته يوم القيامة ولا ينقصه منه شيئاً إنه وليّ ذلك، وأن يحشرنا مع رسول الله ﷺ على الطاعة التامة وحسن الختام آمين.
من الكامل في التاريخ أو من سير أعلام النبلاء، يمكنك أن ترى طرفاً من ترجمته ومن مصادر ترجمته: ديوان الإسلام (١٣١٥)، الأعلام (٨/ ٢٢٠)، شذرات الذهب (٤/ ٢٩٨)، النجوم الزاهرة (٦/ ٣)، سير أعلام النبلاء (٢١/ ٢٧٨)، الكامل في التاريخ من سنة (٥٦٤ : ٥٨٩)، وفيات الأعيان (٢/ ٣٧٦)، السلوك للمقريزي (١/ ٤١)، طبقات السبكي (٤/ ٣٢٥)، مرآة الزمان (٨/ ٤٢٥)، تاريخ الخميس (٢/ ٣٨٧).
وهو صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شاذي بن مروان، أبو المظفر الملك الناصر الشهير بصلاح الدين الأيوبي.

وأخلصوا له الولاء والولاية، وألزموا صاحب القصر بتوليته...[١].

وشرع في ترتيب الملك وتزيينه، ففضّ الخزائن على الأمراء، وبث الصلات في الخطباء والشعراء، حتى استخلص القلوب وبلغ فضله المطلوب.

وجعل التواضع بضاعته، وعَمّرَ بالخير يومه وساعته.

وكان بالقصر من كبار خُدَّام العاضد أستاذ كبير خصيّ يعرف بمؤتمن الخلافة.

فقال الشيخ ابن محمود في بعض ما قيّده:... وله في التدبير الذي يعود إليه بالإدبار إعداد والتذاذه، واجتمعت على حداه من أصناف صنائعه جذاذه، وشحذ حدّه وزعم أنه في مضاء مضاربه فولاذ، وتشمَّر، وتنمّر، ونال من كسرى ومن قُبَاذَة، وهل هو إلا مجمعة تؤلم أفذاذه.

وقد تآمر هو ومن شايعه وتابعه وبايعه على أن يكاتبوا الإفرنج ويضيّقوا على الأسدية، والصلاحية...[٢] فكتبوا له بالاستدعاء، والاستعداء وسيروها على سبيل الخفاء، وانتظروا في جوابها وصول الأعداء.

وكان مقصودهم أنه إذا سمع صلاح الدين بحركة الكافر خرج إلى قتالهم بالعساكر، فيسفكوا بالقاهرة دماء من تخلّف بها من أصحابه، ويخرجون وراءه لانتهابه.

وتقدّم الإفرنج على لقائه، ويأخذون أمامه، والمصريون من ورائه.

فافتضح أمرهم، وأُخذ الكتاب، وقال: دلوني على كاتب من الكتّاب.

فدُلّ على يهودي من الربط، فلما حضر عرّفه بما كان عليه من الرّبط، وأن الآمر به مؤتمن الخلافة، وأنه بريء من هذه الآفة، وحسن إسلامه وعُرف استسلامه، وثبت...[٣] إخفاء هذا الأمر، واكتتامه.

فاستشعر الخصيّ العصيّ، وخشي أن تشقه على شق العصا العِصِي، فما صار يخرج من القصر مخافة، وإذا خرج لم يبعد/ مسافة. [١/٨٢]

والسلطان صلاح الدين عليه مغضب وعنه مقصٍ لم يأمر فيه ببسط ولا قبض إلى أن استرسل واستبسل وزعم أن ما...[٤] من البشر العقيم نسل.

وكان له قصر في قرية يقال لها: الخرقانية بخرقة، ورقع ما يتسع عليه من

---

(١) طمس بالمخطوط قدره ثلاث كلمات.

(٢) طمس بالمخطوط.

(٣) طمس بالمخطوط.

(٤) كلمات مطموسة في المخطوط.

خرقة، فخلا فيه يوماً للذّته، ولم يدر أنه يوم ذلّته وانقضاء بضاعته بانقضاء دولته، فنهض إليه السلطان صلاح الدين من. . .[١] من حياته لباسه، وذلك في يوم الأربعاء الخامس والعشرين من ذي القعدة سنة أربع المؤرخة، فورد موارده من رداءة على أكدر منزع.

ولما قتل. . .[١] وثاروا، واضطربوا من إسعار السعير استعاروا، وقاموا يوم الخميس ثاني يوم قتله في جيش بجملة من أولى الحرابي سوداً في عريش، وطاشت الجوسية، وارتاحت إلى قبض الأرواح الريحانية.

وأقبل قابلهم، وأطلّ طلهم، وأبلّ وابلهم، وكانوا أكثر من خمسين ألفاً من كل أغبش أعبس، أحمّ أحمس ماجر أجرس.

وكانوا إذا قاموا على وزير قتلوه، واجتاحوه، وأذلوه، واستباحوه، واستحلوه.

فحسبوا أن كل بيضاء شحمة، وأن كل سوداء فحمة، وأن كل حمراء لحمة.

فقال أصحابه: هذا مبتدأ الرّوع وريعانه، وعنفوان العنف وعنوانه، ولا وجه للون ما هذا أوانه، وهذا الفرس وهذا ميدانه، وإنه موعد نصر هذا زمانه.

فهاجوا واتصلت الحرب بين القصرين، وأحاط بهم العسكرية من الجانبين، ودام الشر يومين حتى أفنى الأساجم بالحيين، وكلما لجأوا إلى محلة حرقوها عليهم، وجروا، وساحوا إليهم، وأخرجوا وأدلوا بالغي على منازلهم العزيزة، وأخرجوا ذلك يوم السبت الثامن والعشرين من ذي القعدة.

فأخلص السودان بعدها من الشدّة.

وفي هذه السنة المذكورة قبل قتل العاضد عبد الله الكامل وأخاه ابنيّ شاور بالقصر، وعمهما أخا شاور يوم الاثنين من جمادى الآخرة.

وذلك أنه لما قتل شاور عاذا بالقصر فكأنما نزلوا منه في قبر، ولو أنهم جاؤوا إلى أسد الدين سلموا، وامتنعوا، وعصموا، فإنه ساءه قتل شاور، وأمن بقتله ما حاذر.

هذا كله منقول من مختصر البرق.

[٨٢/ب] /وفي سنة خمس وسبعين وخمسمائة تداعت جميع الإفرنج من جميع الجهات وأقبلوا إلى منازل الديار المصرية، فحلوا بمدينة دمياط مستهلّ صفر من السَّنَة، في أمم لا تحصى عدداً ولا تحصر مدداً.

وكان صلاح الدين قد بادر إليها بابن أخيه مع الأمراء، وأقام بالقاهرة، ينفذ

(١) طمس بالمخطوط.

الأمداد، والأزواد، ويكمل الاستعداد. واتصل الحصار إلاّ أن الله عزّ وجل ثبت أقدام المسلمين فصابروا الأعداء، وجعلوا أنفسهم وأرواحهم الفداء.

وطال على الجيوش الكافرة الأمد، وكان رحيلهم في الحادي والعشرين لشهر ربيع الآخر من العام المذكور.

وقد كان الملك نور الدين شرع في حشر العباد ولفظ البلاد، وحثّ داعي الجهاد:

«ألا إنّ الله عزَّ وجلَّ كفى وعده بالنصر وأنجز ووفّى».

وفي ذلك يقول العماد يخاطب صلاح الدين من قصيدة أولها:

يروقني في المَهَامه فَهْضُهَا ... ومن قدود الحسناء هيفها
ومن عيون الظباء أبْتَرُها ... ومن خصور الملاح أنحفها
ما سقمي غير سُقم أعينُها ... ثم الشفا في الشفاةَ أو سفها
يُسكرني فرقف يشعثها ... لحظ الطلا لا للطلا وقرقفها

ومنها يخاطب صلاح الدين:

هذا بسلب الفؤاد يظلمني ... وذا بقتل العِداه يُنْصِفُها
الملك الناصر الذي أبدا ... بعزّ سلطانه يُشَرِّفُها
قام بأحوالها يدبرها ... حُسْناً وأثقالها يخففها
بعدله والصلاح يَعمُرُهَا ... وبالندا والجميل يكنفُها
من دنس الحاضرين يدحضُها ... ومن خبات العدا ينظفُها
حكم في ماله العفاة فما ... ينفذ فيها إلا تصرفُها

ومنها أيضاً:

يوسف مصر الذي ملاحته ... جاءت بأوصافه تُعَرِّفُها
كتب التواريخ لا يزيّنها ... إلا بأوصافه مصَنِّفُها
/ آيات دين الإله ظاهرة ... فيك وبنبيكها مُصْحَفُها [١/٨٢]
كم جحفل للعدو دنى لجب ... بالصف منه... [(١)] صَفْصَفُها
وحُطت دمياط إذا أحاط بها ... من برجوم البلاد يقذفها

قال المؤرخ:

(١) كلمة غير مقروءة لتراكب حروفها نظراً لكثرة مدادها.

في سنة أربع وسبعين وخمسمائة، أسقط السلطان صلاح الدين مكوس مكة، شرّفها الله، المضروبة على الحمام في كل سنة، وكانت من أشنع الضرائب، وأعظم المصائب، فإن النصارى القاصدين إلى حجّهم بيت المقدس تحت الصغار والمذلّة لم يكن الجعل المضروب على رؤوسهم يبلغ جزءاً من أجزاء الضريبة المفترضة على رؤوس المسلمين، إذ كانت اثني عشر ديناراً ذهباً على كل رأس من صغير أو كبير، أو ذكر أو أنثى، لا يحاشى منه الفقير المُدقِع، ولا العديم المفلس، ولا المسكين المتكفف، ولا الزاهد المتعفف، بل يلزم أداء ذلك، ويناله في التوقف العذاب من العصائب والتعليق والضرب الشديد.

فإذا كانت إحدى الكبر في الدين، وغريبة في العار عديمة القرين، كان مقرر هذه الوظيفة الخبيثة التي له وزرها ووزر من عمل بها بعده، قد علّلها بمصالح البيت العتيق وصدقاته، وبركات خُدّامه، ومعاونة مجاوريه وقطّانه، وكأنه لاحظ في ذلك غرض الشريعة الكريمة من اختيار الطيب لله، والتماس الحلال في أجناس ما يتقرّب به إليه وقوله: «لا يقبل الله إلا طيباً»، «ولا يقبل الله صدقة من غلول، ولا صلاة بغير طهور». فكان الحجاج يلقون في ذلك مشاق تتفطر لها الأكباد، ويلعن مقررها على البلاد والعباد.

وقد بالغ أبو الحسن بن جُبير في رحلته في استبشاع تلك الحوادث، وكان له عناء كبير في قصيدة رفعها إلى الملك حسبة وتقرباً، فرفع الله ذلك على يد صلاح الدين وعوّض الحرم بمال وأوقاف وصدقات باقيات.

وعَيَّنَ للحرم عُشر بلاده، ثمانية آلاف أردب تُوصل كل سنة إلى ساحل جِدَّة.

فكان ذلك من مناقبه الشريفة.

وفي سنة سبع وستين وخمسمائة: صرف السلطان صلاح الدين خطبة البلاد، ودعوة الخلافة إلى المستضيء بالله من العباسية بين يدي موت العاضد آخر ملوك العبيدية.

وسبب ذلك يقتضي الشرح في خبر طويل.

ولما توفي العاضد حسبما شاء الله جلس صلاح الدين للعزاء، وأغرب في [٨٢/ب] الحزن والبكاء/ ومشى بين يدي جنده. . .(١) فوق القباء.

وانقرض ملك بني عُبيد في هذه السنة والملك لله.

فكانت مدة ملكهم مائتي سنة، وإحدى وسبعين سنة ما بين بيعة جدهم عُبيد الله بسجلماسة إلى وفاة العاضد هذا بمصر.

(١) كلمة مطموسة.

ودخل صلاح الدين القصر، فاحتاط على أهل العاضد وولده، وألزمهم محلاً غيره تجري عليهم به النفقات.

وضمّ رجال بيتهم المتوقع تشوّفهم فاعتقلهم في دور تسعهم، ورتّب لهم الجرايات، وعزلهم عن النساء حتى لا ينمو نسلهم، ولا ينهض بيتهم، فانقرضوا لأمد قريب وعهد غير بعيد.

وأطلق الحرائر، وأعتق أمهات الأولاد، وتصرّف في المُرقّون، وأفضل على المماليك وملأ أيديهم من مخبئات الخزائن.

ولم يكن ما حصل عليه من مقتنى بطول المدة ليدركه الحصر من ذخيرة ملابس نفيسة، ومصوغات تِبْرٍ وفضةٍ، وبسط، وفرش، فأسرف في العطاء وأطلق البيع بعد ذلك فيما لم ير الاغتباط به.

فذكر العماد أن الكتب التي أُلقيت في خزانة العلوم كانت عشرين ألف مُجلّد، بها الخطوط المنسوبة، والضنائن المجلوبة.

وقسّم على رجال دولته الديار، وتملّك ما كان للدولة العُبيدية وأشياعها من العقار، وعفى الآثار.

وفي سنة ثمان وستين وخمسمائة توفي السلطان العادل نور الدين بن محمود بدمشق يوم الأربعاء حادي عشر شوال رحمه الله.

وقدّم خاصته ولده الملك الصالح[١].

دولة الملك الصالح بن العادل[٢]

وهو إسماعيل أبو الفداء.

---

(١) قال الذهبي في أواخر ترجمته لصلاح الدين في ذكره لوفاته في سير أعلام النبلاء: مرض بحُمى صفراوية، واحتدّ المرض، وحدث به في التاسع رعشة وغيبة، ثم حُقِنَ مرتين، فاستراح، وسربَ، ثم عرق حتى نفذ من الفراش، وقضى في الثامن عشر. توفي بقلعة دمشق بعد الصبح من يوم الأربعاء السابع والعشرين من صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة.
ومحاسن صلاح الدين جمّة، لا سيما الجهاد، فله فيه اليد البيضاء ببذل الأموال والخيل المثمنة لجنده. وله عقل جيد، وفهم، وحزم، وعزم. قال العماد: أطلق في مدة حصار عكا اثني عشر ألف فرس. قال: وما حضر اللقاء إلا استعار فرساً، ولا يلبس إلاّ ما يحل لُبْسُهُ كالكتان، والقطن. نزه المجالس من الهزل، ومحافله آهلة بالفضلاء. يؤثر سماع الحديث بالأسانيد، حليماً، مقيلاً للعثرة، تقياً نقياً، وفياً صفياً، ولا يغضب، ما ردّ سائلاً، ولا خَجّلَ قائلاً، كثير البرّ والصدقات، أنكر عليّ تحلية دواتي بفضة. فقلت: في جوازه وجه ذكره أبو محمد الجويني. وما رأيته صلّى إلاّ في جماعة.

(٢) من مصادر ترجمته: سير أعلام النبلاء (٢٢/ ١٣٤)، الكامل في التاريخ من سنة (٥٦٩ : ٥٧٧). =

وكان يومئذ صبياً لم يبلغ الاحتلام.

دخل تحت ما شرطناه.

ووقفوه للناس محروق الذوائب مشقوق الجنب، حاسراً، حافياً، ثم أجلسوه للناس في الإيوان الشمال على الدَّست بين يديه يعبثون في شعورهم، وصدورهم، ووجوههم، إلى أن فُرغ من مواراته. وحضر أولو أمره، والمتبرّعون بالوفاء لأبيه، والمقرضون له أحسن القرض في ولده، والملتزمون لعهود نعمته، وهم شمس الدين بن المقدم. وكمال الدين ريحان بن صالح بن العجمي. والشيخ إسماعيل أمير بيت المال. وحضر القاضي كمال الدين.

[١/٨٤] وأُحضرت المربعة الكريمة، وقد رفض الجزع، وغيّبوا الدموع، وأظهروا/ التجلّد والصرامة.

فتحالفوا على أن تكون أيديهم مساعدة، وعزائمهم متعاقدة، وآراؤهم واحدة. وأن شمس الدين بن المقدم مقدم العسكر وإليه المرجع في الورود والصدور.

واتفقت الآراء على نقل ولد السلطان وهو الملك الصالح إلى دار المُلك بحلب لمنعتها، وبعدها من جهة التقية، فكان ذلك.

ورحل السلطان بعد أن...[١] دمشق...[١] فأقام بها شمس الدين بن المقدم بالجيش. وجمال الدين ريحان. والقاضي كمال الدين الشهرزوري، وكان نافذ الحكم، صائب السهم، وبه رفع الملك الصالح الأمير كمشتكين، و...[١] ابن العجمي ووزيره.

وولّي الدين الخازن، وغيرهم من خواص أبيه.

وجدّوا السير حتى سبقوا الخبر إلى قلعة حارم فملكوها واستقلوا بذروتها.

فلما بلغ صلاح الدين الخبر أعمل الحركة إلى دِكي فدخلها يوم الاثنين آخر شهر ربيع الأول من السنة...[٢] أصحابه إلى أن ملكها بعد محاورة اختصرناها،

= قال الذهبي في سيره في ترجمته: السلطان الملك الصالح عماد الدين أبو الجَيْش إسماعيل ابن الملك العادل محمد بن أيوب وابن شاذي صاحب دمشق... تملك بُصرى، وبعلبك، وتنقلّت به الأحوال، واستولى على دمشق أعواماً، فحاربه صاحب مصر ابن أخيه، وجرت له أمور طويلة، ما بين ارتفاع وانخفاض. كان قليل البخت، بطلاً، شجاعاً، مهيباً شديد البطش، مليح الشكل، كان في خدمة أخيه الأشرف، فلما مات الأشرف توثب على دمشق وتملّك، فجاء أخوه السلطان الملك الكامل وحاصره وأخذ منه دمشق، ورده إلى بعلبك.

(١) كلمات مطموسة.

(٢) موضع النقط كلمات مطموسة.

وأشاع صلاح الدين أنه إنما وصل الشرقية الملك الصالح وحفظه وكفالته وضبطها له وأنه أحق بصيانته، وأولى بوزارته، وتحرّك إلى حمص يريد حلب.

ولما اتصله خبره بالمديرين أمر الملك الصالح شمر، والدفاعة، وبنوا على قراعة وأرسلوا إليه معنفين، ومن الانقياد إليه . . .[1] وكان الرسول منهم قطب الدين بن حسان، فقال للملك الناصر: هذه السيوف التي مَلّكتك مصر هي التي تعيدك إليها.

فحلم عنه السلطان، واحتمله، وذكر أنه وصل لترتيب الأمور، وسَدِّ الثغور، وتربية ولد نور الدين.

فلم يقبلوا ذلك.

ولما وصل حلب، وافق كَلَبَ البرد، وشدّة الثلج، ورأى الأمور بخلاف ما ظنّه، فقفل أدراجه إلى مصر، وقد مهّد البلاد الشامية وقرر مصالحها. واستقرّ الملك الصالح بحلب إلى وقت قدّره الله له.

وفي مستهلّ رجب سنة ست وسبعين[2] وخمسمائة تجهّز صلاح الدين أخاه فخار الدين شمس الدولة بورنشاه بن أيوب من مصر إلى بلاد اليمن.

وكان فخر الدين والياً بقوص، واتصل نجد مسرجل من أهل اليمن شاعر . . .[3] فكان يمدحه ويغريه بتملّك اليمن حتى يوفر عليه ما عزمه.

فخرج بجيوشه إلى مكة أعزّها الله، وطوى الحجاز إلى اليمن، وافتتح زبيد، وعدناً، وتعز، وسواها، وملك اليمن وهزم ملوكها، واستولى عليها.

وكان باليمن رجل خارجي استولى على البلاد يدّعي مذهب القرامطة/ وينتمي [٨٤/ب] إلى صاحب مصر الفاطمي، ويتستر بالإسلام، قتل خلقاً كثيراً، وشقّ بطون الحوامل، وذبح الأطفال.

ثم مات، وتخلّف ولده بعده، ففعل أفسد مما فعله أبوه، وبنى على قبره قُبّة عظيمة صفّح حيطانها بالذهب والجواهر النفيسة وقناديل الذهب، وستور الديباج، بحيث لم يعمل في الدنيا مثلها.

ومنع أهل اليمن من الحجّ إلى الكعبة، وأمرهم بالحجّ إلى تلك القبّة.

---

(١) كلمة غير مقروءة.

(٢) في المخطوط: سنة ست وتسعين. وهو تحريف، والتصويب من السياق حيث إن صلاح الدين توفي قبل ذلك التاريخ، وفي الكامل أنه أرسل جيشه إلى اليمن سنة (٥٧٧).

(٣) كلمات غير مقروءة.

فكانوا يحملون إليها من الأموال في كل سنة ما لا يحصى، ويطوفون بها، ومن لم يفعل ذلك قتله.

وأقام على الفسق والفجور، وسفك الدماء، وذبح الأطفال، وسبي النساء. فلما فتح شمس الدولة اليمن قتل هذا الخارجي، وكان اسمه عبد...[١]، وهدم القبّة، وأخذ ما فيها من المال، والجواهر، والآنية، والأمتعة، فكان ذلك قدر الستمائة حمل، ونبش القبر فأحرق عظام الخارجي.

وفي أوليات سنة ثنتين وسبعين وخمسمائة خرج السلطان صلاح الدين إلى الجهاد، وقاتل من يليه من الكفار بمدينة عسقلان. وخيّم ببلبيس إلى جمادى الآخرة منها.

وكان للعدو نيل من أثقاله وحمولته، ثم استأنف الحركة، وقد بلغه أن الروم نازلوا حِصن حارم من أحواز حماة، واتصل الغزو وتتابع الجد وخلص لله العزم، ففتح الله عليه، وأسر من البلاد على يديه مثل: طبرية، عكا، الذنب، معليا، إسكندرية، تينيس، مونس، الناصرة، الطور، صفورية، الفولة، خبنين، زرعين، دمنهورية، بلابيسان، سبطة نابلة، اللجون، زنجا، سنجل، السرة، يافا، أرسوف، قيسارية حنفا، صفد، قلعة أبي الحسن، جبل خليل، بيروت، جميل، مجدل، يابا، مجدل، حماة، الداروم، غزة، عسقلان، تل الصافية، التل البرج، الأطرون، جيب جبريل، جبل الخليل، بيت لحم، قد الرملة، قرشا، القوص، وباهر، مس السلع، عفر السقيف، الكرك، وحبلة، اللازقية، صميون، مونسة، قلعة العد، الجماهريين، بالنطس، بكاس، الشعر، برزنة، رفساد، بعراس، صفد، كوكب.

وكفى بفتح بيت المقدس فتحاً شهيراً، وذكراً جميلاً، وأثراً كبيراً[٢].

ووقفت من كلام الشيخ محمد بن محمد بن محمود الأصفهاني رحمه الله في هذه الفتوح:

على ما يشفي الفصول، ويشهر منه القدر، إذ قال:

[١/٨٥] وقد رشح إلى غرضه بذكر التواريخ ما نصه: / ولولا التواريخ لضاعت مساوىء أهل السياسة الفاضلة، ولم تكن المدائح بينهم وبين المدائح الفاضلة، ولقلّ الاعتبار بمسالمة العواقب وعقوبتها، وجهل ما وراء صعوبة الأيام من سهولتها، وما وراء سهولتها من صعوبتها، فأرّخ بنو آدم بيومه.

---

(١) الاسم غير مقروء في المخطوط.

(٢) يقطع المؤلف الحديث عن ذكر صلاح الدين لغرض أنه يريد أن يجعل فتحه للقدس تاريخاً جديداً ثم يعود إلى ذكره بعد أن يمدحه بما هو أهله إن شاء الله.

وكان أول من اشترى الموت بنفسه، وقام النزع مقام سوية، ثم أرّخ الأوّلون بالطوفان الذي ملأ الأرض وأغرقها، ثم بالعام الذي بلبل الألسن وفرّقها. وأرّخت الفرس أربعة تواريخ لأربع طبقات من ملوكها، أولهم: كل شاه، معنى هذا الاسم ملك الطين. . .(١) مرجع الفرس بأنسابها، وعليه ينسق عقد حسابها. وهي الآن تؤرخ بيزدجرد آخر ملوكها، وهذا الذي خرّب الإسلام سام ديوانه، وأطفأ نور الله بيت نيرانه.

وأرّخ اليونانيون من قلس أبي الإسكندر والي قلوبطرة آخرهم، وهؤلاء المسمون الحنفاء، وهم الصابئون.

وأرّخ الروم بالإسكندر لعظم خطره، وشهرة أمره.

وأرّخ النبط بالعراق، والقبط بمصر، بتواريخ موجودة في الكتب التي خلّدوها، والأزياج التي رصدوها.

وأرّخ اليهود بأنبيائهم وخلفائهم، وبعمارة البيت المقدس وخرابه على ما اقتضاه نقل أوائلهم، وآبائهم.

وكانت العرب قبل ظهور الإسلام تؤرخ بتواريخ كثيرة، فكانت حِمْيَرْ تؤرخ بالتبابعة ممن يلقب بذي وبهي بقيل.

وكانت غسان تؤرخ بعام السَّدِّ حين أرسل الله عليهم عرم السيل.

وأرّخت العرب اليمانية بظهور الحبشة على اليمن، ثم بغلبة الفرس عليها.

وأرّخت معد بغلبة جُرْهُم العماليق، وإخراجهم عن الحرم، ثم أرّخوا بعام الفساد، وهو عام وقع فيه بين قبائل العرب تنازع في الديار فتنقلوا منها وافترقوا عنها، ثم أرّخوا بحرب بكر، وتغلب ابني وائل، وهي حرب البسوس، ثم أرّخوا بحرب عبس وذبيان ابني بيض، وهي حرب داحس والغبراء، وكانت قبل المبعث بستين سنة، ثم أرّخوا بعام الخناق.

قال النابغة الذبياني:

فمن يك سائلاً عني فإني من الفتيان في عام الخناق

وأرّخوا بعده من مشاهير أيامهم وأعوامهم بعام المخانق، وعام الزنائب/ ويوم [٨٥/ب] ذي قار، وبحرب الفِجار، وهي أربع حروب ذكرها المؤرخون وأسندها الراوون. . .(٢) به قبل الإسلام بحلف الفضول منصرف قريش من الفِجار.

(١) كلمة غير مقروءة هذا رسمها: «جالسه».

(٢) ثلاث كلمات متراكبة الحروف لزيادة المداد بها.

وبحلف المطيبين وهو قبل حلف الفضول، وبعام الفيل وهو الجارودي. . .[١].

ولتاريخ الإسلام بعده خرج إمام الجمعة فطويت الصفحة، وجفت الأقلام، وأظهر الله على الأديان الدين القيم، ونسخ تاريخ الهجرة كل تاريخ مُقَدَّم، فأمن وقع الخلاف الواقع في تواريخ الأمم، وجبّت الهجرة ما قبلها جَبَّ الأنوار للظُّلَم، ورفع الله الناس بعضهم ببعض، واستدار الزمان كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض، ووقتت هذه الهجرة الوقت الذي أمر به أمر الإسلام ويومه الذي ما ولدت الليالي مثله من بينها الأيام، وعامها العام الخاص بالفضل، وكل ما بعده يعد من عوام الأعوام.

وأنا أرّخت بهجرة ثانية تشهد للهجرة الأولى بأن أمدها بالقيامة مقرون، وأن موعدها الموعد الصحيح غير المدفوع، هذه الهجرة هي هجرة الإسلام إلى بيت المقدس وقائمها صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن أيوب، وعلى عامها يحسن أن يبنى التاريخ وينسّق، ويسفر عن أهلها داء أدى المداد وتنشّى. وهذه الهجرة هي أقوى الهجرتين، وهذه الكرّة بقوّة الله أقوى الكرّتين، فإن العرب كانت إذا تناهت في وصف الرجل بالقوة قالت: كأنه كُسِر ثم جُبِرَ[٢].

والحق أن نقول: إن أطول الحياتين حياة المرء إذا مات ثم نشر، والعيان يشهد أن أمنع السورين ما عُمِّرَ بعد أن ثغر، والفرق بين فتح الشام في هذا العصر وبين فتوحه في أول الأمر فرق يتبين تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر.

فإن الشام فتح أولاً والعهد برسول الله ﷺ غير بعيد، والرَّحى ما كاد يتعطل في طريقه من السماء إلى الأرض بريد، والعيون التي شاهدت رسول الله ﷺ تسلّ سيوفها من أجفانها، والقلوب التي شهدت مواقف معجزاته أوثق بخبره منها في الفتح منها بعيانها، ورسل عالم الغيب إلى عالم الشهادة بالآيات المؤتلفة مختلفة/ ونجدات السماء إلى الأرض متصلة بالملائكة منزلة مسومة ومرجفة، وقد أخبرهم سيدنا وسيدهم أن الأرض زويت له مشارقها ومغاربها، وأنه سيبلغ ملك أمته. . .[٣] المرحومة ما ضمت عليه جوانبها، والروم حينئذ بغاث ما استقرّ، والفرس يومئذ رخمٌ [١/٨٦]

(١) كلمة غير مقروءة هذا رسمها: «وفرمي».

(٢) لا أقول شيئاً في هذا، غير أني أقول: هذا رأيه وله كل تقدير واحترام، وربما كان معه بعض الحق أيام أن قال هذا القول حيث لم تكن قد عادت الكَرّة وذهبت القدس بعد ذلك مرات وها نحن الآن نعيش ما لا يفلح فيه مقال، فأي الهجرتين أقوى وأي الهجرتين أبقى، وأي الهجرتين أثبت، وأي الهجرتين أبقى في سمع الزمان، وأي الهجرتين ألمع في بصر التاريخ، وأي الهجرتين أرسخ في نفوس المؤمنين، نعم نَجِنُّ والقدس معنا لصلاح الدين، لكن الهجرة الأولى هي الأولى وهي الهجرة.

(٣) كلمة غير مقروءة.

ما استبصر، والحديد ما طوّعت أشكاله الرائعة ولا طبعت أسيافه هذه القاطعة، وما نسجت أثوابه هذه المانعة، والبروج لا تعرف إلاّ مشيدة لا مجلدة، والمنجنيقات لا يتوثب اليوم ما يتوثب من خُشُبها المُسَنَّدة، والأفران لا تتراجم بالنيران المزكاة، والأسوار لا تتناطح بالكباش المشلاة، وبصائر السلف الصالح رضي الله عنهم تقاتل بها ولو كانوا غرلاً، والواحد منهم يسوق عشرة كما يساقون إلى الموقف عُراةً غُرْلاً، وكانوا أحرص على الموت منه على البقاء، وكان شوقهم إلى لقاء الله باعثهم على لقاء الأعداء بذلك اللقاء.

والشام الآن قد فُتِحَ حيث الإسلام قد وهى العظم منه واشتعَلَ الرأس شيباً، وأُهريق شبابه، واستبشر أديمه. وقد عاد غريباً، وقد طلع شرف الستمائة وهي للملك المعترك، وكثرت معاثره بما نصب من الشَّرَك، وأخلق الجديدان[1] ثوبه وكان القشيب، وذوى غصنه وكان الرطيب، ونصلت كفّه وكانت الخضيب، وطال الأمد على القلوب فقست، ورانت الفتن على البطائر فطمست، وعرض هذا الأدنى قد عمي وأصم حبه، ومتاع هذه الحياة قليل قد شغل عن الحظ الجزيل في الآخرة كسبه، والكفّار قد خشنت عرائكهم واتسقت ممالكهم، واستبصروا في الضلال، واستبضعوا للقتال، وخرجوا من ديارهم يخبطون غاشية الموت، ونفروا من وراء البحر يطلبون أمامهم من البرانسية الصوت، وقاتلوا جنداً ورعية، واستباحوا الأنفس غير متورعين، فلا عجب أن ترى استباحة رعيه، وزيّن لهم الشيطان ما كانوا يعملون، وأمدهم في طغيانهم يعمهون، شقراً كأنما لفحت وجوههم النار وهم فيها كالحون، زرقاً كأن أعينه من حديد فهم في قلوبهم وعيونهم مكافحون، قد نزع الله الرأفة من قلوبهم ونقلها إلى عروقهم، وعذّب بهم لما يريد من تعذيبهم، واشتعلت نار جهنم في فحم ذنوبهم تشهيد المردة من مردتهم.

[٨٦/ب] ويدعى الناس بالعون على الاطلاع/ على...[2] ومضت ملوك الإسلام، ومضت أيامهم...[2] فتنازع الناس عليها طرائف الاحتلام وحاربوا هذا العدو الكافر، فما أثروا فيهم، فكانوا محاربين كمسالمين، وبذلوا جهدهم، فما نقول إنهم مظلومون وما بالعجز ذمّهم ظالمين. اللهم غفراً ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرّعد: الآية ٣٨]، وما على القدر عتاب.

والأيام تمخض وتمطل بالزبدة، والسور تتلى إلى أن تأتي بالسجدة، والناس

---

(١) أي الليل والنهار، وهو هنا يريد بكل هذا الكلام المسلمين لا الإسلام، وهذا حال زمانه فما باله بزماننا.

(٢) كلمات غير مقروءة.

يريدون الخروج ولكن ما أعدّوا له العدّة، والعذر على كل لسان لكل قوم مدة. فلما أراد الله الساعة التي جلاّها لوقتها وأظهر الآية التي ألاحت لها فنقول: هي أكبر من أختها، أفضت الليالي الماطلة إلى فجرها، ووصلت الدنيا الحامل إلى تمام شهرها، وجاءت بواحدها الذي تضاف إليه الأعداد، ومالكها الذي له السماء خيمة والحُبُك اكتساب والأرض بساط، والجبال أوتاد، والشمس دينار القَطْرُ دراهم، والأفلاك والأملاك خَدَمٌ والنجوم أولاد، صلاح الدنيا والدين ومهما دعونا له فإن الله قد سبق إليه كوناً، ورأينا بين مُنَانا وبين كرمه بوناً، فهو سبحانه بالنوال منا بالسؤال، والكريم بكرم الله مجزيّ والساكت عن الدعاء مكفيّ، وإن قُلنا: أحسن الله إليه فقد قال: ﴿لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: الآية ٣٠].

وإن قلنا: جزاه الله خيراً بالإحسان، فقد قال: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴿٦٠﴾﴾ [الرَّحمٰن: الآية ٦٠].

وإن قلنا: هداه الله سبيله، فقد قال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ﴾ [العَنكبوت: الآية ٦٩].

وإن قلنا: لا ضيّع الله عمله، فقد قال: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٩٥].

وإن قلنا: لا جعل الله لدهر عليه سبيلاً، فقد قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محَمَّد: الآية ١٧].

كل مسؤول سائل   في معاليه قد كمل
لا يسأل فيه سائل   سبق الجود ما سأل
ولتصبح تأملا   تجد اللّه قد فعل

ونعود إلى ذكره، أعزّ الله ذكره، فلا كفتح على يديه فتح، وما هو فتح واحدٌ ما هو إلاّ فتحان، فتح الدم ذائب، وفتح الذهب جامد، فما البلاد التي فتحها فاتحاً
[١/٨٧] القرائح ما على يد الجود من قبل المدائح./ والناس أكيس من أن يمدحوا ما لم يروا عنده آثار إحسان، وإنّا لنرجوا أن نكون قد كتبنا مدحه من الصادقين من الذين آمنوا أن يكونوا معهم، وأن نكون قد كُتبنا مع المحسنين لأنّا أحسنا، وصف إحسان الله إلى عباده، ولم يقطع بنا ما قطعهم، وإنّا وإن كُنّا رعاياهم لنرى أنفسنا ملوكاً ونرى الملوك وهم لنا سوقة ومنه في القلم ولسنا نُسميه قصراً وإن جذع أنفه ولكنا نركبه كما ركب قصير العصى إلى وصف هذا السلطان لندري وصفه، ونقول للقلم إذا فاخره السيف: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾ [الكوثر: الآية ٣].

ونزيده إذا أوردناه وصف مولانا: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾﴾ [الكوثر: الآية ١]

على أن هذا القلم يلزم الأدب لذكره أعلاه الله فينكس رأسه، ويقبّل بين يديه قرطاسه.

ولست ببعيد في تقييد هذه المفاخر وتشييد هذه المآثر من رجال الطعن والضرب الذين فتحوا بين يديه وأوجبوا الحق عليه، بل حقي من حقوقهم أوجه وأوجب، وقلمي من سيوفهم أضرى وأضرب، وهو من رماحهم أقصى، وأخطب، ومن مهامهم أمجى وأنجب، ومن فيهم أكسى وأكسب، ومن حيادهم أسرى وأسرب، ومدادي من نفعهم أغلى وأغلب، وقرطاسي من راياتهم أجلى وأجلب، وسيوفهم قد أغمدت وجردت منه ما لا يغمر ولا يغمد، وآثار السيف من الجراح قد تبرأ وآثاري من الذكر لا تمحى، ولا تخمد، وما السيف أسوى ضربه من لسانيا، فكل خبر خبّر به غيري يموت بموته وينقطع بث الأثر بانقطاع صوته، والذي أخبر به أنا سندُ روض يزهو إذا أقلعت الأيام سُحُباً، ونجم يبدوا إذا أفاض الشفق على فضة النجوم ذهباً، وقولي يُذكر وينسى كل فعل وفاعله، لا قول يؤثر مهما عاش اليوم عالمه، ثم لا يأتي في غد إلاّ جامله، فميزة الكتب تهب الأعمار الثانية، وتفاخر الألسن القائلة بها الأيدي الكاتبة الفانية، فانظروا إلى إيوان كسرى وسينية البحتري في روضته تجدوا الإيوان قد خرت شعياته، وعَفُرت شرفاته، وتجدوا سينية البحتري قد بقي بها اسم كسرى في ديوانه، أضعاف ما بقي شخصه في إيوانه، وإنما تراوح/ بين الأرصاب [٨٧/ب]
الغادية.........[١]

ثم إن الروم كما قال أبو المطرف: ...[٢] وعادت الكرة وبلا ضعف فأجلبت بخيلها ورجلها، فصارخت من كل أوب وتنادت من كل صقع ودرب، فيها حَميّة الضلال وغشاوة الامتعاض فبذلوا نفوسهم وأموالهم، وفارقوا أوطانهم وبلادهم، وجعلوا وجوههم إلى الشام في عددٍ لا يعطاه العد، ولا يدركه الحصر، ولا يرومه الحساب، ما بين جزيرتين، برطانية المعروفة بالأنكشيرة...[٣] في الأرض الكبيرة، وهما جزيرتان عظيمتان، عَرْض إحداهما سبعمائة ميل، وملوكها أنجز ملوك الروم وأوسعها، ذات يدٍ يمنى بالأندلس، سلطان هذه الأمة إلى غالب وتسمى أمته الأقليش كبّه الله وأهلكه، مظاهراً صاحب إفرانسية، وملك الأرض الكبيرة، والبر المتصل وإليه ينسب أهل الشرق الروم فيقولون الإفرنج، تغيير اللفظ الفرنسي المنسوبون إلى إفرانسية، وهو ملك رومة، والعريقين واليونانيين من الأمم القديمة، وكان محل

---

(١) استرسل في كلام مطموس يصف السيف والقلم.
(٢) كلمات مطموسة.
(٣) كلمة مطموسة.

ملكهم برومة حيث الوادي الأعظم قعره بألواح الصُّفر أميالاً عديدة، وإليه ينسب تاريخ الصفر وما كان القسيس الأعظم خليفة المسيح الذي يدّعوه أنه إلاههم، تعالى الله عن قولهم.

ثم ارتحل الملك منذ زمان إلى مدينة بريش، وانتقل القسيس أيضاً أيام الحروب إلى مدينة بناها وانفرد بها تسمى بنيون، ومدينة بريش المذكورة قد خرجت عن حد التمدن في طرف الأقراط يقال: إنه يدخلها في كل يوم مائة ألف عجلة، وخمسمائة عجلة ببيض الدجاج إلى أسواقها.

ويقال: إن ملك المشرق أو المغرب كتب إليه: من فلان صاحب كذا وكذا وسمى بلاده ومدائنه بما جرت به العادة في مخاطبات/ الروم، فكان الفرنسيس يقول [٨٨/أ] بلسانه عند تعديد البلاد ما معناه أن صاحب بريش يعني. . .[(١)] وإنصافه إليهم ذلك الأمان، وهو قريب منهم إلى غيرهم من المراكشية وملوك الجزر المرمانية والبنادقة، وقبرص، وسردانية، وصقلية، وغير ذلك ممن يتصل بحدود الثلج من روم القسطنطينية العظمى ركب القوم ظهور الأفواج وأكتاب الحجاج، ورمق الإسلام منهم بالداهية الثاني على حال تفرّق الكلمة، وضيق الموطن وإعواز الغلات، وبعد ما بين بغداد ومصر وذلك الثغر، فنزلوا مدينة عكا مما افتتح المسلمون وحتى حاضرة البحر وأعظم المراسي أوردهم. . .[(٢)].

وقد كان صلاح الدين رحمه الله أخذ بالحرم في أمرها، وشاور أرباب الرأي والخبرة والجهاد في شأنه، فوقع العمل على إمدادها بالأقوات، والعدد والآلات، فملئت بأنجاد الرجال وأولي الغنى من الفرسان، وأبطال الأمراء والمماليك، وندب إليها الفعلة والصنّاع، وأرباب الحيل الحربية من النفوط والمجانيق وقاداح النيران في الأدْهَان.

وتوالت الأمم الكافرة تهوي إليها كسحاب الجراد، وعوارض قَطْرِ العماد، واضطربت المحلات عليها، وحفرت الخنادق، وبنت على محلاتها الأسوار، وحاربوا المسلمين بها حرباً لم يعهد بمقدم الزمان ولا حديثه. واحتشد إليهم المسلمون، وخيّم بهم السلطان صلاح الدين بإزائهم.

واتصلت الأيام وقلّما يجدون في الروم عثرة أو يلقون إلى إغاثة البلد سبيلاً، وطال بالمسلمين المقام وهلكت الجيوش وبعدت الأموال، ومَلّ الناس، وتعذرت الأقوات، وتعددت الوقائع والفتكات والحروب والسجال، وتمادى ذلك ثلاثة أعوام، وبعد لأهل البلد المحصور القوت، وفرّ إلى العدو من أهله كثير وتُعرِّف منهم حال الشدة.

---

(١) كلمة مطموسة. (٢) كلمة غير مقروءة.

فألحّ على القتال، وبلغ الصبر من المحصورين مداه وطلبوا الأمان لأنفسهم، فتغالى العدو عليهم إلى أن اتفقوا على تسليم/ النفوس والتزام المسلمين بعد ذلك [٨٨/ب] مال كبير، وأسرى الروم ممن ببلادهم. . . . . .[١] الذي عليه المسلمون ببيت المقدس، ودخل النصارى المدينة، وعزل أهلها، وأحيط بهم وبدأ الملزوم في أمرهم، فأقسموهم وقتلوهم في صعيد واحد بمرأى من جيوش المسلمين رحمة الله عليهم. ثم تحرك العدو بعد ذلك المحل نحو الساحل وأجفل المسلمون بين يديه وبادر بهدم مدينة عسقلان وغيرها من القلاع لعجزهم عنها.

وكلما هدموا بلداً أسرع الإفرنج في جبره، إلا أن الله تعالى تدارك بلطفه المرجو في الشدائد، فملّت النصارى، وحنّت إلى أوطانها، وسبحان الله الذي يقول: ﴿فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النّساء: الآية ١٠٤].

فوقع الصلح بين الطائفتين والمهادنة بين الأمّتين، وأخذت النصارى في الانصراف بعد أن ثقفت البلاد، واستكثرت العُدد والإعْدَاد، وفاز المسلمون بما استرجوه وتهنوا بما افتتحوه.

وتأخر أمر عكا إلى أيام الأشرف خليل بن قلاوون ففتحها، ومحى أثرها فهي اليوم خراب بلقع.

وأخبار صلاح الدين وفضله وجهاده مأثورة.

وكان ممدوحاً مقصوداً، مدح بما لم يمدح به ملك، فمن ذلك قصيدة أبي الفتح محمد بن محمد بن عبيد الله التعاويذي، وهي قوله:

حتى متى أرضى في هواك وتغضب وإلى متى تجني عليّ وتعتبُ[٢]

حدّثني شيخنا أبو الحسن بن الجيلب رحمه الله عن شيوخه، وقد جرى ذكر صلاح الدين: وما ينقل عنه يوم فتحه القدس من أمره أمراء بني أيوب برفع أواني ماء الورد وصبها على الصخرة المقدسة به وغسله إياها بوجهه ولحيته.

ومثل ذلك من شواهد صحة عقيدته وكرم قصده.

فقال: كان لصلاح الدين فرّاش له يدعى محمد، وكان يدعوه باسمه على الأيام

---

(١) عبارة مطموسة.

(٢) فذكر قصيدة طويلة تزيد على الثمانين بيتاً، وقد ورد بها طمس كثير، ولم أر كثير بال أو عظيم فائدة في ذكرها فآثرت حذفها نظراً لما ورد بها من الطمس. وقد استغرقت هذه القصيدة من باقي [ص ٨٨/ ب] حتى أوائل [ص ٩/ ب] وآخر بيت في القصيدة هو قوله:

فِي نِعْمَةٍ أيامُهَا لا تَنْقَضِي وَسَعَادَةٍ سُلْطَانُهَا لا يُغْلَبُ

فيقول: يا محمد افعل كذا، واصنع كذا، وفي بعض الأيام دعاه: فرّاش، اصنع كذا، فاستراب الفراش ذلك وظنه لتغيّر عليه، وشكى ما به لبعض أولى الدلالة على صلاح الدين، فلما نمّي إليه حديثه، ضحك وقال: والله ما له عندي إلاّ ما عرفه، ولكني على غير طهارة فكرهت أن أتلفظ باسم رسول الله ﷺ وأنا على غير طهر(١).

ومن غرائب صلاح الدين وشواهد سعادته وعلى علوّ درجته عند الله ما حكاه الإخباريون: من أن رجلين من اليهود غيرا أشكالهما واستظهرا بجميع أحوال المسلمين، وسكنا المدينة المشرّفة بمحل غير بعيد من الضريح النبوي المقدس.

وسوّل لهما الشيطان أن يحتفرا نقباً من محلهما إلى الضريح، ويذهبا بمن فيه إلى أرض من كلفهما ذلك من ملوك الأمم، وصارا يذهبان كل يوم بتراب ليلة يتلفانه في خارج المدينة إلى أن لم يبق بينهما وبين الضريح إلاّ مقدار يسير، ورأى صلاح الدين رسول الله ﷺ في المنام يقول له: تداركني.

فأهمّه ذلك، وبادر إلى المدينة يؤكد بالنظر فيما حدث في منامه، فتفقدت الدور وأعمل البحث فعثر على القضية، وقتل الرجلان الخبيثان شر قتلة، وأمر أن يحفر حول الضريح حفير عميق وأن يبنى بالحجر والرصاص حتى ارتفع الطمع عن ذلك.

[١/٩١] وكانت وفاة/ السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله غروب يوم الأربعاء السابع والعشرين من صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة رحمة الله عليه.

وخلف جملة من الولد، فقامت بالأمور بعده، فكان كما قال الشاعر(٢).

دولة أولاد صلاح الدين

وخلف صلاح الدين بمحل وفاته . . .(٣) ولده الملك الأفضل نور الدين عليّاً. وتملّك مصر ولده الملك العزيز عماد الدولة عثمان.

وتملك حلب ولده الملك الظاهر غياث الدين أبا الفتح غازي واشتغل أخوه الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب بما بشرقي البلاد من الفرات والولايات، واستتاب فجبى فارقين، ودمياط وحران والرّها، وكان السلطان الملك الناصر صلاح

(١) ليس معنى هذا أن هذا حكماً شرعياً، وإنما هو تنزّهٌ من الرجل رحمه الله وتورّع وزهد غير مكلف به، وإنما شدّة حب رسول الله ﷺ وإكرام له منه رحمه الله.
(٢) ثم ذكر ثلاثة أبيات مطموسة لم يظهر منها ما يفيد معنى.
(٣) ثلاث كلمات مطموسة.

الدين يدعو لأخيه هذا في الكلمة بعده، وكان ملازماً لدرب الصيد قُبيل...[1] فلما قفل السلطان دمشق انصرف هو إلى الكردستر...[1] فتوفي السلطان في غيبته واستقل ولده برتبته.

واستقل أخوه الثاني سيف الإسلام باليمن كما تقدم ذكره.

فاستشفوا بلالة الدنيا بعده بين تنازع وموافقة، ومحاربة ومسالمة ومجاملة، بحسب ما سوّغتهم الأقدار، وما منحهم الليل والنهار.

وكانت بينهم ملوك حسنت منهم الأخبار، وحمدت الآثار.

ولولا أن يطول الكتاب لتعددت منهم ومن أمثالهم الأسفار.

وقد حكى أبو الحسن بن سعيد الإمام الرحال ما كان من لحاقه بالبلاد: أنه لقي بالقاهرة كمال الدين بن العديم رسول سلطان حلب الملك الناصر، وإنه استصحبه محمد فقوله ليُطرف به الملك الناصر، وأنه أنشده لما دخل عليه، وذلك في حدود سنة ثمان وأربعين وستمائة، قصيدته التي أولها:

جُدْ لي بما لعق الخيال من الكرا   لا بد للضيف المُلم من القِرَى

/ فقال السلطان كمال الدين: هذا رجل عارف قد ورى بمقصده من أول كلمة، [٩١/ب] ثم قال فيه أبيات:

والناصر الملك الذي عزّ ساقه   أبداً تكون مع العساكر عسكرا

ملك رأيناه لفتح يلزم لامه   والجمع من أعدائه متنكرا

فعظم استطراف السلطان لهذه المقاصد، وأثنى عليه، ثم وصل فقال:

الدين أصلحه وعَمَّ صلاحه   الدنيا، وأصبح ناصراً ومظفرا

هو كان كنيته غدت موصوف عمه   من يريه والوصف منه مقررا

وكأنما الأسماء قد عرضت على   علياً قبل وجوده فتخيرا

فقال السلطان: كيف ترون؟!

واستعاده.

فقال له عون الدين العجمي، وكان كاتب الإنشاء استنباط ما سمع الملوك بمثله يا خوند، ثم قال:

من آل أيوب الذين هُمُ هُمُ   ورثوا الندا والبأس أكبر أكبرا

أهل السياسة والرئاسة والعُلى   بسيوفهم حلو الذرى سمع الذرى

(١) موضع النقط كلمة غير مقروءة.

سم العداة على حياة فيهمُ لا تعجبن كذاك أساء الشَّرَا
كادوا يقيلون العداة من الرحى لو لم يمدوا كالحجاب العثيرا
جعلوا خواتم سمرهم من قلب كل معاند عد المثقف خنصرا
لو لم يخافوا فيه سَارٍ نحوهم وهبوا الكواكب والصباح المنبرا

وهي طويلة.

ثم استجلسه السلطان، وسأله عن بلاده، ومقصده بالرحلة.

فأخبره أنه جمع كتاباً في الحلى البلادية والحلى العادية، المختصة بالمشرق، وأنه سماه: «المشرق في حلى المشرق»، وجمع مثله وسماه: «المغرب في حلى المغرب». فقال: نعينك بما عندنا من الخزائن، ونُوصل إلى ما لا عندنا مثل خزائن الموصل وبغداد وتصف لنا المغرب بخدم على عادتهم.

فقال: لمولاي بذلك إنعام وتأنيس.

ثم قال له السلطان مداعباً: إن شعراءنا عندنا ملقّبون بأسماء الطيور، وقد اخترت لك لقباً يليق بحسن صوتك وإيرادك الشعر، فإن كنت ترضى به، وإلا لم يعلمه غيرنا وهو/ البلبل[1]. [٩٣/أ]

فقال: قد رضي المملوك يا خوند.

فتبسّم السلطان وقال مداعباً: اختر واحدة من ثلاثة:

إما الضيافة التي ذكرت في أول شعرك.

وإما جائزة القصيدة.

وإما إحسان التسمية.

فقال: يا خوند، المملوك ممن لا يختنق بعشر لقم فكيف بثلاثة؟

فطرب السلطان وقال: هذا مغربي ظريف. ثم أتبعه من الدنانير والخلع الملوكية، والتراقيع بالأرزاق ما لا يوصف.

ولقي بحضرته عون الدين العجمي، وهو بحر لا تنزفه الدلاء.

والشهاب التعلقري[2] الشهير الذكر.

---

(١) سقط الرقم [٩٢أ،ب] من الترقيم في الصفحات، فيلاحظ، ونبدأ بالرقم المتمم للكلام وهو [٩٣/أ].

(٢) كذا جاء رسمه بمتن المخطوط، وبالهامش تصحيح مع علامة استفهام، فربما كان الكاتب غير متأكد نصه: «التلعفري؟».

والتاج ابن شقير.

وابن تسهيم الموصلي.

والشرف بن سليمان الأربلي.

وطائفة من بني الصاحب.

ثم تحول إلى دمشق ومصر، فجلس السلطان المعظم ابن الملك الصالح بدمشق، وجلس بخلوته.

قال صاحبنا أبو العباس بن أبي حجلة في موضوع وجهه إلى من بالبلاد ما نصه:

آخر ملوك مصر من بني أيوب المعظم توران شاه ابن الملك الصالح أيوب[1].

وكانت مدة ملكه المعظم إحدى وسبعين يوماً، ثم قتل.

وكان السبب في قتله: أنه لما بلغته وفاة أبيه الملك الصالح وصل من مصر كيفاً واستقل بملك مصر، فساءت سيرته، وأخذ في إبعاد مماليك أبيه، وتقريب الذين وصلوا معه من المشرق، فعند ذلك اجتمع جماعة من مماليك أبيه واتفقوا على قتله، ودخلوا عليه وفي أيديهم السيوف مجرّدة فهرب إلى برج من خشب كان في خيمته، وأغلق بابه عليه، فرموا فيه النار وأحرقوه، فخرج أمامهم من البرج وقصد البحر، فأدركوه به، وضربوه بالسيوف، فرمى بنفسه في البحر فتبعوه، وقتلوه في البحر.

فمات رحمه الله يوم الاثنين السادس والعشرين من المحرم سنة ثمان وأربعين وستمائة.

قال القاضي شهاب الدين بن فضل الله: ثم بعد ذلك اتفق الأمراء، وملكوا أم

(١) من مصادر ترجمته: مرآة الزمان (٨/ ٧٨)، ذيل الروضتين (١٨٥)، تاريخ مختصر الدول (٢٦٠)، المختصر في أخبار البشر (٣/ ١٨١)، كنز الدرر (٧/ ٣٨١)، دول الإسلام (٢/ ١١٦)، سير أعلام النبلاء (٢٣/ ١٩٣)، العبر للذهبي (٥/ ١١٩)، تاريخ ابن الوردي (٢/ ٢٦٢)، الوافي بالوفيات (١٠/ ٤٤١)، فوات الوفيات (١/ ٢٦٣)، طبقات السبكي (٨/ ١٣٤)، البداية والنهاية (١٣/ ١٨٠)، النجوم الزاهرة (٦/ ٣٦٤)، شذرات الذهب (٥/ ٢٤١).

وقال الذهبي في ترجمة سير أعلام النبلاء: ولد بمصر وعمل في نيابة أبيه، ثم تملّك بحصن كيفا، وآمد، وتلك البلاد، وكان أبوه لا يختار أن يجيء لما ملك مصر، كان لا يعجبه هَوَجُهُ ولا طيشه، وسار لإقدامه الأمير الفارس أقطاي. وسار به يتحايد ملوك الأطرف من نحو من خمسين فارساً على الفرات وعانة، ثم على أطراف السماوة، وعطشوا فدخلوا دمشق، وزينت له، ثم سار منها بعد شهر، فاتفقت كسرة الفرنج عند وصوله وتيمن الناس به، فبدا منه حركات منفرة وترك بحصن كيفا ابنه الملك الموحد صبياً، فطال عمره، واستولت التتار على الحصن. فبقي في مملكة صغيرة حقيرة من تحت يد التتار إلى بعد السبعين وستمائة.

خليل سرّية الملك الصالح اسمها: شجرة الدُّر.

وحلفوا لها، واستحلفوا جميع العساكر المصرية والشامية، ورتّبوا الأمير عز الدين أيبك التركماني أتابك العسكر.

ثم تزوّجت الأمير عز الدين أيبك المذكور وكان مملوك زوجها الملك الصالح. وخلعت نفسها من الملك وسلّمته إليه في شهر ربيع الآخر من السنة المذكورة.

وتسمى الأمير عز الدين أيبك التركماني بالملك المعزّ.

واستقلّ بالملك من التاريخ المذكور، فكان أول ملك من الترك.

[٩٣/ب] / قلت: ويأتي في الحديث عنه إن شاء الله.

دولة خاتون شجرة الدُّر(١) بمصر والشام وما إلى ذلك من بلاد الإسلام

وشجرة الدُّر ليست ممن دخل تحت شرطنا، وهو ذكر من بويع قبل الاحتلام

(١) قال الأستاذ عمر رضا كحالة في كتابه أعلام النساء في ترجمتها (٢/ ٢٨٦): شجرة الدجر أم الخليل الصالحة: من شهيرات الملكات في الإسلام، ذات إدارة، وحزم، وعقل، ودهاء، وبرّ، وإحسان، ملكها الملك الصالح في أيام والده، واستولدها ولده خليل، ثم تزوجها، وصحبته ببلاد الشرق، ثم سارت معه إلى جسر الكرك، ثم قدمت معه إلى البلاد المصرية، فعظم أمرها في الدولة الصالحية، وإليها غالب التدبير في أيام زوجها ثم في مرضه، وكانت تكتب خطاً يشبه خط الملك الصالح فتعلم على التوقيع.

قال صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي في تاريخه: شجرة الدّر، أم خليل الصالحية، كان يحبها الملك الصالح حبّاً عظيماً، ويعتمد عليها في أموره، ومهماته، وكانت بديعة الجمال ذات رأي وتدبير ودهاء وعقل، ونالت من السعادة ما لم ينله أحد في زمانها. ولما مات الملك الصالح كتمت موته، وجمعت الأمراء وأرباب السلطان، وقالت: السلطان يأمركم أن تحلفوا له أن يكون الملك من بعده لولده الملك المعظم تورانساه، فأجابوها إلى ذلك وأقسموا لها الأيمان بتنفيذ ذلك الطلب، ثم باشرت الحكم، وأخذت توقّع عن السلطان مراسيم الدولة إلى أن وصل تورانساه إلى المنصورة، وأرسل إليها يهددها، ويطالبها بالأموال، وعملت على قتله، وذلك: أرسلت إلى بعض البحرية في سابع المحرم سنة ستمائة وثمان وأربعين هجرية، فقتلوه. ولما قتل وقع الاتفاق على تولية شجرة الدّر السلطنة، فتولتها، وقبّل لها الأمراء الأرض من وراء الحجاب. فكانت تاسع من تولى السلطنة بمصر من جماعة بني أيوب، وذلك في الثاني من صفر سنة ثمان وأربعين وستمائة. وجعلوا عز الدين أيبك الصالحي التركماني أتابك عسكرها.

ولما تمّ لها الأمر في السلطنة فرّقت الوظائف السنية على الأمراء، وفرقت الإقطاعات الثقال على المماليك البحرية وأغدقت عليهم بالأموال والخيول وأرضتهم بكل ما يرضي. وساست الرعية أحسن سياسة، فرضي الناس عن حكمها خير رضاء. أما الأمير عز الدين أيبك مدبر المملكة، فكان لا يتصرف ولا يقطع في أمر إلاّ بعد موافقتها واستشارتها ومعرفة رأيها فيه وإرادتها. وكانت تصدر =

من ملوك الإسلام، حاشى وكلا، فإنما تعدّ فيمن بايعه أبطال السروج من ذوات

= المراسيم وعليها توقيع شجرة الدّر بخطها باسم: والدة خليل. وخُطِبَ في أيام الجُمع باسم شجرة الدُّر على منابر مصر والشام، فكانت الخطباء تقول بعد الدعاء للخليفة: واحفظ اللهم الصالحة ملكة المسلمين عصمة الدنيا والدين ذات الحجاب الجميل، والستر الجليل، والدة المرحوم خليل زوجة الملك نجم الدين أيوب. وضربت السُّكة باسمها، ونقش عليها: «السكة المستعصمية ملكة المسلمين الصالحية والدة الملك المنصور خليل».

وبلغ من سلطنتها أن أطلقت الملك فرنسيس ملك الإفرنج بعد مراسلات كثيرة، واشترطت عليه أن يسلم دمياط للمسلمين، فسلمها الفرنج بعد أن ظلت بيدهم أحد عشر شهراً وتسعة أيام، وعلى أن يحمل أموالاً مقررة، ثم توجه إلى بلاده بعد أن أصدر أمراً إلى الفرنج بدمياط يحملهم على تسليمها إلى المسلمين. وكانت شجرة الدر من ربّات البرّ والإحسان، فأوقفت مدرسة عرفت بمدرسة شجرة الدّر، وحماماً عرف بحمام الستّ. ولما بلغ الخليفة المستنصر بالله أبا جعفر وهو ببغداد، أن أهل مصر قد سلطنوا عليهم امرأة، أرسل يقول لأمراء مصر: أعلمونا إن كان ما بقي عندكم بمصر من الرجال من يصلح للسلطنة، فنحن نرسل لكم من يصلح لها، أما سمعتم في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا أفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة»؟. وأنكر عليهم إنكاراً عظيماً، وهددهم وحضّهم على الرجوع عن توليتها مصر.

فلما بلغ شجرة الدّر ذلك خلعت نفسها من السلطنة برضاها من غير إكراه بعد أن حكمت بالديار المصرية نحو ثلاثة أشهر إلا أياماً. وأشار القضاة والأمراء بأن يولوا عز الدين أيبك في السلطنة، وأن يتزوج بشجرة الدّر، فتزوج بها، ثم تولى السلطنة. فكان أول من تولى من ملوك الترك ولقب: «الملك العزيز»، وذلك في آخر ربيع الآخر سنة (٦٤٨هـ)، واستولت شجرة الدّر عليه في جميع أحواله، ثم عملت شجرة الدّر على قتل زوجها الملك العزيز أو المعز أيبك. وذلك أنه بلغها أن زوجها الملك المعز أيبك يريد أن يتزوج بنت الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، وقد عزم على ذلك، وأنه ربما عزم على إبعادها أو إعدامها، لأنه سأم من حجرها عليه، واستطالتها، فعاجلته، وعزمت على الفتك به، وإقامة غيره في الملك.

وطلبت شجرة الدر صفي الدين إبراهيم بن مرزوق وكان بمصر، فاستشارته، ووعدته بالوزارة، فأنكر عليها ونهاها عن ذلك، فلم تصغ إلى قوله. وطلبت مملوكاً للطوشي محسن الجوهري الصالحي وعرضت عليه أمرها ووعدته ومنّته إن قتل المعز. ثم استدعت جماعة من الخدام واتفقت معهم، فلما كان يوم الثلاثاء (٢٣ من ربيع الأول) لعب المعز بالكرة ومن معه، وصعد إلى القلعة آخر النهار، وأتى الحمام ليغتسل، فلما خلع ثيابه، وثب عليه سنجر الجوهري، والخدام، فرموه وخنقوه. وطلبت شجرة الدّر ابن مرزوق على لسان الملك المعز. فركب حماره وبادر، وطلع القلعة من باب السر، فرآها جالسة، والمعز بين يديها ميت، فأخبرته الأمر، فعظم عليه جداً فاستشارته فقال: ما أعرف ما أقول، وقد وقعت في أمر عظيم، ما لكِ منه مخلّص. ثم طلبت الأمير جمال الدين بن ايْدُغدي بن عبد الله العزيزي، وعز الدين أيبك الحلبي، وعرضت عليهما السلطنة، فامتنعا.

فلما ارتفع النهار شاع الخبر، واضطربت الناس. وأما شجرة الدّر، فإنها امتنعت بدار السلطنة، هي والذين قتلوا الملك المعز أيبك. وطلب المماليك المعزية هجوم الدار عليهم، فحالت الأمراء الصالحية بينهم وبينها حمية لشجرة الدّر. فلما غلبوا مماليك المعز منهم ومنها أمنوها وحلفوا لها =

الفروج وممن خدمته القضاة والعلماء. . .[١]، وباكرت أبوابه بالحضور وتعبيد الأمور، ومن ذوات البظور.

وممن استخدم صفير الأقلام وسمد الرمام، وجرد العراب وبيض الصباح، من ذوات الإحراج.

وكان الحاج يطوف وبيوت العبادة ترتب بها الصفوف، وقدر الدنيا عند الله معروف.

ومن جهل وفاته ومكانه فطرفه مطروف وعن باب الله لقلّة الشكر مصروف.

جعلنا الله ممن افتكره، ونعم الله عليه فشكره، وممن راح ميدان الرضى عنده وابتكر.

= أنهم لا يتعرضون لها بسوء. فلما كان يوم الاثنين (٢٩ منه) أخرجت من دار السلطنة إلى البرج الأحمر، فحبست به، وعندها بعض جواريها وقبض على الخدام.
واقتسمت الأمراء جواريها، واستمرت شجرة الدُّر بالبرج الأحمر بقلعة الجبل. والملك المنصور علي ابن الملك المعز أيبك ووالدته يحرضان المعزية على قتلها، والمماليك الصالحية تمنعهم عنها لكونها جارية أستاذهم. ووجدت مقتولة، مسلوبة، خارج القلعة، يوم السبت في الحادي عشر من ربيع الآخر، فحملت إلى التربة التي كانت بنتها لنفسها بقرب مشهد السيدة نفيسة، فدفنت بها. ولشجرة الدر مآثر وأوقاف على وجوه البرّ والإحسان معروفة بها.

(١) كلمة غير مقروءة.

دولة المماليك من الترك بمصر والشام

نقول بعون الله وقوّته:

قد ذكرنا أن آخر الملوك من بني أيوب كان الملك المعظم ابن الملك الصالح، واستندنا في ذلك إلى من يوثق به في المعرفة بملوك بلاده، ويجري من الصواب على سداده.

وأن الملك المعزّ أيبك التركماني أول من ملك من الأتراك بحكم النيابة عن الخاتون شجرة الدُّر أم ولد الملك الصالح.

ثم بتقديمها إياه، وخروجها عن الأمر إليه.

حسبك بهذا الاستخلاف الوثيق الأساس الجامع بين النص والقياس، ونستغفر الله ربّ الناس ملك الناس إله الناس.

دولة الملك المعز أيبك(١)

استقام الأمر له من غير منازع سنين، ثم إن شجرة الدّر عَدت على الأمير عز الدين أيبك وأحكمت الأمر في قتله.

وكان السبب في ذلك أنه خطب بنت بدر الدين صاحب الموصل لنفسه، فبلغ

(١) من مصادر ترجمته: ذيل مرآة الزمان (١/ ٥٤)، دول الإسلام (٢/ ١٢٠)، العبر (٥/ ٢٢٢)، الوافي بالوفيات (٩/ ٤٦٨)، طبقات السبكي (٨/ ٢٦٩)، البداية والنهاية (١٣/ ١٩٨)، النجوم الزاهرة (٧/ ٣)، حسن المحاضرة (٢/ ٣٨)، شذرات الذهب (٥/ ٢٦٧)، سير أعلام النبلاء (٢٣/ ١٩٨)، وذكر في ترجمته الجاشنكير صاحب مصر.

. . . كان المعز أكبر الصالحية، وكان ديّناً، عاقلاً، ساكناً، كريماً، تاركاً للشرب، ملكوه في أواخر ربيع الآخر سنة ثمان. وتزوج بأم خليل، فأنف من سلطنته جماعة فأقاموا في الاسم الملك الأشرف موسى بن الناصر يوسف بن مسعود أطسز ابن السلطان الملك الكامل، وله عشر سنين، وذلك بعد خمسة أيام، فكان التوقيع يبرز وصورته: «رُسِمَ بالأمر العالي السلطان الأشرفي والملكي المعزي». واستمر ذلك والأمور بيد المعز. فنادوا أن الديار المصرية لمولانا المستعصم بالله، وأن الملك المعز نائبه. ثم جددت الأيمان، فأجاهم صاحب الشام الملك الناصر الحلبي، فالتقوا، وكاد الناصر أن يملك، فتناحت الصالحية، وحملوا، فكسروه، وذبحوا نائبه لؤلؤ وجماعة. وكان في المعز تؤدة ومداراة.

زوجته شجرة الدُّر، فتغيّرت عليه، وتغيّر هو عليها أيضاً، كرهها لأنها كانت تمُن عليه بأنها التي ملّكته مصر، وأسلمت إليه الخراج(١) والأموال، وكانت تتصرف في مملكة [١/٩٤] مصر وتأمر وتنهى، ومنعته من الاجتماع بزوجته التي هي أم ولده نور الدين/ علي حتى ألزمته بطلاقها.

ولما تمكن الغيظ منه نزل إلى مناظر اللوق وأقام بها، فبعثت إليه من حلف عليه وتلطف به.

وتمكن غيظه، فطلع إلى القلعة، وكانت قد أعدّت له من يقتله إذا طلع إليها. فصعد، ودخل الحمام، فدخلت إليه ومعها خمسة خدّام.

فأخذ بعضهم بأنثيه، وبعضهم بخناقه، فاستغاث بشجرة الدّر.

فقالت لهم: اتركوه.

فأغلظ لها بعضهم في القول، وقال: لما مسّ تركناه لا يبق عليك ولا علينا، ثم قتلوه، في التاريخ المذكور.

وتملّك بعده ولده: الملك المنصور نور الدين علي ابن الملك المعز، وقبض شجرة الدر ودخل بها إلى أمّه فقتلها بالقباقيب، ورمتها في الخندق عُريانةً على باب القلعة، وبعد أيام دفنت على باب القلعة، وبعد أيام دفنت في تربتها.

فكانت مدة الملك المعز سبع سنين إلا ثلاثة أشهر وأياماً.

دولة المنصور علي بن أيبك(٢)

واستولى على الملك ولده المنصور الملقّب بنور الدين.

ودامت أيامه إلى سنة سبع وخمسين وستمائة.

وضعف عن الأمور، وعجز عن مزاحمة المماليك إياه في الملك.

واستولى عليه منهم المظفر سيف الدين قُطز، فخلع علي بن أيبك، ونفاه، فلم يسمع له بعد خبر.

---

(١) في المخطوط: الخراب، وهو تحريف.

(٢) قال الذهبي في آخر ترجمة المعز في سير أعلام النبلاء (٢٣/ ٢٠٠) في الكلام على المنصور علي ابنه فقال: أما المنصور علي فعُزِلَ وتملّك قُطز الذي كسر التتار، فبعث بعلي وبأخيه قليج إلى بلاد الأشكري، فحدثني سيف الدولة قليج هذا أن أخاه تَنَصّر بقسطنطينية، وتزوج وجاءته بأولاد نصارى، وعاش إلى نحو سنة سبعمائة، وسمّى نفسه ميخائيل. قلت: نعوذ بالله من الشقاء، فهذا بعد سلطنة مصر كفر وتعثّر.

دولة الملك المظفر
قُطُز[(١)]

واتصلت أيام الملك المظفر إلى ذي قعدة من سنة ثمان وخمسين وستمائة.

ثم قتل بعد كسره التتر بعين جالوت، ودفن بالقصير من أرض القلزوم[(٢)].

ثم ملك بعده الملك الظاهر بيبرس.

دولة الملك الظاهر
بيبرس[(٣)]

وكانت ولاية الظاهر بيبرس في ذي قعدة المذكور، دخل مصر وقعد على سرير

---

(١) من مصادر ترجمته: ذيل الروضتين (٢١٠)، ذيل مرآة الزمان (٢/ ٢٨)، العبر (٥/ ٢٤٧)، فوات الوفيات (٣/ ٢٠١)، طبقات السبكي (٨/ ٢٧٧)، البداية والنهاية (١٣/ ٢٢٥)، النجوم الزاهرة (٧/ ٧٢)، سير أعلام النبلاء (٢٣/ ٢٠٠)، حُسن المحاضرة (٢/ ٣٨)، شذرات الذهب (٥/ ٢٩٣).

(٢) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء في ترجمة المظفر ما نصه: السلطان الشهيد الملك المظفر سيف الدين قُطز بن عبد الله المعز. كان أنبل مماليك المعز، ثم صار نائب السلطنة لولده المنصور، وكان فارساً شجاعاً، سائساً، ديّناً، محبباً إلى الرعية. هزم التار وطهّر الشام منهم يوم عين جالوت. وهو الذي كان قتل الفارس أقطاي فقُتل به ـ ويَسْلَم له إن شاء الله جهاده ـ.
ويقال: إنه ابن أخت خوارزم شاه جلال الدين، وأنه حُرٌّ، واسمه محمود بن ممدود. ويذكر عنه أنه يوم عين جالوت لما أن رأى انكشافاً في المسلمين رمى على رأسه الخوذة، وحمل ونزل النصر.
وكان شاباً أشقر، وافر اللحية، تام الشكل، وثب عليه بعض الأمراء وهو راجع إلى مصر بين الغرابي والصالحية، فقتل في سادس عشر ذي القعدة سنة (٦٥٨) ولم يكمل سنة في السلطنة رحمه الله.

(٣) قال ابن العماد في شذرات الذهب (٥/ ٣٥٠): الملك الظاهر هو السلطان الكبير ركن الدين أبو الفتوح بيبرس التركي البندقداري، ثم الصالحي صاحب مصر والشام. ولد في حدود العشرين وستمائة واشتراه الأمير علاء الدين البندقداري الصالحي، فقبض الملك الصالح على البندقداري وأخذ ركن الدين منه، فكان من جملة مماليكه، ثم طلع ركن الدين شجاعاً فارساً مقداماً إلى أن بهر أمره وبعُدَ صيته. وشهد وقعة المنصورة بدمياط. ثم كان أميراً في الدولة المعزية، وتنقلت به الأحوال وصار من أعيان البحرية وولي السلطنة في سابع عشر ذي القعدة سنة ثمان وخمسين.
وكان ملكاً سرياً غازياً مجاهداً مؤيداً، عظيم الهيبة، خليقاً للملك، يضرب بشجاعته المثل، له أيام بيض في الإسلام وفتوحات مشهورة ومواقف مشهورة، ولولا ظلمه وجبروته في بعض الأحايين لعُدْ من الملوك العادلين، قاله في العبر.
وقال ابن شهبة في تاريخ الإسلام: توفي بقصره الأبلق بمرجة دمشق جوار الميدان، وغسلوه وصبّروه وعلّقوه في البحيرة إلى أن فرغ من الظاهرية فنقلوه إليها، وكان قد أوصى أن يدفن على الطريق وتبنى عليه قبّة. فابتاع له ولده الملك السعيد دار العقيقي بسبعين ألف درهم، وبناها مدرسة للشافعية والحنفية، ونقله إليها ووقف عليها أوقافاً كثيرة، وفتح بيبرس من البلاد أربعين حصناً كانت =

الملك واستمر ملكه إلى سنة ستٍ وسبعين وستمائة، ثم مات بدمشق في السابع والعشرين لمحرم من السنة بعدها.

وولي بعده ابنه الملك السعيد ناصر الدين المسمى بَرَكَة، بفتح الباء.

دولة الملك السعيد
بَـرَكَـة(١)

واستمر في الملك إلى سنة ثمان وسبعين وستمائة.

ثم خلع من الملك.

[٩٤/ب] وقدم بعده/ الملك العادل المسمى شلامِش ابن الملك الظاهر بيبرس.

دولة الملك العادل
شـلامِـش

وتقدم شلامِش صغيراً، عمره نحو من سبع سنين. وهو من المشترط ذكره في الكتاب ممن بُويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام. وتعيّن للنيابة عنه الملك المنصور سيف الدين أبو المعالي قلاوون التركي الصالحي النجمي الألفي ـ وهو أبو هؤلاء الملوك ـ.

وهذا المقدار هو الذي صح عندنا في أمرهم بالمغرب لعدم المعتني بذلك من الحجاج في زماننا وما يتصل به منهم لنهم الرجل منهم بقضاء ما توجه إليه.

دولة الملك المنصور
قـلاوون(٢)

وهو سيف الدين أبو المعالي.

= مع الفرنج افتتحها بالسيف عنوة.

وقال الذهبي: انتقل إلى عفو الله ومغفرته يوم الخميس بعد الظهر الثامن والعشرين من المحرم بقصره بدمشق وخلف من الأولاد الذكور الملك السعيد محمد ولي السلطنة وعمره ثماني عشرة سنة، والخضر، وشلامِش، وسبع بنات، ودفن بتربة أنشأها ابنه.

(١) قال ابن العماد في شذرات الذهب (٥/ ٣٦٢): السلطان السعيد الملك ناصر الدين أبو المعالي محمد ابن الملك الظاهر بيبرس، ولد في حدود سنة ثمان وخمسين وستمائة بظاهر القاهرة وتملّك بعد أبيه سنة ست وسبعين في صفر. وكان شاباً مليحاً، كريماً، حسن الطباع، فيه عدل ولين وإحسان ومحبة للخير. خلعوه من الأمر، نأقام بالكرك أشهراً ومات شبه فجأة في نصف ذي القعدة بقلعة الكرك، ثم نقل بعد سنة ونصف إلى تربة والده وتملك بعده أخوه خضر.

(٢) قال ابن العماد في شذرات الذهب (٥/ ٤٠٩): السلطان الملك المنصور سيف الدين أبو المعالي، =

تقدم كما ذكرنا نائباً عن الصبي الصغير شلامِش، وحَلَفَتْ له الأمراء معه، وذُكر اسمه في الخطبة مع شلامش، ونقشت أسماءهما في السكة، فكانت السكة ذات وجهين الواحد فيه اسم شلامش والثاني فيه اسم قلاوون، وفي ذلك يقول الشاعر:

يقولون ما للمال بمصرك. . .[1] ومهما اقتضيت الوعد أخلف مَوْعِدَا

فقلت وما ذنبي بليت بغادرٍ يناقض قول اليوم أن قاله غدَا

لذا كان ذا وجهين دينار وقتنا فمن يرتجيه أو يشدّ به يدَا

وأهل المشرق تستحسن نوادرهم في هذا المعنى.

وأنشدت لبعضهم في الفلوس المصرية، وهم يصوّرون على الفلوس المصرية شكل أسد وهي علامة سكة السلطان:

لحا اللّه مصر وسكانها وفتت أكبادهم بالحَسَدْ

متى يرتجى مُفْلِسٌ عندهم غني وعلى كل فلس أسَدْ

وقال بعضهم يجيب مغربياً عن إنكار الأسود على السكة التي هي أصل الأقوات:

أسودكم تغتالكم ولأجل ذا رسمنا أسود الترك في الصرف راتبه

لكن تعلموا أن الأسود تَقُوتُنا بضد الذي بأرضكم يا مغاربة

فأجابه المغربي وتَنَادَرَ به ما شاء الله:

/لقد قلت ما لا وجه فيه لقائل محجته عند النزاع. . . . .[2] [I/٩٥]

كلانا لأسد الشرق والغرب أكلا وزدتم بأسد صهوة المال راكبه

فهذي وذي في كل حال عليكم إذا ما رحلتم أو أقمتم مُغَاضِبُه

واستمرت نيابة الملك المنصور قلاوون إلى رجب سنة ثمان وسبعين وستمائة.

وخلع شلامش واستبد بالملك، وكان أبا المماليك من الترك، وله الإمارة

= وأبو الفتح قلاوون التركي الصالحي النجمي، كان من أكبر الأمراء زمن الظاهر، وتملك في رجب سنة ثمان وسبعين وستمائة. وكسر التتار على حمص، وغزا الفرنج غير مرّة، وفتح طرابلس وما جاورها، وفتح حصن المرقب.

وفي سنة ثمان وثمانين عمل في القاهرة بين القصرين تربة عظيمة، ومدرسة عظيمة، ومارستان للمرضى. وكانت وفاته ظاهر القاهرة بالمخيم، وقد عزم على الغزاة فتوفي في سادس ذي القعدة ودفن بتربة بين القصرين.

(١) كلمة غير مقروءة.

(٢) كلمة غير مقروءة هذا رسمها في المخطوط: «مغارمه».

والأخبار والمباني الخطيرة، والفضائل التي هي الشمس أوضحتها الظهيرة.

قال الأديب أبو العباس في كتابه: «السكردان» في وصفه:

تسلطن بعد خلع الملك العادل شلامش ابن الملك الظاهر، وصفا له من بطانته الباطن والظاهر، وتصرف في البلاد عرضاً وطولاً، وكانت له به معرفة النظر في الكتب اليد الطولى، له في ذلك الغرائب والعجائب، تنقلها النجائب.

وهو ممن تجنب السبع الموبقات، وأكثر من الفتوح والفتوحات، فكسر التتر سنة ثمانين، وترك الفرنج من جيشه في حلقة السعير.

وله في القاهرة الأوقاف المبرورة، والمدرسة المشهورة، والمارستان الذي هو عون الفقير، وجبر الكسير.

قلت: وثابت بين الملوك المنصور وبين سلطان التتر الذي قصد الشام مجموعة على عهده محاربات ومواقعات، ولولا فضل دفاعه وجهاده لكان ملكِ التتر قد استضاف البلاد المصرية والشامية إلى بلاده.

وكان هو وابنه الملك الأشرف خليل الملك بعده من أهل الشعور الكائنات والمحدِثين القضايا المستقبلات وحسبما تقتضيه أسطار الحكايات.

حكى بعض خدمه وكفاته:

أنه خرج في بعض الأيام إلى قبّة النصر هو وجماعة من الأمراء على سبيل الفرجة، وضربت له صواوين خفاف واستدعى بخراف من الرمسان البراري، فعرضها وقلبها، وتخيّر منها خروفاً من أصحها أعضاء، وفرّق بقية الخراف على المماليك الأمراء، وقال: ليقم كل واحد منكم بذبح خروفه ويشويه بيده مثل ما كُنَّا نعمل في بلادنا وأنا في الأول.

[٩٥/ب] ثم قام/ وذبح الخروف الذي اختاره وشواه بيده، فلما انتهى طلب الأمراء ليأكلوا معه.

ثم أخذ منه الكتف اليمنى، فأكل لحمها إلى أن أحفاها وترك العظم قليلاً حتى جَفَّ، ثم قام فجعل يلوحه على النار برفق ثم أخرجه ونظر إليه، وأطال فيه التأمل قليلاً، ثم تفل عليه، وشتمه وألقاه من يده.

فسأله بعض الأمراء عن ذلك بعد أن سكن غضبه.

فقال: قالوا لي: هذا العظم من هذا الصبي، فنحن لا نخرجه إلى الشام، فإنه متى خرج إليه هرب وعمل فتنة كبيرة، فلم يزل فنحن مؤخراً عنده بهذا السبب هذه حياته.

فلما مات وتسلطن بعده ولده الملك الأشرف، وتسلطن لاجين بعد خلع الملك الناصر خرج فنجق نائبه إلى الشام فجرت بينهما وحشة فهرب فنجق إلى الشرق وعمل الفتنة العظيمة بمجيء غازان وعسكر التتر.

فجرى على المسلمين ما لا يكون شرحه، فكان الأمر كما قال الملك المنصور رحمه الله.

قال المخبر بذلك من أهل البلاد: وكان فنجق عسر الله في نفسه قنينة دهن ورد تُخَبأ ليوم مشؤم.

قال القاضي محيي الدين فضل الله: حكى لي فنجق بعد عودة التتر قال: لما تلاقينا نحن وأنتم تتعتع جيشنا بهم وغازان بالهروب وطلبني ليضرب عنقي قبل أن يرجع لأن خروجه كان برأسي ففطنت لذلك. فلما صرت بين يديه قال لي: إيش هذا؟

فضربت له حوكاً ثم قلت: أنا أخبر بأصحابي وهم لهم حملة واحدة. . .(١) يصبر ويبصر كيف ما يبقى قدامه أحد منهم؟ فثبت فكان الأمر كما قلت، وخلصت من يده فلما انكسرتم أراد أن يسوق عليكم فعلمت أنه متى ساق عليكم ما يُبقي منكم أحداً، فقلت. . .(٢) يصبر فإن أصحابنا خباث وربما يكون لهم كمين، وقد انهزموا مكيدة متى نسوق خلفهم فيردون، فوقف حتى أبعدتم عَنا، فلولا أنا ما قتل منكم أحد، ولولا أنا ما بقي منكم أحد.

وجرت بين الملك المنصور قلاوون وبين الملوك الكرام من بني مدين قدسهم الله المهادات، فبعث إليه أمير المسلمين أبو يعقوب هدية مشتملة على خيل عديدة، وبغال رومية، وغير ذلك من الأمتعة، زعموا أن الدواب بين فرس وبغل، وجمل بلغت سبعمائة دابة. وكان الذي تولى إيصالها رسول الملك المنصور عند قفوله بجواب رسالته إليه هو سيف الدين بكتمر الجوكندار، وكان عزيزاً على الملك/ [٩٦/أ] المنصور قلاوون يخاطبه بالعمومة.

ولما بلغت الهدية إلى الحدية من أحواز اتصل بهم خبر مهلك السلطان أبي يعقوب فسلبتها العرب بذلك الموطن ولحق الرسول بالمشرق بعد مشقة.

وتوفي الملك المنصور قلاوون في سادس ذي قعدة سنة تسع وثمانين وستمائة. فكانت دولته إحدى عشرة سنة وأربعة أشهر.

---

(١) كلمة غير مقروءة المخطوط هذا رسمها: «بالتنان»، أو لا معنى لها مع السياق.

(٢) كلمة مثل السابقة بغير الباء، أي بهذا الرسم: «الفار».

وكان قد عهد في حياته إلى ولد له اسمه علي ودعاه بالسلطان الملك الصالح وخُطب له على المنابر معه، وأهّله لخلفه وهو صبي صغير لم يبلغ الحُلم، جميل الخَلق مؤهل للملك، وفيه يقول السراج الورّاق من قصيدة:

لقد عفّ في سلطانه وجماله ... فللّه ملك فيهما قد تعفّفا

وأغرب في تصنيف أفعاله التي ... روينا بها عنه الغريب المصنفا

وهذا الملك الصالح من شرط كتابنا لانعقاد البيعة له صبياً وتوفي شاباً في حياة أبيه في شعبان سنة سبع وثمانين وستمائة بعد موت أخته غارية خاتون زوج الملك السعيد ابن الملك الظاهر باشر، وَدُفِنا عند أُمهما في تُرْبَة بين مصر والقاهرة.

وولي الأمر بعده ولده الملك الأشرف.

دولة السلطان الملك الأشرف

واسمه خليل.

ولقبه صلاح الدين.

ولي في ذي القعدة سنة تسع وثمانين وستمائة.

وكان ملكاً جليلاً أحسن المناب عن والده الملك المنصور رحمه الله ـ فيما عاقته المنية عنه من قصد مدينة عكا ـ وتحرك إليها بجيوش المسلمين من مصر والشام وافتتحها، وأراح البلاد الشامية منها وبفتحها تم للمسلمين خلاص الشام بأجمعه من أيدي النصارى.

ثم إن الإسلام...[1] بسببها وحميت الإفرنج لأجلها إذ يرونها الركاب إلى تملك بيت المقدس.

فجمع الأيدي عليها وألصقها بالأرض فلم تعمر بعده ولا يطمع الروم في بنائها.

وكان صابر الإدراك، ملهماً للصواب، صادق الخواطر.

ذكر الأديب أبو العباس في كتابه: أن الملك الأشرف كان جالساً في بعض الأيام بالميدان والقرّاء يقرأون بين يديه والسلطان والده المنصور يومئذ محاصر طرابلس.

[٩٦/ب] فقال وهم لا/ يعلمون من يعينه؟ نصره الله في هذه الساعة أخذت طرابلس. فلم يمض إلا مدة قدر مسافة الطريق حتى وردت الأخبار بفتح طرابلس، فكان الأمر كما قاله.

(١) كلمة في المخطوط هذا رسمها: «الس»، أو: «الس».

قال المخبرون: لكأن الأمر كشفه الله تعالى لذهنه الشريف وإدراكه المنيف.

وجرى ذكره في الفصول المسجعة المشرقية من كتاب: «السكردان»[١] فقال: كان ليثاً هماماً، وبطلاً ضرغاماً، افتتح ملكه بالجهاد، وتمهيد البلاد، فنظف الساحل وقطع عن أهله الواصل، وتسوّر السور على أهل صور، وهجم البيوت على أهل بيروت، بعد أن سار رويداً وصاد بفخاخ منجنيقاته عكا وصيدا، ونال الرضى الأسنى من أهل. . .[٢] باب السر حين فتحت، و. . .[٢] بعدها ﴿الٓمٓ ۝ غُلِبَتِ﴾ [الرُّوم: الآيتان ١، ٢].

فأفنى أوقاته في الحروب، وأخذ بثأر أبي أيوب، سيَّما حين فتح عكا ودكَّ أرضها سنابك خيله دكّاً دكّا، فرعى مروجها، وقتل علوجها، وأسر بأبشارها، ثم هدم أسوارها، ففرح به المسلمون، وانتصروا، وقطع دابر الذين كفروا.

وكان رحمه الله مع ما فيه من البادرة، حَسَنَ النادرة، وكان يحب الغرباء، ويطارح الأدباء وفيه يقول القاضي علي الدين بن عبد الظاهر يصف فضله الباهر:

ما رأيت ولا سمعت بأسبق من ذهنه إلى فهم، ولا أدري لما يزيل الوهم، ولقد كتبت عنه، واستكتبت، فما علّم قط على مكتوب إلاّ وقرأ جميعه، وفهم أصوله المكتوبة وفروعه، لا بل واستدرك عليّ وعلى الكتاب، وخرج أشياء كثيرة فعرفنيها الصواب، وذلك بحسن تعطف، وفضل تلطف، و﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝﴾ [الجُمُعَة: الآية ٤].

وكان قد أسقط المكوس لأول ولايته بدمشق وغيرها، وكتب على مرسوم بإزالة مكس كان يلزم حمل الجمل من القمح بباب الجابية بدمشق، وكتب بين سطوره بقلم العلامة بخطه ما نصه:

---

(١) قال حاجي خليفة في كتابه القيم الجليل: كشف الظنون عن أسماء من الكتب والفنون (٢/ ٩٩٤) في الكلام على هذا الكتاب ما نصه: سكردان لابن أبي حجلة أحمد بن يحيى التلمساني المتوفى سنة (٧٧٦) ألفه في سنة (٧٥٧) للملك الناصر. وأوله: بسم الله، الحمد لله. . . الخ. وهو على مقدمة وسبعة أبواب: المقدمة فيما يتعلق بإقليم مصر. الباب الأول: في خواص الإقليم السبعة. الثاني: في علاقة السلطان لذلك العدد. الثالث: في مناسبة الإقليم بذلك. الرابع: في كون ذلك السلطان السابع من السلاطين التركية. الخامس: في سيرته. السادس: في الاتفاقات الغريبة. السابع: في تفسير بعض ألفاظ الكتاب ونتيجته.

ومنتخبه على خمسة أبواب: الأول: في قصة يوسف عليه السلام. والثاني: في قصة موسى عليه السلام وفرعون. والثالث: في سيرة ملوك مصر. الرابع: في سيرة الحاكم بأمر الله. والخامس: في سبع زهرات وأوراد. في آخر كل باب خاتمة الباب، وهي سبع حكايات.

(٢) كلمات غير مقروءة.

«ولتكشف عن رعايانا هذه الظلامة، وتستجلب الدعاء لنا من الخاصة والعامة، وأزرق الصبح بيد، وأقبل أبيضه وأول المزن طل ثم ينسكب».

[١/٩٨] / وإليه[١] تنسب الأشرفية التي بقلعة الجبل المحروسة.

قال ابن أبي حجلة: وهي الآن كنانة الله في أرضه، ومعقل سنّة العدل وفرضه، والسّر في المكان لا في المنزل.

وفي الملك الأشرف وجهاده يقول القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر رحمه الله:

يا بني الأصفر قد حلّت بكم نقمة الله التي لا تنفصل
نزل الأشرف في ساحلكم فابشروا منه بصقع متصل

وقال شمس الدين محمد بن علي فيه، وفي السلطان صلاح الدين بن أيوب:

مليكان قد لقبا بالصلاح فهذا خليل، وذا يوسف
فيوسف لا شك في فضله ولكن خليل هو الأشرف

وفاته في العشر الأول لمحرم سنة اثنتين وتسعين وستمائة، وقد خرج إلى الصيد ونزل بأرض الحمامات وهجم عليه وقت العصر وهو بنزوحه من تلك الجهات نائب السلطان بيدرا[٢]، وجماعة من الأمراء فأحاطوا به ولم يكن معه، ولا مع أحد من

---

(١) الورقة رقم [١٩٧أ، ب] تكررت التصوير فزاد الرقم فيلاحظ لترك رقمها غفلاً كما حدث مع ورقة سابقاً قبل هذه بقليل في أوائل التسعينات أيضاً.

(٢) كذا في المخطوط، وفي شذرات الذهب (٥/ ٤٢٢): بندار، وفي وفاة الأشرف يقول ابن العماد في وفيات سنة ثلاث وتسعين وستمائة: فيها قتل الملك الأشرف صلاح الدين خليل ابن الملك المنصور سيف الدين. ولي السلطنة بعد والده في ذي القعدة سنة تسع وثمانين، وفتك به الأمير بندار، وذلك أنه جهز العسكر مع وزيره إلى القاهرة وتخلى بنفسه ليخلو مع خاصته بسبب الصيد، وترك نائبه الأمير بندار تحت الصناجق.

فلما كان وقت العصر وهو جالس بمفرده، قدم الأمير بندار وصحبته جماعة من الأمراء، فقتلوا السلطان وحلفوا البندار وسلطنوه، ولقب بالملك القاهر. وتوجهوا إلى مصر فلقيهم الخاصكية، ومقدمهم الأمير زين الدين كتبغا فحملوا عليهم، فانهزم الأمير بندار، فأدركوه، وقتلوه، ومسكوا باقي الأمراء فقتلوهم، وأقاموا الملك الناصر وحلفوا له، واستقر الشجاعي وزيراً، ومسك ابن السلعوس، واستأصلوا أمواله، ومسكوا أقاربه وذويه، وكان قد أحضرهم من الشام، فحلت عليهم النقمة إلا رجل واحد لم يحضر من الشام، وكتب إليه شعراً:

تنبه يا وزير الأرض واعلم بأنك قد وطئت على الأفاعي
وكن بالله معتصماً فإني أخاف عليك من نهش الشجاعي

فكان كما قال، فإنه مات من نهشة الشجاعي، عاقبه إلى أن مات، ولم يجد لنهشه درياقاً. ثم إن الشجاعي عزم على قتل كتبغا، فركب عليه وحصره في القلعة فقتله بعض مماليك السلطان ورموا به =

مماليكه سيف طمأنينة، وركوناً إلى الأمان. فبادر إليه بيدرا وضربه بالسيف فقطع يده وصاح به حسام الدين الأمير وقال: من يريد الملك تكون ضربته هذه؟!.

وضربه على كتفه ضربة بَتَّه بها وسقط منها إلى الأرض ميتاً.

وتركوه في ذلك المكان طريحاً، وفيه يقول بعض شعرائهم:

ألم تر يا ليث التتر قد تناشت ذئاب العلا منه ذراعاً وساعدا

وكانت مدة ملكه ثلاث سنين وشهرين وخمسة أيام.

وكان رحمه الله من أبناء الثلاثين سنة. ثم ملك بعده أخوه الملك الناصر.

دولة الملك الناصر(١)

وهو محمد بن قلاوون الصالحي.

= إلى كتبغا، فسكنت الفتنة وخرج الناس بموته وطافوا به في البلد وتزايدت أفراح الناس لما كان تعمد من المظالم.

(١) قال ابن العماد في شذرات الذهب (٦/ ١٣٤): الملك الناصر محمد ابن الملك المنصور قلاوون بن عبد الله الصالحي. ولد في صفر، وقيل: في نصف المحرم سنة أربع وثمانين وستمائة. وشوهد منه أنه ولد وكفاه مقبوضتان ففتحتها الداية فسال منها دم كثير. ثم سار يقبضهما فإذا فتحهما سال منهما دم كثير، فأوّل ذلك بأنه يسفك على يديه دماء كثيرة.

فكان كذلك، وولي السلطنة عقب قتل أخيه الأشرف وعمره تسع سنين، فولى السلطنة سنة إلاّ ثلاثة أيام ثم خلع بكتبغا. وكان كتبغا قد جهز الناصر إلى الكرك بعد أن حلف له أنه إذا ترعرع وترجّل يفرغ له عن المملكة بشرط أن يعطيه مملكة الشام استقلالاً. ثم أحضر الناصر من الكرك إلى مصر سنة ثمان وتسعين وسلطنوه ثانياً. واستقر بيبرس الجاشنكير دويدار وسلار نائباً في السلطنة، ولم يكن للناصر معهما حكم البتة، واستقر أقش الأفرم نائب دمشق.

وحضر الناصر وقعة غازان سنة تسع وتسعين، وثبت الناصر الثبات القوي وجرى لغازان بدمشق ما اشتهر وقطعت خطبة الناصر من دمشق مدة، ثم أعيدت فتحرك غازان في العود، فوصل إلى حلب ثم رجع. وفي شعبان سنة اثنتين وسبعمائة كانت وقعة شقحب، وكان للناصر فيها اليد البيضاء من الثبات والفتك، ووقع النصر للمسلمين. ثم في سنة ثمان وسبعمائة أظهر الناصر أنه يطلب الحج، فتوجه إلى الكرك، وأقام بها، وطرد نائب الكرك إلى مصر، وأعرض عن المملكة لاستبداد سلار وبيبرس دونه بالأمور، وكتب الناصر إلى الأمراء بمصر يترقق لهم ويستعفيهم من السلطنة، ويسألهم أن يتركوا له الكرك، فوافقوه على ذلك.

وتسلطن بيبرس الجاشنكير، ثم قصد الناصر مصر في سنة تسع وسبعمائة فاستقر في دست سلطنته يوم عيد الفطر، ولما استقرّت قدمه قبض على أكثر الأمراء وعزل وولّى، وحجّ وجدد خيرات كثيرة وبنى جوامع ومدارس وخوانق. وفتحت في أيامه ملطية وطرسوس وغيرهما، واشترى المماليك فبالغ في ذلك حتى اشترى واحداً بما يزيد على أربعة آلاف دينار.

قال في الدرر: ولم ير أحد مثل سعادة ملكه وعدم حركة الأعادي عليه براً وبحراً مع طول المدة، فمنذ وقعة شقحب إلى أن مات لم يخرج عليه أحد، ووجدت له إجازة بخط البرزالي من ابن مشرف =

وهذا الرجل في الأزمان المتأخرة خاقان الأتراك، وأبو الأملاك الطويل العمر، النافذ الأمر، المجرّب لصروف الدهر، وألوان الشر.

جلس على سرير المُلك رابع عشر المحرم سنة ثلاث وتسعين وستمائة.

[٩٨/ب] / ومولده في سنة أربع وثمانين وستمائة.

وكانت سنه يوم قعد للملك نحواً من تسع سنين وهو بعيد من سن الاحتلام، فهو لذلك ممن شرطنا ذكره وجلبنا الكتاب بسببه.

وخلع من المُلك سنة أربع وتسعين. وتولى الأمر الملك العادل عزيز الدين كتبغا ثم لاجين المنصور.

دولة كتبغا ولاجين

وتمادى نظر كتبغا إلى شهر المحرم سنة ست وتسعين.

ثم ملك بعده الملك المنصور حسام الدين لاجين(١) المنصور.

وأقام في الملك إلى شهر ربيع الأول سنة ثمان وتسعين وستمائة.

وهجم عليه جماعة من الخاصكية في ليلة الجمعة، وهو قاعد يلعب بالشطرنج مع أحد جلسائه فمهروه بالسيوف.

واتفق الأمر على استحضار الملك الناصر من الكرك(٢).

= وغيره، وسمع من ست الوزراء، وابن الشحنة، وخرج له بعض المحدثين جزءاً وكان مطاعاً مهيباً عارفاً بالأمور، يعظم أهل العلم والمناصب الشرعية ولا يقرر فيها إلا من يكون أهلاً لها.
وتوفي في تاسع عشر ذي الحجة بقلعة مصر في آخر النهار، وحمل ليلاً إلى المنصورية فغسل بها وصلى عليه عز الدين بن جماعة القاضي إماماً بحضرة أناس قلائل من الأمراء، وحصل للمسلمين بموته ألم شديد لأنهم لم يلقوا مثله، وعهد قبيل موته لولده الملك المنصور فجلس على كرسي الملك قبل موت والده بثلاثة أيام، والله أعلم.

(١) كذا في المخطوط، وفي بعض الكتب وفي شذرات الذهب (٥/ ٤٣٤) في ذكره لحوادث ووفيات سنة (٦٩٦) سماه: لاشين، بالشين بدل الجيم، فقال: وفيها توجه الملك العادل إلى مصر، فلما كان باللجون، وثب حسام الدين لاشين المنصور على بيحاص، وبكتوت الأزرق، فقتلهما، وكانا جناحي أستاذهما العادل، فخاف وركب سراً في أربعة مماليك، وساق إلى دمشق، فدخل القلعة فلم ينفعه ذلك، وزال ملكه، وخضع المصريون لحسام الدين، ولم يختلف عليه اثنان، ولقب بالملك المنصور. وأخذ العادل تحت الحوطة فأسكن بقلعة صرخد وقنع بها.

(٢) في المخطوط: «الكرد»، والتصويب في شذرات الذهب (٥/ ٤٤٠) في أحداث سنة (٦٩٨) حيث ذكر خبر قتل لاجين، وذكره هنا بالجيم، فقال: وفي ربيع الآخر استوحش قبجق المنصوري نائب الشام وبكتمر السلحدار وغيرهما من فعائل منكوتمر وخافوا أن يبطش بهم وبلغهم دخول ملك التتار =

فعاد إلى الملك واستمر فيه حتى[1] سنة ثمان وسبعمائة.

واضطربت الأحوال بمملكته وخشي من الأمراء على نفسه، فأظهر التوجه إلى الحج.

فلما تأهب لذلك، وصار في أثناء الطريق عرج إلى الكرك[2]، وثنى عزمه عن الحجاز، وأظهر الانقطاع والتخلي عن الملك.

وصرف من كان معه إلى الديار المصرية.

دولة بيبرس المظفر[3]

ولما رجع الأمراء عن السلطان الملك الناصر إلى مصر بعد استقراره بالكرك.

= في الإسلام فأجمعوا على المسير إليه، فساروا من حمص على البرية، فلم يلبثوا أن جاء الخبر بقتل السلطان ومنكوتمر على يد كرجي الأشرفي ومن قام معه، هجم عليه كرجي في ستة أنفس وهو يلعب بالشطرنج بعد العشاء ما عنده إلا قاضي القضاء حسام الدين الحنفي، والأمير عبد الله، ويزيد البدوي، وأمامه المجير بن العسال، قال حسام الدين: رفعت رأسي فإذا سبعة أسياف تنزل عليه ثم قبضوا على نائبه فذبحوه من الغد.

ونودي للملك الناصر وأحضروه من الكرك، فاستناب في المملكة سلار ثم قتل طغجي وكرجي الأشرفيان ثم ركب الملك الناصر بخلعة الخليفة وتقليده، وقدم الأفرم على نيابة دمشق في جمادى الأولى. وكان الملك المنصور أشقر أصهب فيه دين وعدل في الجملة وله شجاعة وإقدام.

(١) في المخطوط: «من» وهو تحريف.

(٢) في المخطوط: «الكرد» وهو تحريف.

(٣) قال ابن العماد في شذرات الذهب (٦/ ١٨) في أحداث سنة تسع وسبعمائة: فيها كما قال السيوطي: خرج السلطان الملك الناصر بن قلاوون قاصداً للحج فخرج من مصر في رمضان، وخرج معه جماعة من الأمراء لتوديعه فردهم. فلما اجتاز بالكرك عدل إليها، فنصب له الجسر فلما توسطه تكسر به، فلم يسلم من قدامه، وقفز به الفرس فسلم، وسقط من وراءه وكانوا خمسين، فمات أربعة وتهشم أكثرهم في الوادي الذي تحته. وأقام السلطان بالكرك، وكتب كتاباً إلى الديار المصرية يتضمن عزل نفسه عن المملكة. فأثبت ذلك على القضاة بمصر، ثم نفذ على قضاة الشام، وبويع الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير بالسلطنة في الثالث والعشرين من شوال. ولقب الملك المظفر، وقلده الخليفة وألبسه الخلعة السوداء، والعمامة المدورة، ونفذ التقليد إلى الشام في كيس أسود أطلس فقرىء هناك، وأوله: «إنه من سليمان، وإنه بسم الله الرحمٰن الرحيم»، ثم عاد الناصر في رجب سنة تسع، وطلب عوده إلى المُلك، وولاه على ذلك جماعة من الأمراء، فدخل دمشق في شعبان، ثم دخل مصر يوم عيد الفطر، وصعد القلعة...

وخذل المظفر فجاء إلى السلطان فوبخه وخنقه، وأباد جماعة من رؤوس، وتمكن وهرب نائبه سلار نحو تبوك، ثم خدع وجاء برجله إلى أجله، فأميت جوعاً. وأخذ من أمواله ما يضيق عنه الوصف، وكان تملك أحد عشر سنة. وكان مغلياً أسمر، سهل الخدين، ليس بالطويل، ذا هيبة، قليل الظلم، وبلغ من الجاه والمال ما لا مزيد عليه.

اتفق الرأي منهم على أن يكون بيبرس الجاشنكير سلطاناً، والأمير سلار نائباً عنه.

فجلس بيبرس على سرير الملك، وأقام يدبر ملك الترك أحد عشر شهراً، إلى يوم الثلاثاء: سادس عشر شهر رمضان سنة تسع وسبعمائة، فاضطربت أحواله، وبلغه إقبال الملك الناصر إليه.

وكان طائفة من الأمراء لحقوا به، وحركوه من الكرك إلى دمشق، وانتظمت بها أحوال ملكه، وشرع في العود إلى البلاد المصرية.

ولما تحقق الملك المظفر ذلك، أخذ جميع ما في الخزائن من مال وذخيرة وخرج إلى أسوان من بلاد الصعيد.

ودخل الملك الناصر مصر يوم الخميس الثاني من شهر شوال.

دولة الملك الناصر الثالثة

[٩٦/أ] / واستقل على سرير ملكه وقت[١]. . . معتادة عنده وحلفت له العساكر.

ووجه جماعة من الأمراء إلى بيبرس، ووقعت بينهما مراوضة اتفق فيها على دخوله تحت طاعة السلطان الملك الناصر، والقدوم عليه، وعلى أن يقلده حميده وأعمالها.

فلما ورد على بابه اعتقله، وأذاقه وبال أمره.

ووصف أبو العباس بن أبي عجلة السلطان الملك الناصر في كتابه فقال:

كان ملكاً مهاباً، وجواداً، له قوة بطش وبأس، ومهابة في قلوب الناس، قد جلب أشطر الدهر، وجرى ذكره من النيل لما وراء النهر، فانتشر ذكره في الآفاق، وطار فأعرق في حدود العراق، طالما ضرب التتر المصافة، وقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف فأذاقهم النكال، وكفى الله المؤمنين القتال.

فهو ممن خدمته السعادة، ونال من أعدائه ما أراده، فأمسك إلى أن مات ما ينيف على مائة وستين أميراً وأوسعهم اعتقالاً دائماً ونكالاً كبيراً، وكان بعدهم يقتنص الشاردة ويصطاد الغزال وهو قاعد، ويُحب مماليكه، ويبالغ في إكرامهم، ويتغالى في إتحافهم، فكان يبذل فيهم النقود النضة، وينفق عليهم القناطير المقنطرة من الذهب والفضة، فعظموا في أيامه، وتخولوا في أنعامه فما منهم إلاّ حسنت آثاره.

وبنى المدارس فانتشر العلم ورفع مناره.

(١) موضع النقط كلمة لم أتبين قراءتها في المخطوط هذا رسمها: التمولرالمعُدر.

ليس الفتى يفتي لا يستضاء به ولا يكون له في الدهر آثارْ

ولا سيما ما أنشأه المعز الأشرف المكنى الناصري السيف منجك وزير الديار المصرية، كان كافل المماليك بالمملكة الاطرابلسية الآن من الجامع الذي جمع المحاسن، واجتمع بصهريجه أنهار من الماء، كم أطلقت زهر قناديلها نجماً، وكم مَشِيْت فيه ـ وإن لم أكن من الصالحين ـ على الماء[1]، والخانقات التي تشرفت من الصوفية بالعلم والعمل وأصبحت كأنها من المنقطعين إلى الله في رأس الجبل. [٩٦/ب]

فيا لها من خانقات تشرق قناديلها في كل زاوية، ويعجز عن وصف صهريجها الدلال وحماد الرواية، فكم بها للصوفية من خلوة، وكم لعروش منارها من جلوة، فالله تعالى يضاعف للواقف، والقاعد، بها الحسنات، ويرفع لباني منارها الدرجات/ ، ويكثر به في أمة صاحب الكوثر، ويقر عينه بذلك الصهريج يوم العطش الأكبر.

وكان على عهده أعلام العلماء ومشاهير الشعراء...[2].

وحج الملك الناصر، وأصلح كثيراً من أمور الحرمين الشريفين، وترك بهما آثاراً صالحة.

أخبر صاحبنا القاضي الحاج المصنف أبو البقاء خالد بن عيسى بن أبي عيسى البلوي الفيتوري في تقييد رحلته التي سماها «تاج المفرق في تجلية علماء المشرق» فقال:

ثم أقبلت على ذلك الحرم الشريف والمسجد الرفيع المنيف أتأمل محاسنه وأتخيل فيه من أصحابه الأبرار ساكنيه، فمن أبدع ما رأيته وأبرعه فريدة قد كتبت بالخط المرتب الرائق البديع وأثبتت في ألوان الأزهار التي تخجل زهرة الربيع، ورفعت أمام الروضة المقدسة في منتصف المسجد الشريف الرفيع فخلت القراطيس لؤلؤها وعقدها، ونقلت كل ما كان قبلها وبعدها وها هي تسفر عن غُرّتها الواضحة، وتعبق عن نسبتها النافحة، وتشهد لناظمها بالقريحة الراجحة والعقيدة الصالحة بعد البسملة والتصلية:

سلام كنشر الروض من سقط الندا عليك رسول الله يا مَنزِل النّدا
ويا مهبط الملاك والوحي لم تزل أنيساً بزوار الرسول محمدا

---

(١) هذه مبالغة في القول، ولا يصح أن أحداً مشى على الماء بدون وسيلة مهما بلغ علمه وتقواه وكل ما يقال أو يحكى في ذلك محض افتراء.

(٢) ثم ذكر شعراً كثيراً استغرق صفحتان ونصف الصفحة، أي استغرق [٩٦/ب] [٩٧/أ]، نصف الصفحة [٩٧/ب] وقد ورد في هذا الشعر أبيات غير كثيرة غير واضحة فآثرت تركه لأنه مدح وثناء على ذلك الملك وقد حشيت كتب التواريخ بكثير مثله وليس فيه فوائد تاريخية.

ويا تُربة المختار أفديك تُربةً ... بنفسي وإن كانت أقل من الفِدا
ويا بيته حيّاً ومثواه ميتّاً ... لك الفخر في حاليك ميتاً ومشهدا
تضمنت أعضاء الرسول سواءً ... مهاداً من الفردوس فيك ممهدا
سقى اللّه منك التراب أفضل ما سقى ... وصلى على من حلّ فيك مؤسّرا
[١/٩٨] / فيا منزل الأبرار حييت منزلا ... ويا مسجد المختار شُرِّفت مسجدا
كأني أرى صحب النبي محمداً ... بأرجائك أثبتوا ركوعاً وسُجدا
ففيك بدت من جنة الخلد روضة ... تطوف بها الأملاك مثنى ومُفردا
سلام من الرحمٰن يذكر أريجه ... أخص به خير الأنام محمدا
سلام وروح وريحان ورحمة ... على روحه ما راح سائح وما غدا
فيا خير أهل الأرض بيتاً وعنصرا ... وأشرف خلق اللّه نفساً ومُحتدا
وأوسعهم حلماً وأزكى خليفة ... وأطيبهم خيماً وأطيب مولدا
ويا صفوة الرحمٰن من خير خلقه ... وأطولهم طولاً وأعظم سؤددا
شهدت بأن اللّه لا رب غيره ... وأن رسول اللّه حقاً محمدا
وأشهد أن اللّه أمدك رحمة ... إلى خلقه واختارك اللّه سيدا
فصل عليك اللّه يا خير مرسل ... ويا خير من بالمعجزات تفردا
وصلى عليك الله ما لاح بارق ... وما ناح طير في الغصون مُغردا
وصلي على الأبرار إلاّ أنهم ... بنورهم يأتم من قد تزهدا
هم القوم عنهم أذهب الرجس كله ... وركب منهم كل خير وأوجدا
وصلي على أصحابك الغُر إنهم ... نجوم بها ينجوا غداً من بها اهتدا
صلاة اللّه والسلام مضاعف ... على المصطفى المختار ما اتصل المدا

اللهم أدم النصر والتمكين، والنصر العزيز، والفتح المبين لعبدك المسكين الذي ولّيته أمور المسلمين، واخترته على كثير من العالمين، السلطان الملك الناصر ناصر الدنيا والدين، أبو المعالي محمد بن قاسم أمير المؤمنين، سلطان الإسلام والمسلمين، قاتل الكفرة والمشركين، قاهر الفجرة والمتمردين، حامي حوزة الدين سلطان الديار المصرية، والفراتية، والبلاد الشامية، ملك البحرين، خادم الحرمين الشريفين، ولد السلطان المرحوم المنصور سيف الدنيا والدين، قلاوون الصالحي، [٩٨/ب] أدام الله أيامه وصيّر في الخافقين رايته وأعلامه، وجعل السعد والإقبال / حيثما توجه أمامه.

وكان ابتداء العمل في شهر ربيع الأول وانتهاءه في جمادى الآخرة عام أحد وسبعين وسبعمائة للهجرة النبوية(١).

ولقي جموع التتار غير ما مرة، فعظم بلاؤه وغناؤه، وكانت الحروب بينهم على الغلاب والسجال.

فلولا أن الله عز وجل جعله شجاً في صدورهم، وسداً بين المسلمين وبينهم لكانوا قد استضافوا البلاد الشامية والمصرية إلى ما افتتحوه من الأقاليم العراقية.

واتصلت بين الملك الناصر، وبين السلطان أمير المسلمين بالمغرب الجليل القدر الشهير الذكر أبي الأملاك من بني مربي، وقدوة الملوك المجاهدين الصالحين أبي الحسن نضَّر الله وجهه، وتوجهت إليه من بابه الكريم الهدية الشهيرة على إثر تملكه مدينة تلمسان عنده حسبما نذكر إذا أعان الله تعالى بالاقتضاء إلى محل ذلك، ونحن نجلب عروضها ليقف على ذلك من يتشوق إليه منقولاً من نسخة العقد الذي وقعت الشهادة فيه على متولي قبض الهدية من خدامه، فكانت قُبة من مائة ضيقة وفيها أربعة أبواب.

وقُبة أخرى من ست وثلاثين، ضيقة داخلة جُلة مخلوقة، ووجهها حرير أبيض، وركيزها ابنوس وعاج مرصع، والأكبار فضة مذهبة، والشرائط حرير، ضربت القبتان بالصفصيد وحل فيها جميع الهدية، وصففت جميع الدواب بجهازاتها أم القبة من الخيل ثلاثمائة وخمسة وثلاثون.

من البغال بين ذكور وإناث، ومن الجمال: سبعمائة إلا أنها لم تصفف بل أعدها لحمل الهدية.

ومن البراة والأحرار: أربعة وثلاثون.

ومن أحجار الياقوت: مائتان وخمسة وعشرون.

ومن قصب الزمرد: مائة وثمانية وعشرون.

ومن حبوب الجوهر الفاخر أكثره: ثلاثة آلاف وأربعة وستون.

ومن أحجار الزبرجد: ثمانية وعشرون.

ومن الشدات مجلية الذهب: عشرة.

---

(١) قد مرت بالحرمين الشريفين عمارات كثيرة على مر الأزمان والدهور أشهرها ما هي عليه الآن من بنايات خراسانية وتجصيص أو تجليد رخامي وبلاط عازل أو طارد للحرارة وتكييف مركزي في كثير من قطاعات الحرم المكي وكل الحرم النبوي وساحات خارجية فسيحة ومبلطة بالرخام النادر، والأنوار المبهرة، ودورات مياه للوضوء والتطهر تحت الأرض وفوقها ومصاعد كهربائية وتوفير مياه الوضوء والشرب من زمزم في كل بقعة حتى في مسجد المدينة يوماً.

ومن أزواج مهامز الذهب: عشرة.

ومن أزواج الأركب: عشرة واحد كله ذهب، وثلاثة كلها فضة، وستة مزججة مذهبة على الحديد.

وأتاب من الضمات ذهباً وماشية مذهبة.

وحُلل: ثلاثة عشر وعشر كلل ومخاد حُلة.

ونزق ذهب: مائتان.

وأنزاق ذهب: عشرون.

وقدود: ستة وأربعون.

وفرثية حُلّة.

وعشرة علامات معششة.

وعشر وقايات مذهبة.

وستة وعشرون قناعاً مذهبة.

[I/٩٩] وثلاثون/ من وجوه اللحف حرير وذهب.

ومائتان من المحررات المذهبات الرفيعة المختمة.

وخيطان أحدهما: حلة. والأخرى تزن وثلاثة وعشرون شقة من الرصان، واثنان من خمائل الحُلة.

وعشرة براقع للخيل منها ثمانية من الحلة.

وأمثلة الخيل: ثلاثون.

وثلاثة طنافس من الحرير.

وحنبلان من الحرير.

وعشرة حنابل من الحرير والصوف.

وحنابل ولا نشريثية.

وزمورية: مائة وسبعة.

وأربعة آلات من الجلد التركي.

ومن درق اللكاء المثمنة ومن الأكسية المحررة أربعة وعشرون.

ومن البرانس المحررة: ثمانية.

ومن أزواج المجفف: خمسون.

وعشر لزمات فضة.

وستة عشر شقة من الملف.

وأما أزواد الحجاج:

فأعطى للحرة المكرمة أخته، رحمها الله، ثلاثة آلاف دينار من الذهب.

وما بين كسوة برسم العرب. [٩٩/ب]

ولمن سفر معها ستمائة وسبعين.

ولأبي إسحاق بن أبي يحيى ثلاثمائة دينار من الذهب، وكسوة رفيعة.

ولعريف بن يحيى السويدي ألف دينار من الذهب إلى العدد الكثير من الذهب العين فيهم الوصيفات والخدم.

ولمسوم التحبيس على قراءة الربعة الكريمة ستة عشر ألفاً وخمسمائة دينار.

وتوفي السلطان الملك الناصر بعد أن مهد الدولة، وأرسى قواعدها، وأراح نفسه من كل من يقع الشغب منه من كبراء الأتراك، ومشهور أمرائهم، قطربغا الغجري، وطشمر حمص أخضر، فلم يبق عليهم، وفي ذلك يقول بعض شعرائهم:

طوى الرداء طشتمر بعد ما بلغ في دفع الأذى واحترس
عهدي به كان شديد القوى أشجع من يركب ظهر الفرس
ألم يقولوا حمصاً أخضرا تعجبوا بالله كيف اندرس

قلت: وفي أثناء تقييد هذا الكتاب وقفت على مجموع لبعض من يتعاطى التاريخ من أهل المغرب، استحشد فيه واستكثر، وألمّ بذكر هؤلاء المماليك، فكتب فيما كتبنا من أخبارهم إلى هذا التاريخ ما نصه:

فقال: لما ضعفت الدولة العُبيدية بمصر والشام، وظهر فيها الوهن، وتملك الروم أكثر بلاد الشام، وغلبت، مع أن العبيديين كانوا متمسكين بالسنة قد غلب عليهم الرفض والقدح في الصحابة رضي الله عنهم.

واستباحوا من المكوس شيئاً ينكر، منها:

أنهم جعلوا على كل من أتى من المغرب يريد الحج عشرين مثقالاً تقبض منه بديوان الانكشارية، ومن تعاص من أداءها علق من أنثيه، وضرب بالسياط.

وزعموا أن من الوظيفة التي تؤخذ من الحجاج برسم أهل مكة ونفقاتهم.

فمقتهم الناس، ونفذت أيامهم، فخاطب أهل دمشق من بلاد الشام أمير المؤمنين المستنجد بالله العباسي، صاحب بغداد، وكتبوا إليه بيعتهم لأن يبعث إليهم عامله.

فبعث إليهم صلاح الدين يوسف بن أيوب من بغداد حتى دخل دمشق وملكها وخطب بها للمستنجد بالله العباسي، وذلك في سنة أربع وستين وخمسمائة، فأخذ يقاتل الترييين حتى أفناهم وتملك جميع الشام وأكثر بلاد مصر والحجاز.

فلما توفي القاصد استولى صلاح الدين على جميع البلاد، فولى أخاه على مصر، وكان له أخ ثالث ولاّه أمير المؤمنين المستضيء على اليمن.

وبقي صلاح الدين بالشام يجاهد الشام ويفتح بلاده التي كان الروم قد غلبوا عليها في أيام العبيديين، ومعاقلة، فكان فتحاً ثانياً لبلاد الشام على يديه وفتح بيت المقدس.

قال ابن جبير في كتاب «الرحلة» له: كان فتح بيت المقدس الفتح الثاني على يد الملك الفاضل صلاح الدين بن أيوب رحمه الله ونفعه، يوم الجمعة لثلاث بقين من رجب الفرد سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة.

وكان تغلب النصارى عليه في سنة ثلاث وتسعين وأربعمائة.

فأقام بأيديهم نحو التسعين سنة.

وكتب بالفتح إلى أمير المؤمنين الناصر العباسي ببغداد، فَسُرّ الناس بذلك، وفرح المسلمون ودعوا له بالمشرق والمغرب.

ولما ملك صلاح الدين مصر أزال مكوسها وظلاماتها وكل ما أحدثه بها بنو عبيد الله.

وبنى المدارس، والمارستانات والجسر على النيل.

وبنى في الإسكندرية دار إبراهيم لنزول غرباء المغاربة الذين يأتون برسم الحج، وأجرى عليهم فيها التضيف وما يحتاجون إليه طوال مقامهم بها.

وكان رجلاً صالحاً فاضلاً منصوراً.

وأخبار صلاح الدين قد ذكرها العماد الأصبهاني في كتابه المسمى بـ«البرق الشافي».

[١/١٠٠] وتوفي الملك الفاضل صلاح الدين يوسف بن أيوب في خلافة الناصر / العباسي ضحوة يوم الأربعاء السابع والعشرين من صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة.

فكانت أيامه بمصر والشام من حين توفي العاضد واستقام له هو الأمر إلى أن توفي اثنتين وعشرين سنة وأربعة أشهر.

وولي بعده أخوه العادل الملك الثاني منهم، واسمه حمزة بن أيوب.

وكان والياً لأخيه على مصر، فولي الملك بعد وفاة أخيه.

وكتب له أمير المؤمنين الناصر بعهده على مصر والشام، وتسمى بالملك العادل.

فاقتفى طريقة أخيه في الفضل والدين والعدل والمواظبة على الجهاد، وتأمين البلاد، وضبط الثغور، فكانت أيامه غرة في الدهر.

ثم توفي الملك العادل بحماة من بلاد الشام سنة ستمائة.

وولي بعده الثالث منهم وهو الكامل، واسمه يحيى ابن الملك العادل، فأخذ بسيرة أبيه وعمه في العدل والرفق وضبط الثغور، ومداومة الجهاد في البر والبحر.

وكتب إليه أمير المؤمنين الناصر عهده على ما كان عليه سلفه، إلى أن توفي.

وولي بعده الملك الصالح.

وكانت وفاة الملك الكامل في ذي الحجة سنة سبع عشرة وستمائة.

ولما ولي الملك الصالح، واستقام أمره بالشام والحجاز أمر بغزو بلاد الروم بالبر والبحر، فقامت قيامتهم لذلك، واجتمعت كلمة الروم بأسرها على غزو بلاد مصر بأسرها. وكان لملك الروم المغرب بالإفرنسيس ما لا يحصى عدده، وأتته وفود الروم من جميع بلدانهم.

فقصد بلاد مصر في عدد عظيم وعدة لم ير الناس مثلها، فنزل بمدينة دمياط من بلاد مصر، ودخلها بالسيف فاستشهد فيها خلق كثير من المسلمين، وانتشرت جيوش الروم في بلاد مصر. فخرج لمحاربته الملك الصالح وتنحى له عن بلاد السواحل، مظهراً له أنه عجز عن لقائه لكي يتوغل اللعين في أعلى بلاد مصر وينقطع عن المادة من البحر.

فتقدم الرومي من بلاد مصر مطالباً للمسلمين. وعزموا على لقاء مصر، فمرض الملك الصالح ثلاثة أيام وتوفي قبل التقاء الجمعين.

وكانت له جارية حظية عنده تركية، اسمها بلغتهم خاتون، وتلقب بشجرة الدُّر.

كانت حازمة في غاية الذكاء والحذق والدهاء، فأخفت موت سيدها، وجعلت خلفه من تُمسكه وتحرك أصبعه، ويدخل عليه القواد والأمراء فتخاطبهم عنه بما يفعلون وهم يرونه يشير بأصبعه، / فلم يشكوا في حياته. [١٠٠/ب]

فأخذت في مقابلة الروم وقتالهم، وجعلت الملك الصالح في هودج عليه ثيابه وآلته، وأدخلت خلفه من يُمسكه، وتقدمت هي راكبة أمام الهودج، ومماليكها يحفون بها، والطبول والبُنود فوقها.

فالتقى الجمعان، فكانت بينهما حروب عظيمة هزم فيها الروم، وأُخذ ملكهم وهوى الافرنسيس أسيراً.

وركبهم المسلمون بالأسر والقتل، وغنموا جميع أموالهم التي كانت في البر.

ولما رأى من كان في المراكب بالبحر ما نال أهل البر، رفعوا قلوعهم وأخذوا في الفرار. فأخذ الافرنسيس وأُتي به إليها، فأمرت به، فحُبِس في قفص من حديد وأدخلته القاهرة على جمل بين يديها.

وأظهرت موت سيدها، وملكت الأمر بعده، وسلمه القواد إليها لما ظهر من حزقها ودهائها، فخرجت الأمر باسمها.

وخططت بالستر الرفيع والحجاب المنيع مدة من سنتين.

ثم اجتمع الأمراء والقواد والفقهاء، وقالوا: لا يليق بالإسلام أن تدبر أمره امرأة. فعرضوا عليها أن تتزوج من شاءت منهم ويكون الذي تختاره هو الملك.

فردت الأمر إليهم.

فاختاروا لها المعز، وهو مملوك لورثة الملك الصالح، فاجتمع الورثة على عتقه فأعتقوه، وتزوجها وولي الملك.

ولما تزوج المعز شجرة الدُّر وولي الملك أقام سنة، وتزوج على شجرة الدُّر بنت ملك العجم، فغارت بها، فخنقته في الحمام، وزعمت أنه مات حتف أنفه.

وولي قافان بن المعز يوم وفاة أبيه غرة ربيع الثاني سنة ست وخمسين وستمائة.

فلم يصلح للملك، فخلع في آخر ربيع الأول سنة سبع وخمسين وستمائة. فمدته سنة تامة.

وفي أيامه ملك التتر بغداد وسائر بلاد العراق.

وانقطعت الدولة العباسية، واستبدت المماليك بالأمر في الشام، ومصر، واليمن.

وولي الملك المظفر مملوك الملك المعز فغلب على المملكة بقتل مولاته شجرة الدُّر، وخلع ولد المعز.

وتملك وخرج إلى جهاد التتر عند رجوعه من غزاة الإفرنج.

وكانت وفاته في آخر شهر ربيع الثاني سنة ثمان وخمسين وستمائة، فكانت أيامه سنة وشهراً.

وولي الملك الظاهر بيبرس، ويلقب البندقداري[١].

---

(١) قال ابن العماد في شذرات الذهب (٥/ ٣٥٠) في أحداث ووفيات سنة (٦٧٦): في السابع من المحرم قدم السلطان الملك الظاهر فنزل بجوسقة الأبلق ثم مرض في نصف المحرم فتوفي بعد ثلاثة عشر يوماً، فأخفي موته وسار نائبه بيلبك بمحفة يوهم أن السلطان فيها مريض إلى أن دخل =

وكان قد خاف من الملك المظفر أن يقتله فَهَمَّ بالفرار، فلقيه رجل صالح وهو يتصيّد فقال له: لا تخف يا بيبرس، سر واتق الله فيما / تليه من أمر المسلمين، فإنك [١٠١/أ] الملك الظاهر، فولي بعد المظفر.

وكان فاضلاً، عادلاً، حازماً، لم يكن بعد صلاح الدين أحسن منه.

توفي في شهر المحرم سنة ست وسبعين وستمائة.

فدولته ثماني عشرة سنة.

وولي الملك السعيد بن الظاهر اسمه محمد، ويعرف بالخضر.

ولي الملك بعد أبيه ثلاث سنين، ثم خَلَعَ نفسه ولجأ إلى حصن الكرد وهو من أمنع حصون العرب.

وكان والده الملك الظاهر قد بناه وحصنه وأعدّ فيه من الطعام والأدام والسلاح والمال ما لا حد له.

وتركه عُدة لحوالة الدهر، فاستقر به الملك السعيد، وتخلى عن الملك شهر صفر سنة تسع وسبعين وستمائة.

فدولته ثلاث سنين وشهر واحد.

= بالجيش إلى مصر فأظهر موته وعمل العزاء، وحلف الأمراء لولده الملك السعيد، وكان عهد له في حياته. والملك الظاهر هو السلطان الكبير ركن الدين أبو الفتوح بيبرس التركي البندقداري، ثم الصالحي، صاحب مصر والشام، ولد في حدود العشرين وستمائة واشتراه الأمير علاء الدين البندقداري الصالحي، فقبض الملك الصالح على البندقداري وأخذ ركن الدين منه فكان من جملة مماليكه. ثم طلع ركن الدين شجاعاً فارساً مقداماً إلى أن بهر أمره وبعد صيته وشهد وقعة المنصورة بدمياط. ثم كان أميراً في الدولة المعزية، وتنقلت به الأحوال، وصار من أعيان البحرية، وولي السلطنة في سابع عشرة ذي القعدة سنة ثمان وخمسين. وكان ملكاً سرياً غازياً مجاهداً مؤيداً عظيم الهيبة خليقاً للملك، يضرب بشجاعته المثل. له أيام بيض في الإسلام، وفتوحات مشهورة، ومواقف مشهودة، ولولا ظلمه وجبروته في بعض الأحيان لعدّ من الملوك العادلين. قاله في «العبر».

وقال ابن شهبة في «تاريخ الإسلام»: توفي بقصره الأبلق بمرجة دمشق جوار الميدان وغسلوه، وصبروه، وعلقوه في البحيرة إلى أن فرغ من الظاهرية فنقلوه إليها. وكان قد أوصى أن يدفن على الطريق وتبنى عليه قبة، فابتاع له ولده الملك السعيد دار العقيقي بسبعين ألف درهم، وبناها مدرسة للشافعية والحنفية ونقله إليها ووقف عليها أوقافاً كثيرة. وفتح بيبرس من البلاد أربعين حصناً كانت مع الفرنج افتتحها بالسيف عنوة.

وقال الذهبي: انتقل إلى عفو الله ومغفرته يوم الخميس بعد الظهر الثامن والعشرين من المحرم بقصره بدمشق وخلف من الأولاد الذكور الملك السعيد محمد ولي السلطنة وعمره ثماني عشرة سنة، والخضر، وسلامش، وسبع بنات. ودفن بتربة أنشأها ابنه.

وَوَلّي سلامش بن الظاهر بعد تخلي أخيه السعيد عن المُلك، فملك أربعة أشهر.

وخلع في آخر رجب سنة تسع وسبعين المذكورة.

وولي الملك المنصور، واسمه قلاوون، ويعرف بالألفي لأنه كان ابتاعه الملك الظاهر بألف درهم، ولي بعد سلامش.

فقاتل التتر وهزمهم هزيمة عظيمة قتل فيها من التتر ما يزيد على الستين ألفاً، وفتح قلعة المرقب، وفتح طرابلس الشام، وأخذ في غزو مدينة عكا، فمات بظاهر القاهرة في آخر شهر صفر سنة ثلاث وتسعين وستمائة.

فمدته ثلاث عشرة سنة ونصف.

وولي الملك الأشرف، واسمه خليل ابن الملك المنصور قلاوون، ولي بعد أبيه، فتمم حركته إلى عكا فافتتحها وخربها وبعدها فتح قلعة الروم وخربها، وقتل الأشرف بساحل مصر، قتله مماليكه في صيد كان خرج إليه.

وكان قتله في شهر شعبان سنة ست وتسعين وستمائة. فمدته ثلاث سنين ونصف.

وأخبرني من حضر معه فتح عكا: أنه خرج إليها في ثلاثمائة ألف مقاتل من المغاربة، منها ثلاثون ألفاً، والمطوعة خمسة وأربعون ألفاً، والحرافيش خمسة وأربعون ألفاً، والمرتزقة ماتتا ألف، فوصل إليها، فنزل حولها، وشرع في قتالها وأمر الأشراف بحفر تحت الأرض حتى سامت برجاً عظيماً من أبراجها، وأمر بالنفق الذي حُفر، فأشحن بالنار بعد أن ملىء حطباً، وأمر كل فارس في عسكره أن يأتي بحزمة حطب إلى حشيش ومخلاة مملوءة بالتراب فقذف ذلك في الحفير الدائر بالمدينة.

[١٠١/ب] ولما تم له ذلك، وأضرمت النار في الحطب الذي حُشي به النفق المحفور تحت البرج، أمر جيشه ورماته ورجاله أن يسابقوا لوقوع البرج، وأن تكون دفعة الخيل ورمي الرماح واقتحام الرجال وضرب الأطبال والتشهد والتكبير عند سقوط البرج.

فسقط البرج عند وقت الزوال، وتوسط الشمس في السماء.

فكبّر المسلمون بالشهادة، وضربت الطبول، وهي ثمانية عشر ألف طبل، ودفعت الخيل والرجال فصعق أكثر أهل البلد رعباً عند تلك الضجة وقصد الفرسان الحفير فارتدم من ساعته.

وملك المسلمون البلد من ذلك البرج الساقط، وانتشروا في المدينة بالقتل والسبي والنهب، وفرّ من الروم خلق كثير في مراكب البحر، ولجأ نحو الثمانية عشر

ألفاً منهم إلى قصبة المدينة فتحصنوا، وأحدق بها المسلمون، فأخذت بعد العصر من اليوم بعينه، وقتل من كان بها وأُسر.

فتحصل للأشرف في خُمس مدة الغزاة ستة آلاف بكر، ومن السبي والأموال ما يقصر الوصف عن حصره.

وتولى بيدرة مملوك المنصور قتل الأشرف وولي مكانه.

فلم يتم له الأمر لأنه ولي بعد صلاة العصر وقتل في غد عند الضحى وقتل معه خمسة آلاف من المماليك.

وولي الملك الناصر بن المنصور، وهو محمد الناصر، ولي يوم قتل بيدرة ثاني يوم من وفاة أخيه الأشرف.

فاستقام له الملك إلى أن خُلع منسلخ ذي الحجة سنة ست وتسعين المذكورة.

فمدته الأولى أربعة أشهر وأيام.

وولي كتبغا، ولقبه زين الدين، وهو مملوك للمنصور. خرج إلى الشام برسم الغزو فهم وزيره لاجين بقتله وتأمر مع الأمراء على ذلك، فانتهى الخبر إليه أنهم عزموا على قتله، فهرب منهم إلى بغداد وذلك في مستهل رجب سنة سبع وتسعين وستمائة المذكورة.

وقتله طغيجون مملوك المنصور في آخر جمادى الآخرة سنة تسع وتسعين وستمائة.

فمدته سنتان كاملة.

وولي الملك الناصر المتقدم محله إلى المُلك ثانية.

وسبب إعادته: أن الملك المنصور كان استنزل الخضر من حصن الكرد، ونفاه إلى القسطنطينية العظمى.

فلما قُتل... [1] لاجين، استدعى الأمراء الخضر من القسطنطينية، ووصل فعرضوا عليه المُلك، فأبى وأشار عليهم بتولية الناصر.

فولوه مرة ثانية / فاستقام له الأمر في مدته الثانية، وتوطدت له المملكة. [١٠٢/أ]

وفي مدته الثانية تغلب على التتر في بلاد الشام فصالحهم أهل دمشق بمائة قنطار من الذهب.

وقيل: بألف قنطار.

(١) كلمة متراكبة الحروف لم أتبين قراءتها.

فتحرك إليه من مصر وأتت وفود العرب والحجاز واليمن بالسفن مع التتر، وكانت بينهم حروب عظيمة، قتل فيها من التتر خلق عظيم، وهزمهم وأخرجهم من الشام، ولم تقم لهم بعدها قائمة إلى أن أسلم ملكهم حدبندة بن قازل بن هلوب بن قاقان.

ودعا التتر إلى الدخول في الإسلام، فدخلوا في الإسلام طوعاً منهم وكرهاً، واجتمعت كلمتهم.

ولم يبق ببلاد العرب كافر إلا أن كان ذمياً من أهل الشام من قبلهم.

وكان إسلامهم في سنة ثمان وسبعمائة.

وفي سنة ست عشرة وسبعمائة غزا الملك الناصر مدينة ملطية من بلاد الشام ففتحها عنوة بالسيف، وأخذ فيها من الأموال والحلي ما لا يجر به الحصر.

ومن السبي اثنين وسبعين ألفاً، حتى كانت الرومية لا يوجد بمصر من يلتفت إليها من كثرتهن.

ولما فرغ الناصر من فتح ملطية، سار منها إلى الحجاز برسم الحج، فوصل إلى المدينة وفرق فيها أموالاً عظيمة، وتصدق بمائة ألف مثقال.

وخلع أميرها حميضة بن أنجمان وولي عليها ثقاته وأمرهم بالرفق بأهلها وحفظ جوار رسول الله ﷺ.

وانصرف منها إلى مكة وفرّق فيها كذلك أموالاً جليلة، وخلع عنها أميرها ولد أبي نِميّ وقتله إذ كان يضرب الحج والمجاورين.

وحج السلطان في تلك السنة.

فلما عزم على الرحيل من مكة استخلف عليها الموحدي، وارتحل إلى مصر.

فهو الآن ملك الشام، والحجاز، ومصر، وخدمته ملوك الشام بأسرها، ودخلت في طاعته ومادته، وخافت بأسه.

وإليه انتهى التاريخ والحمد لله وحده.

قلت: وبين هذا المنقول وبين ما قيدناه قبله خلاف ليس باليسير في وصول صلاح الدين من بغداد مستدعي إلى الشام.

وفي عدد إخوته.

وفي الخبر عن شجرة الدُر وما عملت بالملك الصالح من التمويه به بعد موته حتى هزم الإفرنج.

ونحن: استندنا فيما كتبناه إلى النقل عن العماد الأصبهاني، خاصة الملك

صلاح الدين وملازمة الكاتب عنه وعن ولده ومن لا يتهم بعدم الخبرة بأحواله، إلى آخر حديث صلاح الدين.

ثم لما نقلنا ما بعده من تاريخ الملك المعظم بوران شاه ابن الملك / الصالح [١٠٢/ب] أيوب إلى آخر الحديث في أبناء الملك الناصر، استندنا فيه إلى ما كتبه الأديب المؤرخ المصنف أبو العباس بن أبي حجلة مستوطن القرافة بمصر الآن.

وهذا الفن شاق في جملته، وهو أيضاً لا يتهم بعدم التحقيق، وناقل عن فضلاء من خدام الدولة، كابن فضل الله وغيره.

فالناظر في هذا الكتاب مخيّر بأي الخبرين شاء إن شاء الله.

وأما ما ذكرته في شأن الوقيعة بملك النصارى الافرنسيس الذي تقول فيه المشارقة: الفرنسيس، فالذي عندي فيه:

أن الروم لا تزال طالبة تلك البلاد الشامية، والمصرية، وبلاد الإسكندرية، فتارة تشغلها الشواغل فيسكن الطلب ويفتر، وتارة تفرغ إلى المسلمين فتحشد وتنفر، وإنها نازلة دمياط بقوة عظيمة.

ولم يسع المسلمين إلا الإفراج لهم عن الساحل بعد أن شحنوا دمياط بكل ما في الوسع.

فلقد ذكر لي بعض الشيوخ أن خزيتها اشتمل على جباب وصهاريج مبنية ملئتا من الخليج للأيام، به ذبح الأمين الجواسيس وجعل فيها ما يناسب هذا من العدد والطعام.

وإذا المسلمين فروا عن دمياط إذ رأوا ما لا قِبَل لهم به، وتخلفوها موفورة ولم يصحبهم منها بشيء.

وأن النصارى لما قربت من المدينة ولم يُبصروا على سورها أحداً قدروا أن ذلك لمكيدة، فأحجموا وتوقفوا حتى تحققوا الأمر، واستولوا عليها وملكوها وسكنوها واستندوا إليها بالمعلات، فكانت عساكرهم بأزابها وأجفانهم بساحلها. ثم انبسطوا في البلاد، وتمادوا إلى زمان الفيض، إذ الفيض يكون بتلك البلاد بعد الفراغ من غلة الصائفة. فتورطوا واجتمعت عليهم أيدي المسلمين من كل جهة، واتفق في الوقت حضور جمع كثير من رجال المغاربة عددهم عشرة آلاف، كانوا صادرين من الحج، كان لهم غناء كثير، واستشهد منهم عدد كثير. وتوفي سلطان البلاد المصرية في أثناء ذلك.

وسُقط في أيدي المسلمين، إلا أن النواب والأمراء والحافظين الأمر على ولد السلطان استناب بعضهم، وحسن صبرهم، ونصر الله الفئة القليلة على الفئة الكثيرة بإذن الله، والله مع الصابرين.

ولم تكن الهزيمة عن كثير قتال، لكن زلزل الله أقدام الروم وهانتهم البلاد، [١٠٢/أ] ورابهم البُعد عن المحلاب، فرجعوا / والمسلمون في أعقابهم، وفيض النيل، وجهلهم من أحوال جسوره بما يعرفه أهل البلاد يرديهم.

فوقع فيهم النهب واستحر القتل والتهمهم الوبال وأثخنتهم النبال، وضاقت عن أسراهم الجبال.

ثم حصرهم المسلمون في المحلة الكافرة، وكانوا قد دلوا عليها خنادق وأسواراً من الخشب والحجارة، وزعموا أنه كان على مضارب السلطان سور سرجه بعمد الحديد.

واقتحمت عليهم المحلة، فتعلق بالأجفان منهم أمم كثيرة.

وانحصر بمدينة دمياط أخرى، فنزلوا عن عهد، وأخذ الفرنسيس أسيراً عند الكسرة في جملة الأمراء والكبراء.

إذ كانت المحلة قد جمعت أزيد من خمسة عشر ملكاً.

واعتقل الافرنسيس في بعض الديار بالقاهرة، وتعرف بدار ابن لقمان، وكان يتولى حراسته طوابيش من خدمة السلطان يسمى صبيحاً.

فلما أفتك الافرنسيس وسُرح اشترط عليه ما رضي المسلمون تعرف منه بعد ذلك وعيد وتهديد، فخوطب بهذه الأبيات مع رسالة في معناها:

قل للفرنسيس إذا جئته ... مقالة صدق من قول نصيح[١]
أخزاك الله على مثلها ... من قتل عُباد لعيسى المسيح
أتيت مصر تبتغي ملكها ... حسبت أن الزمر يا طبل ريح
فجابك الحال على أدهم ... ضاق به عن ناظريك الفسيح
إن كان بابكم بذا راضياً ... فرب غِشّ قد أتى من نصيح
فاتخذوه كاهناً إنه ... أنصح من شق لكم أو سطيح
وقل لهم إن أضمروا عودة ... لأخذ ثأرٍ أو لعزم صحيح
دار ابن لقمان على حالها ... والقيد باق والطواش صبيح

وقد كنت وقفت به أيام الشبيبة السالفة على كتاب انفرد بمجمل من هذه الغزاة ومفصلها من تأليف الإمام المحدث جار الله أبي اليمن ابن عساكر رحمه الله، بَعُدَ عهدي به الآن بحيث لا أثق بالنقل منه.

(١) الشطر الثاني من البيت في الهامش على هذا النحو: «مقالة قد صدرت عن نصيح».

رجع التاريخ(١)

وكان مولد السلطان الملك الناصر، سنة أربع وثمانين وستمائة.

وتوفي يوم الأربعاء تاسع عشر شهر ذي حجة سنة إحدى وأربعين وسبعمائة.

ودفن ليلة الخميس بالمدرسة المنصورية بين القصرين.

/ وأنزل على والده الملك المنصور رحمهما الله. [١٠٢/ب]

وكانت مدة إقامته في الملك النوبة الأولى والثانية نيفاً وأربعين سنة.

وولي بعده ولده أبو بكر المنصور.

دولة السلطان الملك المنصور أبي بكر

جلس على سرير الملك يوم الخميس الموفى عشرين لذي الحجة سنة إحدى وأربعين وسبعمائة، ثاني يوم وفاة أبيه السلطان الملك الناصر.

وذكره صاحب السكردان فقال:

كان أبوه الملك الناصر قد نص عليه وأسند الوصية إليه بالمُلك، وذلك بحضرة قوصون وبشتاك، وجماعة من أمراء الأتراك، فما اختلف عليه اثنان ولا قيل هذان خصمان.

فسار سيرة حسنة، وجلس على سرير الملك وقد ناهز العشرين سنة.

فولي من ولي، وعزل من أدبر.

وتولى بسط العدل، وأكثر البذل، وأجزل العطية، وأحبته الرعية، وعامل خاصكية أبيه بالمعروف، وبذل فيهم الألوف بعد الألوف.

فقيل: سار أبوه سيرة العمرين وطار الخبر بعلو همته إلى النسرين.

فلم يكن إلا ريثما اشتد ساعده وتمهدت قواعده، إذ استذلت قرناؤه، وخانه الدهر وأبناؤه، فنسبوه بركوب البحر إلى الخوض مع الخائضين، وشهد، وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين.

ومن ذا الذي ينجو من الناس سالماً وللناس قال بالظنون وقيل

وقد علم الله تحريف ذلك القول، وضعف روايته عن تلك السنة إلى هذا العام، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

فلم يلق إلا كَسِنَةٍ من النوم أو يوم أو بعض يوم إذ أُخذ بغتة.

---

(١) يريد عَوْدٌ إلى ما كنا بصدده من أخبار الملك الناصر.

وقيل: كانت ولاية أبي بكر فلتة، فخرج سابع سبعة من إخوته إلى قوص، وفقد هنالك شخصه الكريم على الخصوص، فأصبح وقد أضمرته البلاد ولبس لفقده، ولا سيما الخطيب، السواد، فأغمض هنالك طرفه المتنبه، وكان آخر ذلك العهد به(١).

وكانت مدته أزيد من شهرين وأيام قليلة، وخُلع في العشر الأخير من صفر سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة، رحمه الله.

دولة السلطان الملك الأشرف كجك(٢)

جلس على سرير الملك بعد خلع أخيه الملك المنصور في أواخر شهر صفر سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة.

[١٠٤/أ] وكان عمره يومئذ ست سنين تقريباً، وهو سن المشترط ذكره في هذا / الكتاب، ومن جلبنا من أجله شجون هذا الكلام.

وقال أديبهم في «الفصول المحشورة»:

الملك الأشرف كجك، تصرف في الأحكام صغيراً.

وأوتي على صغر سنه ملكاً كبيراً إلى أن لحق بعمه الأشرف، وقدم على الجنة وأشرف، فقرعت لفقده الأسنان قرع الأسنّة، وطار خبره في الآفاق، فهنيئاً له عصفوراً من عصافير الجنة.

فيا له من موروث أورث القلب حزناً، وجنى ورد جُني عليه، وربما عوقب من لا جناه.

وجـرم جـره بـبـهـمـاء قـوم فـحـل بـغـير جـانـيـه الـعـقـاب

غير دجناء وأنا المقافُ فيكم فـكـأنـنـي سـبـابـة الـمـتـقـدم

وكان قوصون في أيامه مُشير دولته، ولسان مملكته، فاستولى على المماليك

(١) وقال ابن العماد في أحداث سنة (٧٤٢) (٦/ ١٣٦): وفيها توفي السلطان الملك المنصور أبو بكر ابن السلطان الناصر محمد بن قلاوون، خُلع في صفر. قال السيوطي: لفساده وشرب الخمور، حتى قيل: إنه جامع زوجات أبيه. ونفي إلى قوص، وقتل بها، وتسلطن أخوه الملك الأشرف كجك، ثم خُلع من عامه وولي أخوه أحمد ولُقب الناصر، وعقد المبايعة بينه وبين الخليفة الشيخ تقي الدين السبكي قاضي الشام، وكان قد حضر معه.

(٢) قال ابن العماد (٦/ ١٥٠) في أحداث سنة (٦٤٦): وفيها الملك الأشرف كجك بن محمد بن قلاوون الصالحي، ولي السلطنة وعمره خمس سنين تقريباً وذلك في أواخر سنة اثنتين وأربعين، واستمر مدة يسيرة. وقوصون مدبر المملكة إلى أن حضر الناصر أحمد من الكرك، فخلع ودخل الدور إلى أن مات في هذه السنة في أيام أخيه الكامل شعبان. وله من العمر نحو الاثنتي عشرة سنة.

وتصرف في المملوك والمالك، فأمهل قليلاً، ثم أخذ أخذاً وبيلاً، فنهبت خانقاته، ونكصَت راياته، فبطل زخمه وطبله، وملأ من الحواصل اصطبله، واشتفى به الحسود، وأصبح عبرة في الوجود.

وكيف لا وقد فارق الأهل والولد، وأصبح في الإسكندرية، ورحله في صفد ولم يزل بها سابع سبعة من الأمراء الصقليين إلى أن فرغ زيت قنديلهم، وأمر بمخرجهم بعد تعديلهم، فخلا منهم المكان، ودخلوا في خبر كان.

وقال في كتاب «السكردان» السلطان:

من غريب الاتفاق أن الملك المظفر كجك ولي الملك وهو صغير إلى الغاية، لأن عمره كان خمس سنين وأشهراً.

وكجك: لفظ أعجمي، ومعناه بالعربي: صغير.

فكأنه لاحظ فيه حال التسمية أنه يلي الملك وهو صغير.

فكان ذلك من غريب الاتفاق.

ثم قال: لا جرم أنه جرى عليه ما يشيب له الولدان.

وقالت الأيام لعكس مراده إنك لتعلم ما نريده؛ فخذل بعد أخيه المنصور وجرت عليه، والله غالب على أمره.

وخلع الملك الأشرف عن خمسة شهور بسبب منافسة الأمير المدبر دولته قرصون، واعتقل في قلعة الجبل إلى أن توفي بها في أيام أخيه الملك الكامل. شعبان.

دولة السلطان الملك الناصر شهاب الدين

وهو أحمد ابن السلطان الملك الناصر.

جلس على سرير الملك بعد خلع أخيه الأشرف كجك.

وكان قد قدم من الكرك، فأقام بالملك بمصر أربعين يوماً، ثم رجع إلى الكرك ولم يزل هنالك حتى خُلع يوم الخميس ثاني عشر محرم سنة خمس وأربعين وسبعمائة.

وكان موته / إلى أن خلع وولي أخوه الملك الصالح إسماعيل، ستة أشهر. [١٠٤/ب]

وذكره في «الفصول»، فقال:

كان أكبر إخوته سناً، وأردهم في العين وزناً، هو ليثهم الغالب، وشهابهم الثاقب.

وكان أبوه قد أخرجه إلى الكرك وهو صغير السن، فجعلها محط رحاله، وكنانة سهامه ورجاله.

وأقام بها مدة وأنشأ بها نشايات عدة ولم يزل بها إلى أن حدثت بالشام مظالم، وفعل الفخري مع نائب دمشق فعل الحية بظالم.

واتفق بعد ذلك، بقوصون، ما تقدم ذكره واشتهر بين الناس أمره، فعند ذلك خط له عقائل الممالك وطلب إلى مصر من هنالك، فحضر بعد تثبت ومهلة، ودخل المدينة على حين غفلة.

فجلس على سرير الملك بعد أن خلع أخيه المذكور آنفاً.

وأمر بقتل سبعة من الأمراء المعتقلين بالإسكندرية، فمن كان له مخالفاً فولغ في دمائهم بلسان البيان.

وقال حين أخذ بثأر أخيه أبي بكر: يا لثارات عثمان.

فلم يكن إلا كزورة الحبيب وغيبة الرقيب أو غمزة حاجب، أو مَشْقَةِ كاتب، إذ كَرّ راجعاً إلى الكرك التي تربة أترابه ومنار منازل أصحابه:

ركب الأهوال في زورته ثم ما سَلَّمَ حتى ودعا

وكان في أثناء ذلك قد أمسك أميرين كبيرين، أحدهما: نائبه وعاضده.

والآخر: عضده وساعده.

فجعلهما عند وصوله إلى الكرك مُثْلة، وقتلهما شر قتلة.

فأهمل جانب مساعده، وأقبل على ما كان عليه من اللهو أيام والده.

فتفاقم الأمر، واختصم زيد وعمر، فأنشأ الخلان، وخرجت الخوارج في الأطراف وتنمرت بنو نمير.

وقيل للخير فيهم لا خير ولا ميرة، فاتسع الخرق على الراقع، وزرع رجاله فقطعت الطرقات وكثرت السرقات، واضطربت الأحوال، وكثرت الأراجيف والأهوال، ووقع المراء، وتجاذبت الآراء، وكثر الفساد، وخربت البلاد، فآل الأمر إلى خلعه، وولاية أخيه الصالح، وكان ذلك من أكبر المصالح.

دولة السلطان الملك الصالح عماد الدين

وهو أبو الفداء إسماعيل.

جلس على سرير الملك بعد خلع أخيه الملك الناصر أحمد، يوم الخميس، الثاني والعشرين لمحرم سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة.

وجرى ذكره في «الفصول الحجلية».

كان من أجود الإخوة وأكثرهم مروءة ونخوة، على شكله طلاوة، وفيه خير وتلاوة.

/ اجتمعت عليه الآراء بعد خلع أخيه الناصر، فحلفت له العساكر ودقت له المشاهر. [١٠٥/أ]

فعدل في الأحكام، وعامل الرعية بالإكرام، فأمنت البلاد، وطابت قلوب العباد، فلو برك القطا ليلاً لناما، فزال بولايته البأس.

وقيل لخطب محاسنه: ما في وقوفك ساعة من بأس.

وكان أخوه الملك الناصر قد تحصن به الكرك.

وأخرج منها ما أخرج وترك منها ما ترك.

حذر أمور لا تصير وآمن ما ليس ينجيه من الإقرار

فأمر بتجهيز العساكر إليه والتضييق عليه، فأقبل إليه ابن صبيح حين أدبر الطلاح، وكسيت رؤوس الجبال عمائم الغمام.

غمام ربما مطر أشقاها فأقحط ودقه البلد الريعا

هذا بعد أن دق النفير، وجمع العشير، فأخلا الضياع، وملأ بأهل البقاع، وكثر بأهل السديد السواد، وأكثر من الحجازيين الذين نقبوا في البلاد.

ثم تكاثرت من بعده العساكر، وأقبل من المصريين كل شجاع معتقل من رمحه فناشر، فربت في أثرهم الدبابات، وزحفت الزاحفات.

فتأهب للقائهم، واستقل جمعهم وهم ما هم، جم غفير، وجمع كثير، قد ملأت شعوب قبائلهم الشعاب، وأصبحت المصريون منهم، والشاميون، عدد الرمل والحصى والتراب.

فأحدقت حدائق العساكر، وأحاطوا بالقلعة إحاطة السواد بالناظر، وتلقته من سورها على رأي العامة بوجه أبلط من الحجر. فعجبوا حين سكن الريح من خنادقها الهاوية، وعجزوا عن وصف قرائر قفطها وما أدراك ما هي؟.

فسورها على شفا جرفٍ هار، وبروجها بين النجوم عالية المقدار.

فالتحم بينهم القتال، وتكسرت النصال على النصال، وأخذت الفرسان والرماة في التحريك والتسكين، وذبح من نزل به القضاء من النشاب بغير سكين.

فجيء عليهم ظلام الغبار، واختلط ونزل على منجنيق الشاميين من منجنيقها الغضبان السخط، فجلعه صنمهم القائم جذاذاً.

وقيل له: فك أو كسر؟

فقال: شيء من هذا أو شيء من هذا.

فوقع بعد الضجة في العطب، وتلت عليه آية النار: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ [المَسَد: الآية ١]، هذا والجد بظلام القتال ممتلىء، وابن صبيح ينشد:

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي   وبالغ فبالغ في القتال والتحريض
ويوقع الناس من رمحه   ونشابه في الطويل والعريض
[١٠٥/ب] / فعلى التراب من الدماء مجاهد   وعلى السماء من العجاج مسوح

فلم تزل الأعمار كالأوقات تنصرم، ونار الحرب من سنة ثلاث إلى سنة خمس وأربعين تضطرم، فحين أخذت الأموال في العباد والثقوب في النجوب، وأشرفوا على أخذها لأن كل محاصر مأخوذ، شكت القلعة إلى ربها. ودخلت نكاية الثقوب إلى صميم قلبها، فبرزت متبرجات الأبراج، وضجت عيون مراقيها سريعة الاختلاج، فجاسوا خلال الديار، واقتلعوه من القلعة وسط النهار.

فلم يسعه وحاله هذه غير التسليم.

والقدوم بعد ذلك على ربّ كريم.

وكان قتله في صفر سنة خمس وأربعين كما تقدم.

دولة السلطان الملك الكامل شعبان

هو شعبان ابن السلطان الملك الناصر.

جلس على سرير الملك بعد موت أخيه الملك الصالح، وحلف له الأمراء يوم الجمعة الثالث عشر لربيع الآخر من سنة ست وأربعين وسبعمائة.

وفيه يقول الشيخ جمال الدين بن نباتة:

شعبان سلطاننا المرجا   مبارك المنظر البديع
يا حُسن مرءاة حين أبدا   هلال شعبان في ربيع

ذكره في «الفصول المنثورة»، فقال:

كان الملك الصالح أخاه لأبويه، فأسند الوصية بالملك إليه.

فجلس على سرير الملك بعده، وعهد إليه الخليفة كعهود أخيه التي ولي.

وكان شديد البأس، صعب المرام، أزرق العينين، طويل الساعدين، محدودب الأنف، يُعد في الرجال، استماله حب المال، وأتعب من ديوانه وحفظته كاتب اليمين وكاتب الشمال.

فأخذ القطيعة على الإقطاعات، وأقام لذلك ديوناً قائم لذلك، فوقع في المهالك، وأنكرت الناس عليه ذلك فخالف العواذل، وقدم الأراذل، وصعب الأمر واشتط، وانحطت البراءة وارتفع البط.

وكان قد خرج عليه يلبغا نائب الشام، ولما شق العصا من خالف أمره وعصا فشق ذلك عليه، وأمر بتجهيز العساكر إليه، وكان ذلك باتفاق مع جماعة الأمراء لديه.

فلما ضرب النفير، وجد العساكر بالمسير، وضاق بهم متسع الفضاء، ووردوا بئر البيضاء، رجع منهم الصادر / والوارد، وحملوا عليه في قلعة الجبل حملة رجل [١٠٦/أ] واحد حتى راء الغبار قد ثار سل الغرار، ونزل من القلعة كجلمود صخر حطه السيل، وقال لفرسه الأدهم حين رقع في سوادهم: اسلك النيل.

فالتحم بينهم القتال، واشتد، وسقط في أيديهم فأخذهم الأمراء باليد.

فكان مدة إقامته في الملك سنة وشهرين.

وولي أخوه الملك المظفر.

دولة السلطان الملك المظفر حاجي

وهو حاجي ابن السلطان الملك الناصر.

جلس على سرير الملك بعد خلع أخيه الملك الكامل شعبان، مستهل جمادى الآخرة سنة سبع وأربعين وسبعمائة.

ومن غريب الاتفاق أن الملك المظفر هذا كان في سجن الملك الكامل، وقد ضيّق عليه وأراد أن يبني حائطاً يدور بمحل اعتقاله، تهمماً بأمره، واتفق أن مد السماط للسلطان الكامل المعتاد لأكله، وجهزوا طعام أخيه حاجي هذا المظفر إليه ليأكله في السجن، فلم يكن إلا كلمح البصر إذ خلع الكامل، فدخل أكل طعام أخيه السجن، وخرج أخوه حاجي وجلس على سرير الملك، وأكل طعام السماط فسبحان الفعال لما يريد.

ذكر هذا الأسجاع الحجلية فقال:

جلس على سرير الملك بعد أخيه المذكور وجرت عليه بعد الأمور أمور.

هذا بعد أن أمره ونسي وقهر، فصفت له الأيام وعند صفو الليالي يحدث الكدر، فلم يزل ناعم البال خلي البلبال إلى أن أمسك جماعة من الكبراء، وأولاد الأمراء فروع الصغير، وقتل الكبير فعامل الناس بالجزر والمد وتجاوز فيهم ذباب سيفه الحد، فحام حمام الحِمام، وذهب بقية القوم الكرام.

فلم يبق إلاّ حماها من الظبي لما شفتيها والشدي السواهد

فلما بلغت الروح التراقي، وعمل عامل سيفه حساب الباقي، سلب القرار، وطلب الثأر، وأخذ مشير القوم في تحريضهم، وخرجوا إلى قتاله بقضهم وقضيضهم، فتأهب لقتالهم، ونزل من القلعة إلى نزالهم، فلما تراءى الجمعان اصطلح عليه الفريقان فدنا منه حين دنا منه الأجل، وقيل: لي لام فيه سبق السيف العزل.

وكان في خلال ذلك قد اشتغل بالطيور عن تدبير الأمور، وعن الأمر والنهي في الاحكام بلعبه بالحمام.

[١٠٦/ب] فجعل / السطوح داره، والشمس سراجه، والبروج مناره، فأطاع سلطان هواه وخالف من نهاه، فبالغ في المراء فنصت لكلام الوشاة على الإغراء.

ما كَلاَم الوشاة إلاّ كِلاَم وحَمَام الأراك إلاّ حِمَام

وخلع الملك المظفر حاجي في الثاني عشر لشهر رمضان[١] المعظم سنة ثمان وأربعين وسبعمائة.

وكانت مدته سنة، وثلاثة أشهر، وأحد عشر يوماً.

دولة السلطان الملك الناصر حسن

وهو حسن ابن السلطان الملك الناصر.

جلس على سرير الملك بعد أخيه حاجي بكرة يوم الثلاثاء الرابع عشر من رمضان سنة ثمان وأربعين وسبعمائة.

وكان سلطاناً جميلاً، وملكاً أصيلاً، بنى المباني الضخمة، وخلف الآثار الشهيرة. وكان يجدد الدولة لو أن الليالي أمهلته، والحوادث سالمته، فكان ذكياً مهذباً ترفع إليه المصنفات وتنجح لديه الرغبات، وجرى ذكره في «الأسجاع الحجلية»، فقال:

---

(١) قال ابن العماد في شذرات الذهب (٦/ ١٥٢) في أحداث سنة (٧٤٨): قتل في ثالث عشر شعبانها الملك المظفر سيف الدين حاجي بن محمد بن قلاوون. وُلد وأبوه في الحجاز سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة. وولي السلطنة في العام الذي قبل هذا ـ كما تقدم ـ واتفق رخص الأسعار في أول ولايته، ففرح الناس به لكن انعكس مزاجه عليه بلعبه وإقباله على اللهو والشغف بالنساء حتى وصلت قيمة عصبة حظيته التي على رأسها مائة ألف دينار. وصار يحضر الأوباش بين يديه يلعبون بالصراع وغيره، وكان مرة يلعب بالحمام، فدخل عليه بعض الأمراء ولامه وذبح منها طيرين، فطار عقله، وقال لخواصه: إذا دخل هذا إليّ فبضعوه بالسيف. فسمعها بعض من يميل إليه فحذره، فجمع الأمراء وركب، فبلغ ذلك المظفر، فخرج فيمن بقي معه، فلما تراءى الجمعان ضربه بعض الخدم بطبر من خلفه فوقع وكتفوه، ودخلوا به إلى تربة هناك فقتلوه، ثم قرروا أخاه الناصر سن مكانه في رابع عشر شعبان. قاله ابن حجر.

السلطان أبو المحاسن حسن الذات، سعيد الحركات، له تهجد وصيام، ومحبة في النبي عليه الصلاة والسلام، سمت همته من النيل إلى السماك الراسخ وسار سيرة أخيه إسماعيل، فهو بقية السلف الصالح، وكيف لا وقد تجنب اللمم، وعدل في الأمم، وأصلح بين الذئب والغنم، واقتدى بأبيه في العدل، ومن تشبه بأبيه فما ظلم، هذا الوصف الطائل أحق بقول القائل:

لسنا وإن كرمت أوائلنا يوماً على الإحسان نتكل
نبني كما كانت أوائلنا تبني ونفعل فوق ما فعلوا

فَلَمَّ دولته وحاشيته وأئمة الملك تقول لسرجها: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ۝١﴾ [الغَاشِيَة: الآية ١]، فبدت لهم كرامات، ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ﴾ [يُوسُف: الآية ٣٥] فغاب كالبدر في سحابه، ورجع كالسيف المسلول من قرابه، فخضعت له الرقاب، وضرب بين الظلام وخلعته ﴿بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ﴾ [الحَدِيد: الآية ١٣]، وأنشده الدهر وأبناء الدهر بغير راعياً عبث الذباب، فأزال عن القلوب الوجل، وأصبح لموشحات مدائحه زجل إلى زجل.

وقالت قلعته المحروسة لسحب الأرزاق: يا سارية الجبل:

غدا سلطاننا ملك البرايا رعاه الله يعدل في الرعايا
/ حواصل عدل والده حواها فأخرج من زواياها الخبايا [١٠٧/أ]
فيا ملك له في الحكم رأي به يقضي إذا اشتبهت قضايا
لئن أمسيت عار من عُيُوب فقد كسيت بنا تلك العرايا
وإن صلت سيوفك في الأعادي رأت تلك الصلات من الخطايا
فمهلاً في التمادي وفي الأيادي فقد حذت النهاية في العطايا

قال الشيخ أبو العباس بن أبي حجلة: ومن الموافقات العجيبة في هذا السلطان:

أنه وافق أباه في سبعة أشياء:

فوافقه في اللقب الخاص والعام، والتسمية.

ومنها أنه ترك الملك وعاد إليه كوالده الملك الناصر.

ومنها أنه جلس على سرير الملك مدته الأولى، وكذلك أبوه جلس في أولى مراته على سرير الملك في الرابع عشر من الشهر.

ومنها أنه جلس في الثانية بمجلس الملك في ثاني شوال، وكذلك في المرة الثانية في ثاني شوال.

قلت: ولما هلك السلطان حسن قتلاً بتدبير الأمير الخاصكي، ولي الأمر بعده السلطان أبو البركات شعبان.

دولة السلطان الملك شعبان بن حسن

وهذا السلطان، شعبان بن حسن ابن الملك الناصر، يكنى أبا البركات، وهو اليوم ملك الديار المصرية وارث المملكة الناصرية، ومخائله تدل بالسماع على أنه أنموذج من جده الملك الناصر رحمه الله في اتفاقات سعيدة، منها:

نصبه للملك في حال الصغير.

ومنها: أنه عاشر على عهده الأمراء وصحبته السلامة، وهو ممن تقدم للملك صغيراً، وحجبه الخاصكي فخذلوه.

ثم بالذي دبر عليه الأمر فقتلوه، وجرت بينهم حروب سالت منها الدماء وسقطت على الأرض قبلهم السماء، وأكلهم الحديد، وبنى منهم العدو العديد.

ثم خلص للسلطان بعد ذلك كله خاصة سليمة.

وجرت أموره إلى اليوم فيما تعرفناه سديدة مستقيمة، وإن امتدت أيامه، والله يمدها بخير للمسلمين ويجعلها نعمة على سائر الدين، ويسهل بما قصد حج بيت الله، وزيارة قبر خاتم النبيين، فيكون ملياً بالتجارب، سديد المسالك والمذاهب، [١٠٧/ب] خبيراً بما / للملوك من الألقاب والمراتب، حذراً من العواقب.

وهو من شرط هذا التقييد فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام.

فإنني أقتضي اجتهادي أيام القيام بتدبير الأندلس استجلاب المودات لأجل ثغرها من جميع ملوك الإسلام لما رأيت في ذلك من الاستظهار على عدو الدين حتى بالأدعية والخواطر فضلاً عن المهاداة والمعاناة ومبلغ إيصال الأيدي وبركة الألفة وإحراز ما للمواخاة في الله من المثوبة، فأخبر الرسول والموجه إليه من هيئته وشكله ومثل من حضر من الصبية بما يدل على صغر سنه وحداثة نشأته، إذا حضر للقابلة مُلبساً أقبية تصف لطافة أعضائه وهيئة جرمه.

وذلك في عام سبعة وستين وسبعمائة، وأما الآن فقد اتصل بنا استقلاله وأنه قد رحب به العز مجاله، وسمت إلى سيرة جده الملك الناصر آماله، وعلى عهده تغلبت النصارى في عام خمسة وستين وسبعمائة من أهل قبرص على مدينة الإسكندرية، فصدهم أسطولهم، وقد شحن بالرجال، والعدد ووصلت صحبته المراكب بالفرسان، والمسلمون على حال أمان وعدم تقية فخذل الناس وجفلوا عندما فضحتهم السهام.

فمن نزل بالساحل من الروم يريدون البلد فضاق عنهم بابه ولم يتمكن لهم سده

ولا المدافعة عنه، فقد اقتحم النصارى عليهم المدينة، وفر الجُل من أهلها على الباب المفضي إلى البر، وجاز الروم في حوانيها، وبيتوا، وعجزت قواهم عن نقل ما اشتملت عليه مما لا يحصيه الوصف، ولا تدركه القول، فأعملوا السيف وسبوا الحريم ولم يقدروا على إمساك المدينة، وقد تداركها كبير الأمراء وكافل السلطان والغالب على أمره الأمير يلبغا الخاصكي فتخلوا عنها بعدما شعثوها وأفسدوا الكثير منها وأعجزهم شجرها عن كمال غرفتهم.

وعاد إليها الإسلام وقد كان الاسفلق بأخطار ليوقع امتثالكم بها، فأقال الله العز، وفرج الشدة، وسكن الرجفة، وعجل الرجعة، وأبقى سبيل الحج مهاباً، وأعلام الإسلام مائلة، وأسباب المسلمين متصلة.

ولم تمض إلا أيام يسيرة وعادت المدينة بمباشرة الأمر المذكور في جهاد ومفاوضة صاحب فرس بما يشفي الصدور، ويبرد الأكباد، فأنشأ الأساطيل العديدة، واستجلب / خدمة البحر، واستدعى الرماة، واستكثر الآلات بما شاعت أخباره، [١٠٨/أ] وعظمت آثاره.

ولو تراخت به الأيام لارتقبت ثمرة تلك العزائم المشحوذة غرارها، ولكن الحكم بيد الله العلي الكبير، والله للإسلام خير ولي ونصير.

ووقعت بيني وبين هذا الأمير أيام تدبيري لملك الأندلس، وحرص على موادة من أسكنني من ملوك الإسلام وحجابهم وظهرائهم ونوابهم استظهاراً واستكثاراً واستعانة حتى بالخواطر والدعوات وإكرام من يقصد بلادهم بالتجارات والأمور المعتبرات معرفة جميلة وصل إليها وأتحف وبدأ في المراجعة، وألطف وأكرم موصل الكتاب وأجزل العناية التي تليق بمثله من أولي حسن المثاب.

وكان مما خاطبته رحمه الله في المقر الأشرف الأعلى مقر المُلك الشريف والعز المنيف والإمارة الغنية عن التعريف، مقر الأمين المؤتمن على سلطان الإسلام والمسلمين، المقلد تدبيره السديد قلادة الدين، المبني على رسوم بره المقام في علنه وسره، لسان الحرم الأمين الآوي من مرضات الله ورسوله إلى الربوة القرار والمعين، المستعين من الله على ما تحمله وأمّ له بالقويّ المعين، سيف الدعوة، ركن الدولة، قوام الملة، مؤمل الأمة، تاج الخواص، أسد الجيوش، كافي الكفاة، زين الأمراء، علم الكبراء، عين الأعيان، حسنة الزمان، الأجل الأسنى، المرفع الكبير، الشهير الأسمى، الحافل العاهل الأكمل المعظم، المؤمر الأمير يبغا الخاصكي، وصل الله له سعادة تشرق غرتها وصنائع تسح فلا تشح درتها، وأبقى تلك المثابة قلادة الله وهو درتها، سلام كريم، طيب بر عميم، يخص إمارتكم التي جعل الله الفضل على سعادتها أمارة والسير لها شارة، ساعد الفلك الدوار مهما أعملت داره ومثل المرسوم كلما أشارت اشارة.

أما بعد:

حمداً لله الذي هو بعلمه في كل مكان من قاص ودان، وإليه توجه الوجوه، وإن اختلفت السير وتباعدت البلدان، ومنه يلتمس الإحسان، وبذكره يشرح الصدر ويمرح اللسان.

والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله العظيم الشأن، الصادق الرسالة والبرهان.

[١٠٨/ب] والرضى عن آله وأصحابه / وأعمامه وأحزابه أحلاس الخيل، ورهبان الليل، وأسود الميدان.

والدعاء لإمارتكم بالسيرة بالعز الرائق، والخير العيان، والتوفيق الوفيق البيان بكسبه المعظم إلى الله حظاً من فضله العميم وافراً، وصنعاً عن محيا السرور سافراً، وفي جو الإعلام بالنعيم الجسام مسافراً، معظماً ما عظم الحق من أبوابكم العالية، وفواضلكم المتوالية، ولا زائد إلاّ تشوّق إلى التعريف بتلك الجوانب الشريفة التي أنتم عمران كمانها المرقوم، وبيت قصيدها المنظوم، والمحاسن الثابتة الرسوم، وتقرير المثول بسيل زيارتها بالأرواح عند تعذرها بالجسوم.

والحرص على صلة هؤلاء تقدمت بين سلف هاتين الجهتين فيم عرف الخلوص من خلالها، وتسطع أنوار السعادة من آفاة كمالها، وتلتمح من أسطار سطورها محاسن تلك المعاهد الزاكية المشاهد، وتعرب عن فضل المذاهب، وكرم المقاصد، والرغبة في أن يجددها بحسن مثابكم وتصلها بمواصلة جنابكم، وتغتنم في عود زمانها الحميد زمانكم، وتؤمل في تمكين مبانيها الوثيقة مكانكم.

فخوطب تلك الأبواب الشريفة في هذا الغرض مخاطبة خجلة من التقصير وجلة من الناقد البصير، يرجو الوصول في حفاوة أيديكم التي لها الآيات البيض والموارد التي لا تغيض، ومثلكم من لا تخيب المقاصد في شمائله ولا تضحي المآمل في ظل خمائله، فقد استمر من حميد سيركم خاطب الآفاق وصحب الرفاق، واستلزم الإجماع والإصفاق، وبلادنا حدّه أعز الله الأمير بلاد مباركة، ما خاب من سلفت له فيها مشاركة إلا وجدها في نفسه ودينه وماله.

والله ألزم من وصى لأمري في كياله، وحمل المعظم الإدلال، والسحب الذي صفت منه الأذيال، والاعتماد على مكارم أخلاق من بالبلاد، حرسها الله بأيامكم العادلة، وزينها بإمارتكم الفاضلة من الطلبة الأخيار، والعلماء أولي الأخطار، والصوفية الأبرار.

إن وجه بعض تواليفه بهرجها منهم على ستره الغيوب وجبره القلوب بعد

المعرفة بأن الفضل على المشارق مقصور وإن إجادة المغاربة قصور، وإن المغرب يوازن مطلع النورة، ومحل البركات الواضحة السفور، لكن لا تعدم الساقطة / [١٠٩/أ] لاقطة، ولا السنة النادرة، مالك المبادرة، والرحمة شاملة، والنفوس لها ليلة ورسالة إلى الضريح الكريم النبوي تُقرر الأشواق ومطلع النور المنير من تلك الأهلة، وملتمس البركات الصهبة الأغداق، وجلالتكم تتكفل فتجعل ذلك موضع له وجهاً أوضح المسالك إلى اتجاهكم لواء ذا جمعة وحسام مما جمعه وحرز حريز وركن عزيز.

ولما كانت المهاداة مشروعة، والنفوس النفيسة على القبول ممن دونها مطبوعة، أصحب الموجّه ما تُنعم أبوابكم المشرفة بقبوله والإغضاء عن قليله، فالقصد معلوم، ومن له أن يقوم بحقكم ملوم، وجهله مفهوم.

نسأل الله جل جلاله يجعله ودّاً به ذاته وذريعة إلى مرضاته، وجمع القلوب على طاعاته، ويشفع بوسيلة النبي ﷺ الذي يُعول على شفاعاته ويبقي الأبواب ملجأ للإسلام والمسلمين، وإقامة لشعائر الحرم الأمين.

ويتولى إعانة إمارتكم على وظائف الدين، ويجعلكم ممن أنعم عليه من المجاهدين، والسلام.

فصدر من جوابه الدال على فضله وكرم مكافأته ما نستوهبه له من الله الرحمة والمغفرة لأجله، ولم يحضر الكتاب الآن فنثبته.

وخاطبت الإمام السيد قاضي البلاد المصرية، وهو من هو من جلالة الشأن ورفعة المكان، والمحل من علوم الأديان، بما نصه:

أبقى الله المجلس العلمي وحافظه بالتعظيم معتمد، وقيمة سعيدة ليس لها حد ولا أمد، وساعة سرور لا يغير عليها كسد، ومورد فضله غمر ولا ثمد، ولا زال عين الإسلام التي لا يشوبها ومض، ولا يصيبها رمد، وزاد فسطاط الإسلام بفضله من عنايته عمومها الذي يفاتح به الملوك بمجلس قاضي القضاة، وهو الأوج والمثابة يتزاحم في ليلاها الفوج، والبحر الذي مجاته من الموج، والديوان الذي عجز عن حصر أشتات مجده الفرد والزوج. لو أن لساني طبع الفاضل لبياني، بل المدد الحساس، بل العقل الإنساني، لتوقعت خمول شاني وأنفت لدسته العربي من لغط حبشاني، وخشيت هول الميتة أن تغشاني، فَلج مقداره، وإن رغم الساقي لا يتعاطاه مثل هذا الشاني، فكيف لي مع القصور، والأمد المحصور بمبارزة الأسد الهصور ومدافعة / العلم المنصور، وأتى للمغربي يعتصر النور، ومن ذا يسح بعد فور التنور، [١٠٩/ب] لكن فضل المجلس العالي للمقصرين شفيع، وإن اتضع قدر المتسور على خطابه،

فعلمه رفيع، والمستعيذ بحرمه قد كنفه من كرمه جانب منيع، والموارد يقتحمها العين والجولة، والمسارح الكريمة يقتصدها الرواد، والكعبة إليها يُحج من البلاد السواد، فلو تنحل المستأهل من غيره أو عُومل السائر على مقدار سيره وبركته وخيره، لكان المطرود أكثر ممن صح له الورود، وتقع عليه البرود، لكن الرحمة تشمل، والضعيف لا يُمهل، والإغضاء أجمل، وإن المملوك ما زال يتلقى من محامد المجلس العلمي قوامج طيب، وقوامج روض رطيب، وملامح بشر تذهب بما للزمن من تقطيب نغمات تطيل في النعيم مطيب، وتعشق النفوس، ليس مقصور على مشاهدة طرق، ولا مباشرة حُسن وظرف، وشم عَرْف، والعدل يمنع أن تقابل هذه الحجة بصرف، أو يعيد الله في إنكارها على حرف، فمن المشهور والذائع بين الجمهور:

يا قوم اذني لبعض الحي عاشقة والأذن تعشق قبل العين أحيانا

وقوله: وعشق الفتى بالسمع مرتبة أخرى. وليس في هذه الدعوى عتاب ولا لها استناد إلى قوله:

«الأرواح أجناد».

لو تركني الدهر وما أسر من التشيع لمناقبه وللبيت داعي شرفي بإجابته، وإن تجاسرت على خرقي لحجاب مهابته شأن المحبين كلما خانهم الصبر ولم ينل منها مواجد كلومهم الصبر لكنه سد المسالك فاستبنا المالك وأساء الملك.

وبعثت رسالتي هذه متوسلة بوسيلة الحب الصريح عادلة عن التعريض إلى التصريح، البوح المريح، متلطفة في المثول بباب إيوانه، والاستثراء على شعب بوانه، متعلقة بأردان أصغر أعوانه، وأرجو أن تُبلغ النية هديها إلى محله، وتفديها سعادة الجد على محله، والمرغوب من تلك المثابة التي تعشوا إلى نورها العيون، وتقضي من صدقات طولها الديون، أن تحب من المحب النازح ممن سعد بحبه، وصدق منه التوغل في لقائه إلى رق، وأن ينتظم في ذوي ولائه وشيعة علائه، فإن [١/١١٠] قضى اللقاء حصل الكمال، /واستوجب الآمال وتضافرت النيات والأعمال، وارتفع عن سور القصد الإهمال، وإن كان غير ذلك قطعت النية، وللذين يؤمنون بالغيب المرية.

ولما تحققت من مكارم السيد العماد قاضي القضاة، أبقاه الله، أن يلتمس ما في يديه بالتوجه إليه، افتتحت تعريفي بسؤاله، ومددت يدي إلى نواله، ورغبت فيه أن يسم مغفلاً ويفتح إلى العناية باباً مقفلاً، ويأذن في الرواية عن مقامه المخدوم بين يدي الوفادة والقدوم، وإيجاد الشرف المعدوم بصراحة ملكته ونسبة عبوديته، وكفلاء ظلاله، فوجب حقه المحتوم، ومعظم مقامه المعلوم، وهم فلان وفلان مطوقاً نعمة

الإسعاف جيد من يعرف قدرها في الأقدار ويرقى الأهلة بأمداده إلى مراتب الأبرار، وهو الكفيل بإجابة السائل، واحتساب العائل، ولله در القائل:

ولو يممتهم في الحشر تحدوا   لأعطوك الذي صلوا وصاموا

والمملوك يطالع العلوم الشرعية بين جلال يقبض وهيبة اسودها لا تربض، وإذلال عروقه تنبض أنه وجه إلى تلك المحال الشريفة مبرحاً، زائغاً ومترقباً خائفاً، فما صدر عن طبع قاصر، ووطن دار بنا طاقه للعدو حاصر، وليس إلاّ الله ناصر، فإن أحظاه بالمثول بناديه وضفت على طارقه ظلال أياديه، فالمسؤول من شفقته الاغضاء عن معرف، والتجاوز عن خطل زين خرف، ويشكر الله الذي كمله إذا وقف على النقص وتأمله، ويخفض الجناح لما أمله، ويقابل بالشفقة من أتى به، ومن له بالوصول إلى مجلس المالك، وإلى الله تجلته، كما أعز ينظر مهلته إنما هو فرض يُفْرَض وأمان على النفس يعرض، ونسأل إلى الله لمثابة المجلس العالي بقاء يمتع المسلمين مواهب العدل المشهورة، والدين الذي تجلت شمسه مظاهر الظهور، والعلم الذي يجلو غياهب الديجور، ويتكفل من الله بإنماء الأجور.

والسلام الكريم عليه من خاطب شرف وداده وملتمس مواهب الله في إعانته وسداده فلان.

فراجعني بما نصه قبل الانصراف عن الأندلس، بعد:

بسم الله الرحمن الرحيم

[١١٠/ب] فيبتهل إلى الله تعالى / بالأدعية الصالحة لمقره الكريم العالي المولون القضاء العالي العاملي الأوحد الأثير، والخاشعي الناسك المقدس المحقق المؤيد المدثر المستجير، الوزير الحمال، حمال الإسلام والمسلمين بركة الملوك والسلاطين، وزير الديار المغربية، ذا الرياستين، استبغ الله عليه أنعامه وأفضاله، وسدد أقواله وأفعاله، ولا زالت ممادحه الشريفة بالأسنة والأقلام تتلوه، ومحامده المنيفة على الأبصار والأسماع مجلوة، ولطائف بره للصادرين والواردين محققة ومرجوة، المملوك الداعي ببقائه، والمشتاق إلى لقائه، أبو البقاء السكن يصف ما هو عليه من الشوق الذي يتجدد على مر الأيام وجوده، والولاء الذي تبنى على قواعد الإخلاص عقوده، والود الذي لا تنحل عُراه، ولا تُنسى عهوده، والإخلاص الذي زكي بتحقق الخاطر لصحة شهوده، وورد المثال الشريف مشتملاً على فضله المنيف قد حاز من الفصاحة أتمها، ومن البلاغة أشملها وأعمها، فسرح المملوك نظره في تلك الرياض النضرات وعلم أنه لا طاقة له بمثلها فاقتصر على هذه الكلمات.

ووقف المملوك أيضاً من تصانيفه الشريفة على كتاب «الإحاطة في تاريخ

غرناطة»، فوجده المملوك تصنيفاً ليس له مثال، وتاريخاً لم ينسج له على منوال، والله تعالى يبقيه لربوع الفضائل يعمرها ولطلاب العلوم الشريفة يغمرها، ومولانا يشرف بخدمته ومهماته على عادة إحسانه وتفضلاته، والله يسبغ عليه ملابس نعمه ويحرس مقره الكريم بمنه وكرمه.

وكاتب هذه المطالع صالح بن أحمد بن محمد الأموي، كاتب الحكم العزيز الشافعي، يقبّل الأرض لمقره المحروس، أسبغ الله ظله.

وكتبه في الثالث والعشرين من المحرم من سنة ثمان وستين وسبعمائة.

والحمد لله وحده، وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلامه،

وحسبنا الله ونعم الوكيل

وكان على عهد مولاه المماليك ما بين شجرة الدُّر إلى أيام مَن بعدها الأمراء الغر الذين أُقيم بها وبهم في تملك البلاد رسم الإسلام

وعلى عهد تقديم الملك الناصر وأخيه قبل الاحتلام.

وعلى عهد تعاقب ولده من بعده تعيث فيهم أكف الاحتكام، وتسرع إليهم بالمداولة الأيام، بحور زاخرة من العلماء الأعلام، والمحدثين المرجوع إليهم في / [١/١١١] الأحكام، واليقين في الحلال والحرام، فالمشتهر عن أحد منهم هنالك أنه أنكر عقداً ولا بدل في تغيير شيء من الواقع جهراً، ولا ضرب عمر منهم زيداً، بل اقتصروا على شؤونهم وفنونهم، والاشتغال بما يعنيهم، وعليهم في خواص نفوسهم بما يُقربهم من الله، وهم طبقات مع الزمان وأعقاب تخلت من سلف بإحسان من أهل مصر والإسكندرية، والشام والحجاز، وهي أقطار دولتهم، وأقطاب مملكتهم.

[الطبقة الأولى][١]

كالشيخ المحدث الشهير أبي عبد الله محمد بن يوسف الشهير بالخلاس.

وأبي سلطان جابر بن محمد القيسي العبسي[٢].

(١) زيادة تصنيفية يتطلبها ما بعدها من ذكره لطيفة أخرى من علماء عصور تلك الملوك والأقطار.

(٢) قال ابن القاضي المكناسي في «درة الحجال في أسماء الرجال»، وهو ذيل «وفيات الأعيان» (ت٣٤٨/ ١/ ٢٣٢) في ترجمته هو: جابر بن محمد بن القاسم بن أحمد بن إبراهيم بن حسان الوادي آشي القيسي، معين الدين، أبو سلطان. ولد عام عشر وستمائة. وتوفي يوم الأحد الخامس من شهر ربيع الأول عام (٦٩٤) ودفن بأسفل الزلاج. أخذ ببغداد عن عبد اللطيف القبيطي، وببلد =

وأبي كثير جماعة بن مهنا.

والشريف المحدث الشهير، رحّالة وقته: أبي الحسن علي بن أحمد، الحسيني العراقي[(١)].

وأخيه برهان الدين بن أحمد.

والشيخ أبي الذكر أحمد بن عبد القادر بن رافع.

وبرهان الدين إبراهيم بن فلاح بن محمد الجذامي[(٢)].

ومحمد بن أحمد بن عبد العزيز بن الصواف[(٣)].

وأخيه يحيى بن أحمد[(٤)].

والشيخ أبي عبد الله محمد بن عبد الخالق بن طرخان[(٥)].

= سيخار عن عز الدين أبي القاسم بن محمد الخطيب. وبالموصل عبد الرزاق الرَّسْعَني ـ مدينة برأس عين من ديار بكر ـ من أهل تونس أبو محمد. أخذ عنه محمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن مسعود العبدري صاحب «الرحلة» سنة (٦٨٨). وأجاز له عَلَم الدين السخاوي.

(١) قال ابن القاضي في المصدر السابق (ت١٢٢٧ ج٣/ ٢١٦) هو: علي بن أحمد بن عبد المحسن بن أحمد بن محمد بن علي السيد الشريف، أبو الحسن، الحافظ، الضابط، تاج الدين، الواسطي، الغرّافي، نسبة إلى الغرّاف من أعمال واسط. سمع ببغداد من جماعة من متأخري أصحاب ابن الوقت منهم: أبي بكر بن فهرون الطيب، سمع عليه مسند عبد بن حميد، وأبو الحسن بن رَوْزبه، ومن أبي الحسن القطيعي ونصر بن عبد الرزاق الحلبي بن عبد القادر الجيلي الحسني، وأبي عبد الله بن عماد الحراني، وأبي محمد بن أبي رواح وغيرهم. ذكره في مشيخته أحمد بن الزبير الأصغر، أجاز له في تاريخ رحلته.

(٢) وقال المكناس أيضاً في ترجمة رقم (٢٥٩) هو: إبراهيم بن فلاح بن محمد، الجذامي، الإسكندري، برهان الدين. كان ينوب عن الخطباء بدمشق، وهو إمام فقيه محدث ذو زهد وصلاح. روى عن علم الدين اللورقي، وعن فرج الحبشي، وابن عبد الدائم. وروى جزء «ابن عرفة» عن البَلَداني عن ابن كليب بسنده. ولد سنة (٦٢٤). وقيل: بعد سنة ثلاثين وستمائة. وتوفي في شوال سنة (٧٠٢).

قلت: له ترجمة في الدرر الكامنة (١/ ٥٣)، حُسن المحاضرة (١/ ٥٠٦)، غاية النهاية (١/ ٢٢).

(٣) قال صاحب درة الحجال (ت٧٥٢) في ترجمته: هو محمد بن أحمد بن عبد العزيز بن عبد الله بن علي بن الصواف، الإسكندري، مولده في سنة (٦٢٢). سمع من جده أربعين السِّلَفي، وأجاز لابن جابر. توفي في ربيع الآخر سنة (٦٩٦) بالثغر.

(٤) قال صاحب المصدر السابق في ترجمة رقم (١٤٤٤) هو: يحيى بن أحمد بن عبد العزيز بن عبد الله بن علي بن الصواف، شرف الدين أبو الحسن. مولده سنة (٦٠٨)، سمع من جده وناصر الدين الأغماتي ومن ابن عماد الحراني الخلعيات، وسمع على عبد الحق التنيسي، وإبراهيم بن الحباب. توفي ببلده في سابع عشر شعبان سنة (٧٠٥).

(٥) قال المكناسي في «درة الحجال في أسماء الرجال» (ت٤٥٩) هو: محمد بن عبد الخالق بن طرخان. الشيخ الصالح، المكثر، المسند، أبو عبد الله. كان أبو طرخان يلقب بشبل الدولة وأهل =

والشيخ أبي العباس أحمد بن محمد بن عبد الله الظاهري الشامي.

وشهاب الدين أبي المعالي أحمد بن إسحاق بن محمد المؤيد الأبَرْقُوهي[١].

والشيخين المحدثين: أبي الفداء إسماعيل[٢]، وأخيه: أبي إبراهيم إسحاق ابني إبراهيم بن عبد الرحمٰن بن علي بن قريش المخزومي.

والإمام تقي الدين أبي الفتح محمد بن علي بن وهب بن مطيع القشيري بن دقيق العيد[٣].

= الحديث المصريون يقولون: السخاوي، لأنه منسوب إلى «سخا» مقصور، قرية على النيل بأسفل مصر. له السماع الصحيح العالي، سمع أبا الحسن بن البناء، وأبا الفتوح مبارك الجلاجلي، وأبا عبد الله بن عماد، وأبا محمد العثماني. أجاز لابن رشيد بالإسكندرية سنة (٦٨٤).

(١) قال ابن القاضي في المصدر السابق (ت٣٤) هو: أحمد بن إسحاق بن محمد بن علي، الأبرقوهي، المصري. مولده بأبرقوه سنة (٦١٥). كان مقرئاً، محدثاً، فاضلاً، يعرف بشهاب الدين السهروردي. سمع أبا علي الحسن الجواليقي، وأبا هريرة: محمد بن الوسطاني، وصالح بن بدر المؤذن، وزكريا العلبي، وعمر بن كرم في جماعة من أصحاب أبي الوقت. توفي عفا الله عنا وعنه في تاسع عشر ذي الحجة سنة (٧٠١) بمكة شرفها الله تعالى بمنه. قلت: له ترجمة في شذرات الذهب (٤١٦)، النجوم الزاهرة (٨/ ١٩٨)، المنهل الصافي (١/ ٢١٨)، حُسن المحاضرة (١/ ٣٨٦).

(٢) قال صاحب درة الحجال في أسماء الرجال (ت٢٩٩) هو: إسماعيل بن إبراهيم بن عبد الرحمٰن بن علي بن قريش. المخزومي، العصري. تاج الدين أبو العرب. سمع من جعفر الحمداني، وابن المقرىء. توفي سنة (٦٩٤).

(٣) قال ابن العماد في شذرات الذهب (٦/ ٥) في أحداث سنة اثنتين وسبعمائة: وفيها الشيخ الإمام تقي الدين أبو الفتح محمد بن علي بن وهب بن مطيع بن أبي الطاعة، القشيري، المنفلوطي، الشافعي، المالكي، المصري. ابن دقيق العيد. ولد في شعبان سنة خمس وعشرين وستمائة. وتفقه على والده بقوص، وكان والده مالكي المذهب. ثم تفقه على الشيخ عز الدين بن عبد السلام فحقق المذهبين وأفتى فيهما. وسمع الحديث من جماعة. وولي قضاء الديار المصري. ودرس بالشافعي ودار الحديث الكاملية وغيرهما. وصنف التصانيف المشهورة منها الإلمام في الحديث وشرحه، وسماه: «الإمام»، وله «الاقتراح» في أصول الدين، وعلوم الحديث. وشرح مختصر ابن الحاجب في فقه المالكية ولم يكمله. وشرح عمدة الأحكام للحافظ عبد الغني. وله غير ذلك.
وكان يقول: ما تكلمت بكلمة ولا فعلت فعلاً إلا أعددت له جواباً بين يدي الله تعالى. ويحكى أن ابن عبد السلام كان يقول: ديار مصر تفتخر برجلين في طرفيها: ابن منير بالإسكندرية، وابن دقيق العيد بقوص، وقال الذهبي في معجمه: قاضي القضاة بالديار المصرية وشيخها وعالمها الإمام العلاّمة الحافظ القدوة الورع شيخ العصر، كان علاّمة في المذهبين، عارفاً بالحديث وفنونه، سارت بمصنفاته الركبان وولي القضاء ثمان سنين، وبسط السبكي ترجمته في الطبقات الكبرى، قال: ولم ندرك أحداً من مشايخنا يختلف في أن ابن دقيق العيد هو العالم المبعوث، على رأس السبعمائة.
وقال ابن كثير في طبقاته: أحد علماء وقته بل أجلّهم وأكثرهم علماً وديناً وورعاً وتقشفاً ومداومة =

وقطب الدين أبي بكر محمد بن أحمد بن علي القيسي القسطلاني الإمام الشهير[(١)].

والإمام محيي الدين أبي الفضل عبد الرحيم بن عبد المنعم الدميري[(٢)].

والشيخ ضياء الدين أبي الهدى عيسى بن يحيى بن أحمد السَّبتي[(٣)].

والشيخ أبي يعقوب يوسف بن داود بن عيسى بن أبي بكر بن أيوب الحنفي الملك الأوحد.

وأبي نصر يوسف بن أبي نصر بن أبي الفرج الشقاري عماد الدين[(٤)].

= على العلم في ليله ونهاره مع كبر السن والشغل بالحكم، وله التصانيف المشهورة، والعلوم المذكورة برع في علوم كثيرة لا سيما في علم الحديث، فاق فيه على أقرانه وبرز على أهل زمانه، رحلت إليه الطلبة من الآفاق ووقع على علمه وورعه وزهده الاتفاق. وقال الأسنوي: له خطب بليغة مشهورة أنشأها لما كان خطيباً بقوص وله شعر بليغ... توفي رحمه الله تعالى في صفر بالقاهرة ودفن بالقرافة.

(١) قال ابن العماد في شذرات الذهب (٥/ ٣٩٧) في أحداث سنة (٦٨٦): وفيها ابن القسطلاني الإمام قطب الدين أبو بكر محمد بن أحمد بن علي، المصري، ثم المكي. ولد سنة أربع عشرة وستمائة. وسمع من علي بن البناء، والشهاب السهروردي وتفقه في مذهب الإمام الشافعي وأفتى. ثم رحل سنة تسع وأربعين فسمع ببغداد ومصر والشام والجزيرة، وكان أحد من جمع العلم والعمل والهيبة والورع.
قال ابن تغري بردي: كان شجاعاً عالماً عاملاً عابداً زاهداً جامعاً للفضائل كريم النفس كثير الإيثار حسن الأخلاق قليل المثل. وكان بينه وبين ابن سبعين عداوة وينكر عليه بمكة كثيراً من أحواله. وقد ألف في الطائفة الذين يسلك طريقهم ابن سبعين، وبدأ بالحلاج، وختم بالعفيف التلمساني، وكان القطب هذا مأوى الفقراء الواردين عليه يبرهم ويعين كثيراً منهم...
وقال الأسنوي: استقر بمكة، وكان ممن جمع العلم والعمل والهيبة والورع والكرم، طلب من مكة فوضعت له مشيخة دار الحديث الكاملية بالقاهرة إلى أن توفي في شهر المحرم.

(٢) قال المكناسي في درة الحجال (ت١٠٤٩) هو: عبد الرحيم بن عبد المنعم بن يخلف، الدميري، المصري، محيي الدين، وشمس الدين، ولد سنة (٦٠٣). وسمع من أبي الحسن المقدسي جزء الأصوات ولم يكن له منه إجازة، وسمع من الفخر الفارسي. وهو قارىء المصحف بجامع عمرو بن العاص. توفي ليلة الجمعة تاسع المحرم سنة (٦٩٥) وله ترجمة في شذرات الذهب (٥/ ٤٣١)، حسن المحاضرة (١/ ٣٨٥).

(٣) قال صاحب درة الحجال في أسماء الرجال، وهو الذيل على وفيات الأعيان في ترجمة رقم (١١٦٩) هو: عيسى بن يحيى بن أحمد السبتي، ضياء الدين. مولده سنة (٦١٣). سمع من ابن المغير، ومن أصحاب السلفي. ولقي السهروردي بمكة. وتوفي بالقاهرة في رجب سنة (٦٩٦).

(٤) وفي المصدر السابق (ت١٤٨٤): يوسف بن أبي نصر بن أبي الفرج بن السقاري الدمشقي، عماد الدين، أمير الحاج. سمع من ابن الزبيدي. مولده سنة (٦٠٦). وتوفي في منتصف ربيع ثاني سنة (٦٩٩). وله ترجمة في الشذرات (٦/ ٤٥٤)، العبر (ت٤٠٧).

والشيخ أبي الفضل سليمان بن حمزة بن أحمد بن عمر المقدسي(١).

والشيخ أبي الخير الفضل بن علي بن نصر بن رواحة الخزرجي.

والشيخ أبي المجاهد غازي بن أبي الفضل الحلاوي(٢).

وفخر الدين أبي الحسن علي بن أحمد بن عبد الواحد المقدسي البخاري(٣).

والشيخ أبي حفص عمر بن يحيى بن عمر الكرخي(٤).

والشيخ أبي الفضل عبد الرحيم بن يوسف بن يحيى بن خطيب المِزّة(٥).

والشيخ تقي الدين عبد الله بن محمد بن عياش الأسعردي.

والشيخ زين الدين أبي بكر محمد بن إسماعيل الأنصاري الأناطي.

[١١١/ب] والشيخ أبي الفضل أحمد بن هبة الله بن أحمد ابن عساكر/ الدمشقي(٦).

---

(١) في المصدر السابق أيضاً (ت١٣٩٧) اسمه كما هنا، ثم زاد: الحنبلي، الإمام المفتي تقي الدين أبو أحمد. أخذ عن أبي المنجي بن اللَّتي، والحسين الزبيدي حضوراً وسماعاً. أخذ عنه ابن رشيد، وكتب له خطه بصالحية دمشق سنة (٦٨٤)، وله ترجمة في الدرر الكامنة (٢/ ١٤٦)، طبقات الحنابلة (٢/ ٢٦٤)، وذيول العبر (٨٥).

(٢) وقال أيضاً في (ت١٣٠٨): غازي بن أبي الفضل بن عبد الوهاب الحلاوي الدمشقي الشيخ المسن، أبو المحامد. أجاز له أبو حفص بن طبرزد، وهو صاحب الأمين زكي الدين بيبرس بن التركماني.

(٣) وقال كذلك في ترجمة رقم (١٢٢٦) هو: علي بن أحمد بن عبد الواحد بن أحمد بن عبد الرحمٰن بن إسماعيل بن منصور الأنصاري المقدسي، الصالح المعروف بابن البخاري، فخر الدين أبو الحسن الشيخ الإمام المحدث المعروف بالبخاري لتفقهه ببخارى، أخذ عن ابن رشيد في رمضان سنة (٦٨٤) وعدّه في مشيخته.

(٤) وقال ابن العماد في شذرات الذهب (٥/ ٤١٧) في أحداث سنة (٦٩٢) بعد ذكر اسمه: الشافعي، ولد سنة تسع وتسعين، وستمائة بالكرج وتفقه بدمشق على ابن صلاح وخدمه مدة وسمع من البهاء عبد الرحمن وابن الزبيدي، وطائفة، وليس ممن يعتمد عليه في الرواية توفي هو والفخر بن البخاري في يوم واحد.

(٥) قال صاحب درة الحجال في (ت: ١٠٤٦) هو: عبد الرحيم بن يوسف بن يحيى بن أحمد بن سليم الدمشقي، شهاب الدين، أبو الفضل، ويعرف بابن خطيب المِزّة. سمع من أبي حفص عمر بن طبرزد بدمشق سمع عليه «سنن أبي داود» رواية اللؤلؤي. وسمع من أبي علي حنبل الرصافي، سمع عليه مسند ابن حنبل، أجاز لابن الزبير الأصغر سنة (٦٨٤)، وخطيب المزة هو جده، والمزة من قرى غُوطة دمشق. ولد بدمشق سنة (٥٩٨).

(٦) قال صاحب درة الحجال فيها في ترجمة رقم (٥٣): هو أحمد بن هبة الله بن أحمد بن محمد بن الحسن بن هبة الله ابن عساكر، الدمشقي. مولده سنة (٦٢٤). وجده هو أخو الحافظ أبي القاسم ابن عساكر، مؤرخ الشام. من بيت حديث، سمع أبا المجد القزويني، وأبا الحسن بن الأثير، وأبا بكر الشيرجي، وزين الأمناء أبا البركات السجاد، وعبد الرزاق بن سكينة، وابن الزبيدي - سمع عليه البخاري - وأبا عبد الله بن المجاور، وأبا القاسم بن ضصري، وأبا عبد الله بن غسان، وابن =

والشيخ جار الله أمين الدين أبي اليمن عبد الصمد بن عبد الوهاب ابن عساكر(١).

والشيخ رضي الدين الإمام أبي إسحاق إبراهيم بن محمد بن أبي بكر الطبري(٢).

والإمام أبي عبد الله بن عبد الحق القرشي الدلامي(٣).

والشيخ أبي الحسن عبد الرحمٰن بن محمد بن علي المكي(٤).

= أفداش، وأبا صادق، وابن صباح، وأجاز المؤيد الطوسي، وأبو روح الهروي، والقاسم بن الصفار، وزينب بنت عبد الرحمٰن الشعرية، وعبد الرحيم بن أبي سعد عبد الكريم بن السمعاني، وابن اللُّتي سمع عليه جزء أبي الجهم، وغيرهم. ودفن بمقابر الصوفية خيفة من فتنة التتر. وله ترجمة في: شذرات الذهب (٥/ ٤٤٥)، البداية والنهاية (١٤/ ١٣)، وفيه أن ميلاده كان سنة (٦١٤).

(١) قال ابن العماد في الشذرات (٥/ ٣٩٥) في أحداث (٩٨٦): وفيها الإمام الزاهد أمين الدين أبو اليمن عبد الصمد بن عبد الوهاب بن زيد الأمناء الدمشقي المجاور بمكة، روى عن جده والشيخ الموفق، وطائفة. وكان صالحاً، خيراً، قوي المشاركة في العلم، بديع النظم، لطيف الشمائل، صاحب توجه وصدق. ولد سنة (٦٢٤)، وجاور بمكة أربعين سنة، وتوفي في جمادى الأولى.

(٢) قال صاحب درة الحجال (ت٢٤٩): إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر الطبري، الشافعي، المكي، الفقيه، المحدث، الراوية، إمام المقام الشريف، رضي الدين أبو إسحاق. ولد بمكة عام (٦٣٦). أخذ عن جماعة بها كأبي الحسن علي بن هبة الله الجميزي، وأبي عبد الله بن أبي الفضل المُرسي، وسليمان بن خليل العسقلاني. وأجاز له ابن الصلاح. واختصر كتاب شرح السنة للغوب. وله شعر، وأجاز هو لابن جابر الوادي آشي. توفي ببلده في العاشر لربيع الأول عام (٧٢٢).

وراجع: الدرر الكامنة (١/ ٥٤)، النجوم الزاهرة (٩/ ٢٥٥)، شذرات الذهب (٦/ ٥٦)، مرآة الزمان (٤/ ٢٦٧)، المنهل الصافي (١/ ١٥٠)، شجرة النور الزكية (١/ ٢٠٢).

(٣) قال صاحب درة الحجال أيضاً في (ت٩٥٣): عبد الله بن عبد الحق بن عبد الله بن عبد الأحد المخزومي القرشي الشافعي الدلامي، المحدث الراوية، الأديب. مولده بها، وهي من بلاد القادسية من أعمال مصر في أول يوم من رجب سنة (٦٣٠). أخذ القراءات بدمشق عن كمال الدين أبي إسحاق: إبراهيم بن إسماعيل بن فارس التميمي، وعن أبي اليمن ابن عساكر، والحافظ عبد العظيم المنذري، وحضر درس ابن عبد السلام. وأجاز له جماعة، منهم أبو الفضل محمود بن فتح بن عبد الله البغدادي، وإسماعيل بن إبراهيم بن أبي اليسر التنوخي، والجنيدي بن عيسى بن خلكان، وعمر بن محمد بن أبي سعد النيسابوري الكرماني، وغيرهم. بقي نحواً من سبعين سنة ملازماً للبيت المكرم يقرىء كتاب الله تعالى بغير أجر لا يبغي إلا الثواب الأخروي نفعه الله بقصده. توفي بمكة المشرفة في فاتح (٧٢١). ومن مصادر ترجمته: الدرر الكامنة (٢/ ٢٦٥).

(٤) قال صاحب المصدر السابق في (ت١٠٤٤): عبد الرحمن بن محمد بن علي بن الحسين المكي عماد الدين سبط سليمان بن خليل. من مسموعاته: «مسلم» على أبي الفضل المرسي. مولده بمكة سنة (٦٣٢)، وقيل (٦٣٣) وتوفي سنة (٧٠١). أجاز لابن جابر الوادي آشي وذكره في مشيخته.

والشيخ عفيف الدين أبو محمد عبد السلام بن محمد بن مزروع البصري[١].

وفخر الدين الإمام أبو عمر.

وعثمان بن محمد بن عثمان التوزري[٢].

والشيخ رضي الدين فلدس الواسطي.

والشيخ عبد الهادي بن عبد الكريم المصري[٣].

والشيخ جمال الدين أبي مهدي المهلبي.

والشيخ عبد الرحمٰن بن سالم المصري.

وعيسى بن مظفر العباس الدمشقي.

والشيخ أبي علي الحسين بن عبد الرحمٰن الجوزي حافد الإمام أبي الفرج.

والشيخ أبي الحسن علي بن شجاع بن سالم[٤].

---

(١) قال ابن العماد في شذرات الذهب (٥/ ٤٣٠) في أحداث سنة (٦٩٦): وفيها عفيف الدين أبو محمد عبد السلام بن محمد بن مزروع بن أحمد بن عزاز المصري، البصري، الفقيه، الحنبلي، المحدث، الحافظ، نزيل المدينة المنورة. ولد بالبصرة في شوال سنة خمس وعشرين وستمائة. ورحل إلى بغداد فسمع بها من ابن قميرة، وخلق، وتفقه على الشيخ كمال الدين بن وضاح. ثم انتقل إلى المدينة المنورة واستوطنها نحواً من خمسين سنة إلى أن مات بها. وحج منها أربعين حجة على الولاء وحدث بالكثير بالحجاز، وبغداد، ومصر، ودمشق. وسمع منه جماعات منهم: البرزالي، وابن الخباز، والحارثي. وتوفي يوم الثلاثاء بعد الصبح سابع عشري صفر ودفن بالبقيع.

(٢) قال ابن القاضي في درة الحجال (ت١٢١١) هو: عثمان بن محمد بن عثمان بن أبي بكر بن محمد بن داود التوزري المكي. مجد الدين المجاور. مولده عام (٦٣٠) ومشيخته يزيدون على الألف. قرأ البخاري على أزيد من ثلاثين رجلاً من أصحاب البوصيري. وقرأ على الهمداني بإجازة من أبي الوقت. وسمع من ابن الجميزي والسبط السلفي. توفي بمكة في الحادي عشر لربيع الآخر عام (٧١٣). راجع تراجمه في الدرر (٢/ ٤٤٩)، غاية النهاية (١/ ٥١)، الشذرات (٦/ ٣٢).

(٣) قال ابن العماد في الشذرات (٥/ ٣٣٤) في أحداث سنة (٦٧١): وفيها أبو الفتح عبد الهادي بن عبد الكريم بن علي القيسي، المصري، المقرىء، الشافعي، خطيب جامع المقياس. ولد سنة سبع وسبعين وخمسمائة، وقرأ بالسبعة على أبي الجود، وسمع من قاسم بن إبراهيم المقدسي وجماعة. وأجاز له أبو طالب أحمد بن المسلم اللخمي، وأبو طالب بن عوف، وجماعة، وتفرد بالرواية عنهم، وكان صالحاً كثير التلاوة. وتوفي في شعبان.

(٤) في شذرات الذهب في (٥/ ٣٠٦) في أحداث (٦٦١) قال: وفيها الكمال الضرير شيخ القراء أبو الحسن علي بن شجاع بن سالم بن علي الهاشمي، العباسي، المصري، الشافعي، صاحب الشاطبي، وزوج بنته. ولد سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة، وقرأ القراءات على الشاطبي، وشجاع المدلجي وأبي الجود، وسمع من البوصيري وطائفة، وتصدر للإقراء دهراً، وانتهت إليه رئاسة الإقراء، وكان إماماً يجري في فنون من العلم، وفيه تودد وتواضع ولين ومروءة تامة. توفي في سابع ذي الحجة.

والشيخ جمال الدين يوسف بن أحمد بن محمود الأسدي الدمشقي.

والشيخ أبي بكر علي بن مكارم بن فتيان الدمشقي[١].

والشيخ مفتي المسلمين أبي محمد عبد العزيز بن عبد السلام المصري[٢].

---

(١) قال ابن العماد في شذرات الذهب (٥/ ٣٠٠) في أحداث سنة (٦٥٩): وفيها توفي نور الدولة علي بن أبي المكارم المصري العطار الأديب الفاضل الشاعر المجيد من نظمه لغز في كوز الزير:

وذي أذن بــلا سـمــع ... لــه جـسـم بــلا قـلـب

إذا اسـتـولـى عـلـى صـب ... فـقـل مـا شـئـت فـي الـصـب

(٢) قال ابن العماد في شذرات الذهب (٥/ ٣٠١)، في أحداث سنة (٦٦٠): وفيها عز الدين شيخ الإسلام أبو محمد عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن، الإمام العلامة، وحيد عصره، سلطان العلماء، السلمي، الدمشقي، ثم المصري الشافعي. ولد سنة سبع أو ثمان وسبعين وخمسمائة وحضر حمزة بن الموازيني، وسمع من عبد اللطيف بن أبي سعد، والقاسم ابن عساكر، وجماعة، وتفقه على فخر الدين ابن عساكر، والقاضي جمال الدين بن الحرستاني، وقرأ الأصول على الآمدي، وبرع في الفقه، والأصول، والعربية، وفاق الأقران، والأضراب، وجمع بين فنون العلم من التفسير والحديث والفقه واختلاف أقوال الناس ومآخذهم. وبلغ رتبة الاجتهاد، ورحل إليه الطلبة من سائر البلاد. وصنف التصانيف المفيدة. وروى عنه الدمياطي، وخرج له أربعين حديثاً، وابن دقيق العيد هو الذي لقبه سلطان العلماء، وخلق غيرهما. ورحل إلى بغداد، فأقام بها أشهراً. هذا مع الزهد، والورع، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصلاة في الدين. وقد ولي الخطابة بدمشق، فأزال كثيراً من بدع الخطباء، ولم يلبس سواداً، ولا سجع خطبته، كان يقولها مترسلاً.

واجتنب الثناء على الملوك، بل كان يدعو لهم، وأبطل صلاة الرغائب والنصف، فوقع بينه وبين ابن الصلاح بسبب ذلك. ولما سلم الصالح إسماعيل قلعة الشقيف وصفد الفرنج نال منه الشيخ على المنبر، ولم يدع له، فغضب الملك من ذلك، وعزله، وسجنه، ثم أطلقه فتوجه إلى مصر فتلقاه صاحب مصر الصالح أيوب وأكرمه، وفوّض إليه قضاء مصر دون القاهرة، والوجه القبلي، مع خطابة جامع مصر، فأقام بالمنصب أتم قيام وتمكن من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم عزل نفسه من القضاء، وعزله السلطان من الخطابة. فلزم بيته يشغل الناس ويدرس، وأخذ في التفسير في دروسه، وهو أول من أخذه في الدروس. وقال الشيخ قطب الدين اليونيني: كان مع شدته فيه حُسن محاضرة بالنوادر والأشعار.

وقال الشريف عز الدين: كان عَلَمْ عصره في العلم، جامعاً لفنون متعددة، مضافاً إلى ما جُبل عليه من ترك التكلف مع الصلابة في الدين، وشهرته تغني عن الإطناب في وصفه. وقال ابن شهبة: ترجمة الشيخ طويلة، وحكاياته في قيامه على الظلمة وردعهم كثيرة مشهورة. وله مكاشفات. وقال الذهبي: كان يحضر السماع ويرقص. توفي بمصر في جمادى الأولى من السنة. وحضر جنازته الخاص والعام والسلطان فمن دونه، ودفن بالقرافة في آخرها. ولما بلغ السلطان خبر موته قال: لم يستقر ملكي إلا الساعة، لأنه لو أمر الناس فيّ بما أراد لبادروا إلى امتثال أمره. ومن مصادر ترجمته: ديوان الإسلام (١٤٤٣)، هدية العارفين (١/ ٥٨٠)، الأعلام (٤/ ٢١)، معجم المؤلفين (٥/ ٢٤٩)، كشف الظنون (٩٢ وغير ذلك)، إيضاح المكنون (١/ ٨٤) البداية والنهاية (١٣/ ٢٣٥)، النجوم الزاهرة (٧/ ٢٠٨)، مرآة الجنان (٤/ ١٥٣)، مفتاح السعادة (٢/ ٢١٢)، مختصر دول الإسلام (٢/ ١٢٨)، المختصر في أقوال البشر (٤/ ٢٢٤).

ومن بعدهم من الطبقة الثانية

كالشيخ الإمام العلامة عز الدين أبي الحسن بن علي بن إسماعيل الواسطي صاحب خطتي الإمامة والخطابة بالمسجد النبوي.

ممن أخذ عنه الشيخ الخطيب أبو عبد الله بن مرزوق، ومن في نمطه بعد الثلاثين وسبعمائة، وقبلها بيسير.

والشيخ الإمام جمال الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن خلف بن عيسى الخزرجي السعدي العبادي.

والشيخ الإمام الفقيه الثقة المعمر محيي الدين أبي زكريا يحيى بن محمد المغراوي.

والشيخ نور الدين أبي الحسن علي بن محمد الحجار.

والشيخ شهاب الدين أحمد بن محمد الصنعاني.

والشيخ الإمام قاضي القضاة بالمدينة شرف الدين الأخميمي الأسيوطي.

والشيخ صالح عز الدين الطراشي.

والشيخ شهاب الدين منهال بن عبد الله المغشي.

والشيخ بهاء الدين موسى بن سلامة الشافعي المصري.

والشيخ أبي طلحة الزبير بن أبي صعصعة الأسواني.

والشيخ عفيف الدين المصري.

والشيخ المعمر شرف الدين أبي عبد الله عيسى بن عبد الله الحجي.

والشيخ زين الدين أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبي بكر الطبري.

والشيخ الصالح شرف الدين جبير بن عبد الرحمٰن المعمر.

وشيخ شيوخ رباط الأعجام حيدر بن عبد الله.

والشيخ مقرىء الحرم برهان الدين إبراهيم الأربلي المصري.

والشيخ مصلح الدين الحسن بن عبد الله العجمي.

والإمام الصالح /أبي الضياء خليل بن عبد الرحمٰن القسطاني. [١١٢/أ]

والشيخ الصالح الإمام الحجة أبي عبد الله بن أبي سعيد الشافعي منتهى الرئاسة العلمية ولي الخطط الشرعية بالحرم.

والشيخ فخر الدين بن أبي بكر المالكي.

والشيخ المدرس شهاب الدين أحمد بن أبي الحواري اليمني.

والشيخ قاضي القضاة، نجم الدين محمد بن جمال الدين عبد الله بن المحب الطبري.

والشيخ جلال الدين بن عبد الله محمد بن أحمد بن بريا خيرنا القشيري.

والشيخ قاضي القضاة، وخطيب الخطباء، عز الدين أبي عمر عبد العزيز بن محمد بن جماعة الكناني[1].

والشيخ الإمام علاء الدين إسماعيل بن يوسف العزيز.

والإمام تقي الدين محمد بن أبي بكر بن عيسى السعدي.

والشيخ المصنف الشهير الذكر الرفيع القدر، قاضي القضاة، جلال الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمٰن القزويني.

والشيخ الإمام قاضي القضاة برهان الدين إبراهيم بن أبي محمد عبد الحق، الحنفي.

والشيخ شرف الدين أقضى القضاة أبي عبد الله محمد الأخميمي.

والشيخ المسند بدر الدين محمد بن أحمد بن خالد.

والشيخ الحافظ أبي محمد قطب الدين عبد الكريم بن عبد المؤمن بن منير الحنفي.

---

(١) قال ابن العماد في شذرات الذهب (٦/ ٢٠٨) في أحداث سنة (٧٦٧): وفيها قاضي القضاة عز الدين أبو عمر عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الكناني الحموي الأصل الدمشقي المولد، الشافعي. ولد بدمشق في المحرم سنة أربع وتسعين وستمائة. ونشأ في طلب العلم وسمع الكثير. وشيوخه سماعاً وإجازة يزيدون على ألف وثلاثمائة، قاله ابن قاضي شهبة. وتفقه على والده، والوجيزي، وغيرهما. وأخذ الأصلين عن الباجي. والنحو عن أبي حيان، وولي قضاء الديار المصرية مدة طويلة، وجعل الناصر إليه تعيين قضاة الشام، وحدث، وأفتى، وصنف. وكان كثير الحج والمجاورة. وكان مع نائبه القاضي تاج الدين الناوي كالمحجور عليه له الاسم والمناوي هو القائم بأعباء المنصب، فلما مات عجز القاضي عز الدين عن القيام به، فاستعفى، وكان يعاب بالإمساك، ولم يحفظ عنه في دينه ما يشينه، ذكره الذهبي في المعجم المختص، وقد مات قبله بنحو عشرين سنة.

وقال فيه: الإمام المفتي، الفقيه المدرس، المحدث، قدم علينا بوالده طالب حديث في سنة خمس وعشرين، فقرأ الكثير، وسمع وكتب الطباق وعنى بهذا الشأن، وكان خيّراً صالحاً، حسن الأخلاق كثير الفضائل، سمعت منه وسمع مني. انتهى. وكان يقول: أشتهي أن أموت بأحد الحرمين معزول عن القضاء، فنال ما تمنى في أنه استعفى من القضاء في السنة التي قبلها، وحج فمات في جمادى الأخرى من هذه السنة، ودفن بعقبة باب المعلى إلى جانب قبر الفضيل بن عياض بينه وبين أبي القاسم القشيري.

والشيخ شهاب الدين أحمد بن منصور بن إبراهيم الحلي الزبيري.

والشيخ المعمر شرف الدين يحيى بن أبي الفتوح، المقدسي، المصري.

والشيخ محسن بن عبد الله بن محمد بن عبد المعطي القرشي.

والشيخ شهاب الدين محمد الحلبي.

والشيخ الإمام الحافظ أثير الدين أبو حيان محمد بن علي بن يوسف النقري.

والحافظ النسابة شهاب الدين أبي العباس أحمد بن أبي بكر بن طي بن حاتم الرقوي.

تبلغ شيوخه أزيد من ألفين.

والشيخ الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن المدلان.

والشيخ شهاب الدين أحمد بن عبد الله النوشي المالكي.

والشيخ المتصوف تاج الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن تغلب المصري مدرس المالكية.

والشيخ شمس الدين أحمد بن محمد الخطابي، الصيرفي.

والشيخ عماد الدين محمد بن علي بن نجم، الدمياطي، الشافعي.

والشيخ تاج الدين أبو نعيم محمد بن عبيد بن عباس الأشعري.

وتقي الدين إسماعيل بن إبراهيم التغلبي.

وفتح الدين يونس بن إبراهيم بن عبد القوي.

وشمس الدين بن محمد بن إسحاق بن عمر الوردي.

والعلامة مفتي الشافعية تقي الدين علي بن عبد الكافي[1].

---

(١) قال ابن العماد في شذرات الذهب (٦/ ١٨٠) في أحداث سنة (٧٥٦) في ترجمته: الإمام تقي الدين أبو الحسن علي بن عبد الكافي بن علي بن تمام بن يوسف بن موسى بن تمام بن حامد بن يحيى بن عمر بن عثمان بن علي بن مسور بن سوار بن سليم السبكي، الشافعي، المفسر، الحافظ، الأصولي، اللغوي، النحوي، المقرىء، البياني، الجدلي، الخلافي، النظار، البارع، شيخ الإسلام، أوحد المجتهدين. قال السيوطي: ولد مستهل صفر سنة ثلاث وثمانين وستمائة. وقرأ القرآن على التقي بن الصائغ، والتفسير على العلم العراقي، والفقه على ابن الرفعة، والأصول على العلاء الباجي، والنحو على أبي حيان، والحديث على الشريف الدمياطي، ورحل وسمع من ابن الصواف، والموازيني. وأجاز له الرشيد بن أبي القاسم وإسماعيل بن الطبال، وخلق يجمعهم معجمه الذي خرّجه له ابن أيبك.

وبرع في فنون، وتخرج به خلق في أنواع العلوم. وقرأ له الفضلاء، وولي قضاء الشام بعد الجلال القزويني، فباشره بعفة ونزاهة غير ملتفت إلى الأكابر والملوك، ولم يعارضه أحد من نواب الشام إلا =

وبرهان الدين إبراهيم بن علي بن أبي القاسم المعروف بابن بنت الشاذلي.
والشيخ أبي الحسن علي بن محمد بن عبد القادر التميمي.
وبرهان الدين إبراهيم بن علي بن محمد بن علي الخيمي.
وشمس / الدين الأوركالي. [١١٢/ب]
وبرهان الدين الحكري.
وأبي محمد عبد الكريم بن محمد بن محمد الطوسي.
والشيخ الإمام المصنف تاج الدين محمد التبريزي.
والشيخ الصوفي محمود بن القاسم الأصبهاني.
والشيخ شرف الدين سهيل بن محمد المقيلي.
وبرهان الدين إبراهيم بن محمد القيسي السفاقسي.
وأسد الدين يوسف بن داود بن عيسى بن أبي بكر بن أيوب، من بني ملوك بني أيوب.
وعلاء الدين أبي الحسن بن أيوب.
وخطيب القدس بدر الدين محمد بن أحمد الصائغ المقدسي.
ومحمد بن علي بن منيب الأندلسي.
وبرهان الدين إبراهيم بن عمر المغلي إمام الخليل.
وبرهان الدين بن تاج الدين بن العركاج.
وشمس الدين محمد بن مسلم قاضي قضاة الحنابلة.
وأحمد بن محمد بن إبراهيم المرادي أبي العشاب.
وأبي القاسم بن علي بن الفراء.
والشيخ عز القضاة أبي محمد بن ناصر الدين منصور بن محمد بن المنير.
ولو تتبع من كان في هذه المدة من الأعلام لضاق المتسع، وطال الراوي

= قصمه الله. وولي مشيخة دار الحديث بالأشرفية، والشامية البرانية، والمسرورية، وغيرها. وكان محققاً مدققاً نظاراً، له في الفقه وغيره الاستنباطات الجليلة، والدقائق والقواعد المحررة التي لم يسبق إليها، وكان منصفاً في البحث على قدم من الصلاح والعفاف. وصنف نحو مائة وخمسين كتاباً مطولاً ومختصراً لمختصر منها يشتمل على ما لا يوجد في غيره من تحرير وتدقيق وقاعدة واستنباط منها تفسير القرآن، وشرح المنهاج في الفقه... وأنجب أولاداً كراماً أعلاماً. وتوفي بمصر بعد أن قدم إليها. وسأل أن يولي القضاء مكانه ولده تاج الدين، فأجيب إلى ذلك.

والمستمع. وإنما القصد الإتيان ببعض من كان تزييناً للكتاب وإتماماً إلى ما رسمه مستدعيه شرف الظهراء والنواب، وفخر الوزراء أولي الأديان والأحساب من الإلمام والمعارف الجليلة القدر والشأن، والوجوه، والأعيان، قصد الإخفاء بنبله، ووضوح مناهجه، وبيان سُبله.

وفيما ذكر كفاية إن شاء الله.

ذكر ما أمكن الإلماع به من الأمراء العلويين بمكة والمدينة

وإن كان خبرهم غير منقول لاندراجهم في ملك المماليك بمصر، وإقعارهم ودعوتهم وعدم تهمم من يقصد تلك البلاد المقدسة بهذه الأغراض خمود ليس التهمم وإخلاد إلى أرض العجز والكسل. وإن اتفق أن يصل إلى تلك البلاد من له حظ في الطلب فقصاراه أن يقيد رواية أو يحفظ حكاية.

وأما العناية بصاحب دولة أو نسب ذي مملكة فقلما تتجه إلى ذلك عناية أو تتعلق به رغبة.

ونحن نأتي من ذكرهم بنبذة على جهة التبرك إلى أن يمن الله بتيسير غيرها الذي جاهدنا من بلادنا واحتسبنا في جنب ما أصابنا من الكباد الخارق حجب الاعتياد، ويتمم الأمل سبحانه في مطالعة تلك المعاهد المقدسة والمعالم المقررة على التقوى والرضوان.

المؤسسه، فنعتاض الخُبْر من الخَبَر، والعين من الأثر بفضل الله متمم المنى، ومتقبل الوسائل الخالصة إليه بالقبول الحي لا إله إلاّ هو، فنقول:

[١/١١٣] كان الحجاز على / عهد الناصر لدين الله من العباسيين ببغداد، وهو أحمد بن المستضيء بالله، وكان طويل العمر استغرقت أيامه دولاً خمساً من دول أبناء عبد المؤمن أولهم: يعقوب المنصور، وآخرهم العادل.

وقد قطع بينه وبين الخلفاء الساكنين ببغداد، فألحق دولتهم من الاضطرابات والخوارج، ومنابذة أمراء الترك، فتمسك أهل الحجاز بمصر والشام من أصحاب الدعوة، فكان ذلك من العلويين الذين أقروا بالحجاز الرسم، وحفظوا الاسم للأمير أبو محمد مُكثر بن عيسى بن فليتة بن قاسم بن محمد بن جعفر بن أبي هاشم الحسيني.

ورآه الحاج الفاضل أبو الحسن بن جبير في رحلته سنة ثمان وسبعين وخمسمائة فقال فيها، وقد وصف الخطبة في أول جمعة من جمادى الأولى من سنة رحلته وقد حضرها بمكة شرفها الله فقال يصف الخطيب:

ثم قام، فأكثر الصلاة على النبي ﷺ وعلى آله، وترضى عن أصحابه، واختص الأربعة الخلفاء منهم بالتسمية رضي الله عنهم، ودعا لعميّ النبي ﷺ حمزة والعباس، ثم الحسن والحسين، ووالى الرضى عن جميعهم، ثم دعا لأمهات المؤمنين زوجات النبي ﷺ ورضي عن فاطمة الزهراء، وخديجة الكبرى، بهذا اللفظ، ثم دعا للخليفة العباسي أحمد الناصر، ثم لأمير مكة أبي محمد مكثر بن عيسى بن فليتة بن قاسم بن محمد بن جعفر بن أبي هاشم الحسيني، ثم لصلاح الدين أبي المظفر يوسف بن أيوب، ثم لولي عهده أخيه أبي بكر بن أيوب، وعند ذكر صلاح الدين بالدعاء تخفق الألسن عليه من كل مكان:

وإذا أحب الله يوماً عبده   ألقى عليه محبة في الناس

وحُق ذلك عليهم لما بذل لهم من جميل الاعتناء، وحُسن النظر لهم، ولما رفعه من وظائف المكوس عنهم.

ثم قال ما نصه: وليلة أهلَّ هلال الشهر المذكور، وهو جمادى الأولى، فكَرّ أمير مكة مُكثر المذكور في صبيحتها إلى الحرم الكريم في طلوع الشمس ومواده يحفون به والقراء يقرؤون أمامه، فدخل على باب النبي ﷺ، والرجالة السودان الذين يعرفونهم بالحرابة يطوفون أمامه وبأيديهم الحراب، وهو في هيئة اختصار عليه السكينة والوقار، وسِمَة سلفه الكريم رضي الله عنهم لابساً ثوب بياض بأزاء المقام الكريم، وقف وبُسط له وطاء من كتان فصلى ركعتين، ثم تقدم إلى الحجر الأسود فقبله وشرع في الطواف.

[١١٣/ب] وقد علا قبة زمزم / صبي يدعي بدعاء أحد المؤذنين، وهو أول مؤذن يؤذن به يعتدون، وله يتبعون، وقد لبس أفخر ثيابه، وتعمم، فعندما يكمل الأمير شوطاً واحداً ويقرب من الحجر يرفع الصبي بأعلى القبة رافعاً صوته بالدعاء، ويستفتحه الأمير يُصبح الأمير بسعادة دائمة ونعمة شاملة ويصل ذلك بمنية الشهر بكلام مسجوع مطبوع جميل الدعاء والثناء، ثم يتمم ذلك بثلاثة أبيات وأربعة من الشعر في مدحه ومدح سلفه. وذكر سابق النبوة رضي الله عنهم، ثم سكت.

فإذا أطل من الركن اليماني يريد الحجر، يرفع بدعاء آخر على ذلك الأسلوب، ووصله بأبيات من الشعر غير الأبيات الأولى في ذلك المعنى بعينه كأنها منتزعة من قصائد مدح.

هكذا في السبعة الأشواط إلى أن يفرغ منها، والقراءة في أثناء طوافه أمامه، فينتظم من هذه الحال والابهة وحُسن صوت ذلك الداعي على صغره، لأنه ابن إحدى عشرة سنة أو نحوها، وحسن الكلام الذي يورده نثراً ونظماً، وأصوات القراء،

وعلوها بكتاب الله تعالى مجموع تحرك النفوس وتشجيها فتوكف العيون ويبكيها تذكراً لأهل البيت الذين أذهب الله تعالى عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً.

فإذا فرغ من الطواف ركع عند الملتزم ركعتين ثم جاء وركع خلف المقام أيضاً، ثم ولى منصرفاً، وحلبته تحف به فلا يظهر في الحرم إلى مستهل هلال آخر، هكذا دائماً.

ثم قال له أهل مكة عن بكرة أبيهم يخرجون على مراتبهم قبيلة قبيلة، وحارة حارة، شاكين في الأسلحة فرساناً ورجالة، فاجتمع منهم عدد لا يحصى كثرة يتعجب المعاين لهم لوفور عددهم، فلو أنهم من بلاد جمة لكانوا عجباً، فكيف وهم من بلد واحد؟.

وهذا أدل الدلائل على بركة البلاد.

فكانوا يخرجون على ترتيب عجيب، فالفرسان منهم يخرجون خيلهم ويلعبون بالأسلحة عليها.

والرجالة يتواثبون ويتسابقون بالأسلحة في أيديهم حراباً وسيوفاً وحجفاوهم وهم يظهرون التطاعن بعضهم لبعض، والتضارب بالسيوف، والمراقعة بالحجف التي يستجنون بها، وأظهروا من الحذق بالثقافة كل أمر مستغرب، فكانوا يرمون الحراب إلى الهواء ويبادرون إليها لقفاً بأيديهم وهي قد تصوبت أسنتها على رؤوسهم، وهم في زحام لا يتمكن المحال، وربما رمى بعضهم بالسيوف في الهواء فيلقونها قبضاً على قوائمها كأنها لم تفارق / أيديهم. [١/١١٤]

إلى أن خرج الأمير يزحف بين قواده...[١] وقد قاربوا سن الشباب، والرايات تخفق أمامهم، والطبول بين يديه، والسكينة عليهم.

وقد سلك الجبال والطرق والثنيات بالنظارة من جميع المجاورين.

فلما انتهى إلى الميقات، وقضى غرضه، أخذ في الرجوع، وقد ترقب العسكر بين يديه لعبهم ومزحهم، والرجالة على الصفة المذكورة من التجاول، وقد ركب جماعة من أعراب البوادي نجباً صهباً لم ير أجمل منها منظراً، وركابها يسابقون الخيل بين يدي الأمير رافعين أصواتهم بالدعاء له والثناء عليه إلى أن وصل المسجد الحرام، فطاف بالكعبة.

والقراء أمامه، والمؤذن الزمزمي يغرد في سطح قبة رافعاً عقيرته بتهنئته بالموسم والثناء عليه، والدعاء له على العادة.

(١) موضع النقط ثلاث كلمات لم أتبين قراءتها لسوء في المخطوط.

فلما فرغ من الطواف صلى عند الملتزم، ثم جاء إلى المقام وصلى خلفه، وقد أُخرج من الكعبة ووضع في قبته الخشبية التي يصلى خلفها.

فلما فرغ من صلاته رفعت له القبة عن المقام فاستلمه وتمسح به، ثم أُعيدت القبة.

وأخذ في الخروج على باب الصفا إلى المسعى والحفى بين يديه، فسعى راكباً، والقواد مطيفون به، والرجالة الحَرابة أمامه.

فلما فرغ من السعي استلت أمامه، وأحدقت الأشياع به، وتوجه على هذه الحالة الهائلة خوفاً.

وبقي المسعى يومه ذلك لموجب الساعين والساعيات.

وقال، وقد ذكر شهر رمضان:

وفي ضحوة يوم الأربعاء الثالث من الشهر المبارك المذكور، وكُنا جلوساً في الحجر المكرم، فسمعنا ضراب الأمير مكثر وأصوات نساء مكة يولولن عليه، فبينما نحن كذلك، دخل منصرفاً من لقاء سيف الإسلام وطائفاً بالبيت المكرم طواف التسليم، والناس قد أظهروا الاستبشار بقدومه والسرور لسلامته، وقد شاع الخبر بنزول سيف الإسلام داخلاً للزهراء ضرب أخبيته فيه، ومقدمتها من العسكر قد وصلت الحرم وزاحمت الأمير مكثراً في الطواف.

فبينما الناس ناظرون إليه إذ سمعوا أصواتاً عظيمة، وزعقات هائلة.

فما راعهم إلاّ الأمير سيف الإسلام داخلاً من باب بني شيبة، ولمعان السيوف أمامه كله يحول بين الأبصار وبينه، والقاضي عن يمينه، وزعيم الشبيين عن شماله، والمسجد الحرام قد ارتج وغاص بالنظارة والوافدين، والأصوات بالدعاء له ولأخيه صلاح الدين قد علت حتى صكت الأسماع، وأذهلت /الأذهان، والزمزمي المؤذن [١١٤/ب] في مرقبته رافع عقيرته بالدعاء له والثناء عليه، وأصوات الناس تعلو على صوته...[1] في الحين دنا الأمير من البيت المعظم أغمدت السيوف وتضاءلت...[1] وخلعت قلانس العزة، وذلت الأعناق، وخضعت الرقاب، وطاشت العقول والألباب مهابة وتعظيماً لبيت ملك الملوك، الجبار الواحد القهار، يؤتي الملك من يشاء، سبحانه جلّت قدرته وعز سلطانه، وتهافتت هذه العصابة العزية على باب بيت الله العتيق تهافت الفراش على المصباح، وقد نكس أذقانهم الخشوع، وبلت سبالهم الدموع. وطاف القاضي وزعيم الشبيين بسيف الإسلام الأمير مُكثر قد غمره ذلك الزحام.

---

(١) موضع النقط كلمات غير واضحة بالمخطوط لتراكب حروفها وكثرة مدادها.

فأسرع في الفراغ من الطواف، وبادر إلى منزله، وعندما أكمل سيف الإسلام طوافه صلى خلف المقام، ثم دخل قبة زمزم، فشرب من مائها ثم خرج على باب الصفا إلى السعي، فابتدأه ماشياً على قدميه تواضعاً وتذللاً لمن يجب له التواضع والسيوف مغلولة، وقد اصطف الناس من أول المسعى إلى آخره سماطين مثل ما صنعوا أيضاً في الطواف، فسعى على قدميه طريقين من الصفا إلى المروة، ومنها إلى الصفا، وهرول قدر الميلين، ثم قيده الإعياء فركب، وأكمل السعي راكباً، وقد حشر الناس ضحى معناً ووقتاً.

ثم عاد هذا الأمير إلى المسجد الحرام على حالته من الهيبة، وهو يتهادى بين بروق خواطف من الصوارم المصلتة، وقد بادر الشيبيون إلى باب البيت المكرم ليفتحوه، ولم يكن يوم فتحه، وضم الكرسي الذي يصعد عليه.

فرقا الأمير وتناول زعيم الشيبيين فتح الباب، فإذا المفتاح قد سقط من كمه في ذلك الزحام، فوقف وقفة مندهش مذعور، ووقف الأمير على الأدراج، فيسر الله في وجود المفتاح، ففتح الباب، ودخل الأمير وحده مع الشيبيين.

وبقي وجوه الأغرباء وأعيانهم مزدحمين على ذلك الكرسي، فبعد لأواء فتح لأحد أمرائهم فدخل، وتمادى مقام سيف الإسلام في البيت الكريم مدة طويلة، ثم خرج.

وانفتح الباب للكافة منهم، فيا لك من ازدحام وتراكم وانتظام حتى صاروا كالعقد المستطيل وقد تسلسلوا، فكان يومهم أشبه شيء بأيامهم السارة في دخولهم البيت حسب تقدم الوصف له.

وركب الأمير سيف الإسلام وخرج إلى البيت بالموضع المذكور.

[١/١١٥] وكان هذا اليوم بمكة من الأيام الهائلة المنظر، العجيبة المشهرة، الغريبة / الشأن، فسبحان من لا ينقض ملكه، ولا يبيد سلطانه لا إله إلاَّ هو.

وصحب هذا الأمير جملة كبيرة من حجاج مصر وسواها واغتنموا البر والأمن فوصلوا في عافية وسلامة، والحمد لله.

وفي ضحوة يوم الخميس بعده كنا أيضاً بالحِجْرِ المكرم، فإذا بأصوات وطبول ودبادب، وبواقات قد قرعت الأذان، وارتجت لها نواحي الحرم الشريف، فبينا نحن نتطلع للاستعلام عن خبرها طلع الأمير مكثر وغاشيته الأقربون حوله وهو راجل في حلة ذهب صرف كأنها الجمر المتقد يسحب أذيالها، وعلى رأسه عمامة شرب رقيق هجاني اللون قد علا كورها على رأسه كأنها سحابة مركومة، وهي مصفحة بالذهب، وتحت الحلة خلعتان من الريسيقي المرسم البديع الصنعة، خلعها الأمير سيف

الإسلام عليه فوصل بها فرحاً جذلان، والطبول، والدبادب، والبواقات تشيعه على أمر الأمير سيف الإسلام إشادة بتكرمته، وإعلاناً بمآثره ومنزلته.

فطاف بالبيت المكرم شكراً لله على ما وهبه من كرامة هذا الأمير بعد أن كان أوجس في نفسه خيفة منه، والله يصلحه ويوفقه بمنه.

ثم قال في فصل آخر:

عند استهلال شهر شوال، فأول من بكر الشيبيين، وفتحوا باب الكعبة المقدسة وأقام زعيمهم جالساً بالعتبة المباركة، وسائر الشيبيين داخل الكعبة إلى أن أحسوا بوصول الأمير مُكثر فنزلوا إليه، وتلقوه بمقربة من باب النبي ﷺ، فانتهى إلى البيت المكرم، وطاف به أسبوعاً والناس لعيدهم، والحرم قد غُصَّ بهم، والمؤذن الزمزمي فوق سطح القبة على العادة رافعاً صوته بالثناء عليه والدعاء له متناوباً مع أخيه في ذلك.

فلما أكمل ذلك الأسبوع عمد إلى مصطبة قبة زمزم مما يقابل الركن الأسود، فقعد فيها وبنوه عن يمينه ويساره ووراءه، وحاشيته وقوف على رأسه.

وعادة الشبيين لمكانهم من البيت تلحظهم الناس بأبصارهم خاشعة للبيت غابطة لمحلهم منه، ومكانهم من حجابته وسدانته، فسبحان من خصّهم بالشرف في خدمته، وحضر الأمير في خاصته أربعة شعراء فأنشدوا واحداً واحداً إلى أن فرغوا من إنشادهم، وفي أثناء ذلك تمكن وقت الصلاة.

قلت: والأمير العلوي اليوم بمكة شرفها هو الأمير أبو السبق عجلان بن رحتة بن نمير بن سعد بن إدريس / بن عبد الكريم بن مظاعن بن بلغيث بن راجع بن [١١٥/ب] محمد بن علي بن عباس بن عيسى بن محمد بن علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

هكذا تلقيناه في هذه الأيام ممن يحسن الظن بنقله.

وعجلان هذا هو الذي تجيز عنده الحجاج القافلون من البيت الحرام. . .(١) في أمره من قبل السلطان أمير مصر بولد له يسمى أحمد بن عجلان، وأفرد الولد بخط من الوالد، وصارت الكسوة لأمير مكة كسوتين، والإحسان المعتاد مضاعفاً كذلك مرتين.

وقد اقتضى اجتهادي في ذكر يخلد، أو دعاء يستنجد، أن خاطبت هذا الأمير من الأندلس بما نصه، وبما يظهر من غرضه جعل الله ذلك خالصاً لوجهه الكريم، وكان صدر الكتاب:

(١) موضع النقط كلمات غير مقروءة في المخطوط.

المقر الأشرف الذي فضل الحجاز لدينه محلة، وكرم في بئر زمزم منبط إسماعيل ﷺ نسله ومحله، وخصه بأمرة الحرم الأمين من بين الأمر كله، واشتمل على خواص الشرف الوضاح جنسه وفضله، وطابت فروعه لما استمد من ريحانتي الجنة أصله، مقر السلطان الجليل الكبير المعظم الموقر ذي الحسنيين، وحافد سيد الثقلين، تاج المعالي، عز الدين والدنيا أبي السبق عجلان ابن السلطان الكبير الشهير الرفيع الخطير الجليل النبيل الطاهر الظاهر الشريف الأصيل المعظم المقدس المنعم أسد الدين أبي الفضل وصيف بن محمد بن سعيد الحسيني أبقاه الله وأفئدة من الناس تهوي إلى باطن مثواه على بعد الدار، وتتقرب فيه إلى الله بلثم التراب، واستلام الجدار، وتجيب أذان نبيه إبراهيم بالحج إجابة الأبرار، ومناه بالمزية التي خصه بها في ملوك الأقطار، وأولى المراتب عباده والأخطار، كما رفع قدره على الأقدار وسجل له بسقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام عند الفخار، ينمي إليه أكرم التحيات تتأرج عن هذه الروضة المعطار عقب الأقطار، فعظم ما عظم الله من شعائر مثواه، وتلتمس البركة من أبواب مفاتحه، ولكل أمر بي ما نواه، وموجب حقه الذي يليق بمن البتول والوصي أبواه، المشيق إلى الوفادة عليه وإن نطله الدهر ولواه، فلان وبعده ما اقتضاه الوقت من شفاعة ووسيلة ووصية بمن التمس ذلك غير مهملة، إن شاء الله، ولا مضاعة.

وأما المدينة على ساكنها الصلاة والسلام

[١/١١٦] / فأميرها اليوم عطية بن منصور بن حسان بن قاسم بن مهنا بن داود بن قاسم بن عبد الله بن محسن بن الحسن بن جعفر بن عبد الله بن الحسن الأصغر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم.

أخبرنا بذلك الشيخ الشريف عبية ابن الشريف عفان بن يرجص بن عبيد أمير المدينة ابن قاسم بن حسان، هنا يلتقي مع أمير المدينة اليوم في النسب.

كان سلفه يقولون: إمارة المدينة مع سلف الأمير المذكور، وانزعج لأجل ذلك هذا الرجل عن المدينة، وهو فاضل، حسن السمت، ظاهر الهيئة، حافظ للرسم.

قدم على السلطان المقدس أمير المسلمين أبي فارس رحمه الله ورضي عنه، فأكرم وفادته وطالعه بمرسوم يشهد بصحة إتيانه، كتب عليه قاضي القضاة بالبلاد المصرية عز الدين أبي عمر عبد العزيز بن جماعة رحمه الله.

وقد كنت قبل الخروج عن الأندلس خاطبت أمير المدينة هذه المخاطبة صحبة رسالة وقصيدة بعثت بهما إلى الضريح الكريم النبوي زاده الله تقديساً وتكريماً وتشريفاً وتعظيماً قصد التبشر والتبرك نفع الله بذلك، وصدر الكتاب يعتمد:

الملك الأشرف الذي طاب بطيب بشره، وحل بإمارتها الشريفة أمره، وقرر في الآفاق شرفه وشرف قدره، وعظم بضريح سيد ولد آدم فخره الأمير الكذا ابن الأمير الكذا أبقاه الله تعالى منشرحاً بجوار روضة الجنة صدره متشرفاً بذلك الأفق الأعلى بدره، ذائعاً على الألسن في الأقطار البارحة حمده وثناه، مذرياً بشذا المسك الأذفر في الجمع الأوفر ذكره، تحية معظم بما عظم الله من دار الهجرة داره، ومطلع أبداره، للملتمس بركة آثاره، المتقرّب إلى الله بحبه وإيثاره.

والكتاب طويل، وفي هذا المقدار كفاية.

ومن القصيدة الموجهة صحبته لنجعلها في هذا الجزء مسك ختام وبركة سحائبها ذات انسجام:

دعاك بأقصى المغربين غريب ... وأنت على شحط المزار قريب
مُدل بأسباب الرجاء وطرفه ... غضيض على حكم الحياء مُريب
يكلف قرص البدر حمل تحيته ... إذا ما هوى والشمس حين تغيب
ويستودع الريح الشمال شمائلا ... من الحب لم يعلم بهن رقيب
ويطلب في جيب الجنوب جوابها ... إذا ما أظلت والصباح جنيب
/ ويستفهم الكف الخضيب ودمعه ... غراماً بحناء النجيع خضيب(١) [١١٦/ب]

ومنها بعد كثير:

أيا خاتم الرسل المكين مكانه ... حديث غريب الدار فيك غريب
فؤاد على جمر البعاد مقلب ... يماج عليه للدموع قليب
/ ....(٢) [١١٧/أ]

ومنها:

عليك صلاة اللّه يا طيب الفضا ... عليك مُطيل بالثناء مطيب
وما اهتز غصن للغصون مُرنح ... وما أفغر ثغر للبروق ثنيب

---

(١) ثم يسوق القصيدة وفي بعض أبياتها كلمات غير مقروءة، فيذكر بعد حوالي عشرين بيتاً قوله: ومنها بعد كثير: . . . فتركت الأبيات لكون الكتاب ليس لهذا الغرض ولسوء الخط، ثم أذكر بعض أبياتها كما فعل هو، والله الموفق.

(٢) تركت بعض الأبيات ثم أذكر البيتين الأخيرين لما فيهما من الختام بالصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ﷺ.

اختصرناها لتكررها في كثير من مصنفاتنا «ريحانة الكتاب» و«نجعة المنتاب»، وفي «المفاخر الطيبة في المفاخر الخطيبية». وفيما ذكرنا كفاية بحول الله.

تمَّ الجزء الأول من الكتاب المسمَّى

«أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام

وما يتعلق بذلك من الكلام»

وهذا الجزء هو المتضمن ما يخص من الغرض البلاد المشرقية إلى «برقة» حسبما بلغ إليه علمنا في الوقت بين خفيف ولفيف، وقوي من الكلام وضعيف، والعذر عن التقصير غير خفي، ويرفع للجناح لي من تعذر الكتب، بعد أن عاث في خزائنها الزمان، وتشتيت الفكر الذي اقتسمه الخوف والأمان، وكلال الجوارح بعد أن استرد قوة الشبيبة الرحمٰن.

وفي عشرين يوماً كان الفراغ من هذا الجزء من تبييض وتدوين، ونسخ وتكوين، وسداجة وتلوين، ترفع الكراسة لمشحنها والحبر رجراج، والمعين قلم وسراج، والمساعد انفراد، والمؤانس فكر وسهاد، من بغير تنقيح يستدري المغفل، أو تصحيح يفيد المهمل، حرصاً على تكميل غرض مستدعي جمعه، وتعجيلاً لإتحاف سمعه.

والحمد لله إن لم يشبه الإنسان إلاّ في كونه خلق من عجل، وعمر الأجل، وما سوى ذلك من خواصه الشريفة، ومزاياه المنيفة، في متاع مهجور، وحجر محجور، ومن عرف قدره فمثاب إن شاء الله ومأجور.

وحسبنا الله ونعيم الوكيل.

يتلوه إن شاء الله تعالى، الجزء الثاني،

ما يخص الأندلس ما بين بحر الرقاق إلى الثغر الأقصى

وذكر دولة بني أمية ومن بعدهم، والجزر الراجعة إلى الأندلس،

وتعاقب ملوك قشتاله، وليُون، وبرتغال، ومرجلوقة

فهرس المحتويات